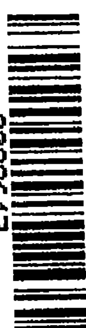
دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد ٨

ترجمة الدكتور سامي الدروبي





الجريمة والعقاب ١

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الثامن

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة ـ ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان ـ شارع فردان ـ بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ ـ هاتف: ٣٥٢٨٢٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك ـ ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

الجَريمَة والعِقابُ

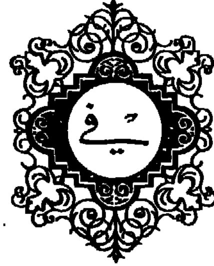
١

« الجريمة والعقاب » (Prestoupléniè i nakazaniè

ظهرت فى مجلة « الرسول الروسى » فى أعداد سنة ١٨٦٦ ، من كانون الثانى (يناير) الى كانون الأول (ديسمبر) ، المجلدات من ٦١ الى ٦٦ .

الجـــزء الأول

الفصل الأول



الأيام الأولى من شهر تموز (يوليو) ، أثناء حر شديد ، خرج شابٌ في نحو نهاية الأصيل ، خرج من الغرفة الصغيرة التي كان يسكنها في زقاق س ..* واتجه نحو جسر ك.. بطيء الخطى قلق الهيئة .

لقد أسعفه الحظ فأفلح أثناء هبوطه السلم أن يتحاشى لقاء صاحبة البيت التي يسكن عندها . ان الغرفة التي يسكنها الشاب تقع تحت السقف من منزل عال يتألف من أربعة طوابق * ، وهي أقرب الى جحر منها الى مسكن . وكانت صاحبة البيت التي تؤجره هذه الغرفة مع الطعام والخدمة تسكن هي نفسها في الطابق الأدنى ، فكان لا بد للشاب ، كلما خرج ، أن يمر حتماً أمام المطبخ الذي يظل بابه مفتوحاً على السلم دائماً . وكان الشاب يشعر في كل مرة أثناء مروره بضيق وحرج وانزعاج فيحس بالخجل والعار ، ويغدو قاتم النفس مظلم المزاج .

وليس مرد ذلك الى أنه جبان رعديد ، أو الى أنه مروَّع مذعور ، بالعكس ... ولكنه يعاني منذ بعض الوقت حالةً من التوتر والعصبية توشك أن تكون مرض الكآبة . لقد بلغت حياته من الاعتزال ومن فرط الانطواء على النفس أنه يخشى لقاء أي انسان ، لا لقاءَ صاحبة البيت

فحسب • كان يعيش في فقر مدقع ، وبؤس شديد ، ولكن العوز نفسه أصبح فى هذه الآونة الأخيرة لا يثقل عليه • أصبح الشاب لا يهتم بشئونه ولا يريد أن يهتم بها • والواقع أن صاحبة البيت كانت لا تخيفه ، مهما تكن المكائد التي تدبرها له • ولكن الوقوف على فسحة السلم ، والاصغاء الى ثرثرات سخيفة شتى عن ترهات لا تعنيه في قليل ولا كثير ، واحتمال التذكير الدائم المستمر ، الذى تصحبه تهديدات وشكاوى ، بضرورة مبادرته الى دفع الأجرة ، واضطراره الى اختلاق الحيل وانتحال الاعذار وتلفيق الأكاذيب ••• ولكن ذلك كله أصبح من الأمور التي لا يمكن أن يطيقها ، فهو يؤثر عليها أن يتسلل على السلم تسلل هرة ، وأن يفرّ دون أن يراه أحد •

على أن الخوف الذى شعر به هذه المرة من تصور أن دائنته قد تراه ، أدهشه هو نفسه منذ أصبح فى الشارع •

حدّث نفسه يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة : « أأفكر فى الاقدام على عمل مثل «ذلك» العمل، ثم أشعر بخوف لأمر تافه هذه التفاهة ؟ نعم، ان كل شيء موجود بين يدى الانسان، ومع ذلك يدع الانسان لكلشيء أن يمر تحت أنفه ••• وما ذلك الا أن الانسان جبان •• نعم ، هذه بديهية•• انه لمن الشائق أن نعرف ما الذى يخافه البشر أكثر مايخافون ••• ألا ان ما يخافه البشر أكثر ما يخافون هو أن يتقدموا خطوة الى أمام ، هو أن يقولوا كلمة شخصية • على أننى أسرف فى الثرثرة كثيراً • واذا كنت لا أعمل شيئاً ، فلأننى أثرثر ••• أو قل على نحو أصح وأدق : اذا كنت أثرثر فلأننى لا أفعل شيئاً • ومع ذلك فأنا فى هذه الأشهر الأخيرة انما تعلمت الثرثرة قابعاً فى ركنى أفكر ••• أفكر فى كل شيء ولا أفكر فى شيء • مثلاً : فيم أذهب الآن الى هناك ؟ أأنا قادر على أن أفعل « ذلك الأمر » ؟ هل « ذلك الأمر » جد حقاً ؟ لا ••• ما هو بالجد

البتـة ! وانما هو نزوة خيـال لا أكثر ! انني « أدغدغ » نفسي ملتمسـاً تسلية . نعم ، أعتقد اعتقاداً جازماً بأنني ألتمس لنفسي تسلية ... » .

الحر في الشارع ما يزال مرهقاً . يضاف الى ذلك نقصُ الهواء ، والصخب ، والكلس المنتشر في كل مكان ، والسـقالات ، والآجـر ، والغبار ، ثم ذلك النتن الصيفي الخاص الذي يعرفه كل ساكن من سكان بطرسبرج لا تتيح له موارده أن يستأجر « فيللا » . ان اجتماع ذلك كله قد أثار أعصاب الشاب الذي كانت أعصابه مهتزة من قبل فاورثه مزيداً من الضيق . وهذه روائح كريهة تنشرها بقايا اسـماك ، وهؤلاء سكارى يلقاهم المرء عند كل خطوة رغم أن اليوم ليس يوم الأحد بل هو يوم من أيام الأسـبوع ، فتصطبغ اللوحة بلون حزين منفّر . ان شـعوراً عميقاً بالاشمئزاز يرتسم على القسمات الدقيقة من وجه الشاب . والشاب حسن الصورة وسيم الطلعة ، له عينان دكناوان رائعتان ، وشعر أشـقر ضارب الى لون كلون الرماد ، وقامة فوق الوسط طولاً ، نحيلة ممشوقة . ولكنه لا يلبث أن يبدو عليه الاسترسال العميق في الأحلام ، أو قل الانحدار الى نوع من الخدر . وظل يسير لا يرى من حوله شيئاً ، ولا يرغب في أن يرى أي شيء . كل ما هنـالك أنه كان ، بين الفينة والفينـة ، يستأنف محاورة نفسـه ، جـرياً على عـادة وعاها الآن . وأدرك في تلك اللحظة نفسـها أن خـواطره وأفكاره تختلط وتضطرب من حين الى حين ، وأنه ضعيف جداً : انه لم يكد يطعم شيئاً منذ يومين .

وكان يرتدي ثياباً تبلغ من الرثاثة أن شخصاً آخر غيره كان لا بد أن يشعر بضيق وحرج ، مهما تكن عاداته المكتسبة ، اذا هو خرج في وضح النهار بمثل تلك الأسمال . الحق أن هذا الحيّ ليس من الأحياء التي يمكن أن يستغرب فيها الناس منظر رداء . ان هذا المكان القريب من « سوق العلف » * ، الذي تكثر فيه محالُّ من نوع خاص ، والذي يتألف سكانه

من صُنَّاع وعُمَّال متكدسين فى هذه الشـوارع والأزقة من مركز بطرسبرج ، يشتمل على تنوع كبير فى الأفراد يُستغرب معه أن يُدهش أحد من شخص متفرد بعض التفرد • على أن نفس الشاب قد بلغت من فرط الامتلاء بالاحتقار الكاره أنه رغم ما يتصف به طبعه من شدة التاذى الذى يذكّر أحياناً بالأطفال الصغار ، كان لا يشعر بخجل كثير من عرض أسماله البالية فى الشارع • ولا كذلك اذا هو التقى بأشخاص يعرفهم أو برفاق قدامى لا يحب على وجه العموم أن يختلف اليهم •••

ومع ذلك حين أعـول سـكّير كان مقـوداً (لا ندرى الى أين ولا لماذا) فى عربة كبيرة يجرها حصان قوى ، حين أعول هذا السـكير على حين فجأة قائلاً بصوت مجلجل وهو يومىء اليه بيده : « هيه ، أنت يا صاحب القبعة الألمانى ! » ، فان الشاب توقف بغتةً ، وقبض على قبعتـه بحركة عصبية • هى قبعـة عالية مشـتراه من عند تسيمرمان * لكنها قد اهترأت اهتراءً تاماً ، واحمـرّ لونها ، وغشيتها البقع وثقبتها الثقـوب وزالت حافتها وانطوى أحـد طرفيها حتى صـار زاوية بشـعة كريهة • على أن الشاب لم يشعر بخجل ، وانما استولت عليه عاطفة أخرى تشبه الهلع •

ودمدم يخاطب نفسه مضطرباً : « كنت أعرف هذا حق المعرفة •• قدّرته من قبل !••• ذلك أسوأ ما فى الأمر ! تكفى ترهة سخيفة من هذا النـوع ، يكفى أمر تافه كهذا ، حتى يتعـرض كل شىء للخطر ! نعم ، ان هذه القبعة صارخة ••• هى مضحكة ، وهى لذلك صارخة ••• ما دمت أرتدى هذه الأسـمال البـالية فلا بد لى من قلنســوة ، او من أية طاقية عتيقـة • أما هذه القبعـة القطيعة فلا !••• ما من أحـد يلبس قبعـة كهذه القبعـة • أنهـا تُرى من مسـافة فرسخ كامل ••• ومن



راسکولنیکوف

رآها مرةً يتذكرها ولا ينساها ••• يتذكرها فى المستقبل ••• فتكون هى الدليل القاطع ••• اننى أحتاج الآن الى أن لا ينتبه الىَّ أحد ! ان الأشياء الصغيرة ، ان الأشياء الصغيرة هى التى لها أكبر شأن وأعظم خطر !••• هذه هى الحقيقة ، ان أشياء صغيرة كهذه القبعة هى التى تفسد كل شيء فى آخر الأمر دائماً ••• » •

لم يكن طريقه طويلاً ، حتى لقد كان يعرف عدد الخطوات التى يجب أن يقطعها منذ يجتاز باب منزله : انها سبعمائة وثلاثون خطوة تماماً • لقد عدَّ هذه الخطوات ذات يوم من الأيام بعد أن أفرط فى الاستسلام لأحلامه •

فى ذلك الأوان لم يكن يصدِّق بعدُ أن هذه الأحلام واقعة ، وانما كان يروِّح عن نفسه بما تشتمل عليه تلك الأحلام من جرأة دنيئة فتانة فى آن واحد • أما الآن ، بعد انقضاء شهر على ذلك الأوان ، فقد أخذ يرى الأمور رؤية مختلفة ؛ ورغم جميع المحاورات المحنقة التى كانت تجرى بينه وبين نفسه ، والتى كان فى أثنائها يعيب على نفسه ضعفه وتردده ، فانه قد اعتاد ، رغم ارادته تقريباً ، أن ينظر الى هذا « الحلم الدنيء » نظرته الى مشروع عليه أن ينفذه ، دون أن يزداد من ذلك ثقة بنفسه على كل حال • وهو الآن ذاهب لاجراء « تمرين » على ذلك الفعل الدنيء ، فاضطرابه يزداد قوة عند كل خطوة •

وفيما هو منهار القلب تسرى فى جسمه رعدة عصبية ، اقترب من مبنى ضخم يطل من احدى جهتيه على القناة ويطل من الجهة الأخرى على شارع س ••• ؟ ان هذا المنزل ، المقسَّم الى مساكن صغيرة ، يسكنه أناس من جميع الأنواع : خياطون ، وقفَّالون ، وطباخون ، وألمان مختلفون ، وشابات يعشن من جمالهن ، وموظفون صغار ، وهلمَّ جرا ••• ان الذهاب والأياب تحت قوسى مدخليه الكبيرين ، وفى فناءيه الواسعين ،

لا ينقطعان . وثمة بوابون ثلاثة أو أربعة يتولون أمره . فما كان أشدَّ سرور الفتى حين لم يلتق بأحد منهم. فلما اجتاز المدخل تسلل الى السلَّم الأيمن دون أن يراه أحد . ان هذا السلَّم ضيق ، مظلم ، « أسود » ، ولكن الشاب يعرفه فقد سبق أن درسه ؟ ثم ان هذا الجو يعجب الفتى ويرضيه ، فهو فى ظلام كهذا الظلام لايخشى أن تقع عليه نظرة مستطلعة. ومع ذلك قال الفتى لنفسه رغم ارادته حين وصل الى الطابق الثالث : « اذا كنت أشعر الآن بهذا الخوف كله ، فبماذا يمكن أن أشعر اذا اتفق أن مضيت الى « آخر الشوط » ؟ ... وهناك كانت تسدُّ طريقه صناديق وجنود سابقون كانوا يخلون أحد المساكن من أثاثه . كان الفتى يعرف من قبل أن موظفاً ألمانياً هو رب أسرة كان يقيم فى هذا المسكن حتى ذلك الحين . فقال لنفسه أيضاً قبل أن يقرع باب المرأة العجوز : « ان هذا الألمانى ذاهب اذن الآن » فلا يبقى على الفسحة الثالثة من السلَّم ، خلال فترة من الوقت ، الا مسكن واحد مشغول هو مسكن المرأة العجوز . ذلك أمر تسرُّ معرفته ... حين تأزف الساعة » . ورنَّ الجرس رنيناً ضعيفاً كأنه من حديد أبيض لا من نحاس . ان الأجراس تكون دائماً من هذا النوع فى المساكن الصغيرة التى تتألف منها عمارة من هذا الطراز. وكان الشاب قد نسى صوت ذلك الجرس ، فاذا هو يحس هذا الصوت الآن تذكيراً مباغتاً بشىء تخيله واضحاً ... فارتعد . كان أعصابه فى هذه المرة منهكة . وبعد دقيقة شُقَّ الباب شقاً ضيقاً ، وأخذت ساكنة البيت تتفحص القادم الجديد ، من خلال هذا الشق ، بشك واضح وارتياب ظاهر . ان المرء لا يرى ، فى هذا الظلام ، الا عينيها الملتمعتين . ولكنها حين أبصرت على فسحة السلم ناساً كثيرين اطمأنت ففتحت الباب فتحاً كاملاً . اجتاز الفتى العتبة ، وولج حجرة المدخل التى يقطعها حاجز جُعل ما وراءه مطبخاً صغيراً . وقفت العجوز قبالته صامتة تحدجه بنظرة

سائلة . هي امرأة عجوز قصيرة جداً نحيلة جداً ، في نحو الستين من العمر ، لها عينان حادتان شريرتان ، وأنف صغير مدبب . وكانت حاسرة الرأس ، فشعرها المكبب الأشيب يلتمع ببريق الزيت . وحول عنقها الطويل النحيل الذي يشبه ساق دجاجة ، كانت تلتف خرق مبهمة من قماش « الفلانيل » ، وعلى كتفيها يتدلى ، رغم الحر الشديد ، فراء قد اصفر لونه وتنسل وبره . وكانت العجوز تسعل وتخرج البلغم من حلقها في كل لحظة . وأغلب الظن أن الفتى ألقى عليها نظرة خاصة ، لأن الشك والارتياب عادا يظهران في عينيها .

تذكر الفتى فجأة أن عليه أن يكون لطيفاً ودوداً ، فأسرع يدمدم قائلاً للتعريف بنفسه وهو ينحني نصفين :

ـ راسكولنيكوف * ، طالب . جئت اليك في الشهر الماضي ...

فقاطعته العجوز تقول بصوت واضح متميز دون أن تحول نظرتها السائلة عن وجهه :

ـ أتذكر يا بني ، أتذكر جيداً أنك جئت ...

فتابع راسكولنيكوف كلامه وقد ساوره شيء من الدهشة والاضطراب حين لاحظ شك العجوز وارتيابها :

ـ فهأنا ذا أجيء اليك مرة أخرى ... لأمر صغير من ذلك النوع نفسه ...

وحدث نفسه قائلاً وهو يشعر بضيق : « الحقيقة أنها ربما كانت هكذا دائماً ، ولكنني لم ألاحظ ذلك في المرة الماضية ! » .

وصمتت العجوز كأنما لتفكر ، ثم تنحت قليلاً ، وقالت للزائر وهي تدله على باب الغرفة وتتضاءل أمامه :

ـ تفضل ادخل يا بني !

دخل الشاب غرفة صغيرة مفروشة الجدران بورق أصفر ، فيها أزهار جيرانيوم ، ولنوافذها ستائر من قماش الموسلين • وكانت الغرفة في تلك اللحظة تضيئها أشعة الشمس الغاربة بنور ساطع • قال الفتى يحدث نفسه : « ماذا ؟ هل ستسطع الشمس اذن هذا السطوع « حينذاك » ؟ لقد اخترقت هذه الفكرة ذهن راسكولنيكوف على غير علم منه ، فاذا هو يلف الغرفة كلها بنظرة سريعة ليدرس ترتيبها وليحفظه في ذاكرته ان أمكن ذلك • ولكن هذه الغرفة لا تتميز كثيراً بصفات خاصة • ان أثاثها المصنوع من خشب أبيض على طراز عتيق ، يتألف من أريكة ذات مسند ضخم له أقواس ، ومنضدة بيضاوية الشكل موضوعة أمام الأريكة ، وكراسيّ مصفوفة على طول الجدران ، ولوحتين أو ثلاث لوحات لا قيمة لها ، موضوعة في أطر مصفرّة ، تمثل آنسات ألمانيات في أيديهن طيور • ذلك هو الأثاث كله • وفي ركن من الأركان ، أمام أيقونة صغيرة ، كان يسطع سراج صغير • والمكان كله تسوده نظافة قصوى • فالأثاث وأرض الغرفة قد دُلكت بالشمع فهي تلمع • قال الفتى يحدث نفسه : « هذا من عمل اليزابت ! » • ما كان لأحد أن يستطيع العثور على ذرة غبار واحدة في المسكن كله • عاد راسكولنيكوف يحدث نفسه فقال : « لا يجد المرء نظافة كهذه النظافة الا عند الأرامل العجائز الشريرات » • قال ذلك والتفت ببصره خلسةً يستطلع ستارة من قماش تحجب باباً يصل هذه الغرفة بغرفة أخرى فيها سرير العجوز وخزائنها وهي غرفة لم يسبق له أن دخلها قط • ان المسكن كله لا يضم الا هاتين الغرفتين •

سألته العجوز القصيرة وهي تدخل الغرفة بعده وتقف مرة أخرى أمامه لتتفحصه وجهاً لوجه :

ـ ما هي الخدمة التي أستطيع أن أقدمها اليك ؟

قال الفتى :

ـ جئتك بشيء أريد أن أرهنه . هوذا ...

قال ذلك وأخرج من جيبه ساعة عتيقة مصنوعة من فضة ، رُسمت على غطائها الكرة الأرضية ، ولها سلسلة من فولاذ .

قالت المرأة العجوز :

ـ ولكن مدة رهنك الأول قد انتهت . انقضى على الرهن الأول شهر منذ ثلاثة أيام .

ـ سأدفع لك الفائدة عن شهر آخر . اصبري عليّ .

قالت :

ـ أنا التي أقرر أأصبر أم أبيع الرهن الآن . هذا شأني أنا يابني.

ـ هل تقرضينني مبلغاً كبيراً على رهن هذه الساعة يا أليونا ايفانوفنا ؟ * .

ـ انك تجيئني دائماً باشياء صغيرة تافهة ليس لها قيمة البتة ... لقد أقرضتك في المرة الماضية روبلين على رهن خاتمك ، مع أن في امكان اى انسان أن يشتري من عند الصائغ خاتماً جديداً من نوعه بروبل ونصف روبل .

ـ أقرضيني أربعة روبلات على رهن الساعة . سأفكها قريباً ... ورثتها عن أبي . وسيصلني مبلغ من المال بعد مدة قصيرة .

ـ أقرضك على رهنها روبلاً ونصفاً ، والفائدة تُدفع سلفاً .

صاح الفتى متعجباً :

ـ روبلاً ونصفاً ؟

ـ لا مساومة • اما أن تقبل واما أن ترفض •

قالت العجوز ذلك ومدّت اليه الساعة ، فتناولها الفتى غاضباً حتى لقد همّ أن ينصرف • ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك اذ تذكر أنه جاء لغرض آخر أيضاً •

قال بلهجة خشنة :

ـ هاتي !

فدست العجوز يدها في جيبها لتخرج مفاتيحها ، ومضت الى الغرفه الأخرى وراء الستارة • فلما أصبح الفتى وحيداً وسط الغرفة ، أصاخ بسمعه مستطلعاً ، وأطلق العنان لخياله • سمعها تفتح الخزانة • قال يحدث نفسه : « أغلب الظن أنه الدُرْج الأعلى ••• هي تحمل مفاتيحها اذن في الجيب الأيمن ••• والمفاتيح كلها كتلة واحدة تضمها حلقة من فولاذ ••• وبين المفاتيح مفتاح مسنّن الرأس أكبر من سائرها ثلاث مرات ، ولكن من الواضح أنه ليس مفتاح الخزانة ••• اذن هناك أيضاً سحارة أو صندوق ••• هذا أمر هام • ان لجميع الصناديق مفاتيح من هذا النوع ••• على كل حال ، هذا كله كريه بشع ••• » •

وعادت العجوز •

ـ خذ يا بني • اذا كانت الفائدة عشرة كوبيكات عن كل روبل في الشهر تُقتطع سلفاً ، فان الفائدة عن روبل ونصف روبل تكون خمسة عشر كوبكاً • يضاف الى ذلك عشرون كوبكاً عن الروبلين اللذين اقترضتهما في المرة الماضية على أساس تلك الفائدة نفسها ، فيكون مجموع ما يجب اقتطاعه خمسة وثلاثين كوبكاً ، فيبقى لك عن رهن الساعة روبل وخمسة وعشر كوبكاً • اليك المبلغ •

ـ كيف ؟ ألا يبقى لى الا روبل وخمسة عشر كوبكاً ؟

ـ تماماً .

لم يناقشها الفتى ، وتناول المال. وكان ينظر الى العجوز ولايستعجل الخروج ، كانما كان يريد أن يقول شيئاً ، أو أن يفعل شيئاً ، دون أن يدرى ما هو هذا الشيء على وجه الدقة .

وقال لها أخيراً :

ـ ربما جئتك بشيء آخر فى الأيام القليلة القادمة يا أليونا ايفانوفنا ... هو شيء من فضة ... شيء ذو قيمة ... علبة سجائر ... نعم ، سأجيئك بعلبة سجائر متى ردّها الىّ صديق لى ...

واضطرب الفتى وصمت .

فقالت العجوز :

ـ طيب يا بنى ... سنتكلم فى الأمر فى حينه .

قال لها الفتى بلهجة منطلقة على قدر المستطاع ، وهو يتجه نحو حجرة المدخل :

ـ أستودعك الله ... أأنت اذن وحيدة فى البيت دائماً دون أن تكون أختك معك ؟

ـ فيم يعنيك هذا يا بنى ؟

ـ لا يعنينى فى شيء ... ألقيت السؤال هكذا ... دون هدف... فاذا أنت ، على الفور ... استودعك الله يا أليونا ايفانوفنا .

خرج راسكولنيكوف وهو فريسة اضطراب عميق ما ينفك يزداد ، حتى توقف عدة مرات مذهولاً أثناء هبوطه السلّم . فلما صار فى الشارع آخر الأمر هتف يقول :



العجوز المرابية

« آه ... رباه ! ما أبشع هذا كله ! هل يمكنني ، هل يمكنني حقاً أن ... » .

ثم أضاف يقول بافتناع :

« لا ... هذه حماقة ... هذه سخافه ... هل يمكن حقاً أن تكون فكرة شيطانيه كهذه الفكرة قد ساورت ذهني ؟ ما أقذر ما في قلبي اذن من وحل ! ثم ان هذا كله وسخ جداً ، مقزز جداً ، قذر جداً ! كيف أمكنني ، خلال شهر بكامله ، أن ... » .

ولكن الفتى لم يجد الكلمات ولا هتافات التعجب التي كان يمكن أن تعبر عن حالته العصبية الرهيبة . ان الاحساس بالاشمئزاز الذي لا نهاية له والذي كان قد بدأ يجثمُ على صدره ويقبض قلبه ويخنقه خنقاً أثناء ذهابه الى مسكن العجوز قد بلغ الآن أبعاداً عظيمة وأخذ يتجلى بعنف شديد حتى صار الفتى لا يعرف كيف يتخلص من هذه النازلة التي ألمت به وهذا الحـزن الذي عصف بقلبه . كان يمشي على الرصيف كالسكران لا يلاحظ حتى المارة الذين كان يصطدم بهم . ولم يثب الى رشده الا في الشارع التالي . فلما نظر حواليه لاحظ أنه أمام خمارة ينزل اليها النازل على سلَّم يؤدي من الرصيف الى القبو .

وفي تلك اللحظة نفسها كان يخرج من الخمارة سكرانان يسند كل منهما الآخر ، ويتبادلان الشتائم أثناء صعودهما السلَّم . فلم يلبث راسكولنيكوف أن هبط الى الخمارة دون تردد . لم يسبق له أن دخل خمارة في يوم من الأيام ، ولكنه يشعر الآن بدوار في رأسه ؛ كما أن ظمأً لا يطاق كان يعذّبه . اشتهى أن يشرب بيرة باردة ، لا سيما وأنه كان يعزو ضعفه الى الجوع أيضاً . جلس في ركن مظلم قذر امام مائدة صغيرة متسخة بالدهن ، وطلب بيرة فشرب كأساً أولى بشراهة ، فلم يلبث أن

شعر بشيء من التخفف والراحة ، وأصبحت أفكاره أوضح . قال لنفسه وقد ارتد اليه الأمل : « ذلك كله سخافات ! لا داعي الى القلق ! هو انزعاج جسمي لا أكثر ! فما ان يشرب المرء كأساً من بيرة وما ان يأكل قطعة من بسكويت حتى يشتد فكره ويقوى ذهنه وتتضح أفكاره وتترسخ عزيمته . أوه ! ذلك كله باطل !... » . ولكن رغم بادرة الاستخفاف هذه ، كان راسكولنيكوف كمن تحرر الآن فجأة من حمل ثقيل : ها هو ذا شيء من فرح يتجلى منذ الآن في نظرته التي أخذت تطوف على الحضور بمودة وصداقة . ومع ذلك أحس ، حتى في تلك الدقيقة ، احساساً غامضاً بأن حالة التفاؤل التي صارت اليها نفسه حالة مرضية هي أيضاً .

لم يبق في الخمارة في تلك الساعة الا عدد قليل من الناس . فبعد السكرانين اللذين التقى بهما على السلَّم خرجت من الخمارة ، دفعةً واحدةً ، عصبةٌ تتألف من خمسة شبان يجرون فتاة ومعهم أكورديون. فما ان انصرفوا حتى عاد الهدوء الى الخمارة ، فأصبح المرء يحس بحرية أكبر . لم يبق في القاعة الا شخص ثمل بعض الثمل ، جالسٌ أمام مائدته ، أغلب الظن أنه بائع ، ومعه رفيقه وهو رجل طويل سمين له لحية شائبة كان قد بلغ السكر منه كل مبلغ ، فهو غافٍ فوق دكة ، وهو يأخذ يصفق بأصابعه من حين الى حين كأنه يخرج من نومه على حين بغتة ، ويأخذ يباعد ذراعيه ، ويرجِّح القسم الأسفل من جسمه، دون ان ينهض عن الدكة ، مدمدماً بكلام سخيف ، محاولاً أن يتذكر ابياتاً من الشعر من هذا النوع :

لاعبت زوجتي طوال السنة

لا .. عبت زوجتي طوا .. ل السنة

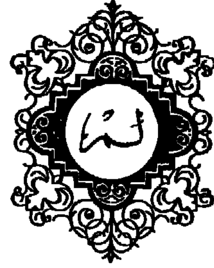
أو قائلاً بعد أن يستيقظ من جديد :

حين مررت بشارع بودياتشكايا *

التقيت بصديقتي القديمة الطيبة

ولكن لم يكن يشاركه أحد سعادته • حتى لقد كان رفيقه الصموت يرد على هذه الانفجارات باتخاذ وضع عدائي ريَّاب • وكان هنالك رجل ثالث يدل مظهره على أنه موظف صغير محال على التقاعد • كان هذا الرجل منزوياً أمام كأسه يشرب من حين الى حين ، ويطوف ببصره على ما حوله ، وكان يبدو عليه أنه يعاني هو أيضاً حالة عصبية •

الفصل الثاني



يكن راسكولنيكوف معتاداً صحبة الناس ، وكان كما سبق أن قلنا يتحاشى كل مجتمع ، ولاسيما منذ فترة من الوقت . غير أن شيئاً كان يجذبه الآن الى البشر على حين فجأة ، فكأن انقلاباً قد حدث في نفسه ؛ وكان يشعر في الوقت ذاته بشيء من الظمأ الى عقد الصلات بينه وبين أقرانه . ان ذلك الشهر الذي قضاه في قلق محموم وغم ثقيل واهتياج كالح قد بلغ من استنفاد قواه أنه يتوق الآن الى استرداد أنفاسه ولو لحظةً من الزمن ، في عالم آخر ، في أي عالم آخر . لذلك شعر من بقائه الآن في الخمارة بلذة كبيرة رغم رداءة المكان .

وكان صاحب الخمارة يجلس في غرفة مجاورة ، ولكنه يظهر في القاعة الرئيسية مرةً بعد مرة . وكان يصل الى هذه القاعة هابطاً بضع درجات ، فكان الجالس في هذه القاعة يرى ، أول ما يرى ، جزمتيه الملمّعتين اللتين لهما حافتان مقلوبتان حمراوان . وكان لا يضع رباط عنق ، ولكن ردنجوته يسفر عن صديرة سوداء من قماش الساتان قد بلغت من الاتساخ حداً رهيباً . أما وجهه فكان يلتمع من الدهن التماع قفل مزّيت . ووراء البسطة كان يجلس صبي في نحو الرابعة عشرة من العمر . وكان هنالك صبي آخر أصغر سناً ، يخدم الزبائن . وعلى

البسطة كانت تُعرض دوائر خيار ، وبسكويت أسود ، وشرائح سمك، وكان ذلك كله ينشر رائحة كريهة . الجو خانق لا يكاد يُطاق ، والهواء يبلغ من التشبع برائحة الخمرة أنه يكفي أن يمكث المرء فيه خمس دقائق حتى يسكر .

يتفق للمرء أحياناً أن يلقى أناساً لا يعرفهم البتة فاذا هو يأخذ يهتم بهم منذ أول نظرة قبل أن يبادلهم كلمةً واحدة . ذلك كان هو الاحساس الذى أحدثه فى راسكولنيكوف الزبون المنزوى الذى يدل مظهره على أنه موظف متقاعد . تذكر الفتى مراراً كثيرة ، فيما بعد ، ذلك الاحساس الأول ، حتى لقد عزاه الى نوعٍ من النبوءة . كان راسكولنيكوف لا يحوّل بصره عن الموظف ، ولعل مردّ ذلك أيضاً الى أن هذا الموظف كان يلح فى النظر الى راسكولنيكوف ، وكأنه راغب رغبة قوية فى عقد حديث معه . أما الأشخاص الحاضرون الأخر ، ومنهم صاحب الخمارة ، فقد كان الموظف ينظر اليهم نظرة جليس من جلساء الخمارة المزمنين، مع ضجر منهم ومع شيء من الاحتقار لهم والتعالى عليهم فى الوقت نفسه ، كأنه يعدهم أدنى كثيراً منه ، سواء من ناحية منزلتهم الاجتماعية أو من ناحية ثقافتهم وأدبهم ، فليس عليه أن يكلمهم. هو رجل تجاوز الخمسين من عمره ، متوسط القامة قوى البنية ، على راسه الأصلع قليل من شعر أبيض ، له وجه أصفر أو قل ضارب الى خضرة ، قد ورّمه الشراب ، تسطع فيه تحت جفنين منتفخين عينان صغيرتان محمرّتان حادتان . ومع ذلك كان فى هذا الوجه شيء غريب جداً . ان نظرته تلتمع بنوع من الحماسة لا تخلو خلواً مطلقاً من ذكاء وفكر ؛ ولكن تلم بها ومضات جنون فى بعض الأحيان . وكان يرتدى «فراكاً» عتيقاً رثاً قد سقطت ازراره ، الا زراً واحداً ما يزال فى مكانه مهلهلاً يوشك أن يسقط ، ولكن الرجل قد أدخله فى العروة حتى لا يجافى آداب

اللياقة، ومن صديرته المصنوعة من جوخ أصفر كانت تخرج حافة قميص مجعَّدة متسخة ملطخة . وكان حليق الذقن ، كما يليق بموظف ، ولكن كان واضحاً أنه لم يكرر حلاقة ذقنه منذ مدة طويلة ، فشعرها القاسي قد أخذ يزرِّق خديه . هذا عدا أن وضعه يكشف عن شيء من وقار هو ما يتميز به موظف من الموظفين . ولكنه كان يظهر قلقاً شديداً ، وينفش شعره ، ويضغط رأسه بيديه حزيناً يائساً ، واضعاً كوعي كميه المثقوبين على المائدة الرطبة اللزجة . وفي النهاية نظر الى راسكولنيكوف محدقاً في عينيه ، وقال يخاطبه بصوت عال ثابت :

ـ هل أجرؤ ، أيها السيد العزيز ، أن أوجه اليك بضع كلمات باحترام ؟ فان تجربتي تكشف فيك ، رغم مظهرك البسيط المتواضع ، عن انسان حسنت ثقافته ، ولم يألف أن يشرب . لقد كنت طوال حياتي احترم الثقافة حين تقترن بعواطف القلب . وأنا عدا ذلك أحمل لقب مستشار . اسمي مارميلادوف ، ولقبي مستشار * . أأجرؤ أن أسألك هل أنت موظف ؟

أجابه الفتى وقد أدهشته هذه اللهجة المتفخة في كلام الرجل ، وأدهشه أن يخاطَب عن عمد على هذا النحو :

ـ بل أنا أتابع دراستي .

وشعر راسكولنيكوف ، رغم ما أحسَّه منذ قليل من رغبة في صحبة أي انسان ، شعر فجأة منذ الكلمات الأولى التي خاطبه بها الرجل ، بذلك النفور الأليم الذي كان يشعر به كلما قاربه انسان مجهول أو حاول أن يقاربه .

ـ أنت اذن طالب ، أو طالب سابق ... ذلك ما قدَّرته ! هي التجربة يا سيدي العزيز ، تجربة طويلة متصلة !

ومن أجل أن يعبّر عن احترامه لنفاذ بصيرته وسداد حكمه ، وضع اصبعاً على جبهته .

وأردف يقول :

ـ لقد كنتَ طالباً ، الا أن تكون قد حضرت عدداً محدوداً من الدروس فحسب ... ولكن اسمح لى ...

ونهض مترنحاً ، فتناول زجاجته وقدحه وجاء يجلس قرب راسكولنيكوف موارباً قليلاً . لقد كان سكران . ولكنه يتكلم بوضوح وثقة . كل ما هنالك أنه يرتبك من حين الى حين ، فيبطؤ تدفق كلامه . لقد هجم على راسكولنيكوف هجوماً يبلغ من الشراهه أن من يراه يعتقد أنه لم يكلم أحداً منذ شهر كامل هو أيضاً .

بدأ يقول بلهجة توشك أن تكون ذات أبهة :

ـ أيها السيد العزيز ، ليس الفقر رذيلة ؟ ولا الادمان على السكر فضيلة ، أنا أعرف ذلك أيضاً . ولكن البؤس رذيلة أيها السيد العزيز ، البؤس رذيلة . يستطيع المرء فى الفقر أن يظل محافظاً على نبل عواطفه الفطرية ، أما فى البؤس فلا يستطيع ذلك يوماً ، وما من أحد يستطيعه قط . اذا كنت فى البؤس فانك لا تُطرد من مجتمع البشر ضرباً بالعصا ، بل تُطرد منه ضرباً بالمكنسة ، بغية اذلالك مزيداً من الاذلال . والناس على حق فى ذلك ، لأنك فى البؤس أول من يريد هذا الذل لنفسه بنفسه . وهذا سبب ادمانك على الشراب ! أيها السيد العزيز ، منذ شهر ، ضرب السيد ليبزياتنيكوف زوجتى ، وزوجتى تختلف عنى اختلافاً كبيراً ! هل تفهم ؟ اسمح لى أيضاً أن ألقى عليك سؤالاً ، هكذا ، ولو من باب الفضول : هل حدث لك أن قضيت الليل فى مركب علف على نهر نيفا ؟



مارميلادوف

أجاب راسكولنيكوف

ـ لا ••• لم يحدث لى هذا ••• ماذا تريد أن تقول ؟

ـ أما أنا فاتنى آتٍ من هناك ، من مركب العلف ••• وهذه هى الليلة الخامسة •

قال الرجل ذلك وصبَّ قدحاً ثم أفرغه فى جوفه وأخذ يفكر •

وكان يُرى فعلاً ، هنا وهناك ، على ملابسه ، وحتى على شعره ، تبنٌ ما يزال عالقاً • أغلب الظن لم يخلع ملابسه ولا غسل وجهه منذ خمسة أيام • وكانت يداه خاصةً قذرتين وسختين حمراوين طويلة أظافرهما •

ويبدو أن كلامه قد ايقظ فى نفوس الحضور اهتماماً عاماً ، وان يكن هذا الاهتمام ممتزجاً بالاهمال • أخذ الصبيَّان ، من وراء البسطة ، يضحكان • ونزل صاحب الخمارة من الطابق الأعلى خصيصاً ، من أجل أن يستمع للرجل « المازح » ، فجلس منزوياً بعض الانزواء ، وأخذ يتثاءب فى كسل ، ولكن بكثير من الوقار والكبرياء • لا شك أن مارميلادوف معروف هنا منذ زمن طويل • وأغلب الظن من جهة أخرى أنه قد اعتاد حب الكلام المزوَّق فى أعقاب أحاديث ألف أن يجريها فى الخمارة مع أناس لا يعرفهم • ان هذه العادة تغدو حاجة قوية لدى بعض السكّيرين ، ولا سيما لدى أولئك الذين يعامَلون فى بيوتهم معاملة خشنة • لذلك تراهم يحاولون متى سكروا فى صحبة الناس أن يدافعوا عن أنفسهم بخطب ، وأن يكسبوا اعتبار الآخرين اذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً •

قال صاحب الخمارة بصوت عالٍ :

ـ ما أنت الا مازح ! لماذا لا تعمل ؟ ولماذا لا تواظب على عملك ما دمت موظفاً ؟

أجاب مارميلادوف يقول مخاطباً راسكولنيكوف وحده ، كأن راسكولنيكوف هو الذى ألقى السؤال :

ـ لماذا لا أواظب على عملى أيها السيد العزيز ؟ لماذا لا أواظب على عملى ؟ ولكن هل تظن أن قلبى لا يتألم لمنظر خستى ، هل تظن أن قلبى لا يتألم حين أرى أننى امرؤ لا نفع فيه ولا جدوى منه ؟ حين حدث منذ شهر أن ضرب السيد ليبزياتنيكوف زوجتى ، وكنت أنا راقداً كالميت من فرط السكر ، هل تظن أننى لم أتألم ؟ اسمح لى أيها الفتى ، هل اتفق لك ... هِمْ ... نعم ... هل اتفق لك مثلاً أن طلبت من أحد أن يقرضك مالاً دون أن يكون لديك أمل ؟

ـ وقع لى هذا ... ولكن ماذا تعنى بقولك : « دون أن يكون لديك أمل » ؟ ...

ـ أعنى دون أن يكون لديك أى أمل ، فأنت تعلم سلفاً أن طلبك لن يثمر شيئاً !... مثلاً : أنت تعلم سلفاً على وجه اليقين أن هذا المواطن مهما يكن صالحاً ومهما تكن نياته حسنة لن يعطيك المال بحال من الأحوال ... ولماذا عساه يعطيك مالاً ما دام يعرف أنك لن ترده اليه ؟ أمن باب الشفقة ؟ ان السيد ليبزياتنيكوف ، وهو مطلع على الأفكار الجديدة والآراء الحديثة ، قد شرح فى الآونة الأخيرة أن الشفقة فى أيامنا هذه يحظرها العلم ، وأن الأمور تجرى على هذا النحو منذ الآن فى بلاد الانجليز التى يسودها الاقتصاد السياسى . فلماذا عساه يعطيك مالاً ؟ ومع ذلك ، رغم علمك سلفاً بأنه لن يعطيك مالاً ، فانك تمضى اليه ، و...

قال راسكولنيكوف :

ـ ولماذا تمضى اليه ؟

ـ كيف لا أمضى اليه اذا لم يكن هناك أحـد غيره ، واذا لم يكن هناك مكان آخـر أذهب اليه ! لا بد لكل انسـان من أن يجد ولو مكاناً يذهب اليه ، لأن الانسان تمر به لحظات لا مناص له فيها من الذهاب الى مكان ما ، الى أى مكان ! حين ذهبت ابنتى الوحيدة ، أولَ مرة ، للحصول على بطاقتها الصفراء * ذهبت أنا أيضاً ...

وأضاف مارميلادوف يقـول مستطرداً وهو ينظر الى الشـاب بشىء من القلق :

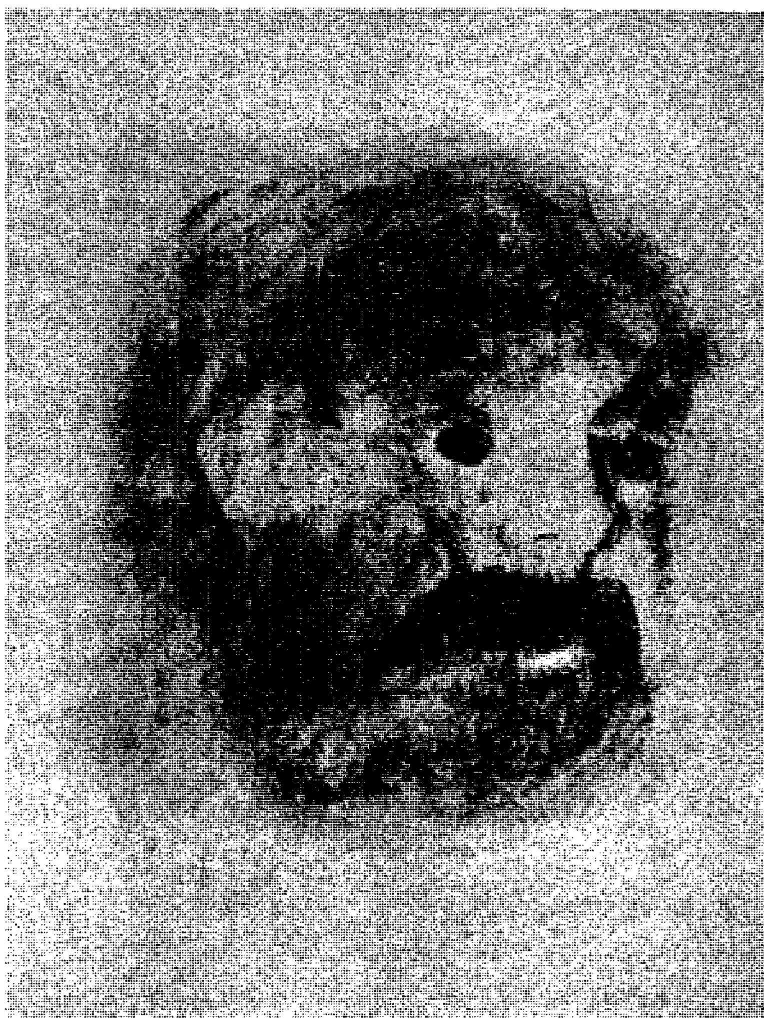
ـ ذلك أن ابنتى لها بطاقة .

وضج الصبيان بالضحك من وراء البسطة ، وابتسم صاحب الحمارة، فأسرع مارميلادوف يقول فوراً وهو يصطنع الهدوء :

ـ لا بأس يا سيدى ، لا بأس ... لا بأس ... ان هزَّهم رءوسهم لا يبث الاضـطراب فى نفسى ، لأن الأمر أصـبح معـروفاً لدى جميع الناس . نعم : كل خبىء مآله الى ظهور *. وأنا لا أتعامل مع هذه الأشياء باحتقار بل بذلة . طيب ... طيب ... « هذا هو الانسـان ! » ... اسمح لى أيها الفتى : هل تستطيع ... لا ... ... يجب أن ألقى عليك هذا السؤال بقوة أكبر ، بطريقة أبلغ دلالة وأصـدق تعبيراً ، يجب أن لا أقول « هل تستطيع » ، بل يجب أن أقول « هل تجرؤ أن تؤكد حين تتأملنى فى هذه اللحظة ، أننى لست خنزيراً » ؟

لم يجب الشاب بكلمة .

وتابع الخطيب كلامه دون اضطراب بل وبمزيد من الرصانة ، بعد أن انتظر انتهاء القهقهات التى أثارتها أقواله الأخيرة ، تابع كلامه فقال :



صاحب الخمارة

ـ طيب ••• فلنسلم بأنني أنا خنزير ، ولكنها هي سيدة ! حقاً انني أشبه «الوحش» * كل الشبه ، ولكن زوجتي كاترين ايفانوفنا انسانة تملك حظاً عظيماً من الثقافة ، هذا عدا أنها ابنة ضابط كبير • لنسلم ، لنسلّم بانني وغد دنيء ، ولكنها هي ذات نفس كبيرة وروح جميلة ، ولها بحكم تربيتها ونشأتها عواطف نبيلة ومشاعر كريمة • ومع ذلك ••• آه ••• ليتها تشفق عليّ ! سيدي العزيز ، سيدي العزيز ، لا بد لكل انسان من أن يجد أيضاً ، في مكان ما على الأقل ، شخصاً يشفق عليه ! ولكن كاترين ايفانوفنا ظالمة ، رغم أنها سيدة تفيض نفسها عظمة • ورغم أنني أفهم أنا نفسي ، حين تضربني ، أنها انما تضربني شفقة عليّ ورأفة بي • لست أخجل من أن أكرر أيها الفتى أنها تضربني (كذلك آكد مارميلادوف بمزيد من الرصانة حين سمع انفجار القهقهات من جديد) ، فانني أتمنى ، يارب ، أن يتفق لها مرةً واحدة أن ••• ولكن لا ، لا ، هذا كله لا فائدة منه ، ولا طائل تحته ، ولا يستحق أن أتكلم عنه ! لا يستحق !••• ذلك أنهم لم يشفقوا عليّ مرةً واحدة ، مرة واحدة • ولكن هذه طبيعتي أيضاً • نعم ، انني انسان فُطر على الغلظة والفظاظة •

ـ جداً !

كذلك قال صاحب الخمارة متثائباً •

فضرب مارميلادوف المائدة بقبضة يده ضربة قوية ، وقال :

ـ هذه هي طبيعتي ! هل تعلم ، هل تعلم أيها السيد أنني شربت خمراً حتى بثمن جوربيها ؟ لا بثمن حذاءيها ، فلو قد شربت خمراً بثمن حذاءيها لكان الأمر طبيعياً بعض الشيء ، ولكنني شربت خمراً بثمن جوربيها ، نعم بثمن جوربيها ! حتى وشاحها الصغير المصنوع من شعر

الماعز ، بعته أيضاً وشربت بثمنه خمراً ، وكان قد أهدى اليها «من قبل» ، فهو ملكها ، ملكها هي ، لا ملكي أنا . ونحن نعيش فى غـرفة باردة ، وقد مرضت في هذا الشتاء ، وأخذت تسـعل ، حتى أنها تبصق دماً منذ الآن ... ولنا ثلاثة أولاد ؛ ان كاترين ايفانوفنا تعمل من الصباح الى المساء : تمسح وتغسل ، وتنظف الأولاد ! ذلك أنها معتادة على النظافة منذ صغرها . ان رئتيها ضعيفتان ، وانها مهيأة للاصابة بمرض السل ، أنا أحس هذا . أأنا لا أحس هذا ؟ بالعكس ، كلما شربت مزيداً من الخمرة ، أحسست به مزيداً من الاحسـاس . نعم ، اذا كنت أشرب ، فانما أنا أشرب سعياً وراء الشـفقة ، وراء العاطفة . أنا أشرب لأتألم ألماً مضاعفاً ...

قال مارميلادوف ذلك ، وأسند رأسه على المائدة وقد عبَّر وجهه عن غاية الحزن والكرب . ثم عاد ينتصب ليكمل كلامه قائلاً :

ـ أيها الفتى ، أحسب أننى أقرأ في وجهك حزناً . ولقد قرأت هذا الحزن في وجهك منذ دخولك ، لذلك سارعت أخاطبك . فاذا كنت أنقل اليك قصـة حيـاتى ، فاننى لا أفعل ذلك لأحقـِّر نفسى أمام هؤلاء الكسالى الذين يعـرفون منها الكثير على كل حـال ، بل لأننى أبحث عن انسان حساس كريم النفس حسن التربية . اعلم أن زوجتى قد تربت في مدرسة داخلية ارسـتقراطية بالأقاليم ، وأنها حين تخرجها من تلك المدرسة قد رقصت رقصة الشال * أمام الحاكم وشخصيات أخرى ، وأنها قد نالت على ذلك وساماً ذهبياً * وشهادة فخرية ... فأما الوسام فقد بعناه أيضاً ... منذ زمن طويل ... هِمْ ... وأما الشهادة الفخرية فهى ترقد حتى الآن فى صندوق ، وقد حرصت كاترين ايفانوفنا على أن تريها صاحبةَ البيت ... نعم ... فرغم أن بينها وبين صاحبة البيت مشاجرات مسـتمرة ، فقد راودتها الرغبـة فى أن تعتز أمام شخص ما ، أن تذكـّر

ىنخصاً ما بالأيام الجميلة من ماضيها • لست ألومها على ذلك ، لست ألومها ، لأن هذه الذكرى هى كل ما تملكه الآن ، أما الباقى فقد طار كله ! نعم ••• ان زوجتى سريعة الغضب ، شديدة الكبرياء ، صعبة المراس • انها تغسل أرض الغرفة بيديها ، وتكتفى بخبز أسود ، ولكنها لاتسمح أن ينتقص أحد من احترامها • ذلك هو السبب فى أنها لم تشأ أن تسكت للسيد ليبزياتنيكوف عن فظاظته ، فلما ضربها لذلك ، فانها لم تمرض بسبب الضربات التى كالها لها بل بسبب الاساءة التى لحقت كرامتها • لقد تزوجتها أرمل ذات أولاد هم جميعاً صغار •

« كانت قد تزوجت مرةً أولى عن حب ، تزوجت ضابط مدفعية هربت معه من منزل أبيها • كانت تحب زوجها حباً عنيفاً ، ولكن زوجها اندفع فى المقامرة ، وأحيل الى المحاكمة فمات • وكان فى المدة الأخيرة بضربها ، ورغم أنها كانت لا تسكت له عن شىء ـ وهذا ما أعرفه من وثائق مفصلة يركن اليها ـ فانها ما تزال تبكى حين تتذكره ، وتعيّرنى بالمقارنة بينى وبينه • وأنا أبتهج بهذا ، ابتهج به ، فبهذه الطريقة تعتقد على الأقل أنها كانت سعيدة فى يوم من الأيام ••• وبعد موت زوجها بقيت وحيدة مع أولادها الثلاثة فى مقاطعة نائية متوحشة كنت أعيش أنا فيها أثناء ذلك الوقت • كانت فى بؤس يبلغ من الهول أننى لن أستطيع أن أصفه لك اذا أنا حاولت ذلك ، رغم أننى قد عانيت أنا نفسى أنواعاً كثيرة من البؤس • جميع أفراد أسرتها أداروا لها ظهورهم • وكانت هى شديدة الكبرياء ••• وفى ذلك الوقت ، يا سيدى العزيز ، انما طلبت أنا يدها ، وكنت أرمل أيضاً ، لى من امرأتى الأولى بنت فى الرابعة عشرة من عمرها ••• طلبت يدها لأننى لم أكن أستطيع أن احتمل عذاباً كذلك العذاب • فى وسعك أن تتخيل درجة الحزن الذى لا بد أنها كانت تعانيه حين ارتضت ، هى المرأة المثقفة التى تربت أحسن تربية والتى تنتمى الى



كاترين ايفانوفنا التى تزوجت
الموظف مارميلادوف

أسرة مرموقة ، حين ارتضت أن تتزوجني ! صحيح أنها وافقت على ذلك باكيةً منتحبة عاقفة يديها من الحسرة والحزن ، ولكنها تزوجتني ، لأنها كانت لا تعرف الى أين تذهب ! هل تدرك يا سيدى العزيز ، هل تدرك ما معنى أن لا يعرف الانسان الى أين يذهب ؟ لا ، انك لا تستطيع أن تدرك هذا بعد ••• وخلال سنة كاملة ظللت أقوم بواجبى بشرف وأمانة واخلاص ، دون أن أقارب هذه (هنا أشار مارميلادوف باصبعه الى الزجاجة) ، لانني انسان ذو عاطفة • ولكنني بهذا أيضاً لم أستطع أن أفوز برضاها • واذ فقدت أثناء ذلك وظيفتي أيضاً ، دون أن يكون لى فى هذا ذنب على كل حال ، وانما كان فقدى وظيفتي نتيجةً لتغييرات فى هيئة الموظفين ، فقد أخذت ألامس هذه !••• ومنذ سنة ونصف تقريباً انما هبطنا ، بعد ترحال كثير ومصائب لا حصر لها ، انما هبطنا هذه العاصمة الرائعة ذات المباني التاريخية التى لا يُحصى عددها • وهنا عثرت على وظيفة• عثرت عليها ثم فقدتها من جديد• هل تفهم ؟ لقد كان الذنب فى فقدها هذه المرة ذنبى أنا ، لأن طبيعتي الحقيقية قد انتصرت••• ونحن نقيم الآن فى ركن من بيت امرأة اسمها آماليا فيودوروفنا لبفكسل ، أما مم نعيش وكيف ندفع أجرة المسكن ، فذلك ما لا أعرف عنه شيئاً ! وفى المسكن يقيم أناس كثيرون غيرنا •• نحن فى سودوم فظيعة ••• هم ••• نعم !••• وفى أثناء ذلك كانت بنتى من زواجى الأول تكبر • لن أحدثك عن المعاملة التى تحملتها ابنتى من زوجة أبيها • ان كاترين ايفانوفنا شديدة الغضب ، عنيفة ، سريعة الاندفاع ، رغم أن نفسها تفيض بالمشاعر النبيلة ! ••• نعم ! دعنا من هذا على كل حال • ما فائدة تذكُّر هذه الأمور الآن ! تستطيع أن تتخيل طبعاً أن ابنتى صونيا لم تصب حظاً من تعليم • صحيح أننى حاولت ، منذ أربع سنين ، أن

أعلّمها الجغرافيا والتاريخ العام ، ولكنني لم أكن قوياً فى هذا الميدان ، وكانت تعوزني الكتب المناسبة من جهة أخرى ، فان الكتب القليلة التى كنت أملكها ••• همْ ••• أصبحت لا أملكها ••• لذلك توقفت دراسة ابنتى ••• وصلنا الى الحديث عن سيروس ، ملك الفرس ••• وبعد ذلك ، حين بلغت ابنتى سن الرشد ، قرأت بعض الكتب الروائيـة ، ثم قرأت فى الآونة الأخيرة ، بواسطة السيد ليبزياتنيكوف ، كتاب ليويس * « الفزيولوجيا » ، هل تعرف هذا الكتاب ؟ قرأته ابنتى بكثير من الاهتمام، حتى لقد قرأت لنا فقرات منه بصوت عال • ذلك هو كل ما حصلته ابنتى صونيا * من تعليم• والآن أتوجه اليك ياسيدى العزيز ، فألقى عليك هذا السؤال بصفة شخصية تماماً : هل تستطع فتاة فقيرة لكنها شريفة ، هل تستطيع فى رأيك أن تكسب مالاً كثيراً ؟ انها لن تكسب خمسة عشر كوبكاً فى اليوم ، اذا هى كانت شريفة واذا هى لم تملك أية هبة خاصة ، وهذا على شرط أن لا تترك العمل دقيقة واحدة أيضاً • ثم ان مستشار الدولة* كلوبستوك ، ايفان ايفانوفتش كلوبستوك ــ هل سمعت عنه؟ ــ لم يكتف بأن لا يدفع لها أجرها عن خمسة عشر قميصاً خاطتها له من حرير هولاندى ، بل زاد على ذلك فطردها شرّ طردة وهو يقرع الأرض بقدمه ويصفها بأبشع النعوت ، بحجة أن احدى الياقات لم تكن على قياس عنقه ، وأنها قصّتها مقلوبة • والصغار فى أثناء ذلك جائعون •• وكاترين ايفانوفنا فى أثناء ذلك تمشى فى الغرفة ذاهبة آيبة ، عاقفة يديها ، وقد أخذت البقع الحمراء تظهر على خديها ، كما يحدث ذلك دائماً للمصابين بهذا المرض • قالت كاترين ايفانوفنا لابنتى صوفيا : « كسلانة ، انك لا تزيدين هنا على أن تملئى بطنك طعاماً وشراباً ! » • كأن المسكينة قد أتيح لها أن تأكل وأن تشرب ، مع أنها لم تكن قد وضعت فى فمها كسرة خبز منذ ثلاثة أيام ! وكنت أنا راقداً ••• نعم ••• فعلاً •••

كنت راقداً كالميت من فرط السكر ••• وهأنا ذا أسمع ابنتي صونيا تتكلم (انها عزلاء لا تملك عن نفسها دفاعا ••• ما اعـذب صوتها ••• هي شـقراء كل الشـقرة ••• ووجهها شـديد الشحوب والنحول دائما) قالت : « أحقاً يا كاترين ايفانوفنا ، أحقاً تريدين ان ا عد نفسي لمثل هذا الأمر ؟ » • والموضوع أن داريا فرانتسوفنا ، وهي امرأة سيئة النيات تعرفها الشرطة جيداً ، كانت قد استعلمت عن صونيا ثلاث مرات بواسطة صاحبة البيت • أجابت كاترين ايفانوفنا وهي تضحك ساخرة : « هه : ألا ان كنزاً كهذا الكنز ليستحق أن تحافظي عليه ! » • ولكن لا تتهمها ، لا تتهمها يا سيدي العزيز ، لا تتهمها ! لم تكن تتكلم هادئة النفس مالكة وعيها ••• لقد كانت محطمة الأعصاب مريضة من رؤية صغارها يبكون جوعاً • ثم اننا لا يجوز لنا أن نفهم أقوالها بمعناها الحقيقي ، وانما يجب أن نفهم هذه الأقوال على أنها اهانة فحسب ••• ذلك هو طبع كاترين ايفانوفنا : حين يبكي أولادها ، ولو من الجوع ، فانها تأخذ تضربهم فوراً. وهأنا ذا ، قبل الساعة السادسة بقليل ، أرى صوفيتشكا تنهض فتتناول شالها وبرنسها وتخرج، ثم تعود قبل الساعة التاسعة. فلما دخلت مضت الى كاترين ايفانوفنا قُدُماً فوضعت أمامها على المنضدة ثلاثين قطعة نقدية من فئة الروبل؛ ثم لم تزد ، حتى دون أن تنظر اليها، ودون أن تقول كلمة واحدة ، لم تزد على أن تناولت الشال الكبير الأخضر المصنوع من جوخ السيدات (نعم ، عندنا شال من هذا النوع ، مصنوع من جوخ السيدات* نستعمله جميعاً) ، فغطت به رأسها ووجهها تماماً ، ورقدت على السرير متجهة برأسها نحو الحائط ، فكنا لا نرى الا ارتجاف كتفيها وارتعاش جسمها ••• وكنت ما أزال على حالتي تلك نفسها ••• فرأيت عندئذ ، أيها الفتى ، رأيت كاترين ايفانوفنا تنهض ، دون أن تقول كلمة واحدة



صونيا مارميلادوفا

هى أيضاً ، فتقترب من سرير ابنتى صوفيتشكا ، وتظل هنالك طوال السهرة راكعةً عند قدميها تقبلها ولا تريد أن تنهض . وبعد ذلك ، بعد ذلك ، رأيتهما تنامان معاً متعانقتين ... معاً ... كلتيهما ... وكنت أنا راقداً ... فى ركنى ... على حالة السكر تلك ذاتها ...

صمت مارميلادوف كأن صوته قد انقطع ، ثم ملأ كأسه فجأة فأفرغه فى جوفه دفعة واحدة ، ودلك حلقه ، وتابع يقول بعد لحظة صمت :

ـ ومنذ ذلك الحين ياسيدى ، على أثر ظرف تعيس ونتيجةً لوشاية أشخاص أشرار ، ولا سيما داريا فرانتسوفنا ، بحجة أننا لم نراعها ، اضطرت ابنتى صونيا سيميونوفنا أن تكون ذات بطاقة وأن تتركنا تبعاً لذلك ، لأن صاحبة البيت ، آماليا فيودوروفنا ، لم تشأ أن تحتمل هذا الوضع (مع أن آماليا كانت قد ساعدتها فى الماضى) ، وكذلك السيد ليبزياتنيكوف ... وحول موضوع صوفيا هذا انما جرت تلك الحكاية بينه وبين كاترين ايفانوفنا . ففى بداية الأمر كان هو نفسه قد حاول التقرب من صوفيتشكا والتمس الحظوة بها ، ثم ها هو ذا يتور قائلاً : « كيف يمكننى ، أنا الرجل المستنير ، أن أعيش فى نفس المسكن الذى تعيش فيه هذه الـ ... » . ولكن كاترين ايفانوفنا لم تستسلم ، بل تدخلت ... فحدث ما حدث . والآن تزورنا صوفيتشكا من حين الى حين (بعد هبوط الليل) ، فتساعد كاترين ايفانوفنا وتمدها باللازم ... انها تقيم فى مسكن الخياط كابرناؤموف* الذى استأجرت غرفةً عنده . وكابرناؤموف ، عدا أنه يعرج ويتأتئ ، له أولاد كثيرون يتأتئون جميعاً كذلك . وامرأته تتأتئ أيضاً ... انهم يسكنون جميعاً فى حجرة واحدة . ولكن صوفيتشكا لها حجرة خاصة بها وراء حاجز ... هِمْ ... نعم ... أناس لا يتصور المرء أن يكون فى العالم من هم أفقر منهم ... وهم الى ذلك تأتاءون ... نعم ... ونهضت فى ذات صباح ، فارتديت



صبحي الحمـــارة
أثناء اعترافات مارميلادوف

أسمالى الباليه ، ورفعت ذراعى نحو السماء مبتهلاً ، ثم ذهبت الى عند صاحب السعادة ايفان آتانازيفتش . هل تعرف صاحب السعادة ايفان آتانازيفتش ؟ لا تعرفه ؟ اذن فأنت لا تعرف انساناً قلبه لله ، هذا رجل نقى نقاء الشمع ، نقاء شمع بكر امام وجه الرب ... والشمع يذوب ... وقد ذاب هو دموعاً بعد ان تفضل فاصغى الى كلامى حتى النهاية . فلما فرغت من حديثى قال لى : « اسمع يا مارميلادوف ، لقد خيبت ظنى مرةً ... ولكننى سأوظفك هذه المرة أيضاً ، على مسئوليتى الخاصة — تلك كانت كانت أقواله — فتذكر هذا . والآن فى وسعك أن تنصرف ».. قبَّلت موطىء قدميه — بالخيال طبعاً ، لأن هذا الموظف الكبير الذى آمن بالأفكار الجديدة التى تم تبنيِّها رسمياً ما كان له أن يسمح لى بأن أقبِّل موطىء قدميه بالفعل . وعدت الى مسكنى ، فلما زففت اليهم بشرى أننى سأعود الى وظيفتى وأننى سأتقاضى راتباً ... آه ... رباه ... لا أستطيع أن أصف لك ما حدث ...

صمت مارميلادوف من جديد ، مضطرباً أشد الاضطراب. وفى تلك اللحظة دخلت عصبة كبيرة من السكارى آتية من الشارع ؛ وعلى عتبة الخمارة دوَّت أصوات أرغن باربارى استؤجر لهذه المناسبة ، كما دوَّى صوت نحيل هو صوت طفل فى السابعة من العمر كان يغنى أغنية « القرية الصغيرة » . ضجت القاعة بالصخب . وأسرع صاحب الخمارة والخدم يحدقون بالقادمين الجدد، ولكن مارميلادوف تابع سرد قصته دون أن ينتبه الى أحد . كان يبدو منذ ذلك الحين وكأن الخمرة قد حطمته وسحقته ، ولكن كلما ازداد سكره ازداد تدفقه فى الكلام . ان ذكرى النجاح الأخير الذى أصابه مساه قد أنعشه بعض الانعاش ، حتى لقد أضفى على وجهه نوعاً من الاشراق والاشعاع . وكان راسكولنيكوف يصغى اليه بانتباه ...

ـ حدث ذلك منذ خمسة أسابيع يا سـيدى ••• نعم ••• فما ان علمت كاترين ايفانوفنا وصونيتشكا بالنبأ حتى حدث ـ يا رباه ! ـ مايشبه أن أكون قد انتقلت الى السماء • قبل ذلك كنت ألبث راقداً على الأرض كبهيمة ، يا سـيدى الطيب ، وأتلقى الشـتائم وأبلعها ! أما الآن فانهما تسـيران على رءوس الأصابع ، وتسـكتان الأولاد قائلتين : « لقد تعب سيميون زاخارتش اليوم فى مكتبه ، فهو الآن يستريح ••• هست ! » وصرت قبل أن أذهب الى عملى ، أؤتى بالقهوة وتسخن لى القشدة • صارتا تستطيعان الحصول على قشدة ••• حقيقية ••• هل تسمع ؟ وأين أمكنهما الحصول على أحد عشر روبلاً وخمسين كوبكاً لتجهزانى تجهيزاً لائقاً ؟ ذلك أمر لم أفهمه فى يوم من الأيام • حذاءان ، بزة رسـمية ، قمصان ، ياقات ••• ما كان أروع القمصان !••• لقد اشترتا هذه الأشياء كلها بأحد عشر روبلاً وخمسين كوبكاً ، وجعلتاها حسنة المظهر لائقة• ماذا رأيت عند أول صباح ذهبت فيه الى المكتب ؟ أعدت كاترين ايفانوفنا طبقين ، حسـاءً ولحمَ بقرٍ مملحاً مطبوخاً مع خضـار ، وذلك أمر لم يحدث قبل ذلك فى يوم من الأيام • ثم انها لم تكن تملك ما تدثر بها ظهرها ••• لم تكن تملك أى شىء يمكن أن يسمى دثاراً للظهر ••• فها هى ذى فى ذلك الصباح مرتدية أجمل حلة ، كأنها كانت ذاهبة الى زيارة • نعم ••• لقد رأيتها لابسة أجمل هندام ••• لا كما اتفق ••• انها تستطيع أن تخلق من العدم شيئاً • كانت وقد صففت شعرها تصفيفاً جميلاً ووضعت على رأسها قبعة أنيقة وأحاطت جيدها بياقة صغيرة بيضاء، وزينت ذراعيها بكمين لطيفين ، قد أصبحت انسـانة أخـرى تبدو أصغر سناً وأحسن رونقاً وألطف جمالاً ! أما صونيتشكا ، يمامتى الصغيرة ، فقد اكتفت بتقديم المال ، وقالت : « ولكننى أنا لن أستطيع أن أجىء اليكم كثيراً فى هذه الأيام ، فذلك ليس بلائق ، وانما أجىء اليكم عند هبوط

الليل ، حتى لا يراني أحد .. هل تسمع؟ هل تسمع ؟ وبعد العشاء مضيت أرقد على السرير . فهل تصدّق ؟ ان كاترين ايفانوفنا لم تطق صبراً . لم يكن قد انقضى على تشاجرها مع آماليا فيدوروفنا الا ثمانية أيام في أكثر تقدير ، ومع ذلك دعتها الى تناول فنجان من القهوة . وقضتا ساعتين كاملتين تتهامسان دون توقف . قالت لها : « ان سيميون زاخارتش * له الآن وظيفة ، وهو يقبض الآن راتباً . لقد ذهب بنفسه الى صاحب السعادة ، وهبّ صاحب السعادة نفسه الى لقائه : جعل جميع الناس ينتظرون ، وأمام جميع الناس تناول يد سيميون زاخارتش وقاده الى مكتبه (هل تسمع ؟ هل تسمع ؟) وقال له صاحب السعادة طبعاً : انني أتذكر خدماتك الطيبة يا سيميون زاخارتش ، ورغم انقيادك لميلك الطائش ، فانني آمل ، ما دمت تعد بأن لا تنقاد بعد اليوم لذلك الميل الطائش ، وما دام كل شيء ، من جهة أخرى ، قد جرى هنا أثناء غيابك مقلوباً (هل تسمعين ؟ هل تسمعين ؟) ، فانني آمل أن تفي الآن بوعدك وأن لا تخون العهد الذي تقطعه على نفسك . الحق أن هذا كله انما اخترعتْه اختراعاً وارتجلته ارتجالاً — أنا أقول لك الآن ذلك — ولكنها لم تعمد الى هذا الاختراع والتلفيق انسياقاً مع ميول صبيانية ، ولا حباً في اظهار قيمتها واعلاء شأنها . بالعكس : لقد صدّقت هي نفسها كل ما تخيلته ، وما كان أعظم تلذذها به ... هيه ، هيه ... يا رب ! وأنا لا ألومها ... لا ... أنا لا ألومها على هذا ... وحين أتيتها براتبي الأول كاملاً منذ ستة أيام ، نادتني بقولها : يا حبيبي ... خاطبتني قائلة « ما أجملك يا حبيبي ! » قالت لي هذا وكنا في خلوة ، هل تفهم ؟ يخيّل اليّ مع ذلك أنني ... من ناحية حسن الصورة وجمال الهيئة ... هه ... وهل أنا زوج على كل حال ؟ الخلاصة ... لا ضير ... المهم أنها قرصت خدي وقالت لي : « ما أجملك يا حبيبي ! » .

انقطع مارميلادوف عن الكلام ، وأراد أن يبتسم ، ولكن ذقنه ارتجفت فجأة • ومع ذلك كبح جماح نفسه • وها هى ذى الحمارة ، وسقوط هذا الرجل ، وحبه المريض لامرأته وأسرته كلها ، والليالى الخمس التى قضاها على العوامات ناقلات العلف ، ومنظر الزجاجة ، ها هى ذى تلك الأمور كلها تغرق راسكولنيكوف فى ذهول • كان يريد أن يصغى بأكبر انتباه ممكن ، ولكنه أحس بضيق وانزعاج • ولام نفسه على أنه جاء الى هذا المكان •

صاح مارميلادوف يقول وهو ينتصب قائماً :

ـ أيها السيد العزيز ، أيها السيد العزيز ، ربما كانت هذه القصة تبعث على الضحك كسائر ماعداها ، ولعلنى لا أزيد على أن أضايقك بهذا العرض الغبى الأبله الأحمق لتفاصيل تافهة من تفاصيل حياتى المنزلية • ولكن هذا كله لا يضحكنى أنا ، لا يضحكنى أنا ، لا يضحكنى أنا ••• لأن هذا كله انما أحسه أنا بكل جوارحى • لقد قضيت ذلك النهار كله وتلك السهرة كلها وأنا فى مثل الجنة أطير على أجنحة أحلامى • كنت أفكر فى الطريقة التى سأدبر بها الأمور : كيف سأكسو هؤلاء الأولاد ، كيف سأهيىء لها هى الهدوء والسكينة والطمأنينة ، كيف سأنتزع ابنتى الوحيدة من وهدة العار وأردها الى أحضان الأسرة ••• وكنت أحلم بأشياء أخرى أيضاً ، بأشياء كثيرة جداً • ذلك حق لى ياسيدى• فما الذى حدث أيها السيد العزيز ؟ (هنا ارتعش مارميلادوف فجأة ، ونصب رأسه وحدق الى محدثه) ما الذى حدث ؟ حدث فى الغداة ، بعد جميع تلك الأحلام الجميلة ، أى منذ خمسة أيام على وجه الدقة ، أننى عمدت الى أنواع الحيل والأكاذيب ، فسرقت من كاترين ايفانوفنا مفتاح صندوقها ، كلص الليل*، فأخذت ما كان قد بقى من أجرى الذى أعطيتها أياه ••• لا أدرى كم كان المبلغ تماماً ••• نعم ، ذلك ما حدث ••• وأنظر أين أنا

الآن ... أنظروا الىَّ أنتم جميعاً !... لقد تركت البيت منذ خمسة أيام. وهم هناك يبحثون عني . ولقد فقدت وظيفتي ، وبقيت بزتي الرسمية مرهونة في خمارة ، على مقربة من « جسر مصر » * ... وانظروا الى هذه الثياب الرثة التي أعطونيها بدلاً من بزتي الرسمية !... ان لكل شيء نهاية .

لطم مارميلادوف جبهته بقبضة يده ، وكزَّ أسنانه ، ثم أغمض عينيه واستند بكوعه الى المائدة استناداً قوياً . ولكن وجهه تغير بعد دقيقة تغيراً مفاجئاً مباغتاً ، فاذا هو بنوع من المكر والوقاحة انما ينظر الآن الى راسكولنكوف . ثم أخذ يضحك وقال :

ـ واليوم ذهبت الى صونيا أطلب منها مالاً ... لأنقطع عن السكر ... هأ هأ هأ ! ...

صاح يسأله أحد القادمين الجدد وهو يضحك ملء حلقه :

ـ وهل أعطتك مالاً ؟

قال مارميلادوف متجهاً بكلامه الى راسكولنيكوف وحده :

ـ بما أعطتنيه من مال انما اشتريت نصف الزجاجة هذه ، لقد جاءتني صونيا بثلاثين كوبكاً قدمتها الىَّ بيدها نفسها . وكان هذا المبلغ كلَّ ما بقي لها ... رأيت ذلك بنفسي . لم تقل شيئاً ، اكتفت بأن نظرت الىَّ صامتة ... نظرت الىَّ لا كما يكون النظر في هذه الحياة الدنيا ، بل في الحياة الآخرة ، في السماء ، حيث لا يوقظ الأشقياء في القلوب الا عاطفة الشفقة ، حيث يبكي الناس على هؤلاء الأشقياء دون أن يوجهوا اليهم كلمة تقريع ! وحين لا يقرِّعك أحد ، فانك تشعر بألم أشد وعذاب أقوى ! نعم ! تشعر بألم أشد وعذاب أقوى ! ثلاثون كوبكاً ... نعم ... ولكنها كانت في حاجة الى هذه الثلاثين كوبكاً . أليس عليها الآن ، يا سيدي ، أن تعتني بنفسها ، وأن تهتم بنظافتها . والنظافة ، تلك النظافة،

تكلف نفقات كثيرة ، هل تفهم ؟ هل تفهم ؟ هناك دهون يجب أن تشتريها لتتطيب بهـا ••• يستحيل عليهـا أن لا تفعل ذلك ! وهنـاك التنورات المتصلبة ، والأحذية الأنيقة التي تسمح باظهار القدم الصغيرة عند تجاوز بركة ماء بخطوة كبيرة ! هل تفهم يا ســيدي ماذا تعني نظـافة كتلك النظافة ؟ وهأنا ذا ، أنا أبوها ، اختلس الثلاثين كوبكاً التي تملكها لأشرب بها خمراً • ولقد انفقت ذلك المبلغ فعلاً في الشراب !••• فمن ذا الذي يستطيع أن يرثي لحال رجل مثلي ؟ هل ترثي لحالي أنت الآن ياسيدي؟ هل ترثي لحـالي ؟ تكلم يا ســيدي ، تكلم : أترثي لحـالي أم لا ؟ هيء هيء هيء هيء !•••

قال مارميلادوف ذلك وأراد أن يصب في كأســه خمـراً ، ولكن الخمر كان قد نفد ••• كانت الزجاجة فارغة !

وكان صاحب الخمارة قد اقترب مرة أخرى ، فهتف يسأله :

ـ فيم عسى يرثي الناس لحالك ؟

وسُمعت ضحكات وشتائم • كان يطلق الضحكات والشتائم اولئك الذين سمعوا القصة كلها وأولئك الذين لم يســمعوا شــيئاً البتة ولكنهم ينظرون الى رأس الرجل الذي كان موظفاً •

زأر مارميلادوف فجأةً ، وهو ينهض عن مقعده ، ماداً ذراعيه الى أمام ، وقد وافاه الهام حقيقي ، كأنه لم يســمع الا تلك الكلمـات ، زأر يقول :

ـ لماذا عسى يُرثى لحالي ؟ أهذا ما تقوله ؟ نعم ، ليس هناك ما يدعو الى الرثاء لحالي ! وانما ينبغي أن أُصلب ، أن أصلب على صليب ، لا أن يرثى لحالي ! ولـكن اصلبْه ، أيهـا القـاضي ، ثم ارث لحـاله بعد أن تصلبه • وعندئذ سأمضي اليك بنفسي ، أواجه العـذاب مواجهـة ، لأن

ظمئي ليس الى فرح ، بل الى حزن ودموع ! أتراك تظن أيها البائع أن نصف الزجاجة الذي اشتريته منك قد جاءني بالفرح وحمل الى المسرة ؟ ألا ان الألم ، ألا ان الألم هو ما كنت أنشده في قرارة تلك الزجاجة ... نعم ... الألم والدموع ! ... ولقد ذقت فيها الألم ، لقد وجدت فيها ما كنت أنشده ! ولكن الله الذي يشفق على جميع الناس ويرأف بجميع الناس ، سيشفق علينا ، وسيرأف بنا ... لأنه يدرك كل شيء . انه هو الواحد الأحد . انه هو القاضي الأعلى . سيظهر في يوم الحساب فيسأل : « أين هي تلك الفتاة المسكينة التي ضحت بنفسها في سبيل امرأة أبيها الشريرة المصدورة ، في سبيل أولاد امرأة أخرى ؟ أين هي تلك الفتاة المسكينة التي أشفقت على أبيها الأرضي ، السكير الذي لا برء له ، دون أن تدع لنفسها أن تشمئز من حيوانيته ؟ » وسوف يقول لها : « تعالي ! لقد سبق أن غفرت لك مرة ... سبق أن غفرت لك مرة ... والآن أعفو عن جميع خطاياك ، لأنك أحببت كثيراً » ... وسيغفر لها ، سيغفر لابنتي العزيزة صونيا ... أنا أعلم أنه قد غفر لها ... شعر قلبي بهذا حين كنت عندها منذ قليل ... وسوف يحكم عليهم جميعاً . سيغفر للأخيار والأشرار ، سيغفر للحكماء والبسطاء على السواء. حتى اذا فرغ من الجميع ، خاطبنا نحن أيضاً فقال : « تعالوا ، تعالوا أنتم أيضاً أيها السكّيرون ، تعالوا أيها الضعفاء ، تعالوا أيها الفاسقون ! ». وسنقترب منه جميعاً ، دون شعور بالخزي والعار ، وسنقف أمامه ، وسيقول لنا : « أنتم خنازير ! قد خُلقتم على صورة الوحش ، ودُمغتم بخاتمه ! ومع ذلك اقتربوا ! » . وسيقول الحكماء عندئذ ، سيقول العقلاء : « كيف يارب ؟ كيف تستقبلهم هم أيضاً ؟ » فيجيبهم : أنا أستقبلهم أيها الحكماء ، أنا استقبلهم أيها العقلاء ، لأن أحداً منهم لم يحسب أنه جدير بأن يُستقبل ! » . وسوف يفتح لنا ذراعيه ، وسوف

نرتمي بين ذراعيه ••• وسوف نبكي ••• وسوف ندرك كل شيء ••• سوف ندرك عندئذ كل شيء !••• وسوف يدرك جميع الناس عندئذ كل شيء ••• وسوف تفهم كاترين ايفانوفنا هي نفسها ••• فليأت ملكوتك أيها الرب ! » •

انهارت قوى مارميلادوف ، فتهاوى على الدكة ، دون أن ينظر الى أحد ، كأنه قد غرق في أحلام عميقة فنسى كل ما كان يحيط به • وأحدثت كلماته أثراً • فساد الصمت خلال دقيقة • ولكن القهقهات والشتائم لم تلبث أن عادت تدوّي •

ـ هكذا يكون الكلام !

ـ هو يثرثر !

ـ بوروقراطي !

الخ ، الخ •••

وقال مارميلادوف فجأة وهو يرفع رأسه مخاطباً راسكولنيكوف :

ـ هيّا بنا يا سيدي • رافقني الى عمارة كوزيل ••• لقد آن الأوان ••• خذني الى كاترين ايفانوفنا !

كان راسكولنيكوف يتمنى منذ مدة طويلة أن ينصرف • وخطر بباله من تلقاء نفسه أن يساعد مارميلادوف • وقد ظهر مارميلادوف أشد وهناً وأضعف قياماً على ساقيه مما كان يمكن أن يتصور المرء بعد سماع خطابه • اتكأ مارميلادوف اتكاء ثقيلاً على الشاب • وكان ينبغي قطع مسافة مائتي خطوة أو ثلاثمائة خطوة• ان القلق والخوف يجتاحان السكير بمزيد من القوة والعنف على قدر اقترابه من منزله •

ودمدم يقول منفعلاً :

ـ ليس خوفي من كاترين ايفانوفنا . لست خائفا لانها ستشدني من سعري . ما فيه شعري ؟... ستشدني من سعري . انا أقول لك ذلك ... والأفضل ان تشدني من شعري ... لا ... ليس هذا ما يخيفني.. انما أنا أخاف عينيها ... نعم ... انا أخاف عينيها ... وأخاف أيضاً تنفسها !... والبقع الحمراء في خديها ... أخاف منها أيضاً ... هل لاحظت كيف يتنفس المصــابون بذلك المرض حين تثور ثائرتهم ؟ وأنا أخاف كذلك من الأولاد ، حين يبكون . ذلك أن من الجائز أن لا تكون صونيا قد أعطتهم ما يأكلون ... لست أدري ... لست أدري الآن... أما الضربات فلا أخافها ... اعلم أيها السيد أن هذه الضربات لا تقتصر على أنها لا تخيفني ، وانما هي تهيىء لي لذةً في بعض الأحيان ... لأنني لا أستطيع الاستغناء عنها. ذلك أفضل ! ألا فلتضربني !... ألا فلتخفف عن نفسي !... هذه هي العمارة ، عمارة كوزيل ... هو قفّال ، ففّال ألماني غني جداً . أدخل معي !

اجتازا الفناء ، وصعدا الى الطابق الثالث . وكان ظلام السلم يزداد حلكة كلما تقدما في الصعود .

الســاعة أوشكت على الحادية عشرة ، ورغم أن مدينــة بطرسبرج ليس لها ليل حقيقي في مثـل هذه الفترة من العام ، فقد كانت الظلمــة حالكة في آخر السلّم .

في أعلى السلم كان باب صغير مدخّن مفتوحاً . وكان هنالك بقية شمعة تضيء أفقر غرفة في المسكن ، طولها عشر أقدام . ان المرء يرى الغرفة كلها من فسحة السلّم . ان فوضى قصوى تســودها ، وان أشياء لا حصر لأنواعها ملقاة على أرضها ، ولا سيما أسمال أطفال . وفي ركن من الغرفة هو آخرها تقريباً ، قد شُدّت ســتارة لعل وراءها سريراً . ولم يكن في الغرفة نفسها الا كرسيان ، وأريكة خاســفة منجدة بقماش

مشمَّع بال رث ، أمامها مائدة مطبخ عتيقة من خشب الصنوبر ليست مدهونة ، لا وليس عليها غطاء • وفى آخر المائدة كانت بقية شمعة توشك أن تذوب كلها ، قد غرست فى شمعدان من حديد • ان جميع المظاهر تشير الى أن مارميلادوف لا يحتل فى هذا المسكن ركناً من أركانه ، بل غرفة مستقلة هى فى الواقع ممر أو دهليز • وكان الباب الذى يفضى الى الغرف الاخرى ، أو قل الى العلب الأخرى التى يتألف منها بيت آماليا ليبيفكسل ، كان الباب مشقوقاً ، وكانت تصل منه جلبة وصيحات • كان الموجودون هناك يضحكون مقهقهين • يبدو أنهم يلعبون بالورق وهم يحتسون الشاى • وكان يستطيع المرء أحياناً أن يلتقط وسط الصخب ألفاظاً ليس فيها كثير تأدب •

لم يلبث راسكولنيكوف أن تعرَّف كاترين ايفانوفنا • هى امرأة نحيلة نحولاً رهيباً ، دقيقة القسمات ، طويلة القامة ، حسنة الهيئة • وما يزال لها شعر كستناوى اللون رائع ؛ وكان على خديها بقعتان حمراوان فعلاً • انها تسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، وقد شدَّت يديها الى صدرها تضغطه بهما ؛ وكانت أنفاسها قصيرة مقطَّعة ، وكانت عيناها تسطعان ببريق محموم ، ولكن نظرتها حادة ثابتة • ان هذه الوجه الذى التهمه مرض السل يحدث مرآه على ضوء الشمعة الصغيرة الذائبة أثراً فى النفس أليماً •

قدَّر راسكولنيكوف أنها فى الثلاثين من العمر • ما هى فى الحق بالمرأة التى تصلح زوجة للسكير مارميلادوف •

لم تنتبه الى وصولهما ، ولا سمعت وقع خطواتهما • كانت غارقة فى نوع من الخيال ، فهى لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً • ان حراً خانقاً يسود جو الغرفة • ومع ذلك لم تكن المرأة قد فتحت النافذة • ومن أدنى السلم كانت تتصاعد رائحة موبوءة ، ومع ذلك لم تغلق الباب المطل على

السلم • ومن خلال الباب الآخر كانت تصـل سحب من دخان التبغ ، ومع ذلك لم تغلق هذا الباب الثاني أيضاً •

وكانت صغرى البنات ، وهي طفلة في السادسة من عمرها ، كانت نائمة على الأرض قعوداً ، وقد تكبيت على نفسـها وأسـندت رأسها الى الأريكة • وكان الصبي الصغير ، وهو أكبر منها بسنة واحدة ، يرتعش ويبكي في ركن من الأركان : لا شك أنه قد ضـرب منذ قليل • أما البنت الكبرى ، وهي طفلة في نحو التاسـعة من العمـر ، طويلةٌ نحيلة كعود ثقاب ، فكان كل ما يكسوها قميصاً رديئـاً قد تمـزق وتخـرق في كل ناحية ، هو رداء عتيق من جوخ السيدات قد أُلقي على كتفيها العاريتين ، ولعله كان يناسب حجم جسمها منذ سنتين ، أما الآن فهو لا يكاد يصل من قامتها الى الركبتين • وكانت البنت واقفة في الركن تضم اليها أخاها الصغير ، وتحيط عنقه بذراعها الطويلة النحيلة • يبدو أنها كانت تحاول أن تسرِّي عنه ، فهي تكلمه بصوت خافت جداً ، رجاءَ أن لا يستأنف بكاءه ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تتابع أمها وقد امتلأت رعباً ، تتابعها بعينيها الواسعتين القاتمتين اللتين تبدوان واسعتين مزيداً من السعة في هذا الوجه الهزيل المرتاع •

لم يدخل مارميـلادوف الغـرفة ، بل ركع على العتبـة ، ودفع راسكولنيكوف الى أمام • فلما رأت المرأة هذا الشـاب المجهول ، وقفت أمامه ذاهلة ، ثم خرجت من تأملاتها لحظة ، ربما لتحاول أن تفسر لنفسها سبب مجيئه • ولكن لا بد أنها لم تلبث أن اعتقدت أنه ذاهب الى سكان آخرين من سكان البيت ، لأن الغرفة ممر الى الغرف الأخـرى • فلما وصلت الى هذه النتيجة ، اتجهت نحو باب الدهليز تريد أن تغلقه ، فاذا هي تصرخ على حين فجأة ، لأنها اكتشفت زوجها الراكع على الأرض •

صاحت تقول وقد بلغت ذروة الغضب :

ـ آ ••• هأنت ذا عدت ! يا لص ، يا شيطان ، يا مسخ ! أين المال ؟ ماذا في جيبك ؟ أرني !••• وهذا اللباس الذى ترتديه ليس لباسك ، فأين رداؤك اذن ؟ أين المال ؟ تكلم !

قالت ذلك وهجمت عليه لتنبش جيوبه• فسرعان ماباعد مارميلادوف ذراعيه خاضعاً طيعاً بغية أن يسهّل عليها تفتيش جيوبه •

ولم يكن في جيوب مارميلادوف كوبك واحد •

هتفت تقول :

ـ أين المال ؟ أين المال ؟ آه ••• يا رب !••• هل يمكن أن يكون قد شرب خمراً بالمال كله ؟ كان ما يزال في الصندوق اثنا عشر روبلاً مع ذلك •••

وألمت بها سورة مسعورة من الغضب على حين فجأة ، فأمسكت بشعره ، وجرّته الى الغرفة• وسهّل هو عليها هذه المهمة ، فكان يزحف على ركبتيه وراءها طائعاً ذليلاً •

صاح يقول لى بينما كان يُجَرُّ من شعره حتى لتصطدم جبهته بأرض الغرفة :

ـ هذه فرحة بالنسبة الىّ يا سيدى ، ليس هذا ألماً يا سيدى العزيز !•••

واستيقظت البنية التى كانت نائمة على الأرض ، وأجهشت تبكى • ولم يتمالك الصبى الصغير نفسه فأخذ يرتعش ويصرخ وهرع نحو أخته مروّعاً تكاد تجتاحه نوبة عصبية • وكانت البنت ترتجف كورقة فى مهب الريح •

صاحت المرأة المسكينة تقول :

— شرب بالمال كله ، شرب بالمال كله . حتى رداؤه ليس رداءه ! انهم يتضورون جوعاً ، يتضورون جوعاً .

قالت ذلك وهي تلوى يديها وتشير الى الأولاد ، ثم أردفت :

— لعن الله هذه الحياة ، لعن الله هذه الحياة !

وزأرت تخاطب راسكولنيكوف وهي ترتمي عليه فجأة :

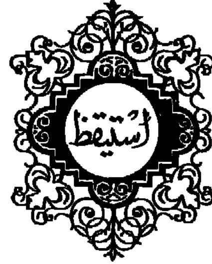
— وأنت أيضاً خارج من الخمارة ! شربتَ معه ، أليس كذلك ؟ أنت أيضاً ... شربت معه ... اخرج من هنا !...

فأسرع الشاب يخرج دون أن يقول كلمة واحدة . وفي أثناء ذلك كان الباب قد فُتح على كل سعته ، وظهر في فرجته عدد من المستطلعين. كانوا يمدون رءوسهم الوقحة الضاحكة ، وقد وضعوا عليها طاقياتهم ، وراحوا يدخّنون سجائر أو غلايين . وكانت تُرى قامات ترتدي معاطف المنازل أو ملابس صيفية ليس فيها شيء من احتشام . وكان بين المستطلعين أناس يحملون بأيديهم ورقاً من ورق اللعب ، وقد ضحكوا خاصةً حين جُرّ مارميلادوف من شعره ، فصرخ يقول ان هذه فرحة له . حتى لقد دخلوا الغرفة وسُمعت أخيراً وعوعة غاضبة حانقة : انها آماليا ليفكسل بنفسها قد شقت ممراً بين الجمهور لتعيد الهدوء ، بطريقتها الخاصة ، ولترهب المرأة المسكينة بابلاغها رسمياً ، للمرة المائة ، أمراً بأن عليها اخلاء المسكن منذ الغد . اتسع وقت راسكولنيكوف ، قبل أن ينصرف ، لأن يدس يده في جيبه فيخرج منها جميع النقود النحاسية التي بقيت له من الروبل الذي صرفه في الخمارة ، وأن يضع هذه النقود خفيةً على حافة النافذة . فلما صار في السلم ، عدل عن رأيه ، وأراد أن يرجع أدراجه . قال يحدث نفسه : « حماقة ما فعلت !... هم لهم صونيا ، وأنا في حاجة الى مال » . ولكنه رأى أن من المستحيل عليه أن يسترد الصدقة التي أعطاها ، وأنه لن يستردها ولو لم يكن استردادها مستحيلاً ،

فرفع كتفيه واتجه نحو مسكنه . وتابع حديثه مع نفسه أثناء سيره فى الشارع وهو يبتسم ابتسامة غريبة : « حقاً ان على صونيا أنتشترى أطياباً تدهن بها ... انها تكلف ثمناً باهظاً ، تلك النظافة ... هم ... ولكن من الجائز جدا أن يصيبها اليوم افلاس ... ان هذه المهنة معرّضة لمخاطر كثيرة ، كصيد الوحوش الكاسرة والبحث عن مناجم الذهب سواء بسواء ... فبدون هذا المال الذى نفحتهم اياه يمكن أن يتضوروا فى الغد جوعاً وأن يشدوا الأحزمة على بطونهم . آه ... نعم يا صونيا !... يا لك من منجم اكتشفوه ! ويا لها من فوائد يجنونها منه !... ذلك أنهم يجنون من هذا المنجم فوائد ! لقد اعتادوا أن يستفيدوا منه وأن ينتفعوا به ! بكوا فى أول الأمر ، ثم ألفوا وتعودوا . ان الانسان يعتاد كل شيء.. يا له من حقير ! » .

ثم فكّر . فاذا هو يصيح قائلاً رغم ارادته على حين فجأة : « ماذا لو كنت على ضلال ! ماذا لو لم يكن الانسان فى حقيقة الأمر حقيراً ... أعنى الانسان عامةً ، أعنى النوع الانسانى ... سيكون معنى ذلك أن الباقى « كله » ليس الا أوهاماً ، ليس الا مخاوف خيالية باطلة ، وأنه ليس هنالك أى حد ينبغى الوقوف عنده . نعم ، ذلك ما يجب » .

الفصل الثالث



في الغـداة متأخراً ، بعد نوم مضطرب لم يجلب له أية راحة • وشـعر حين استيقظ بأنه معتكر المزاج سريع الاهتياج خبيث النفس ، ونظر الى غرفته نظرة كره ومقت • ان هذه الغرفة أشـبه بقفص صغير طوله ست خطوات ، يدل مظهرها على أشد الفقر والفاقة ، قد غُطيت جدرانها بورق مصفر تراكم عليه الغبـار وانتُزع في جميع الجهات • وهي تبلغ من انخفـاض سقفها أن رجلاً له قامة تكاد تفـوق متوسط القـامات ، لا بد أن يشـعر فيها بأنه مكبوس ، ولا بد أن يخشى اصطدام رأسه بالسقف • وأثاث الغرفة يناسبها حقارة ورثاثة : كان فيها ثلاثة كراسي عتيقة تعرج قليلاً ؛ وكان في ركن من أركانها مائدة مدهونة عليها دفاتر وبضعة كتب (يكفي المرءَ أن يرى طبقـة الغبـار التي تغطي هذه الكتب حتى يدرك أنها منذ مدة طويلة لم تمتد اليها يد) ؛ وكان فيها أخيراً ديوان كبير بشع يشغل كل طول الحجرة ويشـغل نصف عرضها تقريبـاً ، ديوان كان في الماضي منجـداً بقماش هندي ولكن القماش قد أصبح الآن خـرقاً رثة ومزقـاً باليـــة • ان هـذا الديوان هـو سرير راسـكولنيكوف • وكثيراً ما كان يتفق لراسـكولنيكوف أن يرقد عليـه مرتدياً جميع ثيـابه بلا غطاء ، غيرَ ملتحف الا معطفـه العتيق ، معطف الطالب ، واضعاً رأسه على مخدة صغيرة كان يُعليها بأن يدس تحتها جميع

ما عنده من ملابس نظيفة ومتسخة • وأمام الديوان توجد منضدة صغيرة•

انه لمن الصعب أن يهمل المرء نفسه اهمالاً أشد من هذا الاهمال • ولكن منظر مسكنه هذا ، وهو فيما هو فيه من حالة نفسية خاصة ، كان يمضي الى حدّ أن يولّد له شيئاً من لذة • كان قد انفصل عن العالم انفصالاً حاسماً ، وكان يعيش كالسلحفاة المحبوسة في قوقعتها • وحتى منظر الخادمة ، التي كانت تظهر في الصباح أحياناً لترى ماذا يجري ، كان يبعث في نفسه كرهاً محموماً • هكذا شأن بعض الموسوسين الذين تحاصرهم فكرة واحدة ، ويسرف ذهنهم في التركز على نقطة بعينها • لقد كفّت صاحبة البيت منذ مدة طويلة عن أن تبعث اليه بوجبات طعامه ، ورغم أنه أصبح مضطراً للصيام عن الطعام ، فانه لمّا يخطر بباله بعد أن يذهب اليها ليناقشها في الأمر • وكانت ناستاسيا ، الطباخة ، وهي الخادمة الوحيدة لدى صاحبة البيت ، كانت ، بمعني من المعاني ، غير مستاءة من الحالة النفسية التي كان عليها المستأجر ، وكانت قد انقطعت عن خدمة غرفته انقطاعاً كاملاً ، اللهم الا من حين الى حين ، مرةً في الأسبوع ، وكانت في هذه المرة تكتفي بأن تكنس الغرفة كنساً سريعاً كيفما اتفق •

وهي التي أيقظته الآن • صرخت تقول له وهي تميل عليه :

ـ انهض • ما بك حتى تنام هذا النوم ؟ لقد دقت الساعة التاسعة • هأنا ذا آتيك بشيء من الشاي ، هل تريد ؟ لسوف تموت جوعاً •

فتح الشاب عينيه ، وارتجف ، وتعرف ناستاسيا •

سألها ببطء :

ـ هل صاحبة البيت هي التي أرسلت اليّ هذا الشاي ؟

ثم نهض عن ديوانه وقد بدا عليه الألم •

قالت له الخادمة :

ـ صاحبة البيت ؟ هه !•••

ووضعت أمامه ابريقها الخاص بها ، ابريقها المتصدع الذى يضم بقية قديمة من شاى ، ووضعت قطعتين صغيرتين من سكر مصفر كل الاصفرار

قال لها بعد أن نبش جيبه (كان قد نام لابساً ثيابه) ، فأخرج منها قطعة نقدية :

ـ خذى يا ناستاسيا ، خذى هذا ، أرجوك ••• واذهبى فاشترى لى رغيفاً صغيراً من الخبز ، واشترى لى كذلك من عند البقال سجقاً ، سجقاً بخس الثمن •••

ـ سآتيك بالرغيف حالاً • ولكن ألا تريد ، بدلاً من السجق ، أن تصيب شيئاً من حساء بالكرنب ؟ هو حساء بالكرنب صنعناه أمس ، وادخرته لك مساء ، لكنك رجعت الى البيت متأخراً • هو حساء بالكرنب طيب •

وحين جاءته ناستاسيا بحساء الكرنب ، فأخذ يأكل ، جلست الى جانبه على الديوان ، وأخذت ترثر • انها فتاة قروية مكثارة مهذارة • قالت له :

ـ ان براسكوفيا بافلوفنا تريد أن تشكوك الى الشرطة •

فأربد وجهه وسألها :

ـ تشكونى الى الشرطة ؟ ماذا تريد منى ؟

ـ أنت لا تدفع أجر الغرفة ، لا ولا تجلو عنها ! ذلك ماتريده منك!

جمجم يقول وهو يجلس :



ناستاسيا

ـ لم يكن ينقصني الا هذا ! حقاً ان ذلك يقع في اسوأ حين ••• في اسوأ أوان !••• أفي هذه اللحظة ؟•••

ثم أضاف يقول بصوتٍ عالٍ :

ـ يا للحمقاء ! سأمرُ بها اليوم فأكلّمها •

قالت :

ـ أما أنها حمقاء فهي حمقاء حقاً ، مثلك أنت تماماً ••• ولكن••• ما بالك أنت ، وأنت ذكي هذا الذكاء كله ، تبقى راقداً طول الوقت كصُرَّة ؟ لا يستطيع أحدٌ أن يحملك على شيء أو أن يستمد منك شيئاً ! تقول انك كنت في الماضي تعطي الأولاد دروساً خاصة ، فلماذا أصبحت لا تقوم الآن بأي عمل ؟•••

ـ بل أقوم •••

كذلك نطق راسكولنيكوف رغم ارادته ، بلهجةٍ جافة •

سألته :

ـ ما الذي تقوم به ؟

ـ أقوم بعمل •••

ـ أي عمل ؟

أجابها جاداً بعد صمت :

ـ أفكر •••

انتابت ناستاسيا نوبةُ ضحك• انها متأهبةٌ دائماً لأن تنفجر ضاحكة. ويكفي أن تُمازَح أقلَّ ممازحة حتى تأخذ في الضحك ، ولكن ضحكها صامت ، فهي لا تزيد على أن تحرك وترجج جسمها كله ، الى أن يصيبها من ذلك غثيان !•••

وأفلحت فى أن تنطق أخيراً فقالت له :

ـ وهل جنيت من التفكير مالاً كثيراً ؟

قال :

ـ كيف يستطيع المرء أن يمضى لاعطاء دروس حين لا يملك حذاءين ؟ على أننى لا أكترث بهذا كله !...

ـ لا تكترث ؟ انك اذن لمخطىء .

ـ ماذا يجنى المرء من تعليم الأطفال ، ماذا يستطيع ان يفعل ببضعة كوبكات ؟

كذلك تابع يقول بلهجة حزينة كالحة ، كأنه يجيب عمّا يدور فى رأسه هو من خواطر وافكار .

سألته قائلة :

ـ ماذا ؟ أتراك تريد الحصول على ثروة طائلة دفعةً واحدة ؟

نظر اليها نظرة غريبة ثم أجابها بصوت جازمٍ بعد صمتٍ قصير :

ـ نعم ، ثروة طائلة ...

ـ هيه ... رفقاً رفقاً ! انك تخيفنى : أأمضى لشراء الرغيف الصغير ؟

ـ افعلى ما تشائين .

قالت فجأة :

ـ ها ... نسيت ... معى رسالة لك وصلت أثناء غيابك .

ـ رسالة ؟ لى ؟ ممن ؟

ـ لا ادرى ممن . وقد نقدت ساعى البريد ثلاثة كوبكات من جيبى . ستردها الىّ ، أليس كذلك ؟

صرخ راسكولنيكوف يقول وقد بلغ ذروة الاضطراب :

ـ هاتى الرسالة ! هاتيها ناشدتك الله ... آه ... يا رب !...

بعد دقيقة جاءت الرسالة . صدق ما كان يقدّره : ان الرسالة آتية من امه التى تقيم فى اقليم ر ...

اصفر وجهه وهو يتناول الرسالة . لقد أصبح لا يتلقى أية رسالة منذ مدة طويلة . ولكن شيئاً آخر يقبض الآن قلبه ويجثم على صدره .

قال :

ـ ناستاسيا ، اذهبى ... ناشدتك الله ... انصرفى ... اليك كوبكاتك الثلاثة ... اخرجى بسرعة ... ناشدتك الله !.

كانت الرسالة ترتعش بين يديه . لم يشأ أن يفضها امام الخادمة . كان يحرص على ان يبقى « وحيداً » مع هذه الرسالة . فما ان خرجت ناستاسيا حتى رفع الرسالة الى شفتيه بحركة سريعة ، وقبّلها . ثم لبث مدة يُنعِم النظر فى العنوان ، ويتأمل الخط العزيز الغالى الذى يعرفه حقّ المعرفة ، الخط الصغير المائل بعض الميل ، خطّ امه التى علمته القراءة والكتابة فى الماضى منذ زمن بعيد . أحجم عن فض الرسالة بعض الوقت ، حتى لكأنه يخشى شيئاً ما . ثم فضّها اخيراً . الرسالة طويلة كثيفة ثقيلة الوزن : صحيفتان من ورق تغطيهما كتابة مرصوصة وجهاً وقفا . وهذا نص الرسالة :

« عزيزى روديا * ! انقضى اكثر من شهرين دون أن أتحدث اليك كتابة ، وذلك امر عذبنى كثيراً ، حتى لقد حرمنى من النوم ذات ليلة من فرط تفكيرى فيه . ولكننى على يقين من أنك لن تؤاخذنى على هذا

الصمْت الطويل الذى لست مسؤولة عنه • انت تعلم كم احبك ! ليس لنا فى هذه الحياة ، أنا ودونيا * ، سواك • أنت عندنا كل شيء • أنت كل أملنا • أنت كل ايماننا بالمستقبل ! ليتك تعلم الحالة التى صرت اليها حين علمت منذ بضعة اشهر أنك تركت الجامعة لعجزك عن الوفاء بسد حاجاتك ، وأنك فقدت الدروس التى كنت تعطيها ، وفقدت سائر الموارد الأخرى ! كيف كان يمكننى أن اساعدك وانا لا أقبض الا خمسة وعشرين روبلاً فى السنة هى معاش التقاعد ! أنت تعلم ان الخمسة عشر روبلاً التى أرسلتها اليك منذ أربعة أشهر ، انما كنت قد اقترضتها سلفةً على معاشى من تاجرٍ فى بلدتنا هو فاسيلى ايفانوفتش فاخروشين • انه رجل طيب شهم كان صديق أبيك• ولكننى وقد خوّلته حق قبض المعاش نيابةً عنى ، قد اضطررت أن انتظر الى ان ينتهى سداد الدين كاملاً ، وذلك ما لم يتم الا منذ برهة قصيرة • هذا هو السبب فى اننى لم أستطع أن أرسل اليك شيئاً طوال ذلك الوقت • أما الآن فأعتقد أننى سأستطيع ، ولله الحمد ، أن أستأنف ارسال شيء من المال اليك • ثم اننا فى وسعنا ، على وجه أعم ، ان نغبط انفسنا على ان الحظ قد وافانا قليلاً ، وذلك ما أسارع الى ذكره لك• هل يمكنك ، أولا ، ياعزيزى روديا ، أن تحزر أن أختك تقيم معى منذ شهرٍ ونصف شهر ، وأننا لن ننفصل بعد اليوم أبداً ؟ لقد انتهت الآن جميع آلامها بفضل الله ، ولكن ينبغى أن أقص عليك كل شيء مرتباً متسلسلاً ، حتى تعرف كيف جرت الأمور ، وماذا كتمنا عنك الى الآن ! لقد كتبتَ الىّ منذ شهرين قائلاً انك علمت من احد الناس أن اختك دونيا تتألم كثيراً من قسوة المعاملة فى منزل الأسرة التى تعمل عندها ، وهى أسرة سفدريجايلوف ، وسألتنى أن أبعث اليك بشروح دقيقة وتفاصيل وافية عن هذا الأمر • فهل كان فى وسعى أن اجيبك فى ذلك الأوان ؟ لا ••• فلو قد كتبت اليك الحقيقة كاملة لكان

من الجائز ان تترك كل شيء وان تجيء الينا سيراً على الأقدام اذا لزم الأمر ، لأنني أعرف طبعك وأعرف عواطفك ، فما كان لك ان تدع لأحد ان يسيء الى أختك وأن يهين كرامتها . ولقد بلغت انا نفسي عندئذ غاية الكرب واليأس . ولكن ما الذى كان يجب ان أفعله ؟ ثم انني لم اكن اعرف الحقيقة كلها حينذاك . ولقد جاء البلاء أساساً من ان اختك دونيتشكا ، حين أخذت تعمل مربية عند آل سفيدريجايلوف * ، في السنة الماضية ، قد قبضت منهم سلفة مقدارها مائة روبل يقتطعونها من أجورها شهراً شهراً . لذلك كان من المستحيل عليها ان تترك وظيفتها قبل ان تكون قد سددت ما لهم عليها من دين . وذلك المبلغ الذى قبضته (أستطيع الآن ان اعترف لك بذلك يا بني العزيز) انما أخذته خاصة لترسل اليك الستين روبلا التي كنت حينئذ في حاجة ماسة اليها والتي تلقيتها منا في السنة الماضية . لقد خدعناك كلتانا حين كتبنا اليك عندئذ ان ذلك المال هو حصيلة مدخرات قديمة جمعتها دونيتشكا ؛ ولم يكن الأمر كذلك . وانما أنا أقول لك الحقيقة كلها الآن لأن الله قد أراد ان يبدل كل شيء وان نصير الى حال أفضل ، ولأن من الواجب أن تعلم مدى ماتحمله لك دونيا من حب ، وأن تعرف ما يتصف به قلبها من نبل لا يضارع ! خلاصة المسألة ان السيد سفيدريجايلوف كان في أول الأمر يعاملها معاملة شديدة الغلظة والفظاظة وكان يوجه اليها اثناء الجلوس الى المائدة أنواعاً شتى من الكلمات القارصة والأقوال الساخرة ... على أنني لا أريد أن أفيض في الكلام على هذه التفاصيل الأليمة ، حتى لا أعذبك في غير طائل ، بعد أن انتهى هذا كله الآن ! المهم ان وضع دونيتشكا كان شاقاً جداً رغم ان مارتا بتروفنا ، زوجة السيد سفيدريجايلوف وسائر أهل المنزل قد عاملوها معاملة فيها كثير من الرعاية والمداراة واللطف . وكان وضعها يزداد مشقة حين يصبح السيد سفيدريجايلوف تحت سيطرة



سفدريجايلوف

باخوس *على ما ألف من عادة ترسخت فيه منذ كان في الجيش • ولكن ما الذي حدث بعد ذلك ؟ تصور ان هذا الرجل المأفون كان منذ مدة طويلة يهيم بأختك دونيا هياماً يخفيه تحت ستار موقف من الفظاظة والاحتقار يصطنعه اصطناعاً • ولعله كان يشعر بالخزي والعار في نفسه ، أو لعله كان يحس بارتياع حين يرى أنه في هذه السن ، هو رب الأسرة ، تراوده آمال تبلغ هذا المبلغ من الحماقة والطيش ، فاذا هو يحقد على دونيا رغم ارادته ، ويحمل لها الضغينة والسخيمة في قرارة قلبه ، أو لعله بفظاظة موقفه وغلظة سخرياته انما كان يريد ان يخفي الحقيقة عن الآخرين لا أكثر • المهم أنه أصبح في نهاية الأمر لا يطيق صبراً ، فاذا هو يتجرأ ويتجاسر فيعرض على دونيا عروضاً صريحة حقيرة ، باذلاً لها وعوداً بفوائد شتى ومنافع كثيرة ، مقترحاً عليها فوق ذلك كله ان يترك كل شيء ليسافر معها الى قرية أخرى من القرى التي يملكها أو الى الخارج اذا هي أرادت ! في وسعك ان تتخيل الآلام التي قاستها أختك: كان عليها ان لا تفكر في ترك وظيفتها فوراً ، لا بسبب ما عليها من دين فحسب ، بل ايضاً من باب المراعاة والمداراة لمارتا بتروفنا التي كان يمكن ان تساورها شكوك كثيرة على حين فجأة فيحدث في الأسرة شقاق يمزقها شرّ ممزق • ذلك عدا أن تركها لوظيفتها فوراً يمكن أن يكون لها فضيحة كبرى لا يمكن تحاشيها • وهناك أسباب أخرى كثيرة كانت تجعل دونيا عاجزة عجزاً مطلقاً عن ترك تلك الأسرة قبل انقضاء ستة أسابيع • لا شك في انك تعرف دونيا وتعرف ما تتصف به من تعقل ومن ارادة قوية • ان دونيتشكا تستطيع أن تتحمل أشياء كثيرة ، وأن تجد في نفسها ، مهما تكن الظروف حرجة ، قدراً كافياً من رفعة الروح ونبل القلب حتى لا تفقد رباطة جأشها وثبات جنانها ، لذلك لم تكتب اليّ أنا نفسي شيئاً عن هذا

كله ، حتى لا تؤلمني وتعذبني ، مع أننا كنا نتراسل كثيراً • وقد حدثت خاتمة القصة على نحو لم يكن في الحسبان :

ان مارتا بتروفنا سمعت زوجها في الحديقة ، مصادفةً ، يتوسل الى دونيتشكا ضارعاً مبتهلاً ، فظنت ان دونيتشكا سبب كل شيء ، فاذا بمشهد رهيب يحدث عندئذ في الحديقة نفسها : لم تشا مارتا بتروفنا ان تسمع أي قول ، حتى لقد ضربت دونيا ، وظلّت تصرخ ساعة بكاملها ، ثم اصدرت امرها بنقلها الى في المدينة على عربة حقيرة من عربات الفلاحين، رُميت فيها جميع اشياء دونيا من ملابس وأثواب ، رُميت فوضى بغير نظام ، حتى دون أن تُربط او تُحزم • وقد اخذ المطر يهطل عندئذ هطولاً غزيراً ، فاضطرت اختك دونيا ان تقطع مع الفلاح في عربته المكشوفة مسافة عشرة فراسخ على تلك الحال من المذلة والهوان • انك لترى الآن أنني لم أكن استطيع ان اجيبك بشيء على الرسالة التي بعثت بها الى منذ شهرين : عمَّ كان يمكنني ان احدثك وفيم كنت استطيع ان اكلمك ؟ لقد كنت انا نفسي في غاية الكرب وذروة الكمد • لم أكن اجرؤ أن اكتب لك الحقيقة • فلو فعلت ذلك لشقيتَ انت شقاءً كبيراً ولشعرت بغضب شديد واضطراب كبير •

وما الذي كان في وسعك ان تفعل ؟ لا شيء الا ان تفاقم آلامك وتزيد عذابك ! ثم ان دونيا قد حظرت على أن أفعل • وأما ان املأ رسالتي اليك بترهات وسفاسف ، بينا انا مثقلة القلب بالحزن والكمد ، فذلك ما شعرت انني لا أقوى عليه • وفي اثناء شهر كامل جرت في المدينة عن تلك القصة شائعات وأقاويل ونمائم ، حتى لقد بلغت الأمور حداً أصبحت لا أستطيع معه ان اصحب دونيا الى الكنيسة بسبب نظرات الاحتقار والازدراء التي يلقيها علينا الناس وبسبب الهمسات الكثيرة التي يتبادلونها عند مرورنا ، حتى انهم كانوا لا يتحرجون من ابداء ملاحظات

خبيثة بصوت عال فى حضورنا • وأصبح جميع من يعرفوننا يديرون لنا ظهورهم ويشيحون عنا بوجوههم ، بل لقد كفوا عن تحيتنا • وعرفت من مصدر مطلع أن عـدداً من مستخدمى الدكاكين وصـغار موظفى المكاتب أرادوا ان يرتكبوا فى حقنا وقاحة سافلة ، هى ان يلطخوا باب منزلنـا بالقطران ، فأخذ اصحاب البيت الذى نسكنه يطالبوننا باخلائه • وكانت مارتا بتروفنا سبب ذلك كله ، فقد اتسع وقتها لأن تذهب الى جميع البيوت تتهم دونيا وتوسخ سمعتها • انها تعرف جميع الناس فى بلدتنا • واذ أنها أميل الى الثرثرة ، واذ أنها تحب ان تقص شئونها المنزلية على كل قادم ، وأن تشكو زوجها خاصةً ، وذلك أمر ليس بالجميل كثيراً ، فقد نشرت القصة خلال برهة وجيزة من الزمن، لا فى المدينة وحدها ، بل فى المقاطعة كلهـا • وقد مرضت أنا من ذلك • ولكن دونيتشـكا كانت أقوى منى عوداً ، وأصلب شكيمة ، وأشد بأساً • ليتك رأيت كيف استطاعت ان تحتمل هذا كله بجأش رابط وجنان ثابت حتى لقد كانت هى التى تعزينى وتواسينى ، وتقوى عزيمتى ، وتشد أزرى ! انها ملاك ! ولكن رحمة الله اختصرت عذابنا • فان السيد سـفيدريجايلوف قد عدل عن رأيه ، وندم على ما بدر منه ، ولعله شعر بشفقة نحو دونيا ، فقدَّم لامرأته مارتا بتروفنا الدليل القاطع والحجة الدامغة على براءة دونيا : كان هذا الدليل القاطع رسـالةً كانت دونيـا ، قبل ان تفاجئهما مارتا بتروفنا فى الحديقة بزمن طويل ، قد اضطرت أن تكتبها وان تعطيها السيد سفيدريجايلوف لترفض جميع شروحه وعروضه ، ولترفض جميع المواعيد السرية التى كان يضرع اليها ان تضربها له • وقد بقيت هذه الرسالة بين يدى السيد سفيدريجايلوف بعد رحيل دونيا • وفى هذه الرسالة كانت دونيا تعيب عليه بلهجة عنيفة ثائرة عارمة ما يتصف به سلوكه نحو مارتا بتروفنا من جور وظلم وعسف ، وتذكره بأنه زوج ، وبأنه أب لأسرة ، وتصور

له مدى ما يشتمل عليه سلوكه من خسة اذ هو يعذّب ويُشقى فتاة فقيرة عزلاء لا تحتاج الى مزيد من العذاب والشقاء . الخلاصة يا بنى العزيز روديا ، ان تلك الرسالة تبلغ من رفعة النبل وشدة التأثير أننى أجهشت باكية منتحبة حين قرأتها ؛ وما أزال حتى الآن لا أعيد قراءتها الا وتترقرق فى عينىّ الدموع . وجاءت شهادات الخدم تبرىء دونيا مزيداً من التبرئة! والخدم كما يحدث دائماً فى مثل هذه الحالات قد عرفوا من الأمر ورأوا من المشاهد اكثر كثيراً مما ظن السيد سفيدريجايلوف .

« ذُهلت مارتا بتزوفنا أشدّ الذهول ، بل صعقت تماماً كما اعترفت لنا هى نفسها بذلك . ولكن لم يبق فى نفسها أى شك فى أن دونيتشكا بريئة كل البراءة . لهذا بادرت منذ الغد ، وكان يومَ أحد ، فذهبت رأساً الى الكنيسة حيث جثت على ركبتيها باكية وضرعت الى السيدة العذراء ان تهب لها من القوة ما يكفيها لاحتمال هذا الامتحان الجديد وما يمكّنها من القيام بواجبها على خير وجه . ثم جاءت من الكنيسة قُدُماً الى منزلنا ، دون ان تعرّج على احد ، فقصت علينا كل شىء ، وسكبت دموعاً حارة ، وعانقت دونيا زاخرةَ النفس بالندم ، مبتهلةً اليها أن تغفر لها وأن تعفو عنها . ومن منزلنا ذهبت رأساً دون ان تضيع لحظة واحدة ، ذهبت الى جميع بيوت المدينة ، فكانت تسكب سيولاً من الدموع ، وتكيل الثناء لابنتى ، دونيا ، وتشهد ببراءتها ، وتطرى نبل عواطفها ، وتشيد بحسن سلوكها . وأرادت ان تفعل ما هو خير من ذلك أيضاً ، فاظهرت جميع الناس على الرسالة التى كتبتها دونيا الى السيد سفيدريجايلوف بخط يدها ، حتى لقد قرأت عليهم تلك الرسالة بصوت عال ، بل وأذنت لهم بأن ينسخوها (وذلك أمر يبدو لى ان فيه شيئاً من الغلو) . وقد اضطرت ان تقضى عدة ايام متتالية تزور جميع من تعرفهم من الناس فى المدينة ، لأن بعضهم شكوا من اهمالها زيارتهم ، وساءهم ان تؤثر عليهم غيرهم .

على هـذا النحو تتالت زياراتها متعاقبـة متلاحقـة ، حتى اصبح النـاس ينتظرونها في كل منزل ، وحتى أصبح يـعرف أن مارتا بتروفنا ستـقرأ الرسالة يوم كذا في مكان كذا ، فكان يحضر قراءة الرسالة في كل مرة حتى أولئك الذين سبق لهم ان سمعوها مرارا سواء في بيوتهم هم أو فى بيوت اناس آخرين يعرفونهم • فى رأيي ان ذلك كان فيه مغالاة ، كان فيه كثير من المغالاة ، ولكن هذا طبع مارتا بتروفنا ! مهما يكن من امر ، فان مارتا بتروفنا قد ردّت الى دونيتشكا اعتبارها كاملاً ، فاذا بعار هذه القضية يرتد الى زوجها بخـزى لا يمحي ولا يندثر ، ويجعله المجـرم الأول حتى اخذتنى به شفقة • لقد أسرفوا فى القسوة على ذلك المأفون المسكين. بعد ذلك اسرعت أسرٌ كثيرة تعرض على دونيا ان تعطى أولادها دروساً ، ولكن دونيا رفضت جميع هذه العروض • ونستطيع ان نقول بوجه عام ان جميع النـاس قد صـاروا يولونها احتراماً خاصاً على حين فجأة • وذلك كله قد سهل تسهيلاً كبيراً حدوث الحادث الذى لم يكن فى الحسبان ، والذى استطيع ان اقول ان مصـيرنا قد تبدل بفضله تبدلاً تاماً وتغير تغيراً كاملاً • اعلم يا بنى العـزيز روديا ان خطيبا قد تقـدم لاختك دونيا ، وأنها قد اعلنت له موافقتها ، وذلك ما أسارع فأنقله اليك الآن • أغلب الظن أنك لن تؤاخذنا ، لا أنا ولا أختـك ، على ان الأمر قد تم دون الحصول على موافقتك ، فلسوف ترى بنفسك انه كان يستحيل علينا أن ننتظر ، وان نرجىء اتخاذ القرار الى حين وصول ردّك الينا • هذا عدا أنه ما كان لك أن تستطيع ، من بُعد ، ان تحكم فى الامر حكم العارف المطلع• واليك تفصيل ما حدث : الرجل مستشار قضائى*، اسمه بطرس بتروفيتش لوجين • وهو يمت بقربى بعيدة الى مارتا بتروفنا التى شاركت فى الامر مشاركة كبيرة • لقد بدأ الرجل بأن أظهر لمارتا بتروفنا رغبته فى التعرف الينا ، فاستقبلناه كما ينبغي ان يُستقبل ، فشرب عندنا

القهوة ، فما ان جاء الغد حتى بعث الينا برسالة يعرض فيها طلبه بكثير من الكياسة ، ويلتمس رداً سريعاً قاطعاً . انه رجل من رجل الاعمال ، مشغول جداً ؛ ولما كان عليه ان يسافر الى بطرسبورج قريبا ، فان لكل دقيقة قيمتها عنده . طبيعي أننا ذُهلنا في أول الامر : لقد حدث ذلك كله على نحو مباغت مفاجىء ، بطريقة لم تكن في الحسبان ! بعد ذلك لبثنا معاً طوال النهار نفكر في الامر ونزن الاشياء . هو رجل يحتل مركزا مرموقاً : يشغل وظيفتين في آن واحد ويملك منذ الآن رأس مال له . الحق أنه يبلغ الخامسة والاربعين من العمر ، لكن مظهره لطيف ، ومايزال يستطيع ان يرضى النساء . وهو عدا ذلك رجل رصين لائق جداً . كل ما هنالك انه متجهم المزاج قليلاً ، متعال بعض التعالى ، ولكن قد لا يكون ذلك الا شعوراً أول ساورنا حين رأيناه ؛ ولهذا أحذرك يا بنى العزيز روديا من ان تحكم عليه بسرعة مسرفة واندفاع عنيف حين ستلقاه في بطرسبرج قريباً (على عادتك في سرعة الحكم وعنف الاندفاع) اذا انت رأيت فيه عند الوهلة الاولى شيئاً يصدم شعورك . أقول لك هذا من باب الاحتياط لكل مصادفة ، رغم يقينى من انه سيُحدث في نفسك اجمل الأثر . أضف الى ذلك ان على المرء ، اذا هو اراد ان يصل الى معرفة انسان من الناس ، أيا كان هذا الانسان ، أن يتصرف ازاءه تصرفاً فيه كثير من التروى والتعقل والحكمة والحذر ، والا فقد يقع في الخطأ ، وقد ينجرف الى التحيز ، فيصعب عليه كثيراً بعد ذلك ان يصحح ذلك الخطأ وان يزيل ذلك التحيز . ومهما يكن من امر فان قرائن كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن بطرس بتروفيتش رجل جدير بالاحترام . لقد اعلن لنا منذ اول زيارة أنه رجل وضعى عملى ، ولكنه في كثير من الامور يشارك « أجيالنا الجديدة آراءها » على حد تعبيره ، وأنه عدوٌ لجميع الاوهام الاجتماعية، ولقد قال أموراً اخرى كثيرة ، فهو اذا صدقت المظاهر رجلٌ

لا يخلو من شيء من الغـرور ، وهو يحب كثيراً أن يصغي النـاس الى كلامه وان يسمعوا لحديثه • ولكن هل تلك آفة كبيرة حقاً ؟ هل ذلك عيب خطير فعلاً ؟ أنا لم أفهم من حديثه أشياء كثيرة بطبيعة الحال ، ولكن دونيا شرحت لي أنه على نقص ثقافته انسان ذكي ، وانه طيب فيما يبدو • انك تعرف طبع اختك ، يا بني العزيز روديا • هي فتاة ثابتة صلبة عاقلة متابرة كريمة ، رغم أن لها قلباً حاراً وشعوراً متقداً ، وذلك أمر استطعت ان أدركه فيها • طبعاً ، لا مجال للحديث عن حب حقيقي ، لا من جانبها هي ولا من جانبه هو • ولكن دونيا ، عدا أنها فتاة ذكية ، هي في الوقت نفسه نبيلة كملاك. ولا بد ان تلزم نفسها باسعاد زوجها الذي لن يسعه الا ان يسعدها هو أيضاً • فحول هذه النقطة الاخيرة ليس لدينا حتى الآن أي سبب جدي يدعو الى الشك ، رغم ان الامر قد تم بشيء من السرعة ، كما ينبغي ان نعترف بذلك • يضاف الى هذا ان الرجل انسان حصيف الفكر سديد الرأي ، فلا شك في أنه سيرى بنفسه ان سعادته الزوجية نفسها ستكون مضمونة مزيداً من الضمان اذا سعدت دونيا بفضله مزيداً من السعادة • أما عما هنالك من بعض الاختلافات في المزاج والعادات القديمة وحتى من بعض الاختلافات في الآراء (وذلك ما لا يمكن تحاشيه حتى في اكثر حالات الزواج توفيقاً) فان دونيا كما قالت لي ذلك سوف تأخذ على عاتقها هذا الامر • انها تؤكد أنه لا داعي الى القلق ، وانها تستطيع احتمال اشياء كثيرة شريطة ان تبقى علاقاتهما على الدوام شريفة صادقة عادلة قائمة على المساواة والانصاف • يجب ان اقول لك ان الرجل بدا لي انا أيضـاً مسرفاً في الصرامة بعض الاسراف • ولكن ذلك قد يكون ناشـئاً عن أنه امرؤ صريح ، بل ان الأمر لكذلك حتماً • مثـال : انه أثناء زيارته الثانية ، بعد حصوله على الموافقة ، قد اعلن أثناء الحديث انه حتى قبل ان يعرف دونيا كان قد قرر ان لا يتزوج الا فتاة شريفة لا تملك

مهرا ، فتاة سبق أن عرفت تجربة الفقر وعانت مرارة البؤس ، لان الزوج يجب ان لا يشعر بأن لزوجته عليه فضلاً ، وانما يجب ان تشعر المراة ان زوجها هو المحسن اليها وصاحب الفضل عليها • يجب أن أذكر أنه قد عبَّر عن رأيه هـذا تعبيراً اكثر دقـة ولطافة ، وأقرب الى المودة والمحبـة من الكلمـات التى كتبتها أنا الآن ، لأننى نسيت الالفاظ التى استخدمها ، وأصبحت لا أتذكر الا الفكرة التى افصح عنها • ثم انه لم يكن قد هيَّأ اقواله وحضر عباراته ، فلا شك أن ذلك الكلام قد أفلت منه افلاتاً • لذلك حـاول بعدئذ ان يتـدارك الامر ، وأن يلطف الأثر الذى احدثته كلماته • ومع ذلك استثقلت كلامه قليلاً ثم فاتحت دونيا فى هذا، فأجابتنى دونيا ، وفى نفسها شىء من الغضب والحزن ، بان الأقوال لا تطابق الافعال دائماً ، وواضح ان كلام دونيا صادق • يجدر ان اذكر ان دونيا ، قبل اتخـاذ قرارها ، لم يغمض لها جفن طوال الليـل ، وأنها حين ظنت اننى غفوت قد نهضت عن فراشـها وأخـذت تمشى فى الغـرفة طولاً وعرضاً الى ان طلع الصبح ، ثم ركعت على ركبتيها ، ولبثت جاثيةً امام الأيقونة تصلى مدة طويلة بكثير من الحرارة والخشـوع ، حتى اذا طلع النهار اعلنت أنها قد اتخذت قرارها •

« سبق ان قلت ان بطرس بتروفيتش سيسافر الآن الى بطرسبورج. ان له هنالك اعمالاً مستعجلة ملحة : انه يريد ان يفتتح مكتباً للمحاماة• هو يعنى بهذا النوع من الاعمال منذ زمن طويل • وقد انتصر فى دعوى هامة فى الآونة الاخيرة • وينبغى له ان يسافر الى بطرسبورج حتماً لسبب آخر هو أنه سيترافع هنالك امام مجلس الشيوخ* فى قضية خطيرة• وهكذا ترى يا بنى العزيز روديا ، أنه سيكون فى وسعه ان يفيدك كثيراً • لقد رأينا انا ودونيـا انك ستسـتطيع منذ اليوم ان تبـدأ مهنتك ، وأن تعـد مستقبلك مضموناً ضماناً نهائياً • آه ألا ليت ذلك يتحقق ! ما أجمل ان

يتحقق ذلك ! سيكون علينا عندئذ ان نعد هذا اثرا من اثار نعمة الله علينا.
ان دونيا اصبحت لا تفكر الا في هذا . ولقد جازفنا انا ودونيا ، فاسمعنا بطرس بتروفتش كلمة حول هذا الموضوع ، فتكلم عندئذ بشيء من التروى والتعقل فاعلن انه ، بطبيعة الحال ، ما دام لا يستطيع ان يستغنى عن سكرتير ، سيفضل ان يدفع أجورا لعضو من أعضاء الاسرة على ان يدفع هذه الاجور لشخص غريب ، شريطه أن يبرهن القريب على انه قادر على القيام بهذه الوظيفة وعلى أداء هذه المهمة (كأنك انت عاجز عن ذلك !) . ولكنه لم يلبث ان ساوره شك أفصح عنه فقال انه يخشى أن لا تدع لك دراستك في الجامعة متسعاً من الوقت للعمل معه .
وقد وقف حديثنا عند هذا الحد ولكن دونيا لا يشغل بالها الآن أمر غير هذا الأمر ، وهي منذ بضعة ايام فريسة حمى حقيقية ، حتى لقد بنت لمستقبلك في خيالها مشروعاً ضخماً : انها تقدر انك ستستطيع في المستقبل ان تصبح مساعداً بل وشريكاً لبطرس بتروفيتش في أعمال المرافعات التي يقوم بها ، لا سيما وانك تدرس القانون . أما أنا ، يا روديا ، فانني متفقة معها كل الاتفاق ، أشاركها آراءها واشاطرها آمالها ، وأرى ان ذلك ليس بالمستحيل قط . ورغم ما يظهر الآن على بطرس بتروفتش من تحفظ ، وهو تحفظ يمكن فهمه جداً (لأنه لا يعرفك حتى الآن) ، فان دونيا مقتنعة اقتناعاً جازماً بانها ستصل الى تحقيق اهدافها بفضل التأثير الطيب الذي تعرف كيف تستطيع ان تحدثه في نفس زوجها . نعم ! انها من ذلك على اقتناع كامل . لقد تحاشينا طبعاً ان نكشف امام بطرس بتروفتش ، ولو بكلمة واحدة ، عن احلامنا البعيدة ، ولا سيما عن حلم ان نراك شريكا له في المستقبل . انه رجل وضعي عملي ، فقد يسيء النظرة الى هذا الأمر ، لأنه لن يرى فيه الا أحلاماً . كذلك لم نشر ، لا أنا ولا دونيا ، لم نشر اية اشارة الى أن نراه يساعدنا في أن نرسل

اليك ما أنت فى حاجة اليه من مال اثناء دراستك بالجامعة • اننا لم نتكلم فى هذا الامر ، أولاً لأنه سيتحقق من تلقاء نفســه فى المسـتقبل ، ولأن بطرس بتروفيتش سيعرض عليك هذه المســاعدة حتماً بدون اقوال زائدة (لن ينقصنا الا أن يأبى هذا على دونيا !) لا سـيما وأنك تسـتطيع أن تصبح ساعده الأيمن فى المكتب ، وأن الأمر لن يكون اذن أمر نجدة أو هبة بل أمر أجر تحصل عليه بجهدك• على هذا النحو انما تريد دونيتشكا أن ترتب الأمور • وأنا متفقة معها فى هذا كل الاتفـاق • وثانياً : نحن لم نتكلم فى ذلك لأننى حرصت خاصةً على أن أضعك فى موقف المساواة معه منذ لقائكما القادم • فحين كلمته دونيا عنك بحماسة أجاب بأن على المرء اذا هو أراد أن يحـكم على رجل من الرجـال أن يراه من قرب ، وقال انه يحتفظ لنفسه بحق تكوين رأى عنك بعد أن يتعرف اليك •

« هل تعرف يا روديا ، يا كنزى ، ما هو شـعورى الآن ؟ يخيَّل الىَّ ، استناداً الى بعض الخواطر التى تساورنى (وهى لا تتعلق ببطرس بتروفتش ، ولا تزيد على أن تكون أهواء امرأة عجوز) ، يخيل الىَّ أننى سوف احسن صنعاً اذا أنا لم أعش معهما بعد زواجهما• اننى واثقة ثقة مطلقة بأنه يملك من الكرم واللطف مايكفى لأن يدعونى من تلقاء نفسه ، ولأن يقترح علىَّ أن لا أنفصل عن ابنتى. واذا كان قد سكت عنهذا الأمر حتى الآن ، فلأنه أمر بديهى لا حاجة الى الكلام فيه• ولكننى سأرفض• لقد أمكننى أن ألاحظ اكثر من مرة خلال حياتى أن الأصهار لا يحبون حمواتهم كثيراً• وأنا لا أكره أن أحدث أى ازعاج لأى انسان فحسب ، وانما أريد كذلك أن أحتفظ بحريتى كاملة ما ملكت ولو لقمة من خبز ، وما بقى لى أولاد مثلك ومثل دونيتشكا • سأسكن غير بعيد عنكما اذا أمكن ذلك • هأنا ذا احتفظت لنهاية رسـالتى بأجمل شىء يمكن أن أزفه اليك يا روديا • اعلم يا بنى الحبيب أننا ربما اجتمع شملنا كلنا ثانيةً فىالقريب،

وأننا قد نتعانق نحن الثلاثة بعد هذا الفراق الذى دام قرابة ثلاثة أعوام • نعم لقد اصبح « يقيناً » منذ الآن أننا سنسافر آنا ودونيا الى بطرسبورج• أما متى نسافر فلست أدرى ، ولكننا سنسافر قريبا جدا ، ربما بعد أسبوع • ان كل شىء رهن بالاستعدادات التى سيتخذها بطرس بتروفيتش ، وسوف يبلغنا هذه الاستعدادات فور استقراره ببطرسبورج• انه يحرص لأسباب معينة أن يتم الزفاف بأقصى سرعة ويتمنى لو يتم الاحتفال به فى غضون شهر اذا أمكن ، أو فى أقرب موعد على أكثر تقدير ، أى بعد عيد الصوم الكبير فوراً • آه ! ما أعظم الفرح الذى سأشعر به حين سأشدك الى قلبى ! ان دونيا تضطرب أشد الاضطراب حين تتصور أنها ستسعد بلقائك • حتى لقد قالت مرة من باب المزاح انها مستعدة لأن تتزوج بطرس بتروفيتش لا لشىء الا هذا ! انها ملاك ، ملاك حقاً ! لن تضيف دونيا الى رسالتى هذه شيئاً ، ولكنها ترجونى أن اقول لك ان هناك أموراً كثيرة تريد أن تحدثك فيها ، أشياء تبلغ من الكثرة أنها لا تستطيع أن تعزم أمرها على تناول القلم ، لأن المرء لا يمكنه أن يقول ببضعة أسطر شيئاً ، فلو حاول أن يكتب لما زاد على أن يثير أعصابه• وهى تكلفنى كذلك بأن أضمك الى صدرى ضماً قوياً ، أن أعانقك عناقاً شديداً ، وأن أبعث اليك بقبلات لا حصر لها ولا عد •

« ولكن رغم أننا سنلتقى قريباً فان ذلك لن يمنعنى من أن أرسل اليك بعض المال فى الأيام القريبة • سوف أرسل اليك ما أستطيع ارساله• فالآن وقد علم جميع الناس أن دونيتشكا ستتزوج بطرس بتروفيتش قريباً أصبح فى وسعى فجأة أن استدين مبالغ أكبر من المبالغ التى كنت أستطيع أن أستدينها من قبل ، ولقد علمت من مصدر مطلع أن آتانازى ايفانوفيتش سوف يثق بى فيقرضنى سلفة على معاشى تبلغ ستين روبلاً ، فقد أستطيع أن أرسل اليك اذن خمسة وعشرين روبلاً بل ثلاثين • كان يمكن أن

أبعث اليك بمبلغ أكبر لولا أننى أخشى نفقات الطريق بعض الخشية فرغم أن بطرس بتروفيتش رجل طيب وأنه سيتحمل جزءاً من النفقات التى سيقتضيها سفرنا الى العاصمة ، أى رغم أنه عرض علينا أن يتولى الانفاق على شحن أمتعتنا وصندوقنا الكبير (بفضل ما له من علاقات) فان علينا أن نحسب حساب وصولنا الى بطرسبورج ، فليس يستطيع المرء أن يجىء الى هذه المدينة بلا قرش فى جيبه ، ولا سيما فى الأيام الأولى. على كل حال ، لقد أجرينا أنا ودونيا حساباتنا بأكبر دقة ممكنة ، فظهر لنا أن رحلتنا لن تكلف نفقات باهظة . ان المسافة بين بلدتنا وبين محطة السكة الحديدية لا تزيد على تسعين فرسخاً * ، وقد اتفقنا منذ الآن مع فلاح نعرفه على أن نقطع هذه المسافة بعربته كراءً . ومن هناك ، سنسافر سفراً مريحاً جداً فى الدرجة الثالثة من القطار . هكذا ترى أننى قد استطيع أن أرسل اليك لا خمسةً وعشرين روبلاً بل ثلاثين ... ثلاثين حتماً .

« ولكن حسبى هذا الآن ! لقد سودت ورقتين كبيرتين وجهاً وقفاً ، ولم يبق فيهما متسع لمزيد من الكلام . ثم انك قد عرفت الآن قصتنا كلها ... الله يعلم كم جرى لنا من أحداث ! والآن يا روديا ، يا كنزى الحبيب ... أقبلك بانتظار لقائنا القريب ، وأبعث اليك برضاى عنك وبركتى لك ! أحب أختك دونيا ، يا روديا ... أحبها كما تحبك ... واعلم علم اليقين أنها تحبك حباً لا نهاية له ، أنها تحبك اكثر كثيراً مما تحب نفسها ! هى ملاك يا روديا !... وأنت كل شىء عندنا يا روديا ... أنت أملنا كله ، وأنت مستقبلنا كله ! حسبنا أن تسعد أنت حتى نسعد نحن أيضاً ! هل تصلى لله دائما كما كنت تصلى له يا روديا ؟ أما زلت تؤمن برحمة خالقنا وفادينا ؟ اننى أخشى فى قرارة قلبى أن تكون الزندقة الرائجة فى هذا الزمان قد سرت عدواها اليك ! فاذا كان الامر كذلك ، فاننى اصلى من أجلك ، واستغفر الله لك . تذكر يا بنى الحبيب

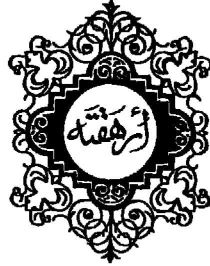
كيف كنت فيطفولتك اثناء حياة ابيك، تذكَّر كيف كنت تتمتم صلواتك جالسا على ركبتيك ، وتذكَّر كم كنا سعداء في تلك الايام !...
استودعك الله يا روديا ، بل « الى اللقاء » ! انني آشدك اليَّ شدا قويا ، أحضنك بذراعي ، أعانقك ، وأطبع على وجهك قبلات لا حصر لها ...

لك حتى الممات

« بولشيريا راسكولنيكوفا »

منذ بدأ راسكولنيكوف قراءة الرسالة الى آن أتمها ، لم تنقطع الدموع عن الجريان على خديه . ولكنه حين فرغ من قراءتها ارتعش وجهه الذي اصفر على حين فجأة ، وطافت به ابتسامة أليمة حانقة خبيثة شنَّجت شفتيه . وتهاوى برأسه على وسادته الهزيلة القذرة ، وراح يفكر ... راح يفكر مليـاً ... كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً ، وكانت افكاره مضطربة أشد الاضطراب . وأحس أخيراً باختناق في هذه الحجرة الصفراء التي تشبه أن تكون خزانة أو صندوقاً . ان نظراته وأفكاره تحتاج الى فضاء واسع . فتناول قبعته وخرج ... خرج دون أن يخشى في هذه المرة ان يلتقي بأحد على السلم ... أصبح لا يفكر في هذا الأمر . ومضى في اتجاه جزيرة فاسيلفسكي سالكاً شارع ف ... ، كأن أمراً ملحاً مستعجلاً كان يناديه الى هناك . ولكنه كان ، على عادته ، يسير دون أن يلاحظ أي شيء أثناء الطريق ، وكان يدمدم بكلام بينه وبين نفسه ، بل كان يتكلم أيضاً بصوت عال ، فيثير بذلك دهشة المارة ، حتى لقد حسبه كثير من الناس سكران .

الفصل الرابع



رسالة أمه ارهاقاً شديداً . ولكنه فيما يتعلق بالنقطة الجوهرية الأساسية لم يساوره الشك لحظةً واحدة حتى عند القراءة الأولى . كان قد اتخذ فى جوهر القضية قراراً لا رجعه عنه « لن يتم هذا الزواج ماحييت. فليذهب السيد لوجين الى الشيطان! ».

كان يجمجم قائلاً وهو يبتسم ويتلذذ منذ الآن تلذذاً خبيثاً بانتصار قراره : « الأمر واضح لا لبس فيه . لا يا أماه ، لا يا دونيا ، لن تستطيعا أن تخدعانى ... وهى تعتذر أيضا عن أنها لم تستشرنى وعن أنها رتبت الأمر دون علمى ودون ارادتى ! وماذا أيضاً ؟ هما تتخيلان اذن أنه لم يبق سبيل الى فسخ الخطوبة . طيب ! سوف نرى أهناك سبيل الى ذلك أم لا ! ويا لها من حجة غريبة : انه رجل مشغول جداً ، بطرس بتروفيتش هذا ... يبلغ وقته من الازدحام بالاعمال أنه لا يستطيع أن يتزوج الا على جناح السرعة ، حتى لكأنه يتمنى أن يتم الزواج فى عربة ان لم يكن فى القطار ! لا ، لا يا دونيتشكا ... وانى لأعلم ما هى الأشياء « الكثيرة » التى تريدين أن تحدثينى عنها ... وانى لأعلم أيضاً ما الذى فكرت فيه طوال الليل وأنت تذرعين الغرفة جيئة وذهاباً ، وما الذى طلبته فى صلواتك امام « عذراء قازان » التى توجد أيقونتها فى غرفة نوم أمنا . ما أشد وعورة طريق الجلجلة !... همْ ... هكذا

اذن ... كل شيء قد تقرر نهائياً ... تحسبين أن من الخير يا أدفوتيا رومانوفا أن تتزوجي رجلاً من رجال الاعمال ، رجلاً وضعياً عملياً ، يملك رأس مال له (أو فلنقل يملك « منذ الآن » رأس مال له ، فذلك أقرب الى الجد والى فرض المهابة والاحترام) رجلاً هو « فيما يبدو » طيب (كما تلاحظ دونيا نفسها) . ما أبلغ هذا التعبير : « فيما يبدو » ! ان دونيتشكا هذه نفسها هي التي ستتزوج ذلك الرجل ، الطيب « فيما يبدو » ! رائع ! رائع !...

« ... على أنني يهمني أن أعرف لماذا حدثتني أمي في رسالتها عن « الأجيال الجديدة » ؟ ترى أهي فعلت ذلك من اجل ان تصف لي طبع الرجل فحسب أم فعلته لغاية أبعد من ذلك هي أن تهيئني لان أحكم على السيد لوجين حكماً حسناً وأن أرى فيه رأياً جيداً ؟ آه ... يا للماكرتين! وانه ليهمني أيضاً ان اعرف الحقيقة فيما يتعلق بالنقطة التالية : الى أي حد كانت كل منهما صريحةً مع الأخرى في ذلك اليوم وفي تلك الليلة وفي سائر الوقت ؟ هل نُطقت جميع « الكلمات » حقاً ، أم ان كلاً منهما قد فهمت ما يدور في قلب الأخرى وما يجري في فكرها ، فكان كل كلام زيادة لا طائل تحتها ولا داعي اليها ؟ لعل الأمر كان كذلك ، في جلته على الأقل ... هذا ما يدركه المرء حق الادراك من الرسالة نفسها : فالرجل قد بدا لأمي « مسرفاً في الصرامة بعض الاسراف » ، ولا بد أن تكون أمي بسذاجتها المعهودة فيها قد أسمعت دونيا ملاحظتها الماعاً وتلميحاً ، ولا بد أن تكون الأخرى قد اغتاظت طبعاً فكان في جوابها شيء من « الغضب والحزن » . ذلك طبيعي ! من ذا الذي يمكن أن لا يغضب حين يكون الأمر واضحاً يفقأ العينين ، وحين لا يكون ثمة حاجة الى أية ملاحظة تقال ، وحين يكون كل شيء قد تقرر فلا داعي الى كلام ؟ ولماذا تكتب لي أمي قائلة : « أحبب دونيا ... فهي تحبك اكثر من نفسها ؟ »

أليس مرد هذا الى عذاب الضمير الذى يبرّحها خفيةً ، لأنها ضحّت فى سبيل ابنها بابنتها ؟ « انت املنا كله . انت عندنا كل شيء » آه يا أماه !

ان غضباً ما ينفك يشتد ويقوى كان يتجمع فى نفسه ويتراكم ، فلو لقى السيد لوجين فى تلك اللحظة ، اذن لقتله فى اغلب الظن .

واصل يقول متابعاً اعصار أفكاره الذى كان يعصف فى رأسه : « هم ... هذا حق ... هذا حق ... من أراد أن يعرف أحداً فعليه « أن يتصرف ازاءه تصرفاً فيه كثير من التروى والتعقل والحكمة والحذر » . ولكن السيد لوجين واضح شفاف . هو قبل كل شيء « رجل من رجال الأعمال » وهو « طيب فيما يبدو » . ألا نرى أنه يتولى شحن أمتعتهما وصندوقهما الكبير على نفقته ؟ فكيف لا يكون اذن طيباً ؟ والخطيبة والأم كلتاهما تستأجران فلاحاً يملك عربة ذات مظلة (أنا أعرف ما هذا، فقد بلوته ، وقطعت هذه المسافة بتلك الطريقة) . أى ضير ؟ ان المسافة لا تزيد على ٩٠ فرسخاً ، « ومن هناك نسافر سفراً مريحاً جداً فى الدرجة الثالثة من القطار » . الف فرسخ فى الدرجة الثالثة ! معقول جداً : ان كل انسان ينفق ما تسمح له موارده بانفاقه ! ولكن ما رأيك انت يا سيد لوجين ؟ ما رأيك أنت ؟ الفتاة خطيبتك ... ولا بد أنك تعلم أن الأم ستقترض سلفة على معاشها لتستطيع سداد نفقات الرحلة ! عقلك عقل تجارى محض طبعاً ... انت تنظر الى الأمر نظرتك الى مشروع تجارى يشترك فيه طرفان يقتسمان ارباحه نصيبين متساويين ، فلا بد أن يسهم كُلا منهما فى نفقاته بنصيبه كاملاً . لسان حالك يقول ما يقوله المثل السائر « الخبز والملح لى ولك ، أما التبغ فلكل تبغه الخاص به » . ولكن رجل الاعمال قد غشهما وغبنهما فى هذه النقطة أيضاً : نفقات شحن الأمتعة اقل من نفقات السفر ، وقد يستطيع رجل الاعمال هذا ان يشحن الأمتعة بالمجان . أهما لا تريان هذا أم هما لا تريدان أن ترياه ؟ والعجيب أنهما

راضيتان ، راضيتان ! وما هذه الا الازهار أما الثمار فستأتي بعد ذلك ! وأخطر ما في الامر ليس هو البخل ، ليس هو الشح ، وانما هو هذا « الطابع » العام الذي يطبع الامر كله مؤذنا بما ستصير اليه الاحوال بعد الزواج ... وأمي : ما بالها تريد ارتكاب حماقات ؟ بماذا ستصل الى بطرسبرج ؟ بثلاثة روبلات في جيبها ، أو « بورقتين صغيرتين » * كما تصور العجوز المسكينة ؟.. هم... وعلى أي شيء تعوّل من أجل أن تعيش بعد ذلك في بطرسبرج ؟ ولقد استطاعت مع ذلك ، كما تدل بعض القرائن ، أن تدرك أنه سيستحيل عليها أن تعيش مع دونيا حتى اثناء الآونة الأولى من الزواج . لا شك أن الرجل العزيز قد كشف القناع عن نفسه بطريقة أو أخرى ، لا شك أنه قد أفهمهما الأمر ، رغم أن أمي تستبعد هذا الافتراض بكلتا يديها قائلةً : « أنا سأرفض » . فعلى أي شيء تعوّل اذن ؟ أهي تعوّل على معاشها الذي يبلغ مائة وعشرين روبلاً سيقتطع منها الدين المقترض من آثانازي ايفانوفتش ؟ انها تقضي الشتاء كله في حياكة مناديل وتطريز أكمام ، فترهق بذلك عينيها المتعبتين . ولكن حياكة المناديل وتطريز الأكمام لا يضيفان الى المائة وعشرين روبلاً في السنة الا عشرين أخرى . أنا اعلم ذلك ! هي اذن تعتمد رغم كل شيء على كرم القلب ونبل النفس لدى السيد لوجين: « سيعرض عليّ من تلقاء نفسه أن يساعدني ، وسيلحّ ... » . لقد اخطأ ظنها فلن تنال ما تتمناه ! هكذا حال النفوس الرومانسية دائماً : تظل حتى آخر لحظة تزيّن الناس بريش الطاووس ، تظل حتى آخر لحظة تفترض الخير لا الشر ؟ ورغم تصورها وجود الشر فانها لا يمكن أن تعترف بذلك لنفسها بحال من الأحوال : ان تصور هذا وحده يصدمها ويهزها هزاً قوياً . فهي بيديها تحجب وجهها حتى لا ترى الحقيقة ، الى أن يأتي الانسان الذي زينته بريش ملون من خيالها فيصفع وجهها ويدمي أنفها بيده نفسها . ليتني

أعرف هل يحمل السيد لوجين أوسمة • انني أراهن على أنه يملك وسام « القديسة حنة » * وأنه يزين به عروته حين يذهب الى حفلة عشاء يقيمها أحد من المقاولين أو كبار التجار • ولن ينسى أن يفعل ذلك أيضاً يوم زفافه ! على كل حال ••• شيطان يأخذه !•••

« ووالله ... انى لأسامح أمى ، فهى كما هى، كان الله فى عونها !.. ولكن ماذا أقول عن دونيا ؟ انني اعرفك يا عزيزتي دونيتشكا ! كنت قد بلغت العشرين من عمرك حين التقينا آخر مرة • وقد ادركت طبعك وفهمت خصالك منذ تلك اللحظة • أمي تقول « ان دونيتشكا تستطيع احتمال اشياء كثيرة » ••• نعم ••• هذا أمر اعرفه ، اعرفه منذ سنتين ونصف سنة ••• وانا منذ سنتين ونصف سنة ، لا أفكر الا فى « هذا » ، لا أفكر الا فى « هذا » نفسه ••• وهو أن دونيتشكا « تستطيع احتمال أشياء كثيرة » • لئن استطاعت أن تحتمل السيد سفيدريجايلوف ، وأن تحتمل كل العواقب التى ترتبت على سلوكه ، فهذا دليل على أنها تستطيع فعلاً أن تحتمل أشياء كثيرة !••• وها هما الآن ، هى وأمى ، قد تخيلتا أن فى الأمكان احتمال رجل مثل لوجين ، لا يتحرج من شرح مزايا زواج الرجل بامرأة فقيرة لتشعر بفضلها عليه ، ولا يتحرج من شرح هذه النظرية منذ أول لقاء ! طيب ••• لنسلّم بأن ذلك قد « أفلت » من لسانه على غير ارادة منه ، رغم أنه رجل وضعى عملى (فمن الجائز أن شيئاً لم يفلت من لسانه افلاتا وانما هو أراد عامداً أن يوضح الأمور دون أن يضيع وقتاً) • ولكن ماذا أقول في دونيا ؟ ماذا أقول في دونيا ؟ لا شك أنها قد كشفت الرجل وأزاحت القناع عن وجهه وعرفته على حقيقته ، ثم هى تقبل أن تعيش معه ! انني اعرفها : انها تؤثر أن لا تأكل الا خبزاً وأن لا تشرب الا ماءً ، على أن تبيع روحها !••• انها لا يمكن فى سبيل الحصول على الرخاء والدعة أن تبيع روحها وأن تفقد حريتها !

انها تأبى أن تتنازل عن هذه الحرية فى سبيل دوقية شفلسفيج هولشتاين* كلها ، فكيف تتنازل عنها فى سبيل السيد لوجين ؟... لا ! ان دونيا التى أعرفها لم تكن هكذا ... ولا يمكن أن تكون قد تبدلت هذا التبدل كله ... ذلك مستحيل !... فماذا أقول ؟ صحيحٌ أنه أمر شاق عليها أن تحتمل أمثال آل سفيدريجايلوف ، وأن تظل طوال حياتها تمضى من اقليم الى اقليم لتعمل مربية فى سبيل أن تجنى مائتى روبل . ولكنى أعلم أن اختى تؤثر أن تساء معاملتها كما يسيء مزارع معاملة زنجى أو كما يسيء المانى من مقاطعات البلطيق معاملة رجل ليتونى * ، على أن تدنس روحها وأن تفسد حسها الأخلاقى بالارتباط الى الأبد برجل لا تحبه ولا يجمعها به شيء ! ولا بد أنَ ترفض أن تصبح خليلة شرعيــة للسيد لوجين ولو كان السيد لوجين ذهبا كله أو ماساً كله ! فلماذا تقبل هذا الزواج الآن؟ ما هو مفتاح السر ؟ الأمر واضح ! لو كانت تنشد مصلحتها هى ورخاءها هى ، لرفضت أن تبيع نفسها ولو لتجنب الموت . اما فى سبيل شخص آخر فانها مستعدة لأن تبيع نفسها ! نعم انها فى سبيل شخص محبوب ، فى سبيل شخص معبود ، مستعدة لأن تبيع نفسها ! ذلك هو مفتاح اللغز : انها فى سبيل اخيها وفى سبيل أمها قادرة على أن تبيع نفســها ، على أن تبيع كل شيء ! آه .. نعم اننا نستطيع عند اللزوم انَ نخنق حتى احساسنا الاخلاقى ! اننا نستطيع عند اللزوم أن نحمل الى السوق كل شيء فنبيعه فيها : الحرية ، الطمأنينة ، وحتى راحة الضمير ! ألا فلتتحطم حياتنا اذا كان فى ذلك سـعادة لأولئك الذين نحبهم ! واكثر من ذلك أننـا نلفق لأنفسنا عندئذ سفسطة خاصة نتعلمها من اليسوعيين فنريح ضمائرنا الى حين ، مسوّغين أعمالنا قائلين لأنفسنا : ان ما فعلناه هو ما كان ينبغى لنا ان نفعله ما دمنا نعمل فى سبيل هـدف نبيل وغاية شريفة ! نحن جميعاً هكذا . كل شيء واضح الآن وضـــوح النهـار . لا شـك أن روديون

رومانوفيتش راسكولنيكوف ، ولا أحد سواه ، قد احتل المقام الأول من الاعتبار فى هـذه القصـة • كيف لا ؟ ان من الواجب ان نعمـل لتوفير السعادة له ، وأن نعيله ما ظل فى الجامعة ، وأن نجعله فى المستقبل شريكاً لرجل من رجال الاعمال ، أى أن نضمن له مستقبله ، فيصبح غنياً محترماً مرموقاً ، حتى لقد يصل فى أواخر أيامه الى المجد • والأم ؟ ما قولنـا فى الأم ؟ كيف تضحى بابنتها هذه التضحية ؟ ولكن الأمر هنا امر ولدها الأول ، أمر ابنهـا روديا ، أمر ابنها الغـالى روديا ! فكيف لا تضحى فى سبيل مثل هذا الولد الأول بمثل هذه البنت ؟ يا لظلمك أيتها القلوب العزيزة ! أتجهلين اذن أن المرء قد تدفعه نية كهذه النية أن يشاطر صونيا مصيرها ؟ نعم صونيا ، صونيتشكا مارملادوفا ، صونيتشكا الخالدة ، الخالدة خلود العالم ! ولكن هل تصورتما كلتاكما مدى هذه التضحية ؟ هل هذه التضحية هى حقاً ما تفكران فيه ؟ هل تملكان القـدرة على القيـام بهذه التضحية ؟ وهل هذه التضحية مفيدة حقاً ؟ هل تعلمين يا دونيتشـكا ان مصير صونيا ليس أفظع من مصير امرأة قُضى عليها أن تعيش مع السيد لوجين ؟ ان امى تقول : « لا مجال للكلام عن حب حقيقى » ولكن ماعسى يحدث ، بصرف النظر عن قضية الحب هذه كلها ، اذا لم يكن هنالك أيضاً شىء من الاعتبـار والاحترام ، بل كان هنـالك منذ الآن نفور واحتقـار واشـمئزاز ؟ ما عسى يحدث حينذاك ؟ سـيكون من الواجب عندئذ مرة أخرى « مراعاة النظافة » • أليس الأمر كذلك ؟ هل تفهمان ، هل تفهمان حق الفهم ماذا تعنيـه هـذه « النظافة » ؟ هـل تدركان ان هـذه النظافة لا تختلف فى نظر رجل مثل لوجين عن نظافة صونيتشكا ، بل من الممكن أن تكون أحقر منها وأدنى وأسفل ، لأنك يا دونيتشكا تستهدفين مزيداً من الرخاء ، أما هنالك فالأمر لا يزيد على الرغبة فى تحاشى الموت جوعاً. « انها تكلف ثمناً باهظاً ، باهظاً جداً يا دونيتشكا ، تلك النظافة » ! وماذا

اذا أصبح الحمل فى المستقبل أثقل من أن تطيقيه ، فاستبدت بك الندامة ؟ ما أشد ما ستشعرين به عندئذ من حزن ومن كرب ، وما اكثر ما سيلاحق ضميرك عندئذ من لعن ، وما أغزر ما ستذرفين عندئذ من دموع تخفينها عن أعين الناس ، لأنك لست امرأة مثل مارتا بتروفنـا على كل حال ؟ وما عسى تصير اليه امنا حينذاك ؟ انها منذ الآن قلقة معذبة ، فكيف تكون حالها فى المستقل حين ترى كل شىء رؤية واضحة ؟ وأنا ؟... ما الذى تظنينه فىّ اذن ؟ اننى لا أريد هذه التضحية يا دونيتشكا ! اننى لا أريدها يا أمـــاه ! لا ، لن يتم هــذا الأمــر ما حييت ، لن يتم ، لن يتم ! اننى أرفضه !... » .

هنا ثاب راسكولنيكوف الى رشـده فجأة ، فتوقف عن السـير ، ثم واصل يخاطب نفسه : « لن يتم هذا الزواج ؟ ولكن ما عساك تفعل حتى تحول دونه ؟ أتمنعهما ؟ ولكن بأى حق تمنعهما ؟ ما الذى تسـتطيع أن تبدهما به فى مقابل ممارسة مثل هذا الحق ؟ ان تقف عليهما حياتك كلها ومستقبلك كله متى أنهيت دراستك ووجدت عملاً ؟ أغنية معروفة !... ذلك كله هو المستقبل ، فماذا فى الحاضر ؟ يجب عليك اذن أن تعمل شيئاً منذ الآن ، هل تفهم ؟ فمـاذا تفعل انت الآن ؟ انك تعيش عالة عليهما . والمال الذى تنفقانه عليك انما تقترضـانه سـلفةً على معاش التقاعد وعلى أجور من أمثال سـفيدريجايلوف ! وكيف عسـاك تحميهما من امثـال سفيدريجايلوف وأمثال أتانازى ايفانوفيتش فاخروشين ؟ انت يا مليونير المستقبل ، انت يا اله الأولمب الذى تتحكم بمصـيرها ، أبعد عشر سنين تفعل لهما شيئاً ؟ ولكن امك سـتكون بعد عشر سـنين قد فقدت بصرها من فرط اكبابها على حيـاكة المناديل ، وربما من فرط ذرفها للدموع ، وسيكون تكرر الصيام عن الطعام والحرمان من الغـذاء قد انتصر عليها فهدم جسمها !... أما اختك ... فهيـّا تخيل قليلاً ما ستصير اليه بعد

عشر سنين ، هيَّا تخيل قليلاً ما ستئول اليه حالها بعد عشر سنين !.. »

هكذا ، بهذه الأسئلة ، انما كان راسكولنيكوف يعذب نفسه ، فكان الاهتياج الذى يحسُّه من ذلك يستحيل الى نوع من تلذذ . على ان هذه الأسئلة ليس فيها شيء غير متوقع . انها غير جديدة عليه ، بل هى قديمة جداً ، وهى تعذبه منذ زمن طويل . نعم ، لقد كانت هذه الأسئلة تعذبه وترهقه وتمزق قلبه منذ زمن طويل . لقد كان هذا القلق يشب فى نفسه وينمو ويتراكم منذ زمن طويل . ونضج هذا القلق فى الآونة الأخيرة ، وتركز وتكثف ، فاذا هو يتخذ صورة سؤال رهيب ، سؤال وحشى عجيب مسعور ، يضنى قلبه وفكره ، ويطلب جواباً لا سبيل الى تحاشيه . وها هى ذى رسالة أمه تنقض عليه فجأة كما تنقضُّ الصاعقة. أصبح واضحاً أن الواجب الذى يقع على عاتقه الآن ليس هو أن يتشكى وأن يتألم قاعداً لا يعمل ، وانما ينبغى له الآن أن يفعل شيئاً بأقصى سرعة ممكنة ، بل وينبغى له أن يفعل شيئاً على الفور . ان من واجبه أن يتخذ قراراً مهما كلف الأمر ، أيا كان هذا القرار ، أو أن ...

ثم صاح يقول فجأة بصوت عال وقد خرج عن طوره : « ... أو أن أستغنى عن الحياة ، فأقبل مصيرى صاغراً الى الأبد ، وأخنق فى نفسى كل شيء ، وأتنازل عن حقى فى أن أعمل ، وأن أحيا ، وأن أحب ! ».

وتذكر السؤال الذى ألقاه عليه بالأمس مارميلادوف ، فدمدم يردِّده : « هل تدرك يا سيدى العزيز ما معنى أن لا يعرف الانسان الى أين يذهب ؟ ذلك أنه لا بد لكل انسان أن يستطيع الذهاب الى مكان ما ».

وارتعش راسكولنيكوف على حين فجأة . ان فكرة آتية من الليلة البارحة هى أيضاً قد ومضت فى ذهنه مرة أخرى . ولكن لئن ارتعش ، فانه لم يرتعش لأن هذه الفكرة قد ومضت فى ذهنه . لقد كان يعلم ،

كان يوجس أن هذه الفكرة لا بد أن تعاوده ، فكان يتوقعها وينتظرها • غير أن هذه الفكرة ليست الآن ما كانت فى الليلة البارحة ، والفرق بينها وبين فكرة الليلة البارحة أنها لم تكن منذ شهر ، ولا فى الليلة البارحة ، الا حلماً ، أما الآن ••• أما الآن فهى لا تعرض لفكره فى صورة حلم ، بل هى تعرض له فى صورة جديدة ، فى صورة رهيبة مخيفة ، لا عهد له بها من قبل ••• لقد أدرك ذلك على حين بغتة ••• فأخذ الدم يدق فى صدغيه ، واسودّ كل شىء أمام عينيه •

ألقى على ما حوله نظرة سريعة • كان يبحث عن شىء ما • كان يريد أن يجلس ، فهو يبحث عن دكة يقعد عليها • انه الآن فى شارع ك ••• وعلى مسافة مائة خطوة توجد دكة •

اتجه راسكولنيكوف نحو الدكة بأقصى سرعة يستطيعها ، غير أن حادثاً صغيراً وقع له أثناء الطريق ، فشدّ انتباهه كله خلال بضع دقائق•

لقد لمح ، وهو يبحث بنظره عن الدكة ، لمح امرأة كانت تسير أمامه، على بعد عشرين خطوة تقريباً • غير أنه فى أول الأمر لم يولها أى انتباه ، كما لم ينتبه الى كل ما كان قد صادفه حتى الآن • لقد اتفق له ، مراراً كثيرة ، أن رجع الى منزله دون أن يتذكر الطريق الذى سلكه • تلك عادة أصبحت راسخةً فيه • ولكن المرأة التى تسير أمامه الآن فيها شىء يبلغ من الغرابة والشذوذ ومن القدرة على لفت النظر وخطف البصر ، أن انتباهه قد تركز عليها شيئاً بعد شىء ، رغم ارادته وعلى ما يشبه المضض فى أول الأمر ، ثم بقوة ما تنفك تزداد بعد ذلك • واستبدت به رغبة مفاجئة فى أن يعرف ما هو الشىء الذى يبلغ فى هذه المرأة ذلك المبلغ كله من الغرابة • وسرعان ما أدرك أنها لا بد أن تكون فتاة فى ريعان الشباب• كانت الفتاة ، رغم الحر الشديد ، تسير حاسرة الرأس بلا مظلة

ولا قفازين ، مرجّحة يديها بحركات غريبة مضحكة • وكانت ترتدى ثوباً صغيراً من حرير خفيف ، لكن فيه شيئاً من الغرابة والشذوذ هو أيضاً ، فلا يكاد يضم طرفيه ابزيم ، وقد انشق من الخلف عند الخصر ، وتمزق جزء كبير من أسفله فتهدل • وكانت تضع حول عنقها العارى منديلاً قد لُفّ مقلوباً • وكانت الفتاة ، فوق ذلك ، تمشى مشية مضطربة ، فهى تتعثر وتترنح ذات اليمين وذات الشمال • ان هذا اللقاء أثار كل اهتمام راسكولنيكوف آخر الأمر • وقد أدركها لحظة كانت تقترب من الدكة ، ولكن الفتاة ما ان وصلت الى الدكة حتى تهالكت تجلس على أحد طرفيها ، وتقلب رأسها الى وراء فتسنده الى ظهرها ، وتغمض عينيها وقد ظهر عليها أنها محطمة من فرط التعب • فلما تأمّلها لم يلبث أن لاحظ أنها ثملة قد أخذ السكر منها كل مأخذ • وكان ظهورها على هذا النحو يبلغ من الغرابة والشذوذ أن راسكولنيكوف تساءل هل تصدقه عيناه • كان أمامه وجه بائس فى ميعة الصبا ، وجه لا يزيد عمره على ستة عشر عاماً ، وقد لا يزيد على خمسة عشر عاماً ، دقيق نحيل يحف به شعر أشقر ، جميل ولكنه محتقن حتى لكأنه منتفخ متورّم • وكان يبدو أن الفتاة لا تعى شيئاً • لقد وضعت ساقاً فوق ساق، فانكشف من ساقيها ما لا يليق أن ينكشف ، وأغلب الظن أنها كانت لا تكاد تدرك أنها فى الشارع •

لم يجلس راسكولنيكوف ، ولكنه لم يشأ أيضاً أن ينصرف ، فبقى واقفاً أمامها وقد استولت عليه الحيرة واستبد به الاضطراب • كان الشارع شبه خال : ففى الساعة الواحدة بعد الظهر من ذلك اليوم ، أثناء ذلك الحر الشديد ، لم يكد يمر فى الشارع أحد • ومع ذلك فعلى بُعد خمس عشرة خطوة ، كان قد وقف سيد عند حافة الشارع يبدو واضحاً أنه يريد هو أيضاً أن يقترب من الفتاة لغاية واضحة • لا شك أنه كان هو

أيضـاً قد لمحهـا من بعيد فتبعها • ولكن راسـكولنيكوف يضـايقه الآن ويزعجه • ألقى السـيد على راسـكولنيكوف نظرات فيها كره وبغض ، محاولاً مع ذلك أن لا يظهر من هذا شيئاً ، وأخذ ينتظر ، بفارغ صبر ، انصراف هذا المتشرد الذى جاء فى غير أوانه ليحتل مكانه • كان الأمر اذن واضحاً • والسيد رجل فى نحو الثلاثين من عمره ، بدين الجسم ، سمين ، نضر الوجه ، يعلو شفتيه شاربان صغيران ، ويرتدى ثيـاباً أنيقة كل الأناقة • غضب راسكولنيكوف غضباً رهيبـاً ، واستبدت به على حين فجأة رغبةٌ جامحة فى أن يهين هذا السيد المتجمل المتـأنق بطريقة أو بأخرى ، فترك الفتاة لحظةً ، واقترب من السيد ، وصاح يقول وهو يشد قبضتى يديه ضاحكاً مُزْبداً :

ـ هيه ! أنت ! سفيدريجايلوف !

فسأله الرجل بلهجة قاسية متعالية متكبرة وقد قطب حاجبيه وظهرت الدهشة فى وجهه :

ـ ما معنى هذا الذى تقول ؟

ـ معناه اغرب عن وجهى ! هذا معناه !•••

ـ كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام أيها الوغد الحقير ؟

قـال الرجل ذلك وشـــهر ســوطه يلوّح به • فمـا كان من راسكولنيكوف الا أن هجم عليه قابضاً كفيه ، حتى دون أن يقول لنفسه ان هذا السيد السمين يستطيع بسهولة أن يجهز على شخصين من قدّه •

ولكن أحداً قد أمسكه من خلف فى تلك اللحظة نفسـها امسـاكاً قوياً : انه رجل من رجال الشرطة يتدخل فى المشاجرة •

ـ هيه ! ما بالكما أيها السيدان ؟ هلاّ امتنعتما عن الاقتتال فى الطريق العام ؟

ثم قال يسأل راسكولنيكوف بلهجة قاسية بعد أن تفحص أسماله البالية :

ــ ماذا تريد ؟ من أنت ؟

تفرس فيه راسكولنيكوف بانتباه • ان للرجل وجه جندى شجاع طيب ، مع شاربين ولحيتين على العارضين قد وخط شعرهما الشيب ، وان له نظرة تفيض تعبيراً عن الحس السليم والعقل الراجح •

صرخ راسكولنيكوف يقول وهو يمسك ذراع الشرطى :

ــ أنت أنت من احتاج اليه !

والتفت يخاطب السيد بقوله :

ــ اسمى راسكولنيكوف ••• اذا كنت تريد أن تعرف اسمى !•••

وعاد يخاطب الشرطى فقال :

ــ تعال معى ! سأريك شيئاً !

وقاد الشرطى من يده الى الدكة ، وأخذ يتدفق فى الكلام قائلاً له:

ــ انظر ! انها سكرى تماماً ••• كانت مارة فى الشارع منذ قليل ••• لا يدرى أحد من أين خرجت ••• ولكن لا يبدو عليها أنها محترفة ••• أغلب الظن أنهم اسكروها فى مكان ما ، ثم عبثوا بها ، لأول مرة فى حياتها ••• هل تفهم ؟ ثم رموها فى الشارع ••• انظر الى ثوبها كيف تمزق ••• انظر اليه كيف لُبس ••• انها لم تلبس ثيابها بنفسها ، بل ألبسها اياها ثيابها ••• ألبستها ثيابها أيدٍ غير خبيرة ، ألبستها ثيابها أيدى رجال ••• ذلك واضح ! ثم انظر الآن هناك : انظر الى ذلك الرجل المتأنق الذى يحسب نفسه جميلاً ، والذى أردت أنا أن أضربه منذ لحظة ••• أننى لا أعرفه ••• ما رأيته فى حياتى قبل اليوم ! لكنه لاحظها هو

أيضاً في الطريق ، فأدرك أنها سكرى ، وأنها فاقدة شعورها كله • وهو الآن تحرقه رهبة في أن يقترب منها وأن يقودها الى مكان ما وهي على هذه الحالة ••• ذلك هو ما يريده حتماً ••• صدّق أنني غير مخطىء••• لقد رأيت بنفسي كيف رصدها وتبعها ••• ولكن وصولي أفسد عليه خطته ، فكان ينتظر أن أنصرف ، وما يزال ينتظر أن أنصرف ••• انظر اليه ••• لقد ابتعد قليلاً ••• وها هو ذا يقف متظاهراً بأنه يلف سيجارة ••• كيف نفعل حتى لا ندع له أن يستولي عليها ؟ ليتنا نستطيع أن نقودها الى منزلها ••• ما رأيك ؟

سرعان ما أدرك الشرطي الموقف • ان حالة السيد السمين واضحة لا سبيل الى الشك فيها • بقي أن تُعرف حالة الفتاة• مال الشرطي الطيب عليها ليراها من قرب ، فارتسمت على قسمات وجهه عاطفة شفقة صادقة•

ودمدم يقول وهو يهز رأسه :

ـ يا للمسكينة ! ما تزال طفلة حقاً ! لا شك انهم عبثوا بها !

ثم أضاف يناديها :

ـ اسمعي يا آنسة ! اين تسكنين ؟

فتحت الفتاة عينيها المكدودتين المضطربتين الزائغتين ، وألقت نظرة مشدوهة على الرجلين المزعجين ، وأجرت يدها بحركة كأنها تريد أن تطردهما •

قال راسكولنيكوف وهو ينبش جيبه فيخرج منه عشرين كوبكاً كانت ما تزال فيه :

ـ اسمع ! خذ هذه النقود ، وناد حوذياً ، ومُره أن يقودها الى بيتها • ليتنا نستطيع ان نعرف عنوانها !•••

عاد الشرطي يقول وهو يتناول النقود :

ـ يا آنسة ! هيه ! يا آنسة ! سأنادى عربة على الفور فأعود بك الى منزلك بنفسى ! الى اين يجب أن أقودك ؟ قولى ! اين تسكنين ؟

فجمجمت الفتاة تقول وهى تُجرى يدها بتلك الحركة نفسها :

ـ دعونى وشأنى ! لا تتشبثوا بى !

ـ آه ! ليس هذا بالمستحسن يا آنسة ! هذا عيب . هذا عيب حقاً.

وهز رأسه من جديد ، معبّراً عن الحرج والشفقة والاستنكار فى آن واحد ، ثم تابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف وهو يروزه مرة أخرى من أخمص القدمين الى قمة الرأس (كان يستغرب أن يهب المرء نقوداً ثم هو يرتدى مثل هذه الأسمال الرثة البالية) :

ـ نعم ... العنوان .. تلك هى المسألة !...

وأضاف يسأله :

ـ هل التقيت بها فى مكان بعيد عن هنا ؟

ـ سبق أن قلت لك: كانت تسير أمامى مترنحة ، هناك ، فى الشارع، فما ان وصلتْ الى الدكة حتى تهاوت عليها !

ـ آه ! ما أكثر العار الذى سقط على العالم يا رب ! أطفلةٌ وسكرى ؟ لا شك أنهم قد عبثوا بها ! ذلك واضح ... انظر الى ثوبها كيف تمزق كل التمزق ... هه ... ان الدعارة تحقق تقدماً كبيراً فى هذا الزمان !... ومن يدرى ؟ لعلها من أسرة طيبة جار عليها الدهر فأصابها بالدمار ... أمثال هذه الحالات كثيرة فى هذه الأيام ... ان المرء حين يراها لطيفةً هذا اللطف كله مرهفةً هذه الرهافة كلها ، يمكن أن يحسبها آنسة .

قال الشرطى ذلك ومال عليها من جديد . لعل له هو أيضاً بنات

« تبلغ من اللطف والرهافة أن المرء يمكن أن يحسبهن آنسات » يصطنعن آداب الفتيات الراقيات •

قال راسكولنيكوف :

ـ الأمر الأساسى هو ألا تتركها لهذا الوغد الدنىء ! ان من الممكن أن يلحق بها ايذاءات جديدة • نياته واضحة وضوح النهار ! يا للوغد القذر ! انه لا ينصرف •

كان راسكولنيكوف يتكلم بقوة وهو يومىء الى السيد باصرار عنيد • سمعه الرجل فأوشك أن يغضب من جديد ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك واكتفى بأن ألقى عليه نظرة احتقار ، ثم ابتعد ببطء مسافة عشر خطوات ، وتوقف مرة أخرى •

أجاب الشرطى العجوز واجماً مفكراً يقول :

ـ أن لا ندعها له فذلك يكون أمراً سهلاً اذا نحن عرفنا المكان الذى ينبغى أن نقودها اليه ، ولكن •••

قال الشرطى ذلك ومال على الفتاة مرة اخرى وأخذ يناديها :

ـ يا آنسة ! هيه ! يا آنسة ! يا آنسة !

فتحت الفتاة عندئذ عينيها محملقة ، ونظرت بانتباه كأنما هى فهمت شيئاً ما ، ثم نهضت عن الدكة واستأنفت سيرها فى الاتجاه الذى كانت آتية منه • وجمجمت تقول وهى تُجرى يدها بتلك الحركة نفسها كأنما لتتخلص من الرجلين : « آه ! انهم لا يتحرجون ولا ينفكون يتشبثون »•

كانت تمشى بسرعة ، ولكنها تترنح فى مشيتها كترنحها منذ قليل• تبعها السيد الأنيق دون أن يحوّل بصره عنها ، سائراً فى ذلك الطريق نفسه •

وأسرع الشرطي ذو الشـــاربين الكبيرين يمشي وراءهمـا قائلاً لراسكولنيكوف بلهجة جازمة :

ـ لا تخف ، لن أتركها !

وكرر يقول متنهداً :

ـ رباه ! ما هذا الفسق الذى نراه فى هذا الزمان !

فى تلك اللحظة نفسها أحس راسـكولنيكوف فى داخله بما يشبه أن يكون وخزة ، فاذا بكل شيء فى نفسه ينقلب رأساً على عقب ، واذا هو ينادي الشرطي صائحاً :

ـ هيه ! اسمع !

التفت الشرطي فقال له راسكولنيكوف :

ـ دعهما ! أى أذى يمكن ان يلحقك أنت من هـذا ؟ دع الأمور تجرى على أعنتها ! دع الرجل يتسلى ! (قال ذلك وهو يشـير بيده الى السيد الأنيق) • ما شأنك انت وهذا كله ؟

لم يفهم الشرطي شـيئاً وحملق متعجباً • وأخـذ راسـكولنيكوف يضحك • قال ممثل الأمن العام وهو يحرك يده :

ـ ايه ! ايه !

وعاد يلاحق السيد الأنيق والفتـاة الصغيرة • اغلب الظن أنه كان يعد راسكولنيكوف مجنونا أو شراً من ذلك •

فلما أصبح راسكولنيكوف وحيداً ، دمدم يقـول فى خبث : « أخذ منى أنا عشرين كوبكاً ، وسوف ينفحه السيد الأنيق مبلغاً صـغيراً آخر فيترك له البنية • نعم ••• هكذا ستنتهى الأمور ••• لماذا أقحمت نفسى

فيما لا يعنيني ؟ لماذا تدخلت في سبيل أن أحميها ؟ هل عليّ أنا أن أفرض نفسي حاميا ؟ هل من حقي أن أحمي أحداً أياً كان ؟ ألا فليلتهم بعضهم بعضاً أحياءً ... ما شأني أنا وهذا ؟ وكيف تجرأت أن أهب تلك الكوبكات العشرين ؟ أهي ملكي ؟ » .

ورغم هذه الأقوال الغريبة ، كان راسكولنيكوف يحس بقلبه ثقيلاً ثقيلاً . جلس على الدكة المهجورة وشردت افكاره ... كان يصعب عليه في تلك اللحظة أن يفكر في أي شيء . ودّ لو يغيب عنه وعيه ... ودّ لو ينسى كل شيء فما يشعر بشيء ... ثم يستيقظ بعد ذلك فيستانف حياة جديدة .

قال لنفسه وهو ينظر الى طرف الدكة الذي اصبح الآن خالياً : « يا للصغيرة المسكينة ! سوف تصحو فتبكي ، وسوف تعلم أمها بكل شيء ... فتضربها أولاً ، ثم تجلدها الى أن تتفجر من جسمها الدماء ... ستجلدها جلداً فيه أبلغ الاذلال وأعمق الاهانة ... وقد تطردها من البيت ... وهبها لم تطردها ، فلا بد أن تعلم بالأمر امرأة من أمثال داريا فرانتسوفنا ... وستأخذ الفتاةُ تجري هنا وهناك ، ستأخذ تتدحرج من هنا الى هناك ... ثم سرعان ما تُنقل الى المستشفى (تلك دائما حال البنات اللواتي يعشن مع امهات شريفات جداً ويتعاطين الفحش خفيةً) ... ثم تُنقل الى المستشفى من جديد ... شراب وحانات ثم المستشفى دائماً ... وما ان تنقض سنتان أو ثلاث حتى تصبح حطاماً ... ما ان تبلغ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة حتى تنتهي !... ألم أرَ فتيات كثيرات في مثل حالتها ؟ كيف كنّ يصلن الى ذلك المصير ؟ بهذه الطريقة نفسها ! آه ... لا ضير ! يقال ان الأمور يجب أن تجري هذا المجرى ... يقال ان هناك نسبة مئوية لا بد أن يُضحّى بها كلّ عام ... للشيطان في أغلب الظن ... وذلك في سبيل ضمانة راحة الأخريات...

نسبة مئوية ! ان لهم تعبيرات فيها كثير من الجمال حقاً ... وهى فوق ذلك تعبيرات مطمئنة جداً ، علمية جداً ! ما داموا يتحدثون عن نسبة مئوية ، فلا داعى الى أن يصدّع المرء رأسه ... آ ... لو قد استعملوا كلمةً أخرى ، فمن الجائز ... عندئذ ... أن يكون الأمر أدعى الى القلق ... هكذا ! ... وماذا لو كان على دونيا أن تدخل فى النسبة المئوية ، بطريقة أو بأخرى ... فان لم تدخل فى هذه النسبة دخلت فى تلك على الأقل ؟ » .

وتساءل راسكولنيكوف فجأة : « ولكن الى أين أنا ذاهب ؟ ألا انه لأمر غريب ! لقد كان لى هدف حين خرجت الى الشارع . فما ان فرغت من قراءة الرسالة حتى نزلت أريد الذهاب الى عند رازوميخين ، فى جزيرة فاسيلفسكى ... نعم ، ذلك هو المكان الذى كنت ذاهباً اليه ... الآن تذكرت . ولكن لماذا أذهب الى رازوميخين ؟ لماذا خطر ببالى أن أذهب الى رازوميخين لا الى غيره ، فى تلك اللحظة لا فى غيرها ؟ شىء عجيب ! » .

دُهش هو نفسه من قراراته . ان رازوميخين هو أحد رفاقه القدامى فى الجامعة . الغريب أن راسكولنيكوف ، فى أيام الدراسة بالجامعة ، لم يكن له أصدقاء تقريباً ، وكان لا يعاشر أحداً من زملائه ، لا يزور أحداً منهم ولا يستقبل أحداً . ثم ان جميع رفاقه كانوا قد تحولوا عنه بسرعة . كان لا يشارك لا فى الاجتماعات ، ولا فى المناقشات ، ولا فى المتع والمباهج ، ولا فى أى شىء آخر . وكان يعمل بجد واجتهاد ، دون أن يراعى نفسه ، وبذلك استطاع أن يحصل على احترام جميع رفاقه . ومع ذلك لم يكن يحبه أحد منهم . وكان راسكولنيكوف فقيراً كل الفقر ، ولكنه كان متعداً قليل الكلام ، حتى لكأنه كان يريد أن يخفى شيئاً فى نفسه . وقد رأى بعض رفاقه أنه ينظر اليهم من

عل ، كما ينظر المرء الى الأطفال تقريباً ، وكما لو كان يفوقهم ذكاء ونضجاً وفكراً وثقافة ورأياً . كانت اقتناعاتهم واهتماماتهم تبدو له دون مستواه كثيراً .

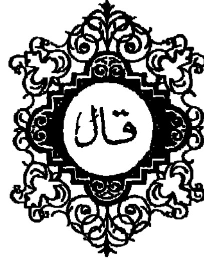
ومع ذلك ربطته صداقة برفيقه رازوميخين ، مهما يكن سبب هذه الصداقة . على الأقل ، كان مع رازوميخين أقل امتناعاً عن الكلام ، وأكثر صراحة مما كان كذلك مع أى رفيق آخر . وكان من المستحيل على كل حال أن يتصرف المرء مع رازوميخين غير هذا التصرف . كان رازوميخين فتى شديد المرح حلو المعاشرة ، وكان عدا ذلك طيب القلب الى حد السذاجة ، ولكنها سذاجة تخفى وراءها عمقاً صادقاً وكرامة لا سبيل الى جحودها ، وكان خير رفاقه يعترفون له بذلك ويحبونه . ولم يكن رازوميخين بالغبى ، رغم أنه كان يبدو فى بعض الأحيان بسيطاً بعض البساطة . وكان مظهره يخطف الانتباه : كان طويلاً ، نحيلاً ، أسود الشعر ، قليل العناية بحلاقته دائماً . وكان يتفق له أن يحدث شغباً ، وكان يُعدُّ أشبه بهرقل ، بعضَ الشىء . ففى ذات ليلة ، أثناء جولة مع رفاقه ، قلب رجلاً من رجال الأمن طوله ستة أقدام . وكان يستطيع أن يشرب دون قصد ولا اعتدال ، ولكنه كان يستطيع كذلك أن لا يشرب البتة . وكان فى بعض الأحيان يدبر لغيره المكائد ، ولكنه كان يعرف كيف يحمى نفسه منها . وكان رازوميخين يتصف أيضاً بهذه الصفة البارزة : ما من خيبة يمكن أن تثبط عزيمته وتفل شجاعته قط ، وما من ظرف سىء من الظروف يمكن أن يحمله على الانهيار . وكان يستطيع أن يسكن فى أى مكان ، ولو تحت السقوف ، وأن يتحمل آلام الجوع وأهوال البرد . كان فقيراً جداً ، فكان ينفق على نفسه بنفسه ، حاصلاً على المال من تعاطى شتى أنواع الأعمال الصغيرة . كان يعلم أن فى وسع المرء دائماً أن يتدبر أمره فيفى بحاجاته ، على شرط أن يعمل

طبعاً ••• وقد اتفق له أن قضى شتاء بكامله دون أن يدفىء غرفته ، حتى لقد أكد أن لعدم التدفئة فوائد ومزايا ، لأن المرء ينام فى الجو البارد نوماً أفضل •

وقد اضطر رازوميخين ، فى ذلك الأوان ، أن يترك الجامعة هو أيضاً ••• ولكن الى حين ، فيما كان يعتقد • فكان يحاول ، بكل ما يملك من قوة ، أن يصلح الحال بغية أن يستطيع مواصلة دراسته •

ان راسكولنيكوف لم يذهب اليه منذ أربعة أشهر• وكان رازوميخين يجهل حتى عنوان راسكولنيكوف • مرةً واحدة ، منذ شهرين ، التقيا فى الشارع مصادفةً ، ولكن راسكولنيكوف أشاح بوجهه ، حتى لقد انتقل الى الرصيف من أجل أن لا يُرى • أما رازوميخين فانه مضى فى طريقه رغم أنه لمح راسكولنيكوف ، وذلك لأنه لا يريد أن يزعج « صديقه » •

الفصل الخامس



قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « فعلاً ، لقد كنت منذ مدة وجيزة أريد أن أطلب من رازوميخين أن يجد لى عملاً ، أن يهيىء لى دروساً ، أو أى شىء آخر ... ولكن فيم يمكن أن يفيدنى الآن ؟ هبه وجد لى دروساً ، بل هبه قاسمنى آخر كوبك معه ، اذا كان ما يزال يملك كوبكاً ، بحيث أستطيع أن أشترى حذاءين وأن أصلح ملابسى ، فأتمكن من اعطاء دروس ... هِم ... عظيم ... ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ما عسانى صانعاً بقروش قليلة ؟ أهذا ما أنا فى حاجة اليه الآن؟ حقاً انها لفكرة سخيفة مضحكة أن أذهب الى رازوميخين ... » .

لماذا يذهب الآن الى رازوميخين ؟ ذلك سؤال أصبح يقلقه أكثر مما كان يتراءى له أنه يقلقه . كان يتساءل بكثير من الهم والغم ومن الخوف والقلق ما هو المعنى الغيبى الشرير الذى يكمن وراء هذه الخطوة التى أراد القيام بها ، والتى تبدو مع ذلك بسيطة عادية تافهة !...

« هل يمكن حقاً أن لا أكون قد أردت الا أن أدبِّر جميع الأمور وأرتب جميع الأشياء بفضل رازوميخين وحده ، وأن لا أكون قد اهتديت الى حلٍ الا الاستعانه برازوميخين ؟ » كذلك كان يتساءل مدهوشاً .

وكان يفكر ويفكر ، ويحكُّ جبينه ، فاذا بفكرة غريبة تومض

فى ذهنه فجأة ، بما يشبه المصادفة • أمر عجيب ! قال بغتة بلهجة هادئة كل الهدوء ، كانما هو قد اتخذ فى تلك اللحظة قراراً حاسماً : « الى رازوميخين ! نعم ، سأذهب الى رازوميخين حتماً ••• ولكننى لن أذهب اليه الآن ••• وانما اذهب اليه فى يوم آخر ، بعد أن أكون قد أتممت القيام بذلك « الأمر » ، بعد أن يكون ذلك « الأمر » قد انتهى ، بعد أن يبدأ كل شىء على أسس جديدة » •

ثم ثاب الى رشده على حين فجأة ، فقال صائحاً وهو ينتزع نفسه من الدكة انتزاعاً : « بعد أن يكون « الأمر » قد انتهى ؟ ولكن هل سيتحقق ذلك « الأمر » ؟ هل من الممكن أن يتحقق ذلك « الأمر » ؟

وابتعد عن الدكة ، وانصرف مسرعاً كأنه يركض ركضاً • ود لو يعود أدراجه ، ويرجع الى مسكنه ، ولكنه حين تصور نفسه راجعاً الى البيت ، شعر بنفور شديد : فهناك ، فى ذلك المكان نفسه ، فى ركنه ذاك ، فى تلك الحجرة الكريهة الرهيبة ، انما نضجت فكرة ذلك « الأمر » ، منذ أكثر من شهر •

ومضى راسكولنيكوف يمشى قُدُماً لا يلوى على شىء • لقد تحول اضطرابه العصبى الى ارتعاشات حُمّى ، حتى لقد أحسَّ أنه يرتجف من البرد • انه يشعر ببردٍ أثناء ذلك القيظ الشديد •

وأخذ راسكولنيكوف يتفحص جميع الأشياء التى يلقاها فى طريقه ، باذلاً فى ذلك جهداً كبيراً ، ولكن على غير شعور منه تقريباً ، مدفوعاً الى هذا بضرورة داخلية • لكأنه يحاول بأية وسيلة من الوسائل أن يسلو ، ولكن سعيه هذا الى السلوى لم ينجح كثيراً ، فهو ما يلبث فى كل لحظة أن يعود الى الاسترسال فى أحلامه ؛ فاذا هزته رعشة جديدة فرفع رأسه ونظر فيما حوله ، نسى على الفور ما كان يفكر فيه ، بل ونسى الطريق

الذي كان قد سلكه . على هذا النحو انما قطع جزيرة فاسيلفسكي كلها ، ووصل الى نهر «نيفا الصغير» *، فعبر الجسر واستدار الى جهة الجزر. ان الخضرة وطراوة الهواء قد أراحتا في أول الأمر عينيه المكدودتين اللتين ألفتا غبار المدينة ، والكلس ، والمباني الضخمة المرهقة . هنا لا اختناق ، ولا عفونة ، ولا خمارات . ولكن هذه الاحساسات الجديدة الممتعة سرعان ماصارت هي أيضاً مرضية تثير الأعصاب. كان في بعض الأحيان يقف أمام «فيللا» مدفونة في الخضرة فينظر من خلال السياج ، فيرى من بعيد ، على الشرفات ، نساءً ترتدي أجمل الحلل ، ويرى أولاداً تركض . وكانت الأزهار تجتذبه خاصة ، فكان يتلبث أمامها ويأخذ يتأملها . وكان يلتقي بين الفينة والفينة بعربات أنيقة ويبصر رجالاً يمتطون صهوات الخيول ونساءً على ظهور الأفراس ترتدي سراويل الأمازون ، فكان يتبعهم نظراته ، ولكنه ما يلبث أن ينساهم حتى قبل أن يغيبوا . وفي ذات مرة توقف ليعد نقوده ، فعرف أنه لم يكن قد بقي معه الا نحو ثلاثين كوبكاً . قال لنفسه : « أعطيت الشرطي عشرين كوبكاً ، وأعطيت ناستاسيا ثلاثة كوبكات مكافأةً لها على أنها جاءتني برسالة أمي ؛ معنى ذلك اذن أنني أعطيت أسرة مارميلادوف سبعة وأربعين أو خمسين » . لا شك أن هناك سبباً يدفعه الى أن يحصي ما معه من نقود على هذا النحو ، ولكنه سرعان ما نسي هذا الأمر ، حتى لقد نسي أنه أخرج النقود وعدّها . ثم تذكر النقود حين مرّ أمام مطعم حقير . لقد أحسّ عندئذ أنه جائع ، فدخل المطعم ، فشرب قدحاً من الفودكا ، وأخذ فطيرة محشوة ، فبدأ أكلها في المطعم ثم أنهاه في الشارع . انه لم يشرب فودكا منذ زمن بعيد جداً. لذلك أثرت فيه الفودكا فوراً رغم أنه لم يشرب الا كأساً صغيرة . وتراخت ساقاه وثقلتا على حين فجأة ، وأحس برغبة قوية في النوم . فعاد يتجه نحو بيته ، ولكنه ما ان وصل الى جزيرة بتروفسكي حتى توقف

خائر القوى تماماً ، فترك الطريق ، ودخل فى الأدغال وتهاوى على العشب ، فسرعان ما نام •

فى حالات المرض ، تتميز الأحلام ببروز قوى وشدة خارقة ، وتتميز كذلك بتشابه كبير مع الواقع • قد يكون مجموع اللوحة عجيباً شاذاً ، ولكن الاطار ومجمل تسلسل التصور يكونان فى الوقت نفسه على درجة عالية من المعقولية ، ويشتملان على تفاصيل مرهفة جداً ، تفاصيل غير متوقعة ، تبلغ من حسن المساهمة فى كمال المجموع أن الحالم لا يستطيع أن يبتكرها فى حالة اليقظة ولو كان فناناً كبيراً مثل بوشكين أو تورجنيف • وهذه الأحلام ، أعنى الأحلام المرضية ، تخلف دائماً ذكرى باقية ، وتحدث أثراً قوياً فى الجسم المضعضع المهتز المختل •

كان حلماً مرعباً ، ذلك الحلم الذى رآه راسكولنيكوف • لقد حلم بطفولته ، هناك ، فى مدينتهم الصغيرة• ان عمره سبع سنين • وها هو ذا ، فى يوم عيد ، يتنزه مع أبيه فى ظاهر المدينة • الجو داكن ، والهواء خانق ، والمكان هو المكان الذى انطبعت ذكراه فى خياله تماماً ، ولكنه يبدو فى الحلم أشد وضوحاً وأكثر تميزاً مما هو فى الذاكرة • المدينة الصغيرة تمتد مكشوفة كأنها مبسوطة على راحة الكف؛ فليست تُرى حواليها حتى صفصافة بيضاء واحدة ؛ وفى مكانٍ ما ، مكان بعيد جداً ، عند آخر الأفق ، تلوح بقعة سوداء هى غابة صغيرة • وعلى مسافة بضع خطوات من آخر بستان من بساتين الخضار التى تحيط بالمدينة ، توجد حانة كبيرة كانت دائماً تحدث فى نفسه أثراً أليماً ، حتى لتخيفه حين يمر بها متنزهاً مع أبيه • كان فى هذه الحانة دائماً جمهور كبير ، وضحك مجلجل ؛ والناس يتشاتمون هنالك ، ويغنون بأصوات جشاء أغانى قبيحة بذيئة ، وهم خاصة يتشاجرون ويقتتلون فى كثير من الأحيان ؛ وحول الحانة يتجول دائماً أفراد مخمورون لهم وجوه مرعبة ، ما ان يصادفهم الطفل

فى طريقه حتى يلتصق بأبيه ويشدّ جسمه اليه وقد أخذت أعضاؤه كلها ترتعش ... وفى مكان غير بعيد من الحانة توجد طريق أو قل يوجد زقاق عرضاني أسودُ كثير الغبار ، يستمر متعرجاً متلوياً ، وينعطف يمنةً بعد ثلاثمائة متر فيحيط بمقبرة المدينة . وفى وسط المقبرة تنتصب كنيسة مبنية بالحجر ، لها قبة خضراء ، كان الطفل يذهب اليها للصلاة مع أبيه وأمه مرة أو مرتين فى السنة ، وذلك حين اقامة قداس على روح جدته التى ماتت منذ مدة بعيدة ولم يعرفها فى يوم من الأيام . وكانوا فى تلك المناسبة يحملون الحلوى التقليدية على طبق أبيض موضوع فوق منشفة : انها حلوى من الرز والسكر والزبيب المجفف المغروس فى الرز على شكل صليب . كان الصبى يحب تلك الكنيسة ، ويحب أيقوناتها التى يخلو أكثرها من الزينة ، ويحب أيضاً ذلك الكاهن الشيخ الذى كان يرتعش رأسه . والى جانب قبر جدته الذى تغطيه بلاطة كبيرة ، كان يوجد قبر أخيه الأصغر الذى مات فى الشهر السادس من عمره والذى لم يعرفه أيضاً فلا يستطيع اذن أن يتذكره ؟ غير أن أهله قد ذكروا له أنه كان له أخ صغير ، فكان كلما زار المقبرة يرسم على نفسه اشارة الصليب فى كثير من التقى والخشوع ، وينحنى أمام القبر ويقبّله . واليكم الآن الحلم الذى رآه : رأى نفسه يسير مع أبيه فى الطريق المؤدية الى المقبرة ، فيمران أمام الحانة . انه ممسك أباه من يده ، ينظر الى الحانة مذعوراً . ان هنالك أمراً خاصاً يجذب انتباهه ! لكأن ثمة عيداً شعبياً كبيراً يحتفل به الناس : انهم عدد كبير من صغار البرجوازيين بملابس العيد ، وفلاحات مع أزواجهن ، وخليط كبير من البشر . هم جميعا سكارى وهم جميعا يغنون ؟ وامام باب الحانة تُرابط عربة ، ولكنها عربة عجيبة غريبة هى عربة من تلك العربات التى تجرها فى العادة خيول قوية ، والتى تنقل أنواعاً كثيرة من البضائع وبراميل الخمرة . كان الصبى دائماً ينظر بكثير

من اللذة والمسرة الى تلك الخيول الضخمة ذات الأعرف الطويلة والسيقان القوية ، التي تسير بخطى هادئة موزونة جارَّةً وراءها حملاً كأنه الجبل ضخامة ، دون أن يبدو عليها أنها تشعر بوجود هذا الحمل ، حتى لكأن الحمل يجعل سيرها أسهل وأيسر • أما الآن فان الشيء الغريب هو أن هذه العربة الكبيرة قد قُرِنت بها فرس ضعيفة واهنة هزيلة شبيهة بتلك الأفراس التي كثيراً ما رآها تضني بجر حمل من الخشب أو العلف على طرق متحفرة تغوص فيها عجلاتها الى المحاور ، ويضربها الفلاحون بسياطهم على خُطُمها بل وعلى أعينها ضرباً قوياً مبرحاً • لقد كان قلبه ينقبض انقباضاً شديداً حين يرى تلك الأفراس على تلك الحال من الشقاء ، حتى ليكاد يبكي حزناً وألماً • وكانت أمه تضطر عندئذ الى اقصائه عن النافذة • وها هي ذي جلبة كبيرة تعلو : ان عدداً من الفلاحين الأفوياء السكارى يخرجون من الحانة صارخين ، مغنّين ، عازفين على البالالايكا ، مرتدين قمصاناً حمراء وزرقاء ، رامين أرديتهم على أكتافهم • وهذا واحد منهم ، وهو رجل ما يزال في شرخ الشباب سميك الرقبة ، سمين الوجه ، أحمر اللون كجزرة ، يصرخ قائلاً لهم : « اركبوا ، اركبوا جميعاً ! سأنقل الجميع ، هيا اصعدوا ! » فسرعان ما تجيبه قهقهات وصيحات تقول :

ـ أبفرس ضعيف كهذه الفرس تقودنا جميعاً ؟

ـ هه ! ماذا دهاك يا ميكولكا ؟ * أتقرن دابة صغيرة هذا الصغر بعربة ضخمة هذه الضخامة ؟

ـ يميناً ان الدابة تبلغ من العمر عشرين عاماً يا أخيَّ !

ـ اجلسوا ! سأنقل جميع الناس !

كذلك صرخ يقول ميكولكا من جديد ، وهو يثب الى العربة أول

الواثبين ، فيمسك بزمام الفرس ، وينتصب فى الأمام بقامته كلها ، ثم يردف قائلاً وهو فى العربة :

ـ لقد سافر الكميت منذ هنيهة مع ماتفاى . وهذه الفرس يا اخوتى تغيظنى كثيراً ، وتحطم قلبى تحطيماً . اننى مستعد لأن أقتلها . انها لا تصلح لغير انتزاع لقمة الخبز من فمى. اقول لكم : اركبوا ! اجلسوا ! سأجعلها تعدو ولسوف تعدو !

وأمسك بسوطه وهو يتلذذ سلفاً بالمتعة التى سيذوقها حين يأخذ يضربها .

قال بعضهم ضاحكاً :

ـ طيب ! اصعدوا ألم تسمعوا ؟ سوف تعدو الفرس .

ـ انها لم تعرف العدو منذ عشر سنين !

ـ لسوف تعدو !

ـ لا تأخذنكم شفقة أيها الاخوة ! فليتناول كل منكم سوطاً وليتهيأ !

ـ هيا بنا ! هلموا ! اضربوا !

ركب الجميع عربة ميكولكا مقهقهين مازحين . ركب ستة رجال وما يزال فى المكان متسع . أركبوا معهم امرأة سمينة حمراء الوجه . انها ترتدى صدرة من قماش هندى أحمر ، وتنتعل حذاءين ساقاهما طويلتان ، وتضع على رأسها قلنسوة مزدانة بلآلىء ، وتقضم حبات بندق وتنفجر ضاحكة من حين الى حين ، والجمهور من حولها يضحك كذلك. وكيف لا يضحكون ؟ كيف تستطيع فرس ضعيفة ضامرة هزيلة أن تجر مثل هذا الحمل عَدْواً ؟ وسرعان ما تناول صبيان فى العربة سوطاً لمساعدة ميكولكا . ودوّت فى الجو صيحات تهيب بالفرس أن تسير . أخذت

الفرس تبذل كل ما تستطيع من جهد لتسير • ولكن أنىَّ لها أن تعدو • انها لا تكاد تقوى على التحرك من مكانها • فهى تراوح وتئن وتنوء تحت ضربات سياط ثلاثة تهوى عليها • تضاعفت الضحكات فى العربة وفى الجمهور • ولكن ميكولكا غضب • وها هو ذا من شدة حنقه وغيظه يجلد الفرس بمزيد من القوة كأنما هو يعتقد حقاً بأن فى وسع دابته أن تجرى عَدْواً •

صاح شاب صغير من بين الجمهور وقد فتنه هذا المشهد :

ـ هل تسمحون لى بأن أجىء معكم ؟

فصرخ ميكولكا يجيبه بقوله :

ـ اركب ! اركبوا جميعاً ! سوف أعرف كيف أجعل الفرس تعدو !

وأخذ يضرب ويضرب وقد استبد به حنق بلغ من الشدة أنه لم يلبث أن اصبح لا يعرف بماذا يضرب •

صاح الطفل يسأل أباه :

ـ أبتِ ! أبتِ ! ماذا يفعلون ؟ أبتِ ! لماذا يضربون الفرس المسكينة ؟

قال الأب :

ـ تعال ، تعال ، انهم سكارى يرتكبون حماقات • تعال ! لا تنظر اليهم ؟

وأراد الأب أن يقتاد الابن ، ولكن الطفل أفلت من يديه ، ثم لم يطق صبراً فركض نحو الفرس الشقية • كانت الفرس المسكينة قد ساءت

حالها وخارت قواها . انها تلهث وتتوقف لحظة ثم تستأنف بذل ماتستطيع بذله من جهد لتجر العربة ، فترنح وتكاد تسقط .

صرخ ميكولكا يقول :

ـ اجلدوها الى أن تفطس ! انتظر قليلاً ! سوف ترى !

هتف شيخ من بين الجمهور يسأله :

ـ ما هذا ؟ أأنت مسيحى ؟ يا لك من متوحش !

وأضاف آخر يقول :

ـ هل رأى احد فى حياته دابة هزيلة كهذه الدابة تجر حملاً ثقيلاً كهذا الحمل ؟

وصاح ثالث يقول :

ـ سوف تقتلون الدابة أخيراً !

قال ميكولكا :

ـ ما تدخلك أنت ؟ الدابة دابتى ! ما أريده أفعله ! اركبوا جميعاً ! أريد حتماً أن تجرى الفرس عَدْواً .

وفجأةً ، انفجر ضحك عريض غطى كل شىء . لم تستطع الفرس أن تحتمل الضربات المتكررة ، فاذا هى تأخذ ترفس وتلبط . حتى الشيخ نفسه لم يستطع أن يمتنع عن التبسم . حقاً ان هنالك ما يبعث على الضحك : كيف ترفس وتلبط فرس ضعيفة مسكينة لا تكاد تقوى على الوقوف .

خرج من الجمهور شابان فتناولا سوطين ، وركضا نحو الفرس ليجلداها من الجهتين .

قال ميكولكا :

ـ على الخطم ، على العينين ، على العينين !

وهتف أحد ركاب العربة :

ـ أغنيةً أيها الاخوة !

فأخذ الجميع في العربة يغنون بصوت واحد • هي أغنية مسعورة تصدح بها الحناجر ، وتصاحبها قرعات طبل ، ويتخللها صفير عند تكرر اللازمة • والمرأة السمينة تقضم البندق وتنفجر ضاحكة •

ركض الطفل نحو الحصان ، وأسرع الى أمام • رأى كيف كانت الدابة تُجلد على عينيها ، على عينيها تماماً !••• فأخذ يبكي • انقبض قلبه وسالت دموعه • لامس واحد من الضاربين وجهه بسوط • ولكنه لم يشعر بشيء • لوى يديه ألماً • صرخ • اندفع نحو الشيخ ذي اللحية الشيباء الذي كان يهز رأسه مستنكراً هذا كله • امسكت يدَه فلاحةٌ ، وأرادت أن تبعده • لكنه تملص منها ، وركض نحو الفرس من جديد• لقد انهارت قوى الفرس ، ومع ذلك حاولت أن ترفس وأن تلبط مرة اخرى •!

صاح ميكولكا يقول وقد استولى عليه حنق شديد :

ـ شيطان يأخذك !

ورمى سوطه ، وانحنى الى تحت ، فتناول من قاع العربة خشبة طويلة ثقيلة ، فقبض على طرفها بيديه ، وأشهرها فوق رأس الفرس بجهد

صاح ميكولكا يقول :

ـ سوف يقتل الفرس !

ـ سوف يهشمها !

صرخ ميكولكا :

ـ هى ملكى ، ولا شأن لأحد بها !

وهوى بالخشبة على الفرس بكل ما أوتى من قوة ، فدوّى فى الجو صوت أصم •

صرخ بعضهم :

ـ اجلدوا الفرس ! اجلدوها ! مالكم توقفتم عن جلدها ؟

فاشتعلت حماسة ميكولكا مزيداً من الاشتعال ، وهوى على ظهر الفرس الضعيفة بضربة قوية جديدة • تهاوت الفرس عند مؤخرتها ، ولكنها ما لبثت أن انتصبت ، وحاولت أن تجر بكل ما تملك من قوة • أخذت تجر فى كل اتجاه من الاتجاهات عسى أن تتحرك العربة • غير أن ستة سياط هاجمتها من جميع الجهات ، وارتفعت الخشبة من جديد فهوت عليها بضربة ثالثة ثم بضربة رابعة ، وتتالت الضربات قوية مطّردة• لقد اشتد حنق ميكولكا لأنه لم يقتل الفرس بضربة واحدة •

صرخ بعضهم :

ـ عمرها طويل !

فصاح واحد فى الجمهور :

ـ لم يعد عمرها طويلاً أيها الاخوة ! لم يبق لها من حياتها الا دقائق معدودة !

وصرخ ثالث :

ـ فلتُضرب بساطور ! فلننته منها دفعة واحدة !

قال ميكولكا مرغياً مزبداً والغيظ يخنقه خنقاً :

ـ نعم فلتذهب الى الشيطان ! أبعدوا !

ورمى الخشبة ، ثم انحنى مرة أخـرى الى تحت ، فتنـاول من قاع العربة قضيباً من حديد ، وصرخ يقول مخاطباً الفرس :

ـ تستحقين ! ثم هوّى بقضيب الحديد على الفرس المسكينة ، بكل ما أوتى من قوة ، فترنحت الدابة من شدة الضربة ، وتهالكت ، وحاولت ان تجرّ العربة مرة اخرى ، ولكن قضيب الحديد هوى على ظهرها من جديد ، فسقطت على الأرض كأن قوائمها الأربع قد قُطعت قطعاً !

صاح ميكولكا يقول :

ـ أجهزتُ عليها !

ونفد صبره ، فوثب من العـربة الى الأرض • وها هم أولاء فتيان حمر سكارى يمسكون بكل ما يقع تحت أيديهم من سياط أو عصى أو أخشاب ، ويهرعون نحو الفـرس المحتضرة • وقف ميكولكا الى جانب الدابة ، وأخـذ يضربها بقضيب الحـديد على ظهرها • فمـدّت الفرس خطمها ، وزفرت زفرة عميقة ، وماتت •

صاح الجمهور يقول :

ـ فطست !

ـ لماذا لم تشأ أن تعدو ؟

قال ميكولكا صارخاً محتقن العينين بالدم ، ممسكاً قضيب الحديد بيديه :

ـ هى ملكى !

وكان واقفاً منتصب القـامة كأنه يأسف على أنه اصبح لا يعـرف من ذا يضرب !

هتفت عدة أصوات فى الجمهور تقول :

ــ طيب ! اصبحنا الآن على يقين من انك لست مسيحياً !

ولكن الطفل أصبح لا يسيطر على نفسه ، وها هو ذا يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور وهو يصرخ صراخاً شديداً ، حتى اذا وصل الى الدابة أحاط بذراعيه خطمَها الميت الدامى ، وأخذ يقبِّلها على عينيها وعلى شفتيها ••• ثم اجتاحه حنق قوى ، فهجم على ميكولكا قابضاً أصابعه الصغيرة • ولكن أباه الذى كان يلاحقه منذ مدة ، أدركه فى تلك اللحظة ، فأمسك به ، وجرَّه الى خارج الجمهور قائلاً له :

ــ تعال ! تعال ! فلنعدْ الى البيت •

دمدم الطفل يقول بين شهقتين سائلاً أباه :

ــ أبتِ ••• لماذا ••• الحصان المسكين ••• فعلوا به ؟•••

ولكن أنفاسه تقطعت ، وكانت الكلمات تتدفق من صدره المختنق مع صرخات !

قال الأب :

ــ هم سكارى يرتكبون حماقات • ليس هذا شأننا • تعال !

أحاط الطفل أباه بذراعيه ، ولكن كان صدره ما يزال مختنقاً ••• ما يزال مختنقاً اختناقاً شديداً ••• وحاول الطفل أن يسترد انفاسه ، وأطلق صرخة قوية ••• واستيقظ راسكولنيكوف من النوم •••

استيقظ من النوم مبتلاً بالعرق مخضلَّ الشعرِ لاهثاً • ونهض مذعوراً •

قال وهو يجلس تحت الشجرة ويتنفس ملء رئتيه : « الحمد لله على أن هذا لم يكن الا حلماً ! ولكن ماذا حدث ؟ أيكون هذا بداية حمى ؟ يا للحلم العجيب • » •

كان جسمه كله كالمحطم ، وكانت نفسه لا تضم الا ظلمات واضطراباً وابهاماً . وضع كوعيه على ركبتيه وتناول رأسه بيديه ، وهتف يقول مخاطباً نفسه : « رباه ! هل من الممكن ، هل من الممكن حقاً أن أتناول ساطوراً فأضرب به رأسها وأحطم جمجمتها ؟... أغرق في الدم اللذج البارد ... اكسر القفل ... أسرق ... أرتعش ... اختبىء ملطخاً بالدم ؟ ... ضربات ساطور ! ... رباه ، أهذا ممكن ؟ ».

وكان راسكولنيكوف يرتعش كورقة في مهب الريح حين كان يخاطب نفسه بهذا الكلام .

وتابع يقول محدثاً نفسه كأنما قد استبد به خور عميق : « ولكن ماذا دهاني ؟ لقد كنت أعلم حق العلم أنني لن أطيق ذلك ، فلماذا عذبت نفسي هذا التعذيب كله حتى الآن ؟ بالأمس ، بالأمس ... حين مضيت اليها ، « لأتمرّن » على فعلتي ، أدركت حق الادراك أنني لن أطيق ذلك ... فلماذا أعود الى الامر الآن ؟ بالأمس ، حين كنت أهبط السلم ، قلت لنفسي انها فعلة حقيرة ، دنيئة ، خسيسة ، خسيسة جداً ... ولم أكن نائماً ... كان يكفي ان تساورني تلك الفكرة حتى ينقبض صدري وحتى أشعر بذعر شديد ... لا ، لن أطيق هذا الفعل ، لن أطيقه ، ولو لم يكن هناك أي شك ، ولو كانت حساباتي كلها صحيحة ، ولو كان ما عزمت عليه في هذا الشهر واضحاً وضوح النهار دقيقاً دقة الرياضيات ... فانني لن أقدم عليه مع ذلك ، لن أطيقه ، لن أطيقه ... فما بالي حتى الآن ... » .

ونهض راسكولنيكوف ذاهلاً ، ونظر حواليه . كان يبدو عليه أنه مندهش من وجوده في هذا المكان . واتجه نحو جسر « ت ... » . كان شاحب الوجه ، وكانت عيناه تحترقان ، وكان يشعر بالتعب في جميع اعضائه ، ولكنه لم يلبث أن أخذ يتنفس تنفساً حراً طليقاً على حين فجأة .

شعر انه ازاح الحمل الرهيب الذى كان يسحقه منذ مدة طويلة ، فتخففت نفسه واطمأنت روحه ، وعادت اليه السكينة بغتة • قال يدعو الله مبتهلاً : « أرنى طريقى يا رب فأعدلَ عن تلك ••• الفكرة اللعينة •• عن تلك الفكرة اللعينة ••• » •

وفيما كان يعبر الجسر ، نظر صامتاً هادئاً الى نهر نيفا ، والى حمرة الشمس الغاربة • فاذا هو ، رغم ضعفه ، قد اصبح لا يحس بالتعب • فكأن الدمل الذى تضج فى قلبه خلال شهر بأكمله قد انفقأ الآن على حين فجأة • الحرية ! الحرية ! لقد تخلص الآن من السحر ، تحرر من الرقية ، انعتق من الفتنة •

فى المستقبل ، حين سيتذكر راسكولنيكوف هذه الفترة ، وحين سيستعرض كل ما وقع له فى تلك الأيام دقيقة دقيقة ونقطة نقطة ، فان ظرفاً معيناً سيظل يجتذب انتباهه ، ويأسر اهتمامه، ويكتسب فى نظره معنىً خرافياً • ان ذلك الظرف رغم أنه لا يشتمل فى ذاته على أى شىء خارق، سيصبح فى نظر راسكولنيكوف فى المستقبل نوعاً من نبوءة تصوِّر مصيره وتحدِّد قدره •

اليكم الأمر : لم يستطع راسكولنيكوف أن يعلل لنفسه قطُّ لماذا عاد أدراجه فى ذلك اليوم الى « سوق العلف » دون أى سبب يحضه على الذهاب الى هناك ، ورغم أنه ، هو المتعب المكدود المرهق المشعث ، كان فى حاجة الى أن يسلك للعودة الى بيته أقصر طريق بلا تعرج ولا التواء • صحيح أن الدورة التى دارها لم تكن طويلة ، ولكن من الواضح انه لا داعى اليها ولا فائدة منها البتة • وصحيح أنه اتفق له عشرات المرات ان رجع الى مسكنه دون ان يتذكر الشوارع التى سلكها • ولكن راسكولنيكوف ظل يتساءل دائما : لماذا وقع له ذلك اللقاء فى ميدان « سوق العلف » (الذى لم يكن هناك أى داع يحضه على الذهاب

اليه) لماذا وقع له ذلك اللقـــاء الذى يبلغ ذلك المبلغ كله من خطورة الشـــأن والذى كان له ذلك التـــأثير الحاسم كله فى حيـاته ، وكان فى الوقت نفســه عرضاً طارئاً ، لماذا وقع له ذلك اللقـاء فى تلك اللحظة نفسها ، فى تلك الدقيقة ذاتها من حياته ، فى تلك الدقيقة ذاتها التى كان لا يمكن ، بسبب حالته النفسية وبسبب الظروف ، الا أن تؤثر فى مصيره ذلك التأثير الحاسم الذى لا مناص منه ولا راد له ؟ » • سوف يبدو له أن ذلك اللقاء الذى وقع له انما كان كميناً يتربص به شراً •

كانت الساعة قريبة من التاسعة حين اجتاز راسكولنيكوف « سوق العلف » • كان جميع التجار والباعة المتجولين وأصحاب الدكاكين يغلقون محالّهم ، ويرتبون بضائعهم ، ليعـودوا الى منازلهم ، وكذلك كان يفعل زبائنهم • وحول المطاعم الحقيرة ، وفى الأقبية ، وفى الأفنية القذرة المنتنة من منازل « ســوق العلف » كانت تتكاثر أنواع شتى من فقراء النـاس وصغار المتكسّبين • كان راسكولنيكوف يحب ارتياد هذه الأماكن كثيراً كما يحب ارتياد جميع الأزقة المجـاورة حين كان يخـرج من بيته لغير هدف محدد • فهنالك كانت أســماله البـالية لا تلفت الانتبـاه ولا تثير الاستهجان • ان المرء يستطيع أن يسير فى هذه الأماكن مرتدياً ملابس مضحكة على ما يشاء له هواه ، دون أن يتعرض لاستهزاء أحد به •

فلما وصل راسكولنيكوف الى ناصية شـارع ك ••• ، رأى بائعـاً وامرأته يبيعان ، كلٌ على بسطة خاصة به ، خيوطاً وأشرطة ومناديل من قطن وما الى ذلك • كان الزوجان يستعدان هما ايضاً للعودة الى منزلهما ، ولكنهما ما يزالان يثرثران مع امرأة يعرفانها كانت قد اقتربت منهما • ان هذه المرأة هى اليزابت ايفانوفنا أو قل باختصار هى « اليزابت » كما كان يسميها جميع الناس • انها الأخت الصغرى لتلك العجوز نفسها آليونا ايفانوفنا ، أرملة الموظف المرابية ، التى ذهب اليها راسكولنيكوف أمس

ليرهن عندها ساعته و « يتمرن » على فعلته ... كان راسكولنيكوف يعرف منذ مدة طويلة أموراً كثيرة عن اليزابت هذه التى كانت تعرفه هى أيضا بعض المعرفة . انها بنت فى نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، طويلة القامة خرقاء السلوك ، خجول الطبع ، متواضعة رقيقة ، يعدها الناس شبه بلهاء ، قد استعبدتها اختها استعباداً كاملاً ، فهى تعمل لها ليلاً نهاراً ، وترتجف أمامها خوفاً ، حتى لتحتمل منها أن تضربها أحياناً . كانت اليزابت فى تلك اللحظة قد وقفت مترددة قلقةً أمام البائع وامرأته ، وفى يدها صرّة ، وكانت تصغى اليهما بانتباه شديد . ان الرجل وامرأته يقصان عليها أمراً من الأمور بكثير من الحرارة والحماسة . فلما لمحها راسكولنيكوف على حين فجأة اجتاحه احساس غريب هو نوع من الانشداه رغم أن اللقاء لا يشتمل فى ذاته على أى شىء يدعو الى الذهول.

قال لها البائع بصوت عال :

ـ ستعزمين أمرك بنفسك يا اليزابت ايفانوفنا . تعالى غداً ، فى نحو الساعة السابعة . سيحضرون هم أيضاً .

ـ غداً ؟.

كذلك قالت اليزابت بصوت بطىء ، وكانت واجمةً مفكرة ، كأنها لا تستطيع أن تعزم أمرها .

قالت لها زوجة البائع بلهجة طلقة صريحة :

ـ انها لتخيفك كثيراً ، آليونا ايفانوفنا هذه ! حين يراك المرء ويسمعك ، يحسبك طفلة صغيرة . هذا مع أن آليونا ليست أختاً وانما هى نصف أخت ، ولكنها مسيطرة عليك مستبدة بك ...

قاطع الرجل زوجته قائلاً لاليزابت :

ـ ليس عليك الا أن لا تذكرى لآليونا ايفانوفنا هذه المرة شيئاً .



اليزابت

ذلك ما أنصحك به ! تعالى الينـا دون أن تسـتأذنيها ! الصفقة رابحة • وستدرك أختك ذلك فيما بعد •

ـ حقاً ••• يجب عليَّ أن •••

ـ نعم ••• غداً ••• فى نحو الساعة السابعة • وسيحضر أحد من عندهم أيضاً • ستعزمين أمرك بنفسك •

وأضافت زوجة الرجل تقول :

ـ وسنضع السماور •

قالت اليزابت وهى ما تزال مترددة :

ـ طيب ، سآتى •••

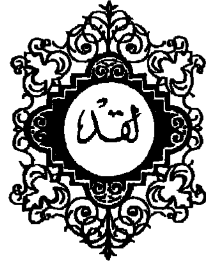
وانصرفت بخطىً بطيئة •

ان راسكولنيكوف الذى مرَّ فى تلك اللحظة لم يسـمع اكثر من ذلك • لقد مرَّ صامتاً ساكناً دون أن يلفت اليه الانتباه ، ولكنه حاول ألا تفوته من الحديث كلمة واحدة • وشـيئاً فشيئاً ، حل الذعر فى نفسـه محلَّ الانشداه ، وأحس بقشعريرة باردة تسرى فى ظهره • لقد علم فجأة ، على نحو لم يكن فى الحسبان ، أن اليزابت ، أختَ العجوز ورفيقتها الوحيدة فى دارها ، ستغيب عن البيت غداً فى الساعة السـابعة تماماً ، وأن العجوز ستكون اذن فى الساعة السابعة تماماً « وحيدة فى مسكنها »•

لم يكن قد بقى عليه الا أن يسير بضع خطوات حتى يبلغ منزله• عاد كانسان حـُكم عليه بالموت• لقد اصبح لايفكر، بل اصبح عاجزاً عن التفكير ، ولكنه كان يحس ، بكل كيـانه ، أنه اصبح محروماً من حرية الرأى مجرداً من الارادة ، وأن كل شىء قد تقرر فجأة على نحو حاسم لا رجعة عنه •

يقيناً ، لو كان عليه فى سبيل انفاذ مشروعه أن ينتظر سنين طويلة ، لما كان فى وسعه أن يعوّل على ظرف يناسب نجاح مشروعه اكثر من هذا الظرف الذى يعرض له الآن ، وما كان ليسهل عليه فى كل حال أن يعلم علم اليقين ، بمثل تلك الدقة ، وبدون مخاطر يشتمل عليها اضطرارُه الى السؤال والتقصى ، أن العجوز التى كان قد قرّر أن يقتلها ستكون ، فى الغداة ، وحيدةً بمسكنها ، وحيدةً تماماً ...

الفصل السادس



أتيح لراسكولنيكوف فيما بعد أن يعرف السبب الذى حمل البائع وزوجته على أن يدعوا اليزابت ابفانوفنا الى منزلهما ، ان الأمر عادى بسيط تافه لا يشتمل على أى شىء خاص : هناك أسرة وفدت من الأقاليم منذ مدة قصيرة ، فأصبحت فى حالة عوز شديد ، فأخذت تبيع بعض ما تملك من ملابس النساء • ولما كان عرض هذه الملابس للبيع فى السوق يؤدى الى خسارة كبيرة ، فقد سأل هؤلاء الناس عن امرأة تكون وسيطة بينهم وبين الراغبين فى الشراء • وكانت اليزابت تقوم بمثل هذه الأعمال ، وكان لها زبائن كثيرون لأنها امرأة مستقيمة ، فهى تحدد السعر العادل دائماً ، ولا تدع مجالاً للمساومة فيه مهما يكن ، فما على المشترى الا أن يأخذ أو أن يدع • وكانت قليلة الكلام عامةً ، وكانت تبدو ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، متواضعة فى جميع الأحيان •

ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح فى الآونة الأخيرة يؤمن بالخرافات ويتأثر بالأوهام ، وقد خلّف هذا الوهم فى نفسه آثاراً لم تمح خلال مدة طويلة • ثم انه ظل يميل دائماً الى أن يرى فى هذا الأمر كله شيئاً غريباً سرياً ، وسلسلةً من المؤثرات والمصادفات العجيبة الخاصة •

كان طالبٌ من معارفه اسمه بوكوريف ، قد اعطاه فى الشتاء الماضى أثناء حديث عارض جرى بينهما قبيل سفره الى خاركوف ، عنوانَ العجوز آليونا ايفانوفنا ، ليلجأ اليها اذا هو احتاج الى اقتراض مبلغ من المال على رهن .

وخلال مدة طويلة لم يذهب راسكولنيكوف الى العجوز ، لأنه كان فى ذلك الوقت يعطى دروساً ، وكان يدبر أموره بطريقة أو بأخرى . ثم تذكر العنوان بعد شهر ونصف شهر . كان يملك شيئين يمكن رهنهما لاقتراض مبلغ من المال : الساعة الفضية القديمة التى ورثها عن ابيه ، وخاتماً ذهبياً صغيراً يزدان بثلاثة أحجار حمراء كانت أخته قد أعطته اياه تذكاراً حين افترقا . قرر راسكولنيكوف أن يرهن الخاتم ، فما ان رأى العجوز حتى شعر نحوها من أول نظرة ، ودون أن يعرف أى شيء خاص عنها ، بكره لا سبيل الى التغلب عليه . وتلقى منها « ورقتين نقديتين صغيرتين » . وبينما كان راجعاً الى بيته دخل فى الطريق حانةً صغيرة حقيرة ، فطلب شاياً ، وجلس ، واسترسل فى احلام عميقة. ان فكرة غريبة كانت تحاول أن تنقف فى رأسه كما ينقف الفرخ فى البيضة ، وكانت تشغل باله كثيراً جداً ...

على مقربة منه ، الى جانبه تقريباً ، كان يجلس حول مائدة أخرى، ضابط شاب وطالب لم يكن يعرفه ولا يتذكر أنه رآه فى حياته . كان الشابان قد لعبا البلياردو قليلاً ، فهما الآن يحتسيان الشاى . وها هو ذا راسكولنيكوف يسمع الطالب محدثاً الضابط عن مرابية اسمها آليونا ايفانوفنا هى أرملة أحد الموظفين ، ثم يذكر له عنوانها آخر الأمر . ان هذه الحادثة وحدها قد بدت لراسكولنيكوف غريبة بعض الغرابة : لقد كان عند العجوز منذ هنيهة ، وها هو ذا يسمع شخصين يتحدثان عنها هى نفسها . لا شك أن الأمر مصادفة ، ولكن فيما كان راسكولنيكوف

يحاول قبل سماع الحديث أن يتخلص من شعور يمكن ان نعدّه على وجه الاجمال عادياً تافهاً ، اذا بشخص يأخذ يعزز فى نفسه هذا الشعور كأنما على عمد : لقد أخذ الطالب يذكر لرفيقه ، فجأة ، بعض التفاصيل عن آليونا ايفانوفنا • قال :

ـ هى عظيمة ••• يستطيع المرء فى كل لحظة أن يحصل منها على مال ••• غنيةٌ كيهودى ! قادرةٌ على أن تقرضك خمسة آلاف روبل دفعة واحدة ، ولكنها لا تحتقر رهناً قيمته روبل واحد • كثيرون منا مروا بها • ولكنها جيفة حقاً •

وطفق الطالب يتكلم عن العجوز • وصفها بأنها شريرة خبيثة ، وقال انها صاحبة نزوات : يكفى أن يتأخر المدين عن سداد الدين فى الموعد المضروب يوماً واحداً حتى يفقد الرهن • لا تقرض من المال الا مبلغاً يساوى ربع قيمة الرهن • تتقاضى فائدة شهرية مقدارها خمسة فى المائة بل وسبعة ، الخ الخ •••

كان الطالب يتدفق فى الكلام على هذا الموضوع ويفيض فيه افاضة لا ينضب معينها • وقد أضاف أن للعجوز أختاً اسمها اليزابت ، تضربها العجوز فى كل مناسبة ، رغم أن العجوز ضئيلة هزيلة هى نفسها ؛ والعجوز تستعبد اليزابت استعباداً تاماً ، كطفلة صغيرة ، رغم أن اليزابت لا يقل طولها عن ستة أقدام بل يزيد •

وصاح الطالب يقول مقهقهاً :

ـ وهذه أيضاً امرأة عجيبة !

جرى الحديث عندئذ على اليزابت • كان الطالب يشعر من الكلام عنها بلذة خاصة فهو لا يكف عن الضحك • أما الضابط فكان يصغى الى رفيقه بكثير من الاهتمام ، حتى لقد طلب منه أن يرسل اليه اليزابت ،

لترقّع له غسيله • لم يفوّت راسكولنيكوف كلمة واحدة من هذه المحادثة • عرف كل شيء دفعة واحدة : عرف أن اليزابت هى الأخت الصغرى لآليونا ايفانوفنا ، ولكنها ليست شقيقتها وانما هى اختها من أم أخرى ، وعرف أنها قد بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها • عرف أنها تعمل فى سبيل اختها نهاراً وليلاً ، تنهض فى منزلها بأعباء الطباخة والغسالة ، وتقوم فى الوقت نفسه بأعمال الخياطة ، حتى لقد تتولى مسح الأرض فى المنازل مأجورة • وعرف أن كل ما تجنيه من مال انما يذهب الى اختها ، وأنها لا تجرؤ على قبول أى تكليف أو القيام بأى عمل ، دون استئذان العجوز • وكانت العجوز قد كتبت وصيتها ، وكانت اليزابت تعرف أن هذه الوصية تنص نصاً صريحاً على أنها لن ترث شيئاً ، اللهم الا عدداً من قطع الأثاث والكراسى وما الى ذلك • أما المال كله فموقوف على دير بمقاطعة ن ••• ، سيصلّى فيه الرهبان على روح آليونا ايفانوفنا • ان اليزابت تنتمى الى البرجوازية الصغيرة لا الى طبقة الموظفين وهى بشعة القوام جداً ، يزيد طولها على متوسط الطول كثيراً ، لها قدمان كبيرتان تبدوان معقوفتين وتنتعلان دائماً حذاءين منثنيين • ولكنها تعنى بنظافتها اكبر العناية •

والأمر الذى كان يدهش الطالب ويفجّر ضحكه خاصةً هو أن اليزابت حبلى دائماً •

قال الضابط :

ــ ولكن ألم تقل انها مشوهة ؟

أجابه الطالب :

ــ نعم ••• ان لها بشرة مسودّة دائماً ، حتى لكأنها جندى متنكّر ، ولكنها ليست مشوهة البتة !••• ان وجهها مليح جداً ، وان عينيها خاصة

طيبتـان حلوتان ! الدليل على ذلك أنها تعجب كثيراً من النـاس ، وهى هادئة مسالمة وديعة مستعدة لأن تَقنع بأى شىء • وان لها ابتسامة يمكن أن توصف حتى بأنها ••• فاتنة !•

سأل الضابط ضاحكاً :

ــ أهى اذن تعجبك ايضاً ؟

قال الطالب :

ــ نعم ، لأن فيها غرابة ! واسمع الآن ما سأقوله لك : يميناً انى مستعد لأن أقتل أختهـا ، تلك العجوز اللعينـة ، وأن أسرق مالها طائعاً مختاراً ، مرتاح البال هادىء الضمير !•••

ذلك ما أضافه الطالب متكلماً بحماسة وعنف •

انفجر الضـابط يضحـك ضحكاً ارتعش له راسـكولنيكوف • ما أغرب هذا ؟

قال الطالب وقد ازدادت حرارته :

ــ اذا أذنت فسألقى عليك سؤالاً جاداً : أنا انما قلت ذلك كله من باب المزاح طبعاً ولكن فكر قليـلاً : هنـاك من جهة أولى امرأة عجوز غبية سخيفة شريرة خبيثة مريضة لا قيمة لها ولا فائدة منها لأحد بل هى ضارة لجميع النـاس ، لا تعرف حتى لماذا تعيش ، وستموت فى القريب ميتتها الطبيعية • هل تفهم ؟ هل تفهم ؟

أجاب الضـابط وهو يحدّق باتنباه شـديد الى رفيقـه الذى كانت حماسته ما تنفك تتأجج :

ــ طبعاً أفهم !

واصل الطالب كلامه فقال :

ــ فاسمع التتمة اذن : هناك تلك المرأة من جهة أولى ، وهناك من

جهة ثانية قوى فتية شابة نضرة ، تضيع لأنها محرومة من المساعدة ، وتعد بالالوف ، في كل مكان . ان ثمة مائة أو الف عمل خير أو مبادرة رائعة يمكن التحريض عليها أو اصلاح حالها بمال العجوز ، بهذا المال الموقوف على دير ! ! ان ثمة مئات وربما ألوفاً من الافراد الذين يمكن وضعهم بهذا المال على الطريق القويم . ان ثمة عشرات من الأسر يمكن انقاذها بهذا المال من الفقر المدقع ، والتحلل الأخلاقي ، والدمار والفساد ، ومستشفيات الأمراض التناسلية ! فماذا لو قتلت هذه العجوز ، وأخذ مالها ثم وقف على خدمة الانسانية بأسرها ، على خدمة قضية جميع البشر ؟ ماذا ؟ ألا تعتقد أن جريمة طفيفة كهذه الجريمة ستمحوها ألوف الأعمال الخيرة ؟! اننا بقتل فرد واحد نستطيع أن ننقذ حياة ألوف غيره من العفن والفساد والتحلل ! يموت واحد ليعيش مئات. مسألة حسابية ! وأي وزن في ميزان الحياة العام يمكن أن يكون لتلك العجوز الشقية المصدورة الغبية الشريرة ؟ ألا انها ليس لها من الوزن اكثر مما لقملة أو خنفساء . لا بل ان وزنها دون ذلك ، لأن هذه العجوز ضارة . انها تمتص حياة الآخرين . انها شريرة . منذ مدة قصيرة عضت اختها اليزابت في اصبعها ، فلو قد شدت أسنانها قليلاً ، لاضطروا الى قطع الاصبع .

قال الضابط :

ـ ما هي جديرة بالحياة طبعاً ، ولكن هذا نظام الطبيعة ...

قال الطالب :

ـ نظام الطبيعة ، يا أخي ، يمكن تقويمه وتوجيهه ، والا غرقنا في الأوهام والأباطيل . ثم انه بدون ذلك لا يكون ثمة انسان عظيم واحد. يقولون : « الواجب ، الضمير » ـ وأنا لا اعترض بشيء على الواجب

والضمير ، ولكن يجب أولاً أن نتفق على معانى الألفاظ . اسمع : سألقى سؤالاً آخر ، هل تصغى الىّ ؟

قال الضابط :

ـ بل أنا الذى سألقى عليك سؤالاً ، أصغ الىّ !

ـ هيه !...

ـ أنت الآن تتكلم وتتحدث ، ولكن قل لى : أأنت مستعدٌ لأن تقتل العجوز « بنفسك » .

ـ لا ، طبعاً !... فانما أنا أتكلم من وجهة نظر العدالة ، ولست اتحدث عن نفسى .

ـ فى رأيى أنه ليس هناك ظل من عدالة ، ما دمت غير مستعد لأن تقرر تنفيذ هذا الفعل « بنفسك » . والآن هلمّ بنا نلعب البلياردو !...

كان راسكولنيكوف مضطرباً أشد الاضطراب . ان الأحاديث التى سمعها لم تكن الا أحاديث عادية كثيراً ما سمع شباباً يتبادلونها فى صور مختلفة بعض الاختلاف بصدد موضوعات شتى . ولكن لماذا وقع له أن يسمع هذه المناقشة وأن يسمع هذه الآراء فى عين اللحظة التى كانت هذه الآراء نفسها تنبت فى ذهنه هو ؟ لماذا وقع له أن سمع ، فى نفس اللحظة التى تلبَّث فيها فكره على العجوز ، حديثاً عن تلك العجوز نفسها ؟ لقد ظلت هذه المصادفة تبدو له غريبة . وكان لهذه الثرثرة العابرة التافهة التى يجرى أمثالها بين الناس فى الحانات ، تأثيرٌ عميق على تتمة الأحداث ، فكأن ذلك كان نذيراً بقدر محتوم ...

عاد راسكولنيكوف من « سوق العلف » الى بيته ، فارتمى على أريكته ، ولبث ساعة بأكملها لا يتحرك . هبط الظلام أثناء ذلك . ولم

يكن عنده شمعة ولا خطر بباله أن يشعل شمعة على كل حال • لم يستطع راسكولنيكوف فى يوم من الأيام أن يعرف هل فكَّر فى شىء من الأشياء أثناء ذلك الوقت • وأخيراً أحس بقشعريرة الحمى تلك نفسها التى أحسها فى النهار ، وسرَّه أن يعرف أن فى امكانه أن يرقد على الأريكة • وسرعان ما استبد به نعاس ثقيل كالرصاص ، فنام •

نام راسكولنيكوف أكثر مما اعتاد أن ينام ، نام بغير أحلام • وحين دخلت عليه ناستاسيا فى الساعة العاشرة من صباح الغد ، بذلت كثيراً من الجهد ولقيت كثيراً من العناء فى سبيل ايقاظه • كانت تحمل اليه شاياً وخبزاً • وكان الشاى فى هذه المرة أيضاً بقية شاى ، وفى هذه المرة أيضاً كان الابريق ابريقها هى •

هتفت ناستاسيا تقول مغتاظة :

ـ ما أكثر ما يستطيع أن ينام ! نعم انه لا ينقطع عن النوم !••

نهض راسكولنيكوف بجهد كبير • كان يشعر بصداع فى رأسه • وقف منتصباً وسار بضع خطوات ، ثم لم يلبث أن تهالك على الأريكة من جديد •

هتفت ناستاسيا :

ـ ماذا ؟ أتريد أن تنام أيضاً ؟ أتراك مريضاً ؟

لم يجب راسكولنيكوف •

ـ هل تريد شاياً ؟

قال بجهد وهو يغمض عينيه من جديد ويستدير نحو الحائط :

ـ فيما بعد •

لبثت ناستاسيا مائلة عليه لحظة ثم قالت :

ـ ربما كان مريضاً !

واستدارت وخرجت •

وعادت اليه في الساعة الثانية تحمل حساءً • كان ما يزال راقداً ، حتى انه لم يكن قد مسّ الشاي •

اغتاظت ناستاسيا ، فهزّته غاضبةً ونهرته قائلة له وهي تنظر اليه باشمئزاز :

ـ ما بالك تبقى غافياً على هذه الحال ؟

فنهض وجلس ، ولكنه لم يجب بشيء ، وكان يحدّق الى الأرض•

سألته ناستاسيا :

ـ أأنت مريض ؟

ولكنها في هذه المرة أيضاً لم تحصل على جواب • استأنفت تقول بعد صمت :

ـ حقاً ان عليك أن تخرج قليلاً الى الشارع ! سينفعك الهواء الطلق ! أصب شيئاً من الطعام على الأقل !•••

قال لها بصوت ضعيف واهن :

ـ فيما بعد ••• اذهبي الآن •••

قال لها ذلك وصرفها بحركة من يده •

بقيت لحظة قصيرة أخرى تتأمله في شفقة ثم خرجت •

وبعد بضع دقائق ، رفع عينيه ، ونظر الى الشاي والحساء ملياً ، ثم تناول الخبز والملعقة وأخذ يأكل •

بلع ثلاث ملاعق أو أربعاً دون شهوة ، بطريقة آلية تقريباً • قلّ صداع رأسه • حتى اذا فرغ من الطعام استلقى على الأريكة من جديد ،

لكنه لم يستطع أن ينام مرةأخرى • لبث جامدا ، مضطجعا على بطنه ، دافناً وجهه فى الوسادة • وبدأت تغزوه الأحلام • كانت جميع أحلامه غريبة جداً ، ها هو ذا يرى نفسه فى مكان ما بأفريقيا ، فى مكان ما بمصر، فى واحة من الواحات • القافلة تستريح • الجمال راقدة بهدوء وسكون• ومن حوله حلقة من أشجار النخيل • جميع الناس يأكلون • اما هو فلا يزيد على أن يشرب ماءً من جدول يجرى هناك على مقربة منه مصطخباً • ما أعظم الانتعاش الذى يشعر به المرء حين يشرب هذا الماء الأزرق البارد العجيب الذى يسيل بين الحصى المتعدد الألوان فوق الرمل الملتمع المذهب !••• ولكن ها هو ذا يسمع على حين فجأة دقات ساعة حائط ، واضحةً متميزة • ارتعش راسكولنيكوف وثاب الى نفسه ، فلما رفع رأسه ، ونظر من النافذة ، عرف الساعة التى لعله فيها ، فاذا هو يثب عن أريكته ، صاحى الذهن كل الصحو ، ثم يتجه نحو الباب ، سائراً على رءوس أصابعه ، فيفتح الباب برفق ، ويصيخ بسمعه الى الضجات الآتية من السلم • كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً • ولكن كل شىء كان فى السلم هادئاً ، حتى لكأن جميع الناس قد ناموا ••• بدا له أمراً عجيباً وأمراً شاذاً فى الوقت نفسه أن يكون قد استطاع أن ينام على هذا النحو منذ البارحة ، وأن يكون قد لبث على هذه الحال من الخدر ، بينما هناك أشياء كثيرة يجب عليه أن يعملها ، أن يهيئها • لعل الساعة التى سمع رنينها منذ هنيهة قد دقت السادسة ••• وهذا تعجل خارق محموم مضطرب يستولى عليه بعد النوم والخدر والتوانى • على أن الاستعدادات ليست كثيرة • جهد راسكولنيكوف أن يتنبأ بكل شىء وأن لا ينسى شيئاً • الا أن قلبه قد بلغ من شدة الخفقان أنه كان يتنفس فى كثير من العناء • كان عليه قبل كل شىء أن يصنع ابزيماً وأن يخيط الابزيم الى المعطف : ذلك عمل يستغرق بضع دقائق • نبش صرة الملابس التى

توجد تحت وسادته ، فسل منها قميصاً عتيقاً ، قذراً ، مهترئاً كل الاهتراء ، غير صالح للاستعمال ، فانتزع من خرقه عصابة عرضها بوصه وطولها ثماني بوصات • حتى اذا ثنى العصابة ثنيتين ، خلع معطفه الواسع المصنوع من نسيج قطني سميك متين (وهو الرداء الوحيد الذى كان يرتديه فوق ثيابه) وأخذ يخيط اليه طرفى العصابة من الداخل تحت الابط الأيسر • كانت يداه ترتجفان وهو يخيط العصابة الى المعطف • ولكنه قد أحسن القيام بهذه المهمة على خير وجه ، فلما عاد يرتدى معطفه كان الابزيم لا يظهر من الخارج • ان راسكولنيكوف قد أعد الابرة والخيط منذ مدة طويلة : لفهما بورق وأودعهما درج منضدته الصغيرة• أما الابزيم فكان اختراعاً بارعاً جداً ابتكره خياله هو : كان على الابزيم أن يحمل الساطور • ان من المستحيل على راسكولنيكوف أن يتجول فى الشارع وهو يحمل بيده ساطوراً • ولو قد أخفى الساطور تحت المعطف لكان مضطراً مع ذلك الى ان يسنده ، وهذا أمر لا بد أن يلفت اليه انتباه الناس • أما الآن فليس عليه الا أن يدخل نصل الساطور فى الابزيم ، فيبقى الساطور طوال الطريق معلقاً بالابزيم فى داخل المعطف بهدوء ؛ عدا أن فى وسع راسكولنيكوف ، حين يغمد يده فى جيب المعطف من خارج ، أن يسند طرف القبض ليمنع الساطور من التارجح • ولما كان المعطف واسعاً جداً حتى لكأنه كيس ، فلن يستطيع الناظر أن يلاحظ من الخارج أن راسكولنيكوف يسند شيئاً من خلال جيبه • ان فكرة صنع هذا الابزيم قد وافت ذهن راسكولنيكوف منذ خمسة عشر يوماً •

فلما انتهى راسكولنيكوف من عمله هذا دس أصابعه فى الفراغ الضيق الذى يفصل الأريكة « التركية » عن أرض الحجرة ، وأخذ يتلمس الزاوية اليسرى من هذا المكان ، فأخرج « الرهن » الذى كان قد هيأه

وخباه هناك منذ مدة طويلة . الحق أن هذا الرهن لم يكن رهنا ، وانما هو شريحة ملساء من خشب ، بحجم علبة فضية للسجائر . كان راسكولنيكوف قد عثر على هذه الشريحة الخشبية عرَضاً أثناء احدى جولاته ، وذلك في فناء منزل كانت تشغل أحدَ أجنحته ورشةُ تجارة. وقد ضمَّ الى الشريحة فيما بعد صفيحةً من حديد ، رقيقةً ملساء ، التقطها من الشارع أيضاً . حتى اذا شدَّ هذين الشيئين المتفاوتين سمكاً ، أحدَهما الى الآخر ، عُني بربطهما بخيط متصالب ، ثم لفَّهما لفاً أنيقاً بورقة بيضاء نظيفة جداً ، ثم عقد الخيط على اللفة عقداً محكماً يجعل فكَّها أمراً صعباً ، وذلك بغية أن يحوّل انتباه العجوز برهةً من الزمن - لأن العجوز ستنهمك في حل العقد - فيختار هو اللحظة المواتية. ولقد كان هدفه من اضافة الصفيحة الحديدية هو أن يزيد وزن اللفة فيمنع العجوز من أن تكتشف ، في الوهلة الأولى على الأقل ، أن « الشيء » ليس الا قطعةً من خشب . وكانت اللفة مخبأةً تحت الأريكة منذ مدة .

فما ان وضع راسكولنيكوف يده على « الرهن » حتى سمع صياحاً في الفناء يقول :

- دقت الساعة السادسة منذ مدة طويلة !

فقال راسكولنيكوف يخاطب نفسه :

- منذ مدة طويلة ! رباه !...

واندفع نحو الباب ، وأصاخ بسمعه ، ثم تناول قبعته ، وأخذ يهبط درجات السلم الثلاث عشرة ، محاذراً صامتاً كقطة . ما يزال عليه أن يفعل أهم شيء : أن يسرق الساطور من المطبخ . فأما أن عليه أن يستعمل ساطوراً فذلك أمر كان قد قرره منذ مدة طويلة . وكان راسكولنيكوف يملك كذلك نوعاً من مقصٍ يُستعمل مِقْرضاً في الحدائق

ولكنه كان غير واثق بالمقص ، وكان غير واثق بقواه خاصةً • لذلك وقع اختياره على الساطور • ولنذكر في هذه المناسبة صفةً تميزت بها جميع القرارات التي اتخذها راسكولنيكوف لانفاذ خطته : لقد كانت هذه القرارات تبدو له عجيبة شاذة مستحيلة بمقدار ما كانت تصبح حاسمة قاطعة • ان راسكولنيكوف ، رغم الصراع المقلق الذي كان يشب في نفسه دقيقة بعد دقيقة ، لم يستطع قطُ أن يصدِّق أن مشاريعه يمكن أن توضع موضع التنفيذ في يوم من الأيام • ولو قد اتفق له أن توصل يوماً الى أن يحسم جميع تلك المسائل ، فيبدِّد جميع الشكوك ويمهد جميع العقبات لكان من المحتمل أن يعدل فوراً عن مشروعه ذاك ، عدولَه عن شيء مستحيل عجيب سخيف ! ولكن الواقع أنه كان ما يزال هنالك عدد كبير من المسائل التي يجب حلها ومن الشكوك التي يجب تبديدها •

أما طريقة الحصول على ساطور ، فذلك أمر تفصيلي تافه لا يشغل باله كثيراً ، اذ لا أشيء أسهل منه • ذلك أن ناستاسيا كانت تتغيب كثيراً عن البيت ، ولا سيما في المساء : فهي تذهب الى الجيران تارة وتمضي الى الدكاكين تارة أخرى ، وتترك الباب مفتوحاً اثناء ذلك ؛ وهذا بعينه هو السبب فيما كان يقع بينها وبين مولاتها من تشاجر • كان يكفي اذن أن يدخل راسكولنيكوف المطبخ بهدوء ورفق ، وأن يأخذ الساطور متى أزف الوقت ، ثم أن يرجع بعد ساعة (متى أنهى كل شيء) ، فيعيد الساطور الى مكانه • غير أن شكوكاً كثيرةً كانت تنبجس في ذهن راسكولنيكوف: ماذا لو رجع بعد ساعة ليردَّ الساطور الى مكانه فكانت ناستاسيا قد عادت الى البيت مصادفةً أثناء غيابه ! سيكون عليه طبعاً أن يستمر في طريقه ، وأن ينتظر خروجها من جديد • فماذا لو احتاجت أثناء ذلك الى الساطور فأخذت تبحث عنه ، وأخذت تصيح وتصرخ ؟ ان ذلك سيولد شبهةً أو هو سيولد فرصةً لشبهة في أقل تقدير •

على أن هـذه الأمور كلهـا تفاصيل لم يكن راسـكولنيكوف قد فكر فيها فعـلاً بعـد • لقـد كان راسـكولنيكوف يفـكر فى الشيء الأسـاسى ، ويرجئ التفكير فى التفاصيل الى اللحظة « التى يكتمل فيها اقتناعه » • ولكن كان يلوح له أن هذه اللحظة لن تجيء قط ، أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف فى قرارة نفسه • كان لا يتخيل مثلاً أنه فى لحظة معينة سوف يكف عن التفكير ، وسوف ينهض ، وسوف يذهب الى هناك ، بكل بساطة !••• فحتى زيارته الأخيرة للعجوز (وهى الزيارة التى استهدف منها دراسة المكان وقام بها على سبيل « التمرين ») ، حتى هذه الزيارة لم تكن فى الواقع الا محاولة ، ولم يكن فيها جد • كل ما هنالك أنه قال لنفسه : « والله ••• سـأذهب ، وسـأحاول ، ما دام الأمر لا يعدو أن يكون حلماً » ، ثم لم يسعه بعد ذلك فوراً الا أن يبصق ويولى هارباً وقد امتلأ اشمئزازاً أمام نفسـه • ولكن كان يبدو أنه قد أوغل فى التحليل الى النهاية ، وأنه حلّ المشكلة الأخلاقية التى تطرحها هذه القضية • لقد كان منطقه حاداً قاطعاً كسكين مسـنونة ، ولم يبق لفكره أى اعتراض واعٍ يمكن أن يقدمه • غير أنه لم يكن واثقاً بنفسه فكان يلتمس اعتراضات من الخارج ، على نحو غامض عنيد ، كأن شخصاً يدفعه الى ذلك ويجبره عليـه • وهذا يومُ الأمس الذى جرت أحداثه جرياناً ليس فى الحسبان وكان يوماً حاسماً ، قد أثر فيه تأثيراً يشـبه أن يكون آلياً : لكأن شخصاً قد أمسكه من يده وأخذ يجـره ، معصـوب العينين ، بقوة خارقة ، جراً لا فكاك له منه ، ولا سبيل له الى الاعتراض عليه ! أو كأنّ آلةً قد التقطت طرف ثوبه فدارت به عجلاتها ، وأخذت تجذبه اليها جذباً لا حيلة له فى دفعه !

فى أول الأمر (منذ مدة طويلة) كان هنالك سـؤال يشغل باله كثيراً ، وهو : لماذا تنكشف جميع الجرائم ويُفتضح أمر جميع المجرمين

بسهولة ويسر ؟ لماذا يُعثر على آثار جميع المجرمين تقريباً فى غير عناء ؟ وقد توصل راسكولنيكوف شيئاً فشيئاً الى نتائج متنوعة شائقة • قال لنفسه ان السبب الأساسى فى ذلك لا يرجع الى استحالة اخفاء الجريمة استحالةً مادية بقدر ما يرجع الى المجرم نفسه • فجميع المجرمين انما يشعرون ، لحظةَ تنفيذهم جريمتهم ، بنوع من انهيار الارادة وسوء الرأى ، فاذا بالارادة والرأى يحل محلّهما طيشٌ صبيانى تماماً ، فى الوقت الذى يكون فيه المرء أحوج ما يكون الى العقل والحكمة والحذر • كان راسكولنيكوف مقتنعاً بأن غياب الرأى السديد وانهيار الارادة الصلبة يستوليان على الانسان كما يستولى عليه مرضٌ من الأمراض وينموان مزيداً من النمو شيئاً بعد شىء ثم يبلغان ذروتهما قبيل تنفيذ الجريمة • وكان مقتنعاً بأنهما يلبثان على هذه المرحلة عند ارتكاب الجريمة ، ويلبثان عليها بعد ارتكاب الجريمة بزمن يختلف طوله باختلاف الأفراد ، ثم يزولان كما تزول جميع الأمراض • أما هذا التساؤل : « هل المرض هو الذى يولد الجريمة ، أم أن الجريمة يصاحبها دائماً ، بحكم طبيعتها ان صح التعبير ، شىءٌ من مرض ؟ » فتلك مسألة لم يشعر راسكولنيكوف أنه قادر على حلّها •

فلما انتهى الى هذه النتائج ارتأى أن امثال هذه الاضطرابات المرضية لا يمكن أن تعتريه هو ، واعتقد بأنه سيظل محافظاً على سلامة الرأى وقوة الارادة طوال فترة تنفيذ خطته ، وذلك لسبب بسيط هو أن ما ينوى القيام به « ليس جريمة » •••

لندع جانباً طريقة وصوله الى هذه النتيجة ، فلقد استبقنا منذ الآن أشياء كثيرة •

وحسبنا أن نضيف الى ما ذكرناه أن المصاعب الواقعية والعقبات المادية لم يكن لها فى ذهنه الا دور ثانوى • كان يقول لنفسه : سوف

يكفينى أن أظل مسيطراً على ارادتى وعلى فكرى حتى تذلل جميع هذه الصعاب متى أزف الوقت فأصبح علىّ ان أدقق فى أيسر تفاصيل القضية » • ولكن القضية لم تبدأ ، فكان اقتناع راسكولنيكوف بأن قراراته حاسمة يضعف شيئاً بعد شيء • حتى اذا أزفت الساعة ، جرت جميع الأمور على غير ما تنبأ به ، حتى لكأنه لم يتنبأ بشيء فى يوم من الأيام •••

هناك ظرف من أبسط الظروف أذهله حتى قبل أن يهبط السلم : انه حين وصل الى فسحة المطبخ الذى كان بابه مفتوحاً كما يكون كذلك دائماً ، قد ألقى على الباب نظرة محاذرة مواربة ليتأكد من أن صاحبة البيت ليست فى المطبخ أثناء غياب ناستاسيا ، أو ليتأكد من أن باب غرفتها مغلق تماماً بحيث لا تستطيع أن تلمحه حين يدخل الى المطبخ لأخذ الساطور • فما كان أشد ذهوله حين رأى أن ناستاسيا لم تكن حاضرةً فحسب بل كانت مشغولة كذلك ، فهى تُخرج الغسيل من سلة وتنشره على حبال • فلما رأته قطعت عملها والتفتت نحوه ثم لم تحوّل بصرها عنه الى أن غاب • وقد أشاح راسكولنيكوف عينيه وابتعد كأنه لم يلاحظ شيئاً ، ولكن مهمته كانت قد أخفقت : ما من ساطور ! وأسودّت الدنيا فى عينيه •

قال يحدث نفسه وهو يجتاز باب المنزل : « من أين جئتُ بهذه الفكرة وهى أن ناستاسيا لا بد أن تكون فى هذه اللحظة غائبة حتماً ؟ لماذا اتخذت هذا القرار موقناً هذا اليقين كله ؟ » وشعر بأنه مسحوق مُذل • كان من شدة غضبه يشتهى أن يسخر من نفسه • ان حنقاً غبياً حيوانياً أخذ يغلى فى أعماقه •

توقف تحت باب المنزل حائراً متردداً • انه يكره أن يمضى الى الشارع هكذا ، تقيداً بالشكل ، ولكنه يكره اكثر من ذلك أيضاً أن

يعود الى غرفته • جمجم يقول على نحو آلي : « يا لها من فرصة أضعتها ، أضعتها الى الأبد ! » قال ذلك وهو تحت قبة المدخل ، ولكن ها هو ذا الآن أمام حجرة البواب الصغيرة التي كان بابها مفتوحاً أيضاً • ارتعش راسكولنيكوف فجأة • لقد لمح في هذه الحجرة ، على بعد خطوتين منه ، تحت دكة ، في اليمين ، شيئاً يسطع ! نظر حواليه : لم ير أحداً • اقترب من الحجرة سائراً على رءوس أصابع قدميه ، وهبط درجتين ، ونادى البواب بصوت ضعيف • لم يجبه أحد • قال يحدث نفسه : « نعم ! البواب غائب • لا بد أن يكون غائباً ! على كل حال ، أغلب الظن أنه في مكان ما بالفناء ما دام الباب مفتوحاً • واندفع نحو الساطور بوثبة واحدة (ان الشيء الذي يسطع كان ساطوراً) • سحب الساطور من تحت الدكة حيث كان موضوعاً بين حطبتين ؛ وقبل أن يغادر الحجرة أسرع يضع الساطور في الابزيم داخل المعطف ، ودس يده في جيبه وخرج • لم يره أحد • قال يحدث نفسه وهو يبتسم ابتسامة غريبة : « لأنك محروم من العقل عاونك الشيطان ! » وشجعته هذه المصادفة كثيراً •

سار في الشارع بهدوء ووقار ورصانة دون أن يتعجل ، وذلك حتى لا يوقظ حوله شبهات • كان لا يكاد ينظر الى المارة ، حتى لقد كان يجهد أن لا يرفع عينيه ، بغية أن لا يراه أحد اطلاقاً • وتذكر عندئذ قبعته فقال يحدث نفسه : « ما أغباني ! كان معي مال أول أمس ، ثم لم أشتر قبعة ! » وأفلتت منه شتيمة •••

وألقى نظرة على داخل احد الدكاكين عرضاً فلمح ساعة معلقة في الجدار تشير الى السابعة • كان عليه أن يغذ الخطى ، ولكن كان عليه كذلك أن لا يمضي الى منزل العجوز رأساً ، وانما ينبغي له أن يدور دورة • ان من الأفضل أن يدخل المنزل من الباب الآخر في الجهة الثانية.

فى الماضى ، حين كان يتفق له أن يتصور هذا كلّه ، كان يقدّر أحياناً أنه سيشعر بخوف شديد . ولكنه الان لا يشعر بهذا الخوف الشديد بل لا يشعر بخوف البته . الآن تشغله أفكار ليس لها أىُّ شأن بالموضوع ، وما اكثر تبدلها وتغيرها ! فحين اجتاز حديقة يوسوبوف مثلاً انبثقت فى ذهنه فكرة توقف عليها ملياً ، هى أن من الواجب وضع نوافير مياه من شأنها أن ترطب الهواء ترطيباً لذيذاً فى الميادين العامة . وشيئاً فشيئاً انتهى الى الاعتقاد بأنه اذا وُسِّعت « حديقة الصيف » بحيث تشمل كل « ساحة مارس » ، واذا ضُمَّت هذه الحديقة الى حديقة « قصر ميشيل » ، فسيكون ذلك تجديداً فى المدينة ممتعاً ومفيداً فى آن. وهذا سؤال آخر يشده اليه بقوة: تساءل راسكولنيكوف : لماذا يحب الانسان فى المدن الكبرى ، لا بحكم الضرورة بل بدافع الميل ، أن يمكث خاصةً فى الأحياء التى ليس فيها حدائق ولا نوافير مياه ، ولا يسودها الا الحمأ والعفن ؟ وتذكر عندئذ جولاته خلال « سوق العلف » ، فارتدَّ لحظة الى الشعور بالوضع الذى هو فيه ، فقال يحدث نفسه : « يا للسخف ! ان من الأفضل أن لا افكر البتة ! » .

ومضت فى ذهنه هذه الفكرة : « لا شك أن الذين يقادون الى المقصلة يتشبث فكرهم هذا التشبث بجميع الأشياء التى يصادفونها فى طريقهم » . ولكن هذه الفكرة التى ومضت فى ذهنه بسرعة كسرعة البرق ، لم تلبث أن اختفت بسرعة كسرعة البرق أيضا . لقد استطاع هو نفسه أن يحملها على الاختفاء ... ولكن ها هو ذا قد اقترب ... هذا هو المنزل ... هذا هو مدخل العمارة ! وفى مكان ما ، رنَّت ساعة حائط على حين فجأة . قال راسكولنيكوف متسائلاً : « ماذا ؟ أتكون هى السابعة والنصف ؟ أهذا ممكن ؟ مستحيل ... لا شك أن هذه الساعة متقدمة !.. » . وابتسم له الحظ مرة أخرى حين اجتاز المدخل.

ان عربةً ضخمة محملة بالعلف كانت تدخل ، في تلك اللحظة نفسها ، أمامه تماماً ، فتخفيه اخفاءً كاملاً طوال مدة مروره . فما ان نفدت العربة الى الفناء حتى كان هو قد استطاع أن يتسلل يمنه . وسمع عدة أصوات آتية من الجهة الأخرى وراء العربة. كان هنالك أناس يصرخون ويتشاجرون . ولكن أحداً لم يلاحظه ، ولم يلتق بأحد البتة . وكانت نوافذ كثيرة مطلةً على الفناء المربع الواسع مفتوحةً في تلك اللحظة . ولكن راسكولنيكوف لم يرفع رأسه . لقد كان لا يملك من القوة ما يمكنه من رفع رأســه . والسلم الذي يفضي الى بيت العجوز يقع على اليمين قرب المدخل ، فسرعان ما كان راسكولنيكوف على ذلك السلم ...

حبس راسكولنيكوف أنفاسه ، وضغط باحدى يديه خفقات قلبه ، بينما كانت الأخرى تتلمس الساطور وتعدل وضعه . وأخذ يصعد محاذراً صامتاً مصيخاً بسمعه في كل لحظة . ولكن السلم كان خالياً كل الخلو هو أيضاً . ان جميع الأبواب مغلقة . لم يلتق راسكولنيكوف بأحد . صحيح أن باب شقة غير مسكونة ، في الطابق الأول ، كان مفتوحاً . ان عدداً من الدهانين يعملون في تلك الشقة ، ولكنهم لم يلاحظوه . توقف راسكولنيكوف لحظةً ، وفكّر ، ثم تابع الطريق وهو يحدث نفسه قائلاً : طبعاً ... من الأفضل أن لا يوجدوا هنا ... ولكن ... ما يزال ثمة طابقان !... » .

هذا هو الطابق الثالث أخيراً ... هذا هو البـاب ... هـذا هو المسكن المقابل ... انه ما يزال خالياً ... وأغلب الظن ان المسكن الذي يقع تحت مسكن العجوز في الطابق الثاني خال أيضاً . ان البطاقة المسمَّرة على الباب قد زالت ... معنى ذلك أن سكانه قد رحلوا ... كان راسكولنيكوف يشعر باختناق . وومضت في ذهنه فكرة سريعة سرعة البرق : « ماذا لو انصرفت ؟ » . ولكنه لم يجب عن هـذا

السؤال ، وأنصت يصغي الى ما يجري في بيت العجوز : لا شيء الا الصمت ••• صمت كصمت الموت • واستدار مرة أخرى نحو السلم ، وتسمّع مدة طويلة بانتباه شديد !••• وبعد ذلك ، ألقى على ما حوله نظرة أخيرة ، وجمع شتات أفكاره ، وتهيأ ، وعدل مقبض الساطور في الابزيم مرة أخرى • تساءل بينه وبين نفسه : « ألست مسرفاً في الشحوب ، مسرفاً في توتر الأعصاب ؟ انها شكّاكة ريابة ••• أفلا ينبغي لي والحالة هذه أن أنتظر ••• الى أن يهدأ قلبي ويسكن روعي ؟ » •

ولكن قلبه لم يهدأ • بالعكس : كان قلبه ، كأنما على عمد ، يدقّ دقاً قوياً ، قوياً ، قوياً ••• لم يطق صبراً ، فمد يده ببطء الى حبل الجرس ، وشدّه ، وبعد نصف دقيقة قرع الجرس مرة أخرى بقوة أكبر •

ما من جواب • فيمَ قرع الجرس بغير طائل ؟ ثم ان هذا ليس بالمستحسن • لا شك أن العجوز في منزلها ، ولكنها لكونها الآن وحيدة لا بد أن تكون اكثر شكاً وحذراً • لقد كان راسكولنيكوف يعرف بعض عاداتها ••• وها هو ذا يضع أذنه على الباب مرة أخرى • أكانت حواسه مشحوذة شحذاً قوياً الى هذا الحد ـ وذلك ما يصعب أن يسلّم به الناس عامةً ـ أم أن الضجة كانت مسموعة حقاً ؟ المهم أنه قد ميّز ، على حين فجأة ، خشخشةَ يدٍ محاذرةٍ على الباب وحفيفَ ثوبٍ يلامسه • لا شك أن أحداً يختبيء وراء هذا الباب ، ويصيخ بسمعه من الداخل ، مثلما يصيخ هو بسمعه من الخارج ، حابساً أنفاسه مثله ، واضعاً أذنه على الباب مثله أيضاً •••

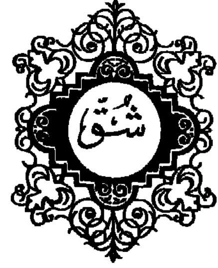
تعمّد راسكولنيكوف أن يتحرك ، ودمدم بصوت عالٍ بغية أن

لا تحس العجوز أنه يختبىء ، ثم قرع الجرس مرة ثالثة ، ولكنه قرعه في هذه المرة برفق وهدوء ورصانة ورزانة ، بغير تعجل يدل على نفاد الصبر .

ان ذكرى هذه اللحظة ستعاوده في المستقبل واضحة مضيئة ، لأنها قد انطبعت في ذهنه الى الأبد . ان راسكولنيكوف لم يستطع أن يفهم في يوم من الأيام بعد ذلك ، من أين جاءه ذلك المكر كله ، لاسيما أن فكره كان قد أظلم ، وأنه أصبح لا يكاد يشعر بجسمه ...

وبعد لحظة سمع صوت المزلاج يُسحبُ لفتح الباب .

الفصل السابع



الباب قليلاً كما حدث فى المرة الماضية ، وحدقت الى راسكولنيكوف من قرارة الظلام عينان حادتان ريّابتان . هنا فقد راسكولنيكوف هدوء أعصابه فارتكب خطيئة أوشكت أن تفسد عليه كل شيء .

لقد خشى راسكولنيكوف أن تخاف العجوز من وجودها وحيدةً معه ، وكان لا يأمل أن يرد اليها مظهرُه طمأنينتها ، فأمسك الباب وشدّه اليه ، حتى لا يخطر ببالها أن تغلقه من جديد ؟ فلما رأت العجوز ذلك لم تشدّ الباب الى جهتها ، ولكنها لم تترك قبضته أيضاً ، فأوشكت أن تنجرّ الى فسحة السلم . وحين رآها راسكولنيكوف ما تزال واقفة فى العتبة لتسد الطريق ، مشى اليها قُدماً ، فاذا بذعر شديد يستولى عليها ، واذا هى تتقهقر الى الوراء بوثبة واحدة ، وتحاول أن تقول شيئاً فلا تستطيع ، وتشخص اليه بكل عينيها .

قال لها وهو يصطنع هيئة طلقة بقدر ما يستطيع ذلك :

ـ نهارك سعيد يا آليونا ايفانوفنا .

ولكن صوته لم يطعه ، فقد كان متقطعاً مرتجفاً . وتابع كلامه يقول لها :

ـ جئتك بالرهن ... ولكن فلنمض الى هناك حيث الضوء اكثر ..

ولم ينتظر ان تدعوه الى الدخول بل نفذ الى الغرفة بخطى حازمة .

جرت العجوز وراءه . وانحلت عقدة لسانها فقالت :

ـ رباه ! ما هذا ؟ من أنت ؟ ماذا تريد ؟

ـ عجيب يا آليونا ايفانوفنا .. أنا راسكولنيكوف ... انك تعرفينني منذ مدة طويلة ... خذى ... لقد جئتك بالرهن الذى وعدتك به آخر مرة ...

قال لها ذلك ومد اليها الرهن .

أخذت العجوز تتفحص الرهن ، ولكن سرعان ما عادت عيناها تحدقان الى عينى الرجل الغريب . كانت تتفرس فيه بانتباه وخبث وخشية . انقضت دقيقة ، حتى لقد خُيل الى راسكولنيكوف أنه يرى فى عينيها نوعاً من السخرية ، كأنما هى قد أدركت كل شىء . شعر راسكولنيكوف بأنه يفقد سيطرته على نفسه ، وأن خوفاً شديداً يغزوه ، خوفاً يبلغ من الشدة أنه سوف يولى هارباً اذا هى ظلت تحدق اليه هذا التحديق نصف دقيقة أخرى دون أن تقول كلمة واحدة .

قال فجأة ، بخبث أيضاً :

ـ ما بالك تنظرين الىّ هكذا كأنك لم تعرفينى ؟ خذى الرهن اذا شئت ... والا لجأت الى غيرك ! ليس فى وقتى متسع ...

ان راسكولنيكوف لم يشأ أن ينطق بهذه الأقوال ، ولكنها أفلتت منه من تلقاء نفسها فجأة .

استردت العجوز هدوءها . ان اللهجة الجازمة فى كلام الرجل الغريب قد اعادت اليها الثقة .

سألته وهى تنظر الى الرهن :

ـ ولكن ، يا صديقى ، لماذا تفاجئنى هكذا ؟... وما هو هذا الشىء الذى تريد أن ترهنه ؟

قال راسكولنيكوف :

ـ هو علبة سجائر مصنوعة من الفضة . تعرفين ذلك حق المعرفة. حدثتك عنها فى المرة الماضية .

مدت العجوز يدها وقالت :

ـ ولـكن ما أشـــد شـحوبك ! ويداك ما بالهمـا ترتجفـان ! مريض ، هه ؟

أجابها بصوت متقطع :

ـ نعم ... بى حمى !...

ثم أضاف يقول بمشقة كبيرة :

ـ وحين لا يملك المرء ما يأكله فلا بد أن يشحب لونه !...

لقد بارحته قواه من جديد . ولكن جوابه كان معقولاً . تناولت العجوز الرهن .

سـألت العجـوز راسـكولنيكوف ، وهى تتفرس فيه مرة أخرى ، وتروز الرهن بيدها :

ـ ما هذا ؟

ـ علبة سجائر ... من فضة ... أنظرى .

ـ لا يبدو أنها من فضة !... لكنك لففتـها لفاً أنيقاً جميلاً .

قالت ذلك وأخذت تحاول حل عقدة الخيط مقتربةً من النافذة (كانت جميع النوافذ في بيتها مغلقة رغم الحرارة الخانقة) . تركت راسكولنيكوف اذن بضع لحظات ، وأدارت له ظهرها. فكَّ راسكولنيكوف أزرار معطفه وسلَّ الساطور من الابزيم ، ولكنه لم يخرجه اخراجاً تاماً ، فهو ما يزال يمسكه بيده اليمنى تحت المعطف . لقد اعترى ذراعيه ضعفٌ شديد ، وهو يحس أنهما تزدادان تخدراً وثقلاً لحظةً بعد لحظة، وتصبحان أشبه بقطعتين من خشب. خشي أن يرخي الساطور وأن يتركه يسقط ... وأخذ رأسه يدور فجأة ... هتفت العجوز تقول بحدة وهي تتقدم خطوةً نحوه :

ـ من ذا يخطر بباله حقاً أن يربط صرةً هذا الربط ؟

لم يبق في وقت راسكولنيكوف متسع للحظة يضيعها . وها هو ذا يخرج الساطور ، ويشهره بكلتا يديه ، ويُسقطه على رأس العجوز وهو لا يكاد يعي ماذا يعمل ، ولا يكاد يبذل جهداً ، حتى لتوشك أن تكون الحركة التي قام بها حركةً آلية . لقد تمت هذه الحركة من تلقاء نفسها دون أن تتدخل فيها قواه ، ولكنه ما ان أسقط الساطور حتى عادت اليه قواه . كانت العجوز عارية الرأس على عادتها . وكان شعرها الشائب ، المتناثر ، المُدْهن ، المُزَيَّت كثيراً ، المضفور على صورة ذيل فأرة ، المشدود ببقية مشط ، كان يبرز ناتئاً على قفا رقبتها . ولأن قامتها قصيرة فان ضربة الساطور قد سقطت على قمة جمجمتها . أطلقت العجوز صرخة ، ولكنها صرخة ضعيفة جداً . وكانت العجوز ما تزال تمسك الرهن باحدى يديها . هوى راسكولنيكوف على رأسها بضربة جديدة ، ثم بضربة أخرى ، باذلاً كل ما يملك من قوة ، وذلك بظهر الساطور أيضاً ، وعلى قمة الجمجمة كذلك. انبجس الدم من الرأس كأنه ينسكب من كأس ، وتهاوى الجسم الى وراء . تقهقر راسكولنيكوف ليخلي لها

مكانا ، ثم أسرع يميـل على وجهها : كانت العجوز قد ماتت • لـكأن عينيها المحملقتين تريدان أن تخـرجا من حجاجيهما • والوجه كله ، ولا سيما الجبين ، تبدو عليـه علامات الانقبـاض والتشنج التى تصاحب الاحتضار •

وضع راسـكولنيكوف السـاطور على أرض الحجرة قربَ الميتة ، وأسرع يدس يده فى جيبها متحاشياً أن تتسخ يداه بملامسة الدم • دس يده فى ذلك الجيب نفسه الذى أخـرجت منه العجوز مفاتيحها فى المرة الماضية • كان راسكولنيكوف محتفظاً بصحو ذهنه ، كان لا يشعربخَـورٍ فى عزيمته أو بدوار فى رأسه • ان يديه وحدهما ما تزالان ترتجفان • سوف يتذكر راسكولنيكوف فى المستقبل أنه كان فى تلك اللحظة شديد الانتباه كثير الحذر ، وأنه قد عرف كيف يتحاشى أن يلطخ يديه بالدم• سرعان ما أخرج راسكولنيكوف المفاتيح • كانت المفاتيح ، كما فى المرة الماضية ، مجتمعةً فى حزمة واحدة تضمها بعضها الى بعض حلقـة من فولاذ • حمل راسكولنيكوف المفـاتيح بيـديه وهرول مسرعاً الى غرفة النوم لا يضيع لحظة واحدة • انها غرفة صغيرة جداً تنتصب فيها أيقونات فى داخل خزانة كبيرة ذات زجاج • وعند الحائط المقابل يوجد سرير كبير ، نظيف جداً ، له غطاءٌ من حرير ، مبطنٌ بالقطن ومصنوعٌ من عدة أقمشة مجتمعة • وعند الجدار الثالث توجد الخزانة ذات الأدراج• شيء غريب : ما ان أخذ راسكولنيكوف يدخل أحـد المفـاتيح فى قفـل الخزانة ، وما ان سمع صريف المفاتيح ، حتى سرى فى كيانه كله نوع من قشعريرة أو رعدة • وتمنى فجأة أن يدع كل شيء وأن ينصرف• ولـكن ذلك لم يدم الا لحظة • لقـد فـات أوان الانصراف • وسـخر راسكولنيكوف من نفسه حين وافته فكرة أخرى تنبهه الى الخطر • لقد خيل اليه بغتـة أن العجوز ربما كانت ما تزال حيـة وربما تصحـو من

غيبوبتها . فاذا هو يترك المفاتيح والخزانة ، ويعود الى الجثمان راكضاً ، ويتناول الساطور ويشهره فوق العجوز مرة أخرى ، ولكنه لا يسقطه عليها . لقد كانت العجوز ميتة . لم يبق مجال للشك في هذا . وحين مال راسكولنيكوف عليها ليدقق النظر فيها من قرب ، رأى رؤيةً واضحة أن الجمجمة كانت قد انكسرت وأن قمتها كانت قد انحرفت قليلاً . اشتهى أن يضع هنالك اصبعه ، ولكنه منع نفسه عن ذلك : يكفيه ان يرى . وكان الدم قد شكّل على أرض الغرفة أثناء ذلك بركةً كبيرة. ولمح راسكولنيكوف ، على حين فجأة ، حبلاً صغيراً في عنق العجوز ، فشدّه ، ولكن الحبل كان متينا فلم ينقطع ، وكان الى ذلك مشرباً بالدم. حاول راسكولنيكوف أن ينزع الحبل . ولكن شيئاً ما كان يثبته . ثارت ثائرة راسكولنيكوف ، فشهر الساطور من جديد ، عازماً على أن يقطع الحبل فوق جسم العجوز ، لكنه لم يجرؤ أن يفعل ؟ واستطاع ، بعد دقيقتين من الجهد ، أن يقطع الحبل دون أن يحزّ الجثمان ، ملطّخاً بالدم يديه والساطور معاً. ثم سحب الحبل. لم يخطىء ظنه : هي صُرّة مال . لقد عُلّق بالحبل صليبان ، أحدهما من خشب السرو ، والثاني من نحاس ، وعُلّق به وسامٌ مطلي بالمينا ، وحافظةُ نقود من جلد الوعل ، متسخةٌ كل الاتساخ ، ولها قفل من فولاذ . كانت حافظة النقود تبدو محشوة . وضعها راسكولنيكوف في جيبه دون أن يدقق فيها . ثم ألقى الصليبين على صدر العجوز . وركض الى غرفة النوم من جديد ، حاملاً الساطور في هذه المرة .

وبسرعة محمومة ، أمسك المفاتيح ، وعاد ينهمك في معالجتها ، ولكن دون أن يفلح أيضاً ، فما من مفتاح من هذه المفاتيح كان يبدو أنه ملائم للقفل . ليس يرجع ذلك الى أن يديه كانتا ترتجفان ، وانما يرجع الى أنه كان يخطىء في كل مرة . كان يدرك مثلاً أن هذا المفتاح من

المفاتيح ليس هو المفتاح المطلوب ، وأنه لا يدخل فى القفل ، ومع ذلك كان يستمر على محاولة ادخاله . وفجأة تذكر وفهم أن المفتاح المسنَّن الذى يتأرجح الآن بين سائر المفاتيح ، لا يناسب الخزانة ذات الأدراج حتماً (وذلك ما سبق أن قاله لنفسه فى المرة الماضية) ، بل يناسب صندوقاً ما ، وأن كل شىء ربما كان مودعاً مخبأً فى ذلك الصندوق .
ترك راسكولنيكوف الخزانة ذات الأدراج ، وأسرع يندس تحت السرير ، لعلمه بأن من عادة النساء العجائز أن يخفين صندوقهن فى هذا المكان . وكان يوجد تحت السرير فعلاً صندوق كبير ، يبلغ طوله أرشيناً ، وله غطاء محدودب منجَّد بجلد أحمر تزينه مسامير صغيرة من فولاذ . انطبق المفتاح المسنَّن على القفل انطباقاً تاماً ، وفُتح الصندوق . هذا معطف من جلد الأرنب مبطن بقماش أحمر ، يعلو سائر الأشياء التى يضمها الصندوق ، ويحميه غطاء أبيض ثم شال . وفى قرارة الصندوق لا يبدو أنه يوجد الا خرق . أخذ راسكولنيكوف يمسح بالبطانة الحمراء يديه الملطخين بالدم ، قائلاً لنفسه : « هى حمراء ، والدم لا يُرى على قماش أحمر كما يُرى على غيره » ، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك ، وتساءل مذعوراً : « رباه ! أأنا بسبيل أن أصبح مجنوناً ؟ » .

غير أنه ما كاد يحرك الخرق الموجودة فى قرارة الصندوق حتى انزلقت من تحت المعطف ، على حين فجأة ، ساعةٌ معصم . فقلب راسكولنيكوف عندئذ كل ما يضمه الصندوق . كان بين الخرق ، فعلاً ، أنواع شتى من أشياء ذهبية (لعلها أشياء رهنها أصحابها عند آليونا ايفانوفنا ثم لم يستردوها) : فهناك أساور وأقراط ودبابيس لرباط العنق وغير ذلك . ان بعض هذه الأشياء موضوع فى علب ، وبعضها ملفوف بورق جرائد لا أكثر ، ولكن ورقة الجريدة مزدوجة ومربوطة بخيط .

أسرع راسكولنيكوف يحشو بهذه الأشياء جيوب سرواله ومعطفه، مهملاً حتى أن يفض الصُّرر ويفتح العلب . ولكن وقته لم يتسع لأخذ مقدار كبير من هذه الأشياء .

ذلك أنه سمع على حين فجأة أصوات وقع أقدام في الغرفة التي يرقد فيها جثمان العجوز . تجمَّد وانشلَّ من الذعر حتى لكأنه ميت . ولكن السكون لم يلبث أن عاد يخيِّم . فظن أنه كان ألعوبةَ وهمٍ من أوهام الخيال . وما هي الا برهة وجيزة حتى سمع صرخةً ضعيفة تنطلق على حين بغتة ، ثم عاد الصمت يخيِّم من جديد . ان صمتاً كصمت الموت قد ساد الجوَّ خلال دقيقة أو دقيقتين . كان راسكولنيكوف جاثياً قرب الصندوق ينتظر ، وهو لا يتنفس الا بكثير من العناء . ثم نهض بوثبة واحدة ، فأمسك الساطور ، واندفع يخرج من غرفة النوم .

في وسط الغرفة كانت اليزابت واقفةً وفي يدها سلة كبيرة . انها تنظر الى أختها الميتة مذعورةً مصعوقة . كان وجهها شاحباً شحوباً شديداً ، وكانت كأنها لا تملك من القوة ما يمكِّنها من أن تصرخ . فلما رأت راسكولنيكوف أخذت ترتعش كورقة في مهب الريح . وسرت في جسمها كله رعدة قصيرة متقطعة . وتقبَّض وجهها بتشنجات . رفعت ذراعيها ، وفتحت فمها ، دون أن تصرخ مع ذلك ، وأخذت تتقهقر الى الوراء بخطى بطيئة أمام راسكولنيكوف ، محاولةً أن تلطو في ركن من الأركان . وكانت أثناء ذلك تحدق اليه وتتفرس فيه ، ولكنها ما تزال خرساء لا تنطق ، كأنما انقطعت أنفاسها . هجم راسكولنيكوف عليها مسلَّحاً بساطوره . تقلصت شفتا اليزابت من الألم ، وكأنها طفل من أولئك الأطفال الصغار جداً الذين اذا رأوا الشيء الذي يخيفهم ، همُّوا أن يصرخوا . مسكينة اليزابت ! كانت تبلغ من ضعف العقل ومن فرط

ما عاناته من اضطهاد في حياتها أنها لم ترفع حتى ذراعها لتحمي وجهها ، مع أن هذه الحركة هي الحركة الطبيعية في مثل تلك اللحظة ، لأن الساطور انما كان مصوباً الى رأسها . اكتفت اليزابت بأن رفعت قليلاً يدها اليسرى التي لا تحمل شيئاً ، فمدتها ببطء نحو راسكولنيكوف كأنما لتدفعه عنها . هوى راسكولنيكوف عليها بحد الساطور ، فأصابت الضربة جمجمتها ، وشقت أعلى جبينها حتى النافوخ تقريباً . سقطت اليزابت على الأرض كتلةً واحدة ، فتناول راسكولنيكوف سلتها ، وقد طار صوابه كله ، فرماه وأسرع راكضاً الى حجرة المدخل .

كان الذعر يستولي عليه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء ، ولا سيما بعد جريمة القتل الثانية هذه التي لم تكن في الحسبان قط . انه الآن يتعجل مغادرة المكان بأقصى سرعة . ولو كان عندئذ في حالة تمكنه من أن يرى رؤية أوضح وأن يفكر تفكيراً أسلم ؛ لو استطاع أن يدرك صعوبة وضعه الذي يتصف بأنه يائس عجيب مستحيل ؛ لو استطاع أن يتصور ، عدا ذلك ، العقبات الكثيرة التي ما يزال عليه أن يجتازها ، وربما الجرائم الكثيرة التي سيرتكبها لانتزاع نفسه من هذا البيت والعودة الى مسكنه ، اذن لكان من الجائز جداً أن يترك كل شيء ، وأن يبادر فوراً الى تسليم نفسه ، لا عن خوف ، بل عن شعور بالهول والاشمئزاز مما فعل . لقد كان الاشمئزاز ، خاصةً ، يزداد دقيقةً بعد دقيقة . ما كان له الآن ، بحال من الأحوال ، أن يقترب من الصندوق ، أو حتى من الغرفة .

ولكن نوعاً من الذهول ، بل ومن الحلم ، قد استولى عليه شيئاً بعد شيء ؛ حتى لكأنه في بعض اللحظات قد نسي نفسه ، أو قل نسي الأمر الأساسي وتشبث بالتفاصيل وحدها . ثم انه حين ألقى نظرة على المطبخ لمح قادوساً موضوعاً على دكة ، وممتلئاً نصفه بالماء . فارتأى أن يغسل

فيه يديه والساطور • كانت يداه الملطختين بالدم لزجتين • أغطس حدّ الساطور فى الماء ، وتناول من على حافة النافذة قطعة صغيرة من صابون كانت موضوعة في صحن متثلم ، وأخذ يغسل يديه داخل القادوس . فلما انتهى من غسلهما ، سحب الساطور ، فنظّف نصله ، ثم لبث ثلاث دقائق كاملة يدلك مقبضه فى المواضع الملطخة بالدم ، حتى لقد استعمل فى تنظيفه الصابون • وبعد ذلك مسح الساطور كله بخرقة كانت تجف على مقربة منه فوق حبل مشدود فى المطبخ• ثم اقترب من النافذة ، وراح يفحص الساطور باتنباه شديد • لم يبق على الساطور أى أثر ، ولكن مقبضه ما يزال رطباً • دسّ راسكولنيكوف الساطور فى الابزيم الذى خاطه فى داخل معطفه ، ثم أخذ يفحص المعطف والسروال والحذاءين، بالقدر الذى أتاحه له النور الضعيف • لا شيء ، من النظرة الأولى ، يبدو على مظهره من خارج • على الحذاءين وحدهما كان يمكن أن يرى الناظر بضع بقع • بلّل راسكولنيكوف خرقة ومسح الحذاءين • على أنه كان يعرف أنه لا يرى رؤية واضحة ، وأنه ربما كان هنالك شيء يخطف الأبصار ولكنه لا يلاحظه • وقف فى وسط الغرفة حائراً مضطرباً • وهذه فكرة مظلمة قاتمة تنزوه ، وهى أنه يتصرف تصف مجنون ، وأنه لا يملك فى هذه اللحظة لا القدرة على التفكير ولا القدرة على الدفاع عن نفسه ، وأن ما يجب عليه أن يفعله قد يكون غير هذا تماماً • دمدم يقول : « رباه ! ان علىّ أن أهرب ، أن أهرب ، أن أهرب ! » • واندفع نحو حجرة المدخل • ولكنْ هناك انما كان ينتظره رعب لم يشعر بمثله فى حياته !•••

لبث راسكولنيكوف جامداً لا يتحرك ، وأخذ ينظر فلا يصدّق عينيه : ان الباب الذى يفضى الى فسحة السلم ، هذا الباب الذى قرع جرسه ودخل منه منذ قليل ، هو الآن مفتوح ، مفتوح تماماً • لا مفتاح

ولا مزلاج اذن ، طوال الوقت الذى انقضى ! ان العجوز لم تغلق الباب اذن بعد دخوله ، ربما من باب الاحتياط والحذر ! ولكن ما هذه الخواطر ؟ ألم يرَ اليزابت بعد ذلك ؟ فكيف لا يخطر بباله أنها لا بد أن تكون قد دخلت من مكانٍ ما ؟ انها لم تخترق الجدران على كل حال !..

وأسرع راسكولنيكوف الى الباب فأوصد المزلاج .

ثم سرعان ما قال يحدث نفسه : « لا ، لا ، ليس هذا ما يجب علىَّ أن أفعله . ينبغى أن أنصرف ، أن أنصرف ! » .

وسحب المزلاج ، وفتح الباب ، وأخذ ينصت الى ضجات السلَّم متجسساً .

لبث يتجسس هذا التجسس مدةً طويلة . هناك ، فى بعيد ، ربما عند باب العمارة ، أصوات رجلين صارخين معولين ، يتشاجران ويتشاتمان . تساءل راسكولنيكوف : « ما بالهما ؟ » . وانتظر صابراً . وصمت كل شىء فى آخر الأمر دفعةً واحدة : افترق الرجلان . استعد راسكولنيكوف للخروج ، فاذا بباب فى الطابق الأسفل يُفتح على حين فجأة صاخباً ، فيخرج منه أحدٌ ويأخذ يهبط درجات السلم وهو يدندن لحناً من الألحان . قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « ولكن ما بالهم يحدثون مثل هذه الضجة جميعاً ؟ » وعاد يغلق الباب عليه من جديد ، وانتظر . وأخيراً انقطعت كل ضجة ، فما من حركة ومن من نأمة . خرج راسكولنيكوف . ولكنه ما ان وضع قدمه على أول درجة من درجات السلم حتى سمع مرةً أخرى أصوات وقع أقدام . ان أصوات وقع الأقدام هذه آتية من بعيد ، من أسفل السلَّم ، ولكن راسكولنيكوف تذكر فيما بعد ، تذكَّر تذكراً واضحاً جداً ، أنه منذ سمع صدى أول خطوة ، أوجس فوراً أن « ذلك آت الى هنا » حتماً ، الى الطابق الثالث،

الى مسكن العجوز • ماذا كان فى تلك الضجة من شيء خاص ذى دلالة الى هذا الحد ؟ كانت الخطوات ثقيلة، موزونة ، أميل الى البطء• ها هو ذا « القادم » يجتاز الطابق الأرضى ، ها « هو » ذا يستمر فى الصعود ، ان صوت وقع خطاه يزداد قوة ، وما ينفك يزداد قوة ! ان راسكولنيكوف يسمع الآن لهاثه • ها هو ذا يبلغ الطابق الثانى • أحس راسكولنيكوف بتجمد فى جسمه • ان الأمور تجرى كما تجرى فى الأحلام تماماً ، حين يرى النائم نفسه ملاحَقاً مطارَداً ، فيحدق به خصمه ، ويصبح هو مهدداً بالموت ، فيظل مسمَّراً فى مكانه ان صح التعبير ، عاجزاً عن تحريك ذراعيه •

ولم يثب راسكولنيكوف الى رشده الا حين أخذ القادم يعبر الى الطابق الثالث • فاستطاع عندئذٍ أن يرجع الى البيت مسرعاً محاذراً ، وأغلق على نفسه الباب ، ثم أمسك المزلاج فدفعه دفعاً رفيقاً بلا ضجة ، تقوده فى ذلك غريزته ، ثم التصق بالباب حابساً أنفاسه • وكان القادم المجهول قريباً من الباب هو أيضاً • ان كلا من الرجلين يقف الآن امام الآخر على نحو ما كان يقف راسكولنيكوف والعجوز منذ قليل ، حين لم يكن يفصل بينهما الا سُمْك الباب ، وحين كان راسكولنيكوف مصخاً سمعه يتصنت •

تنفس الزائر عدة مرات بمشقة كبيرة • قال راسكولنيكوف يحدِّث نفسه وقد تقلصت يده على الساطور : « لا بد أنه طويل وضخم » • حقاً ان ذلك كله يشبه الأحلام شبهاً كبيراً • أمسك الزائر حبل الجرس ، وشدَّه شداً قوياً •

فما ان دوَّى رنين الجرس حتى أحسَّ الزئر المجهول بأنه يسمع ضجة خفيفة فى الغرفة كأن أحداً قد تحرك ؟ حتى لقد أنصت جاداً

خلال بضع ثوان ؛ وقرع الزائر المجهول الجرس مرة اخرى وانتظر ثم اذا هو يثور على حين فجأة ويأخذ يهز قبضة الباب بكل ما أوتى من قوة • فكان راسكولنيكوف ينظر مذعوراً الى المزلاج الذى أخذ يتهزز فى الرزة• ان راسكولنيكوف يتوقع ، وقد شلّه الرعب، أن يرى المزلاج ينخلع من لحظة الى أخرى • والحق أن انخلاع المزلاج لم يكن مستحيلاً • فلقد كان الرجل يهز الباب هزاً قوياً يمكن أن يخلع المزلاج • خطر ببال راسكولنيكوف فى لحظة من اللحظات أن يسند المزلاج بيده • ولكنه أمسك عن ذلك ، لأن الرجل كان سيلاحظ هذه الحركة• أخذ راسكولنيكوف يشعر بدوار ، وقال يحدث نفسه : « ها أنا ذا أوشك أن أقع » • ولكن الزائر المجهول أخذ يتكلم ، فسرعان ما ثاب راسكولنيكوف الى رشده •

صاح الرجل المجهول يقول بصوت أجش :

ـ هيه ! ماذا ؟ هل الجيفتان نائمتان هناك أم أن أحداً ذبحهما ؟ هيه ! أنتِ يا آليونا ايفانوفنا ! يا عجوز النحس ! وأنتِ يا اليزابت ايفانوفنا ، يا جمالاً لا يضارع ! افتحا الباب ! آه ••• يا للجيفتين ! أهما نائمتان حقاً ؟

وجُنّ من الغضب مرة أخرى فشدّ حبل الجرس بكل قواه عشر مرات متتالية• لا شك أنه رجل خطير الشأن ، وأنه فوق ذلك من روّاد هذا المنزل الذين ألفوا التردد اليه •

وفى تلك اللحظة نفسها سُمع صوتُ وقع خطواتٍ صغيرة متعجلة قرب السلم •

كان شخص آخر يقترب • ولم سمع راسكولنيكوف ضجة مجيئه فى أول الأمر •

صاح القادم الجديد يقول بصوت رنان مرح مخاطباً الزائر الأول الذى كان لا يزال يشد الحبل :

ـ هل يمكن أن لا يكون فى البيت أحد ؟ نهارك سعيد يا كوخ !

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « صوته يدلُّ على أنه شاب فى ريعان الشباب . »

أجاب كوخ :

ـ لا يعلم الا الشيطان ماذا جرى !

لقد أوشكتُ أن اكسر القفل . ولكن كيف تعرفنى أنت ؟

ـ ما هذا الكلام ؟ ألم أغلبـك أمس الأول ثلاث مرات متتالية فى البلياردو بمقهى جامبرينوس ؟

ـ آ ...

ـ أليسـتا اذن فى البيت ؟ هذا شىء غريب ! وهو فوق ذلك شىء مزعج ! أين عساها ذهبت ، هذه العجوز ؟ لقد كنت آتياً اليها لأعمال...

ـ أنا أيضاً آتٍ اليها لأعمال ، يا صديقى !...

صاح الشاب يقول :

ـ ماذا نفعل اذن ؟ يا لسـوء الحظ ! كنت احسب أننى سـأحصل على بعض المال .

ـ طبعاً لم يبق لنا الا أن ننصرف ، ولكن لماذا حددتْ لى موعداً ؟ ياللعجوز الشمطاء ! هى التى حددت لى هذا الموعد ! ثم اننى قد اضطررت من أجل الوصـول أن أدور دورة طويلة . أين عسـاها ذهبت ؟ اننى لا أفهم ! انها تقبع فى بيتها طول العـام ، هذه العجوز الشـمطاء ...

وتعفن فى مكانها لا تبارحه ••• لأنها تشكو من أوجاع فى ساقيها فما بالها تمضى تتجول الآن على حين فجأة ؟•••

ـ ما رأيك الآن فى أن نسأل البواب ؟

ـ نسأله عماذا ؟

ـ نسأله عن المكان الذى ذهبت اليه، وعن الوقت الذى ستعود فيه!

ـ هِمْ ••• نسأل ؟ ولكن كيف نسأل عن المكان الذى ذهبت اليه وهى لا تذهب الى أى مكان فى يوم من الأيام ؟

قال الرجل ذلك وشدّ قبضة الباب مرة أخرى ، ثم أضاف :

ـ لا فائدة ! لم يبق الا أن ننصرف !

صرخ الشاب على حين فجأة قائلاً :

ـ انتظر ! أنظر ••• ان الباب يتحرك حين يُهز •

ـ على أى شىء يدل هذا ؟

ـ يدل على أن الباب ليس مقفلاً بالمفتاح ، وانما هو موصد بالمزلاج وحده • ألا تسمع صرير المزلاج ؟

ـ وعلى أى شىء يدل هذا ؟

ـ كيف لا تفهم ؟ هذا يدل على أن احداهما ، فى أقل تقدير ، موجودةٌ فى البيت ؟ فلو انهما خرجتا كلتاهما لأغلقتا الباب بالمفتاح من خارج ، لا بالمزلاج من داخل • انك تسمع صرير المزلاج ••• ألا تسمعه ؟ ومن أجل اغلاق الباب بالمزلاج من الداخل لا بد أن يكون فى البيت أحد • هل فهمت ؟ هما اذن فى بيتهما ، ولكنهما لا تريدان أن تفتحا •

صاح كوخ يقول مدهوشاً :

ـ حقاً ... حقاً ! ترى ماذا تصنعان ؟

وراح يهز الباب غاضباً من جديد .

هتف الشاب يقول مرة أخرى :

ـ انتظر ! كفاك هزاً للباب ! ان في الأمر سراً ! لقد قرعت الجرس وهززت الباب فلم تفتحا !... معنى هذا : اما أنهما مغشي عليهما ، واما أنهما ...

ـ واما أنهما ماذا ؟

ـ هلم نستدعي البواب . الأفضل أن يتولى هو ايقاظهما !

ـ موافق .

وأخذ الرجلان يهبطان على السلم . ولكن الشاب ما لبث أن قال :

ـ انتظر ! ابق انت هنا ، وأنا استدعي البواب .

ـ أبقى هنا ؟ لماذا ؟

ـ لا يدري أحد ماذا يمكن أن يحدث .

ـ لك ما تشاء .

قال الشاب بلهجة صارمة :

ـ أرأيت ؟ انني أهيء نفسي لوظيفة قاضي تحقيق ! الأمر واضح ، وا ... ضح ! لا شك أن هناك سراً .

واندفع الشاب راكضاً على السلم .

فلما أصبح كوخ وحيداً شدّ حبل الجرس برفق ، فرن الجرس رنةً واحدة ، ثم هزّ قبضة الباب مرة أخرى ببطء ، كمن يفكر أو يحاذر ، فهو يشدها اليه ويرخيها ليتأكد من أن الباب ليس موصداً الا بالمزلاج . ثم زفر زفرة قوية ، ومال الى تحت ، ونظر من ثقب القفل ،

ولكن المفتاح كان مدسوساً في القفل من الداخل ، فلا يمكن أن يُرى شيء .

لبث راسكولنيكوف ساكناً جامداً ، قابضاً على ساطوره . كان فى حالة قريبة من الهذيان . حتى لقد كان يتهيأ لأن يقاتلهما متى دخلا . ولقد خطر بباله مراراً حين كانا يقرعان ويتشاوران أن يحسم الأمر دفعةً واحدة فيناديهما من خلال الباب . واستبدت به فى بعض اللحظات رغبة مجنونة رعناء في أن يسخر منهما ، وان يستهزىء بهما ، وأن يمطرهما بوابل من الشتائم قبل أن يفتحا الباب . لقد ومضت فى ذهنه بمثل سرعة البرق هذه الفكرة : « يجب أن أحسم الأمر بأقصى سرعة ».

وكان الوقت ينقضي . مضت دقيقةٌ ، ومضت دقيقة أخرى ... دون أن يرجع أحد . أخذ كوخ يضطرب .

وها هو ذا يهتف فجأة :

ـ ما شأني أنا !

ونفد صبره ، فترك مكانه ، وهبط بسرعة هو أيضاً . ان أصوات وقع حذاءيه تدوّى على السلّم . ثم انقطعت هذه الأصوات .

ـ ما العمل يا رب ؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم سحب المزلاج وشقّ الباب . لم يسمع أية نأمة . وبدون أن يفكر مزيداً من التفكير ، خرج وأغلق الباب وراءه برفق ، واندفع يهبط السلم .

حتى اذا اجتاز طابقين تقريباً سمع صخباً يدوّى تحت . أين يختبىء ؟ لم يعرف أين يستطيع أن يختبىء . حتى لقد تهيأ لأن يقفل راجعاً وأن يعود الى بيت العجوز ركضاً .

ـ هيه ، لعنة الله عليه ! يا للشيطان ! أوقفوه !

ان الشخص الذى أطلق هذه الصرخات قد وثب من شقة فى أسفل ، وأخذ يصعد السلم تدحرجاً ان صح التعبير ، صائحاً بأعلى صوته :

ـ ميتكا ! ميتكا ! ميتكا ! ميتكا !* شيطان يقشر جلدك! ياللمجنون!

وانتهى الصراخ بعويل حاد ، فكانت اصداؤه تترجع فى فناء المنزل ثم صمت كل شىء . ولكن فى تلك اللحظة نفسها أخذ عدة رجال يصعدون السلم محدثين ضجة كبيرة وهم يتكلمون كثيراً بصوت عالٍ . لعل عددهم ثلاثة أو أربعة . وميز راسكولنيكوف ذلك الصوت الرنان ، صوت الشاب الذى كان يرابط على الباب مع كوخ منذ قليل. قال لنفسه : « انهم هم » .

شعر راسكولنيكوف بيأس مطلق فمضى الى لقائهم قُدُماً قائلاً لنفسه : « ليكن ما يكون ! » . لقد ضاع كل شىء : اذا استوقفوه فقد ضاع كل شىء ، واذا تركوه يمر فقد ضاع كل شىء أيضاً لأنهم سيتذكرونه ...

أوشكوا أن يلتقوا . ليس يفصلهم الآن الا طابق واحد ! ولكن ها هو ذا راسكولنيكوف ينجو فجأة ! فبعد بضع درجات ، على اليمين ، كان هناك بيت خالٍ مفتوحٌ بابه ، هو ذلك البيت نفسه الذى يقع فى الطابق الاول والذى كان يعمل فيه الدهانون . لقد غادره الدهانون منذ قليل ، بمصادفة تشبه أن تكون عمداً. لا شك أنهم هم الذين خرجوا منذ قليل محدثين صخباً شديداً. ان خشب الأرض فى هذا البيت ما يزال طلاؤه غضاً . وفى وسط الغرفة الأولى طشت ووعاء مملوء دهاناً وفرشاةٌ كبيرة . تسلل راسكولنيكوف الى البيت من الباب المفتوح فى مثل لمح البصر سرعةً ، ولطا على الحائط . وفى ذلك الوقت نفسه

كان الرجال قد وصلوا الى فسحة السلم ، فداروا وصعدوا الى الطابق الثالث ، وهم ما يزالون يتكلمون بصوت عال • انتظر راسكولنيكوف بضع لحظات ثم خرج سائراً على رءوس الأصابع وأخذ يهبط السلم راكضاً •

ما من أحد كان على السلم ! وما من أحد كان تحت قبة مدخل العمارة ! اجتاز العتبة مسرعاً ، حتى اذا سار فى الشارع ، التفت يسرة•

كان يعلم حق العلم ، كان يعلم علمَ اليقين أنهم فى هذه اللحظة نفسها موجودون فى بيت العجوز ، وأنهم قد دهشوا أشد الدهشة حين رأوا الباب مفتوحاً بعد أن كان مغلقاً منذ قليل ، وأنهم ينظرون الى الجثتين ، وأنهم لن يحتاجوا الى اكثر من دقيقة واحدة من أجل أن يدركوا حق الادراك أن القاتل قد بارح المكان منذ برهة وجيزة ، وأنه أفلح فى الاختباء بمكان ما ، وأنه قد تسلل من بين أصابعهم ان صح التعبير • ولعلهم قدروا أيضاً أن هذا القاتل قد اعتصم بالبيت الخالى بينما كانوا يصعدون السلم •

ومع ذلك لم يجرؤ راسكولنيكوف ان يعجِّل سيره ، رغم أنه ما يزال هناك مائة خطوة عليه أن يقطعها حتى يصل الى المنعطف التالى• تساءل : « ماذا لو تسللت فاختبأت تحت أحد الأبواب ؟ ماذا لو انتظرت الأحداث فى سلمٍ منزل مجهول ؟ » ثم أجاب عن سؤاله بقوله : « لا ، هذا رأى فاسد ! » وتساءل ايضاً : « ماذا لو رميت الساطور فى مكان ما ؟ ماذا لو ركبت عربة ؟ » ثم أجاب عن سؤاله بقوله : « لا ، هذا رأى فاسد ، رأى فاسد ! » •

كانت أفكاره مضطربة مختلطة • وها هو ذا يصل أخيراً الى شارع صغير ، فيدخل فيه وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة • انه فى هذا

الشارع لا يثير حوله الشبهات كما يمكن أن يثيرها هناك • ثم ان الناس يذهبون ويجيئون هنا كثيراً •

ضاع راسكولنيكوف في الجمهور كحبة رمل ، ولكن تلك المحن كلها كانت قد هدّت قواه ، فهو لا يكاد يستطيع أن يسير • كان العرق يسيل منه ، وكانت عنقه مبتلة مخضلة ، حتى ان أحد المارة صرخ يقول حين وصل راسكولنيكوف الى القناة : « يا للسكران ! » •

أصبح راسكولنيكوف لا يعي نفسه كثيراً ، وكانت حاله تزداد سوءاً عند كل خطوة جديدة • ان اللحظة الوحيدة التي بقيت في ذاكرته هي اللحظة التي وصل فيها الى رصيف القناة ، فأرعبه أن يرى أن الناس هناك قليل ، فمن الممكن أن يلاحَظ • فأوشك عندئذ أن يعود أدراجه الى الشارع الصغير• ومع ذلك ، ورغم أنه قد بلغ من الضعف أنه لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، فقد دار دورة طويلة ، ورجع الى بيته من جهة أخرى تماماً •

وحين اجتاز مدخل العمارة التي فيها بيته ، لم يكن قد استرد صحو ذهنه بعد • ومهما يكن من أمر فانه لم يتذكر الساطور الا حين صار في السلّم ، مع أن هذه المسألة هي من أخطر المسائل التي كان عليه أن يحلها • لقد كان عليه أن يعيد الساطور الى مكانه مهما كلّف الأمر ، وذلك على أخفى نحو ممكن • يجب أن نذكر أنه كان بطبيعة الحال عاجزاً حتى أن يتصور أن من الأفضل له ، بدلاً من اعادة الساطور الى مكانه ، أن يرميه ، ولو بعد مدة ، في أي مكان ، في فناء عمارة من العمارات •

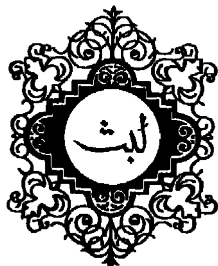
جرى كل شيء على خير وجه • كان باب غرفة البواب مغلقاً ، ولكنه ليس مقفلاً بالمفتاح • معنى ذلك أن البواب لا بد أن يكون

في غرفتـه • ولكن راسكولنيكوف كان قد بلغ من العجـز عن التفـير في أى شيء أنه أقبل على غرفة البواب بخطى حازمة ، وفتح الباب • ولو قد سـأله البـواب عندئذ : « ماذا تريد ؟ » اذن لكان من الممكن أن لا يزيد على أن يمد اليه الساطور • ولكن البواب كان غائباً في هذه المرة أيضاً ، واتسع وقت راسكولنيكوف لأن يعيد السـاطور الى مكانه تحت الدكة ، حتى انه لم يفته أن يضع فوقه الحطبة التى كانت موضوعة عليه حين أخـذه • واسـتطاع بعد ذلك أن يبلغ غرفتـه دون أن يصـادف في طريقه أى مخلوق • وكان باب صاحبة البيت مغلقاً •

حين دخل راسـكولنيكوف حجـرته ارتمى على الأريكة دون أن يخلع ملابسه • ولم ينم ، لكنه ظل مكباً على وجهه وهو في حالة تشبه التخدر ، فلو قد دخل عليـه أحـد في ذلك الوقت ، لأسرع يثب عن سريره واقفاً ، ولأخذ يصرخ • ان شزرات من أفكار تتصادم في رأسه ، ولكنه ، رغم الجهود التى بذلها ، لم يستطع أن يقبض على أية فكرة من تلك الأفكار ، ولم يستطع أن يتلبث على واحدة منها •

الجزء الثاني

الفصل الثامن



لبث راسكولنيكوف راقداً هذا الرقاد زمناً طويلاً . وكان يتفق له أن يستيقظ نصف استيقاظ ، فكان يلاحظ أثناء تلك الدقائق القليلة أن الليل يتقدم، ولكن لم يخطر بباله قط أن ينهض. ورأى أخيراً أن النور قد انتشر فكأنه النهار .

كان مستلقياً على ظهره ، وهو ما يزال على تلك الحال من التخدر. ومن الشارع ، كانت تصل اليه أصوات عويلٍ رهيبة ، وهى أصوات كان يسمعها كل ليلة تحت نافذته فى الساعة الثانية من الصباح ، وكانت هى التى توقظه من نومه . قال راسكولنيكوف لنفسه : « آ ... ها هم السكارى يخرجون من خمّاراتهم . لا شك أنها الساعة الثانية ! » . وبوثبة واحدة ، نهض عن الأريكة وقال يخاطب نفسه : « ماذا ؟ أتكون هى الساعة الثانية ؟ » . ثم عاد يجلس على الأريكة ، وسرعان ما عاد الى ذهنه كل شيء ، فاذا هو يتذكر كل ما حدث ، دفعةً واحدة فى لحظة قصيرة .

اعتقد فى أول الأمر أنه فقد عقله . وها هى ذى رعدة باردة تسرى فى جسمه . ولكن هذه الرعدة ناشئة أيضاً عن الحمى التى انتابته منذ مدة بينما كان نائماً ؛ وهى تهزه الآن هزاً يبلغ من القوة أن أسنانه تصطك . فتح الباب وأصاخ بسمعه : كان كل شيء فى المنزل ينام نوماً

عميقاً . دُهش ، وألقى نظرة على نفسه وعلى ما حوله . لم يستطع أن يفهم كيف أمكنه ، فى الليلة البارحة ، حين دخل غرفته ، أن لا يوصدها بالكلاّبة ، وأن يرتمى على أريكته دون أن يخلع ملابسه ، بل ودون أن يخلع قبعته . كانت القبعة قد تدحرجت على الأرض فهى ترقد الآن قرب الوسادة. تساءل راسكولنيكوف : « لو دخل علىّ أحد ، فماذا كان يمكن أن يظن ؟ أكان يمكن أن يظن أننى سكران ، ولكن ... » . وهرع نحو النافذة . كان الضوء منتشراً . وأسرع يتفحص نفسه من القدمين الى الرأس ليرى ألا يزال على ثيابه آثار . ولكنه لم يلبث أن قال لنفسه ان هذه الطريقة ليست هى الطريقة التى يجب عليه أن يتبعها ، ثم نضا عنه ثيابه وأخذ يفتشها وهو يرتجف من الحمى ارتجافاً شديداً . قلب ثيابه ثم قلبها ، منقباً فى كل درزة . ثم لم يثق بحسن ملاحظته ، فأعاد فحصها ثلاث مرات . ولكن لم يكن ثمة شىء . كان يبدو فعلاً أنه لم يبق أى أثر ، الا بضع قطرات من دم متخثر فى أسفل سرواله المهترىء المتسلّل .

تناول مقرضاً كبيراً فقصّ به حاشيتى السروال . كان يبدو حقاً أنه ليس ثمة آثار غير هذه الآثار. وتذكر فجأة أن حافظة النقود والأشياء التى أخرجها من صندوق العجوز ما تزال حتى الآن فى جيبه . لم يكن قد خطر بباله أن يخرجها من الجيب وأن يخبئها ، لا ولا فكرّ فيها منذ قليل ، حين كان يفتش ثيابه . ما معنى هذا ؟ وها هو ذا قد أخذ يسلّها من الجيوب بمثل لمح البصر سرعةً ، ثم يرميها على المنضدة . حتى اذا فرغ من اخراج كل شىء ، ثم قلب الجيوب ليتأكد مزيداً من التأكد أنه لم يبق فى الجيوب شىء ، مضى يضعها جميعاً فى أحد الأركان . ففى ذلك الركن يوجد ثقب تحت الورق الذى يغطى الجدار والذى كان منزوعاً ممزقاً . فما هى الا لحظات حتى دسّ جميع الأشياء فى الثقب

تحت الورق ، وقال يحدث نفسه : « حسن ! دخل كل شيء ! لا أحد رأى ولا أحد عرف ! حتى حافظة النقود اختفت ! » . قال ذلك فرحاً وهو ينهض عن الأرض وينظر مدهوشاً الى الركن الذى أصبح ورق الحائط فيه منتفخاً مزيداً من الانتفاخ . ولكنه لم يلبث أن ارتعش من الرعب على حين فجأة ، ودمدم يقول يائساً : « رباه ! ماذا فعلت ؟ أهكذا يخبأ شيء من الأشياء ؟ » .

الحق أن راسكولنيكوف لم يكن يقدّر أنه سيأخذ من عند العجوز أشياء ، وانما كان يتصور أن لا يجد الا مالاً ، لذلك لم يهيىء مخبأً يخفي فيه ما قد يأخذ من أشياء . قال يسأل نفسه : « ولكن هل هناك الآن ما يدعو الى الابتهاج ؟ أهكذا يخبأ شيء من الأشياء ؟ حقاً لقد ذهب عقلي ! » . وتهالك على الأريكة مهدود القوى خائر العزم ، وسرعان ما عادت اليه تلك الرعدة التى لا تطاق . وها هو ذا يشد اليه ، على نحو آلى ، معطفه القديم الذى كان يرتديه طالباً ، والذى يوجد الآن على كرسى ، وهو معطف شتوى دافىء ، لكنه قد أصبح منذ الآن أشبه بخرقة بالية . شدّ راسكولنيكوف المعطف ، وغطى به جسمه . فاستولى عليه النوم والهذيان من جديد ، وغاب عنه شعوره .

فما ان انقضت خمس دقائق حتى وثب عن أريكته مرة أخرى ، وعاد يسرع الى ثيابه سائلاً نفسه : « كيف أمكنني أن أنام بينما أنا لم أفعل شيئاً بعد ؟ نعم ، انني لم أفعل شيئاً بعد ! حتى الابزيم لم أنزعه من تحت الابط حتى الآن ! كيف أمكنني أن أنسى أمراً هاماً كهذا الأمر ، كيف أمكنني أن أنسى قرينة خطيرة كهذه القرينة ؟ » . وانتزع الابزيم، ثم أسرع يقطعه قطعاً صغيرة يرميها واحدة بعد واحدة تحت الوسادة بين الغسيل : « ان قطعاً ممزقة من قماش لا يمكن أن تثير الشبهات بحال من الأحوال ، أو هذا ما يخيّل الىّ ... » . ذلك ما كان يردده

راسكولنيكوف واقفاً فى وسط الغرفة . ثم أخذ يجيل بصره حواليه ، على أرض الغرفة ، فى جميع الجهات ، ليرى هل أغفل شيئاً من الأشياء. فعل ذلك وهو يشعر بتوتر نفسى أليم . لقد كان على يقين من أن كل شيء يبارحه ، حتى ذاكرته ، وحتى أية قدرة على التفكير ، فكان ذلك يعذبه عذاباً لا طاقة له به . قال يسأل نفسه : « ماذا ؟ أيكون «الأمر» قد بدأ منذ الآن ؟ أيكون هذا هو العقاب ؟ » ... نعم ، نعم ، هذا هو العقاب !

وعثر فعلاً على بقايا من قصاصات السروال كانت ملقاةً على الأرض يستطيع أن يراها أول قادم . فصرخ يقول وقد تاه عقله من جديد : « ماذا فعلت ؟ » .

هنا راودته فكرة غريبة : ربما كانت ثيابه نفسها مغطاة بالدم ، ربما كان ثمة بقع كثيرة ولكنه لا يراها ولا يلاحظها لأن رأيه قد فسد ولأن فكره قد أظلم !... وتذكر فجأة أن حافظة النقود أيضاً قد تلطخت بالدم فقال لنفسه : « معنى هذا أنه لا بد أن يكون فى الجيب دم ، لأننى دسست حافظة النقود فى الجيب رطبةً مخضلةً » . وقلب جيبه فى مثل لمح البصر سرعةً ، فتحقق من صدق ظنه : كان فى بطانة الجيب بقع دم فعلاً . قال لنفسه : « اذن لم يذهب عقلى ذهاباً تاماً ، اذن ما زلت احتفظ بفكرى وذاكرتى ... ولولا ذلك لما استأنفت التنقيب ، ولما كنت قادراً على استنتاج تلك النتيجة ! » قال ذلك وهو يشعر بالانتصار ، حتى لقد أفلتت من صدره تنهيدة فرح . وأردف يخاطب نفسه : « لم يكن ذلك اذن الا ضعفاً عابراً ، لم يكن الا وهناً ناشئاً عن الحمى ! » . وانتزع من سرواله كل بطانة الجيب الأيسر . وفى تلك اللحظة نفسها سقط شعاع شمس على حذائه الأيسر فأناره ، فرأى راسكولنيكوف على الجورب الذى كان خارجاً من الحذاء ، رأى آثار دم . نعم ، هى آثار دم . ان

كل طرف الجورب مرتوٍ بالدم ! أغلب الظن أنه لم يحـاذر فمشى على بركة الدم ، وكان حذاءاه مثقوبين ... تساءل راسكولنيكوف : « ولكن ما العمل بهذا ، الآن ؟ أين أضع هذا الجورب ، وقصاصات حافة السروال وبطانة الجيب ؟ » .

لمّ كل شيء ، وأمسكه بيده ، ولبث واقفاً جامداً في وسط الغرفة. قال يحدث نفسه : أأرميه في المدفأة ؟ لا ... فانهم سيفتشـون المدفأة قبل أن يفتشوا أي مكان آخر ! أأحرقه ؟ ولكن بماذا أحرقه ؟ ليس عندي عيدان كبريت. خير من ذلك أن أخرج فأمضي أرمي هذا كله في مكان ما ! نعم ، الأفضل أن أرمي هذا كله ! » ذلك ما ردّده راسكولنيكوف وهو يجلس على الأريكة من جديد. وأضاف : « ويجب أن أرميه فوراً ، يجب أن لا أضيع وقتاً ، يجب أن أرميه في هذه الدقيقة نفسها ... » . ولكن رأسه هوى على الوسادة من جديد ؛ ومن جديد عاودته الرعدة الباردة التي لا تطاق ؛ ومن جديد شدّ اليه معطفه يغطي به جسمه . وقد ظلت هذه الفـكرة الواخزة توافيه مدةً طويلة ، خلال سـاعات عدة ، وهي « أن عليه فوراً ، بلا ابطاء ، أن يخـرج فيرمي هذا كله في مكان ما ، حتى لا يراه أحد ، وأن عليه أن يفعل ذلك بسرعة ، بسرعة كبيرة ، بأقصى سرعة ممكنة ! » . وحاول عدة مرات أن ينهض عن الديوان . ولكنه أصبح الآن لا يقوى على النهوض . وهذه ضربة شديدة على الباب تردُّ اليه شعوره .

ــ هلاّ فتحت الباب أخيراً ! أأنت حيٌّ أم لا ؟ انه لا يفعل شيئاً غير أن ينام . نعم ، انه ينام أياماً بكاملها ، مثل كلب . يا له من كلب ! افتح ! هلاّ فتحت ! لقد دقت الساعة العاشرة !

كذلك كانت تصيح ناستاسيا وهي تقرع الباب بقبضة يدها .

قال صوت رجل :

ـ قد لا يكون فى غرفته !

قال راسكولنيكوف لنفسه : «هذا صوت البواب» ماذا يريد منى؟» وانتفض واثباً ، وجلس على الأريكة • كان قلبه يدق دقاً قوياً الى حد الألم •

قالت ناستاسيا ترد على الرجل :

ـ لولا أنه فى غرفته فمن عسى يوصد الباب بالكُلاَّبة ؟ عجيب ! هو الآن يحبس نفسه ! أهو يخاف أن يُخطف ؟ افتح يا نوَّام ! استيقظ يا كسلان !

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « ماذا يريدان منى ؟ لماذا يجىء البواب ؟ لقد اكتُشف اذن كل شىء ! أأقاوم أم أفتح ؟ ••• » •

وأنهض جسمه ، ومال الى أمام ، وسحب الكُلاَّبة دون أن يغادر سريره •

صدق ظنه : كان البواب وناستاسيا واقفين على عتبة الباب •

ألقت عليه ناستاسيا نظرة غريبة ، وشخص هو ببصره الى الخفير وقد بدا عليه التحدى واليأس • مدَّ اليه الخفير ورقة سمراء مطوية مختومة بالشمع ، وقال له وهو يناوله الورقة :

ـ استدعاء من المكتب !

ـ أى مكتب ؟

ـ الشرطة تستدعيك الى المكتب ••• ما من أحد يجهل ما هو المكتب !•••

ـ الشرطة ؟••• لماذا ؟•••

ـ أأنا أعلم ؟ هم يستدعونك ، فاذهب اليهم !

قال الخفير ذلك ، وتفرس فى وجه راسكولنيكوف ، وألقى نظرة حواليه ، ثم استدار لينصرف •

كانت ناستاسيا تنظر الى راسكولنيكوف ، ولا تحوّل بصرها عنه• وها هى ذى تسأله الآن :

ـ أحسب أنك مريض جداً ، أليس كذلك ؟

التفت الخفير • وأضافت ناستاسيا قولها :

ـ ان بك حمى منذ أمس !•••

لم يجبها راسكولنيكوف • وما يزال يمسك الورقة التى لم يفضّها بعد •

واصلت ناستاسيا كلامها مشفقةً عليه حين رأته يهم أن ينزل عن السرير :

ـ لا ••• لاتنهض ! أنت مريض ! لا تذهب الى الشرطة اليوم!... ما من أمر خطير يدعو الى الاسراع • ما هذا فى يدك ؟

نظر راسكولنيكوف الى يده • كان لا يزال ممسكاً قصاصات حافة السروال ، والجورب ، وبطانةَ الجيب المنزوعة • لقد نام وهو ممسك بهذا كله • سوف يتذكر فى المستقبل ، حين سيفكر فى هذا الأمر ، أنه استيقظ نصف استيقاظ أثناء نوبة الحمى ، فضغط على هذه الأشياء بيده ضغطاً قوياً ، وعاد ينام وهو على هذه الحال •

ـ عجيب أمره ! لمَّ هذه الخرق من الأرض ، ثم هو ينام معها كأنها كنز ثمين •••

قالت ناستاسيا ذلك وانفجرت تضحك ضحكتها العصبية الكبيرة •

أسرع راسكولنيكوف يدسُّ الأشياء كلها تحت معطفه ، وحدّق

الى الخادمة بنظرة نافذة ، فشعر ، رغم أنه لم يكن فى تلك اللحظة قادراً على أن يحكم على الأمور حكماً صحيحاً دقيقاً ، شعر أن من سيُقبض عليه ويُعتقل لا يُعامل هذه المعاملة • ومع ذلك تساءل : ولكن لماذا تستدعينى الشرطة ؟ » •

قالت له ناستاسيا :

ـ عليك أن تشرب شيئاً من الشاى على الأقل • هل تريد ؟ فى وسعى أن أجيئك بشاى • ما يزال عندنا بقية !

دمدم راسكولنيكوف مجيباً وهو يقف :

ـ لا بل سأذهب الى الشرطة ••• سأذهب الى الشرطة فوراً •

قالت ناستاسيا :

ـ لن تقوى حتى على هبوط السلم !

ـ سأذهب !

ـ افعل ما تشاء !

قالت ناستاسيا ذلك وانصرفت فى اثر الخفير • فلم يلبث راسكولنيكوف أن أسرع يفحص الجورب وحافة السروال فى الضوء ، ثم قال لنفسه : « هناك بقع ، لكنها لا تكاد ترى ، فكل شىء متسخ متآكل ممحو • فمن لا يعرف شيئاً لن يرى شيئاً • الحمد لله على أن ناستاسيا لم تستطع أن تلاحظ شيئاً البتة » قال راسكولنيكوف لنفسه ذلك ثم فضّ الورقة وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً وأخذ يقرأ • لبث يقرأ مدة طويلة ، مدة طويلة ، ثم فهم أخيراً أنه استدعاء عادى من قسم الشرطة بالحى ، يُطلب منه فيه أن يحضر الى مكتب مفوض الشرطة فى الساعة التاسعة من هذا اليوم نفسه •

تساءل راسكولنيكوف وهو يعانى حيرة أليمة : « هل رأى أحد

شيئاً ؟ أنا لا شأن لى بالشرطة شخصياً ! ولماذا فى هذا اليوم ذاته ؟ رباه ! ألا فلينته هذا كله بأقصى سرعه ! » •

قال ذلك وهم ان يركع ليصلى ، ولكنه لم يلبث ان عدل عن رايه وقهقه ساخرا ، لا ساخرا من الصلاة بل من نفسه • واخذ يرتدى ثيابه مسرعا ، قائلاً لنفسه : « ان كنت قد هلكت فلأهلك ! يستوى عندى كل شىء ! ولكن يجب أن ألبس الجورب (هذا ما خطر بباله فجاة) • سوف يتسخ بالتراب مزيدا من الاتساخ ، فيختفى ما بقى عليه من آثار الدم •• » ولكنه ما ان لبس الجورب حتى انتزعه على الفور مشمئزا مذعوراً • ثم تذكر أنه لا يملك جوارب أخرى ، فالتقطه من الأرض ، وعاد يلبسه • ومرةً أخرى ـ مرةً أخرى ـ انفجر يضحك مقهقهاً • « ما هذا كله الا مواضعات اجتماعية ، مواضعات شكلية ! كل شيء نسبى ! » ، قال لنفسه ذلك وهو يفكر بجزء من عقله ، ولكنه يرتعش بكل جسمه ، وأردف يقول لنفسه : « لقد لبست الجورب مع ذلك ! لبسته أخيراً مع ذلك ! » وحين قال هذا الكلام ، كان ضحكه يتحول الى يأس • وأضاف يقول : « لا ، ان هذا فوق طاقة قواى • كانت ساقاه تصطكان • فدمدم قائلاً : « هو الخوف ! » وألمَّ به دوار وأخذ يشعر بصداع من شدة الحر • تابع كلامه يقول وهو يتجه نحو السلم : « هذه حيلة ! انهم يريدون استدراجى الى هناك بالحيلة ، ليواجهونى بعد ذلك بالوقائع كلها • والمصيبة أننى فى حالة تشبه الهذيان فقد تفلت منى حماقة ما ••• » •

وفيما كان يهبط السلم تذكر أنه ترك جميع الأشياء فى الثقب وراء ورق الجدار فتساءل : « ماذا لو فتشوا الغرفة أثناء غيابى ؟ » • وتوقف عن السير • ولكن اليأس والاستهتار ـ ان صح التعبير ـ اللذين كانا يستوليان عليه حين يتصور أنه هالك قد بلغا من القوة أنه لم يزد عندئذ

على أن حرّك يده باشارة تدل على قلة الاكتراث وتابع سيره قائلاً لنفسه : « انما المهم أن أنتهى من هذا الأمر بأقصى سرعة ممكنة ! » .

كان الحر فى الخارج شديداً لا يطاق . ما من قطرة مطر هطلت منذ أيام . هو جوّ الغبار والآجر والكلس مرةً أخرى ؛ هو جو المطاعم العفنة والخمارات الكريهة من جديد، وها هم أولاء السكارى والحوذيون المكدودون يطالعونه عند كل خطوة يخطوها . وانبهرت عيناه من أشعة الشمس حتى أوجعتاه . وأخذ يحس بدوار فى رأسه ، كما يحدث هذا كثيراً للمرء حين يخرج أثناء الحمى فجأة فى يوم شديد القيظ .

فلما بلغ منعطف شارع « الليلة البارحة » ، نظر الى « تلك » العمارة ، ثم لم يلبث أن حوّل عنها عينيه فوراً . وحين اقترب من قسم الشرطة قال لنفسه : «اذا استُجوبتُ فقد اعترف ! » .

ان قسم الشرطة يقع على بعد مائتين وخمسين متراً من بيته تقريباً. لقد نُقل قسم الشرطة هذا منذ مدة وجيزة الى مقر جديد يقع فى الطابق الثالث من عمارة بُنيت حديثاً . كان راسكولنيكوف قد ذهب مرةً الى المقر القديم ، ولكن هذا حدث منذ مدة طويلة جداً . حين اجتاز مدخل العمارة لمح على اليمين سلماً كان يهبطه رجل يحمل بيده سجلاً فقال لنفسه : « لا بد أنه بواب ، ولا بد اذن أن يكون قسم الشرطة فى هذه الجهة » . وصعد السلم على غير هدى . كان لا يريد أن يسأل أحداً عن شىء .

وقال لنفسه وهو يصعد الى الطابق الثالث : « سأدخل فأجثو على ركبتيّ وأروى كل شىء » . السلم ضيق ، وعر ، مليء بالقاذورات . مطابخ جميع المساكن تطل على هذا السلم ، وأبوابها تظل مفتوحة طول النهار تقريباً . لذلك يكون الجو فى السلم خانقاً . بوابون يحملون

سجلات تحت الابط ، ورجال شرطة ، واشخاص كثيرون من الجنسين يصعدون وينزلون بغير انقطاع • باب المكتب مفتوح على مصراعيه هو أيضاً •

دخل راسكولنيكوف ، ووقف فى حجرة المدخل• الحجرة مزدحمة بأناس من سواد الشعب ينتظرون « دورهم » • الحر خانق هنا أيضاً • تضاف الى ذلك رائحة الدهان (لقد أعيد دهن الغرف وما يزال الدهان طرياً) التى تبعث فى النفس شعوراً بالغثيان •

انتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قرر أن يمضى الى المكتب التالى • ان جميع الغرف صغيرة ، واطىء سقفها جداً •

كان راسكولنيكوف نافد الصبر الى درجة رهيبة وكان نفاد صبره هذا يدفعه الى أن يوغل مزيداً من الايغال !••• لم يلاحظه أحد • فى المكتب التالى كان يكتب كتابٌ لا يكادون يرتدون ثياباً خيراً من ثيابه ، ولا يوصف مظهرهم الا بأنه مظهر غريب عجيب فى أقل تقدير• اتجه راسكولنيكوف الى أحدهم • سأله هذا :

ـ ماذا تريد ؟

فأراه راسكولنيكوف الاستدعاء الذى تلقاه من مكتب الشرطة •

قال الموظف بعد أن ألقى نظرة على الورقة :

ـ آ ••• هل أنت طالب ؟

فأجابه راسكولنيكوف :

ـ نعم ، طالب سابقاً •

تفرس فيه الموظف ، ولكن بدون أى فضول • هو رجل « مشعث الشعر » توحى نظرته بأن هناك فكرة ثابتة تحاصر ذهنه •

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « من هذا الرجل لن أعرف شيئاً ان جميع الأمور عنده سواء . » .

قال الموظف وهو يشير باصبعه الى الباب الثانى :

ـ اسأل السكرتير !

دخل راسكولنيكوف الغرفة التى دله عليها الرجل (وهى الثالثة فى صف الغرف) . انها صغيرة جدا كذلك ، تزدحم بأناس ثيابهم خير قليلاً من ثياب الجالسين فى المكتب السابق . وبينهم سيدتان . فأما الأولى وهى ترتدى ملابس حداد فقيرة ، فقد كانت جالسة امام منضدة قبالة سكرتير يُملى عليها فتكتب . وأما الثانية فهى امرأة ضخمة الجسم حمراء الوجه ، صارخة الزينة ، مترفة التبرج ، تضع على صدرها حلية كبيرة كأنها صحن . وكانت هذه المرأة الثانية واقفة ، متنحية بعض التنحى ، يبدو عليها أنها تنتظر شيئاً . مدَّ راسكولنيكوف ورقته الى السكرتير ، فألقى عليها السكرتير نظرةً سريعة وقال له : « انتظر » وواصل اهتمامه بالسيدة التى ترتدى ثياب الحداد .

تنهد راسكولنيكوف متخففا من قلقه وقال يحدث نفسه : « لم يستدعونى اذن من أجل « ذلك » الأمر » . وأخذ يسترد شجاعته ، ويحاول أن يستعيد هدوءه وطمأنينته . قال لنفسه : « أن أيسر حماقة ارتكبها وأبسط زلة أقع فيها يمكن أن تفضحنى فضحاً تاماً » . ثم أضاف : « همْ !... خسارة أنه لا هواء هنا ... ان رأسى يدور ... وفكرى أيضاً ... » شعر راسكولنيكوف باضطراب غريب يغزو كيانه كله . خشى أن لا يستطيع السيطرة على نفسه . حاول أن يتشبث بأى شىء لا علاقة له بهمومه ، ولكنه لم يفلح . كان السكرتير يشغل باله كثيراً : ان راسكولنيكوف ما ينفك يحاول أن يقرأ فى وجهه شيئاً ، أن يوحس فى وجهه شيئاً .

هو شاب فى نحو الثانية والعشرين من عمره ، له وجه مسمر كثير الحركة ، يوهم مظهره بأنه اكبر من سنه ، شديد العناية بهندامه ، يحترم «الموضة» احتراماً واضحاً ، مدهَّن الشعر ، له فرق يهبط حتى النقرة ، فى أصابعه البيضاء المؤنقة تسطع عدة خواتم ، وصدرته تزدان بسلاسل من ذهب ••• حتى لقد خاطب أجنبياً كان هناك ، ببضع عبارات بالفرنسية ، فكان كلامه بالفرنسية حسناً •

قال الشاب للمرأة السمينة ذات الوجه الأحمر والهندام الصارخ التى كانت ما تزال واقفة كأنها لا تجرؤ أن تجلس من تلقاء ذاتها رغم أن كرسيا كان يوجد الى جانبها ، قال لها :

ـ اجلسى يا لويزا ايفانوفنا !

فأجابته السيدة قائلة باللغة الألمانية :

ـ شكراً •

وجلست ، فخشخش حرير • ان ثوبها الأزرق كزرقة السماء ، المزدان بتخاريم بيضاء ، المنتفخ كمنطاد ، قد انتشر حول الكرسى ، فشغل نصف الغرفة تقريباً ، وانتشرت منه روائح عطر ، ولكن السيدة أظهرت انزعاجها من احتلال كل هذا المكان ، ومن نشر كل هذا العطر ، فكان فى نظرتها التى ظاهرها الوقاحة كثير من القلق •

انتهت المرأة التى ترتدى ثياب الحداد ، فنهضت أخيراً • فاذا بضابط يدخل على حين فجأة ، ضابطٍ متعاظم يصطنع القوة والبسالة ويرنح كتفيه كلما خطا خطوة •

ألقى الضابط على المنضدة قلنسوته المزدانة بشريط معقود ، وجلس على مقعد • ووثبت السيدة ذات الثوب المخشخش عن كرسيها منذ لمحته،

وانحنت تحيه تحيةً عميقة بنوع من الافتتان ، ولكن الضابط لم يولها أيَّ انتباه • ومع ذلك لم تجرؤ أن تعود الى الجلوس بحضوره •

ولم يكن هذا الضابط الا مساعد مفوّض الشرطة • ان له شاربين أحمرين مدببين يستويان أفقياً على جانبي وجهه ، وهو وجه لا تعبر قسماته الدقيقة عن شيء ، الا أن تعبرا عن الغطرسة • ألقى الضابط على راسكولنيكوف نظرة شزراء فيها استياء : ذلك أن ملابس راسكولنيكوف كانت زرية حقاً ، وكان وجهه ، رغم حالة الانهيار التي هو فيها ، لا يتفق وهذه الملابس ، حتى لقد تجرأ فرشق الضابط بنظرة طويلة بعض الطول ، مدققة بعض التدقيق ، فشعر الضابط بانزعاج شديد ، وصاح يسأل راسكولنيكوف :

ـ وأنت ، ماذا تريد ؟

لا شك أنه قد أدهشه أن لا يخطر ببال شخص يرتدي مثل هذه الأسمال الرثة أن يغض طرفه ويطرق أمام نظرته الكاسرة •

أجابه راسكولنيكوف مضطرباً :

ـ استُدعيت الى هنا ؟ هو استدعاء •••

فأسرع السكرتير يتدخل تاركاً أوراقه :

ـ بشأن المطالبة بدفع مال • هذا هو « الطالب » !

قال السكرتير ذلك ودفع الى راسكولنيكوف دفتراً وهو يشير له الى موضع منه ، وأضاف يقول :

ـ اقرأ !

تساءل راسكولنيكوف : « بشأن المطالبة بدفع مال ؟ أي مال ؟ اذن ليس الأمر « ذلك » الأمر ••• » • وارتعش من الفرح • شعر فجأة بتخفف كبير لا يوصف • ان حملاً ثقيلاً قد سقط عن كتفيه •

صرخ الليوتنان يسأله :

ـ قيل لك أن تحضر فى أية ساعة أيها السيد ؟ لقد ورد فى ورقة استدعائك أن تحضر فى الساعة التاسعة ، والساعة الآن هى الحادية عشرة ، أليس كذلك ؟

لا يدرى الا الله لماذا كان هذا الضابط يشعر بمزيد من الاستياء شيئاً بعد شيء .

أجابه راسكولنيكوف بصوت عالٍ ، ومن فوق كتفه :

ـ لم أستلم ورقة الاستدعاء الا منذ ربع ساعة . أحسب أننى يكفينى أن أجيء رغم الحمَّى ...

ان راسكولنيكوف أيضاً قد اعتراه غضب مفاجيء لم يكن فى الحسبان ، ولكنه يجد فى هذا الغضب لذةً ومتعة .

ـ لا تصرخ ، أرجوك !

ـ لست أصرخ . بالعكس : أنا أتكلم بكثير من الرصانة والرزانة، وأنت تصرخ . ولما كنتُ طالباً ، فأننى لا أسمح بأن ...

بلغ غضب مساعد مفوض الشرطة من الشدة أنه لبث دقيقة بكاملها لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة ، فلم يزد على أن يرغى ويزبد . ثم اذا به ينهض بوثبة واحدة كمن وُخز ، ويصيح قائلاً لراسكولنيكوف :

ـ اسكت . أنت هنا فى جلسة محاكمة . لا تكن فظاً أيها السيد !

فصرخ راسكولنيكوف :

ـ وأنت أيضاً فى جلسة محاكمة ، ومع ذلك تصرخ ، بل وتدخّن سيجارة ، وهذا دليل على أنك لا تولينا جميعاً أيَّ اعتبار !

وشعر راسكولنيكوف ، حين قال هذه الكلمات ، بلذة لا تقاوم ولا تُغلب .

وكان السكرتير ينظر اليهما مبتسماً . واضح أن الليوتنان الذى كان يغلى ويفور قد أُفحم .

وأخيراً صرخ الضابط يقول بصوت بلغ من العلو أنه كان لا يبدو طبيعياً :

ـ ليس هذا شأنك . تفضل بالادلاء بالافادة المطلوبة منك . أَرِه الشكوى يا الكسندر جريجوريفتش . أنت مطالب بمال تتهرب من دفعه . يا للمحتال !...

ولكن راسكولنيكوف كان قد انقطع عن الاصغاء اليه : أمسك الورقة بشراهة ، محاولاً أن يكتشف اللغز بأقصى سرعة . قرأ الورقة مرةً أولى ، ثم قرأها مرة ثانية ، ولكنه ظل لا يفهم شيئاً . فقال للسكرتير يسأله :

ـ ما هو الموضوع ؟

ـ أنت مدين بمال عليك أن تدفعه . هناك سند تتعهد فيه بسداد الدين عند المطالبة به . وعليك الآن اما أن تدفع كل شيء ، بما فى ذلك النفقات والغرامات ، الخ ؛ واما أن تحدّد ، كتابةً ، الموعد الذى ستكون فيه قادراً على دفع المال ، وأن تتعهد بأن لا تغادر العاصمة ، وبأن لا تبيع أمتعتك وأن لا تخفيها قبل سداد الدين . أما الدائن ففى وسعه أن يبيع أمتعتك ، وأن يلاحقك وفقاً للقانون .

ـ ولكن ... ولكننى لست مديناً لأحدٍ بشيء !

ـ ذلك أمر ليس من شأننا . لقد تلقينا سنداً مستحق الدفع وفقاً للقانون ، كنتَ أنت قد وقعته باسم السيدة زارتسين ، أرملة أحد

الموظفين ، ثم انتهى هذا السند الى يدى المستشار تشيباروف ، ومن أجل هذا انما استدعيناك ، وعليك الآن أن تدلى بافادتك .

ـ ولكن هذه السيدة هي صاحبة البيت الذى أقيم فيه ...

ـ هل يغيّر هذا من الأمر شيئاً ؟

كان السكرتير ينظر اليه وهو يبتسم ابتسامة تسامح توشك أن تشتمل على عطف وشفقة ، ولكنها تشتمل كذلك على شعور بالانتصار مردُّه الى أن أمامه شاباً غراً يتولى هو تعليمه . وسأله : « هيه ! كيف صحتك الآن ؟ » . سأله هذا السؤال ، كما لو كان راسكولنيكوف قادراً على أن يهتم أى اهتمام بالسند أو تحصيله ! حقاً ان هذا لا يستحق ، « الآن » ، أقلَّ قلق ، ولا يستحق أيسر انتباه ! لبث راسكولنيكوف واقفاً يقرأ أو يصغى أو يجيب أو حتى يسأل ، ولكنه يفعل ذلك كله على نحو آلى . ان فرحه الناشىء عن شعوره أخيراً بأنه فى أمان ، وبأنه قد نجا من الخطر الرهيب الذى كان يتربص به ، هو ما كان يملأ كل كيانه فى هذه اللحظة . فأى مكان يمكن أن يبقى فى نفسه للتبصر ، والتحليل ، والاحتياطات الواجب اتخاذها فى المستقبل ، والافتراضات ، والشكوك ، والاستجوابات ؟ هذه دقيقة فرح ملىء ، فرح مباشر ، فرح غريزى صرف . ولكن فى تلك الدقيقة نفسها دوّى فى المكتب ما يشبه أن يكون رعداً وصاعقة . ان الليوتنان الذى كان ما يزال يغلى ويفور من الاهانة التى أُلحقت به منذ قليل ، قد انفجر انفجار الرعد والصاعقة على السيدة ذات الثوب المخشخش التى كانت تتأمله منذ دخل ، وعلى شفتيها ابتسامة بلهاء .

صرخ يقول لها فجأة بصوت عال ، وكانت السيدة التى تلبس ثياب الحداد قد خرجت :

ـ آ ••• هأنت ذى أخيراً يا ••• ماذا جرى عندك فى الليلة الماضية ، هه ؟ لقد عدت تلحقين العار بالحى ، وتعرضين دعاراتك فى عرض الشارع ! عدت تخلقين المشاجرات وتشجعين السكر ! أتراك تحلمين بأن تقضى أيامك فى سجن من السجون ؟ لقد سبق أن قلت لك ، سبق أن نبهتك عشر مرات الى أننى سأكون فى المرة الحادية عشرة بغير رحمة ولا رأفة ولا شفقة ، وهأنت ذى تستأنفين •• تستأنفين •• يا ••• يا•••

كادت الورقة التى يحملها راسكولنيكوف أن تسقط من يديه • نظر مبهوراً الى السيدة المخشخشة التى تعامل بمثل هذه الفظاظة • ولكنه سرعان ما فهم الموضوع ، وسرعان ما أخذت القصة تسلّيه ، فكان يصغى متلذذاً ، حتى لقد أحس برغبة فى أن يضحك ، فى أن يضحك مقهقهاً ، فالى هذا الحد كانت أعصابه مهتزة !

بدأ السكرتير يتكلم فقال بلهجة تفيض توسلاً :

ـ ايليا بتروفتش •••

ولكنه انقطع عن الكلام ، لأنه رأى أن من الأفضل أن ينتظر لحظةً مناسبةً أكثر من هذه اللحظة ، لأنه كان يعرف بالتجربة أن من المستحيل كبح جماح الليوتنان العنيف ، اللهم الا باللجوء الى القوة •

أما السيدة المخشخشة فانها أخذت ترتجف منذ انطلق الرعد ودوّت الصاعقة • ولكن الشىء الغريب هو أن تعبير وجهها كان يزداد ترفقاً وتلطفاً ، وأن ابتسامتها لليوتنان الرهيب كانت تزداد حسناً وظرفاً على قدر ما كانت الشتائم الموجهة اليها تزداد كثرة وشدةً • كانت تتهزز فى مكانها ، ولا تنى تنحنى احتراماً لليوتنان ، منتظرةً مع ذلك ، بصبر نافد ، أن يتيح لها أن تقول كلمة • وكوفىء صبرها فعلاً ، فما ان سكت

الليوتنان حتى أسرعت تقـول بنبرة ألمانيـة ظاهرة ، رغم أنهـا تكلمت الروسية بطلاقة :

ـ لم يحدث فى بيتى عربدة ولا مشـاجرة ، يا سـيدى الكابتن ، ولا حدثت فضيحه او جرسة ، لم تحدث أية فضيحة أو جرسة ! كل ما فى الأمر أنهم جاءوا سكارى ... سـاقص عليك كل هذا يا سـيدى الكابتن ... حقـاً أنا لست مذنبـة ... ان بيتى بيت لائق يا سـيدى الكابتن ، والسلوك فيه سلوك لائق يا سيدى الكابتن ... وأنا نفسى ، أنا نفسى ، لم أسمح بأية فضيحة ، فى أى يوم من الأيام ، فى أى يوم من الأيام . ولكنهم وصلوا سكارى ، ثم طلبوا ثلاث زجاجات ، ثم رفع أحدهم قدمه فى الهواء وأخـذ يعـزف بها على البيـانو ... ذلك أمر لا يستحسن أبداً فى بيت لائق . ثم خرّب لى البيانو . قلت له : ماهذه آداب مستحبة ، ما هذه آداب مستحبة ... فتناول عندئذ زجاجة وأخذ يضرب بها جميع الناس على قفاهم ... عندئذ ناديت البواب ... فجاء كارل ... وحين جاء كارل ، ورّم الرجل عين كارل ، وورّم أيضاً عين هنرييت ، وصفعنى أنا نفسى ، أنا نفسى ، خمس صفعات !... ليس من الظرف فى شىء أن يفعل أحد ذلك فى بيت لائق يا سـيدى الكابتن . عندئذ صرخت ... ولكنـه مضى عنـدئذ الى النـافذة المطلة على القنـاة ففتحها ، وأخذ ينخر نخير خنزير صغير ، وذلك عيب حقاً ... كيف يرضى أن يقف الى النافذة فيأخذ ينخر نخير خنزير صغير ؟ هذا عيب ، عيب ، عيب !... شدّه كارل من رداء « الفراك » الذى كان يرتديه ، شدّه ليبعده عن النافذة ... وعندئذ يا سـيدى الكابتن ـ أعترف لك بذلك ، نعم أعترف لك بذلك ـ مزّق له كارل رداءه ... ولكنه أخذ عندئذ يصيح قائلاً انه يطالب بخمسة عشر روبلاً ، تعويضات وفوائد ، لأن رداءه تمـزق . فدفعت له ، يا سـيدى الكابتن ، دفعت له بنفسى ،

دفعت له خمسة روبلات تعويضاً له عن ردائه . ما هو بالزائر اللائق يا سيدى الكابتن . ان الزائر اللائق لا يقوم بفضيحة كهذه الفضيحة . وقد قال لى : « سوف ترين ... لأنشرنَّ هجاءً مقذعاً لكم . ان لى صلات بجميع الجرائد . وأستطيع أن أقول فيها عنكم ما أشاء ! » . أهذا كلام يقال لى ؟

ـ آ ... هو اذن كاتب ؟ .

ـ نعم يا سيدى الكابتن ، وهو أيضاً زائر غير لائق ، لأنه لم يتورع ، فى منزل لائق ، أن ...

ـ كفى ، كفى ، سبق أن قلت لك وكررت ان ...

عاد السكرتير يتكلم فقال :

ـ ايليا بتروفتش !

ولكن الليوتنان رشقه بنظرة سريعة ، فكفَّ عن الكلام ، وهز رأسه بحركة خفيفة .

وتابع الليوتنان كلامه فقال :

ـ اسمعى أيتها المحترمة لويزا ايفانوفنا ! اليك كلمتى الأخيرة ! أقول لك آخر مرة : اذا حدثت فى بيتك اللائق ، بعد الآن ، فضيحةٌ واحدة ، فسأتولى بنفسى وضعك فى قفة سلطة ، كما يقال بالأسلوب الرفيع . مفهوم ؟ ها ... اذن هكذا ... أديب ... كاتب ... أخذ فى منزلك اللائق خمسة روبلات تعويضاً عن تمزيق ردائه . آ ... هؤلاء هم المؤلفون ! (قال الليوتنان ذلك وهو يرمى راسكولنيكوف بنظرة احتقار) . وأمس الأول ، فى حانة من الحانات ، حدثت قصة أخرى : تغدَّى واحد من هؤلاء المؤلفين ، ورفض أن يدفع ثمن الوجبة التى أصابها ، وقال لصاحب الحانة : « اذا كنت غير راض ، فسأكتب مقالةً

أهجوك فيها هجاء لاذعاً • وفي الأسبوع الماضي ، على ظهر سفينة من السفن ، قام كاتب آخر بقذف أسرة مستشار من مستشاري الدولة بأشنع الشتائم ، وتناول بالشتم امرأته وابنته خاصة • ومؤلف ثالث ، لم يمكن طرده من أحد محال بيع الحلوى الا ركلاً بالارجل !••• هؤلاء هم الأدباء ، هؤلاء هم الكتاب ، والطلاب ! أف !••• أما أنت فانصرفي الآن ، ولكن اعلمي أنني أراقبك ، فاياك ثم اياك ••• مفهوم ؟

أخذت لويزا ايفانوفنا ، وقد ازدادت تلطفاً وتودداً عن ذي قبل ، أخذت تنحني انحناء الاحترام في جميع الاتجاهات ، وما زالت تتقهقر الى وراء أثناء هذا الانحناء حتى بلغت الباب • ولكنها حين بلغت الباب صدمت بمؤخرتها ضابطاً مهيباً يزدان وجهه النضر المتفتح بلحيتين شقراوين على الوجنتين • انه نيكوديم فومتش ، مفوض الشرطة بذاته• أسرعت لويزا ايفانوفنا تنحني احتراماً له ، حتى كادت تلامس الأرض من شدة الانحناء ، ثم ولت هاربة من المكتب بخطوات صغيرة متواثبة •

قال نيكوديم فومتش يخاطب ايليا بتروفتش ، بلهجة محببة ودود :

ـ ماذا ؟ أعاد هزيم الرعد ، أعاد قصف الصاعقة ، والعاصفة ، والاعصار ؟ هل أغضبوك مرة أخرى فاستسلمت للغضب ؟ لقد سمعت كل شيء وأنا أصعد السلم !

قال ايليا بتروفتش باهمال نبيل وهو ينتقل من منضدة الى أخرى ، متقل الذراعين بأوراق ، مرنحاً عطفيه ترنيحاً جميلاً ، عند كل خطوة، على عادته :

ـ ما حيلتي ؟ انظر الى هذا السيد مثلاً : هو كاتب ، هو طالب أو

طالب سابق ، يرفض أن يدفع ما عليه من ديون ، يوقع سندات ، يرفض اخلاء المكان ؛ ثم هو ، رغم الشكاوى الكثيرة التى أودعت ضده، ينزعج لأننى أدخن سيجارة بحضوره . ألا فانظروا قليلاً الى حملة الأقلام هؤلاء . هذا نموذج لهم ، هذه عينة تمثلهم بحسنها وروعتها أجمل تمثيل !

قال نيكوديم فومتش :

ـ ليس الفقر عاراً يا صديقى . ونحن نعلم أنك لا تطيق احتمال أى انزعاج ...

ثم اتجه الى راسكولنيكوف فقال له بكثير من اللطف والمودة :

ـ أغلب الظن أنك توهمت أنه أراد الاساءة الى شعورك ، فلم تستطع أن تسيطر على نفسك . ولكنك أخطأت : ثق أن هذا الرجل من أنبل الرجال . ولكننى أعترف لك بأنه عنيف ، عنيف كالبارود ، كالبارود ... يشتعل ، يفرقع ، ينفجر ، ولكن كل شىء ينتهى بعد ذلك! ولا يبقى الا قلبه الذى هو من ذهب !... حتى لقد أُطلق عليه لقب « الليوتنان بارود » منذ كان ضابطاً فى الكتيبة .

صاح ايليا بتروفتش يقول وقد أرضت هذه الكلمات غروره ، ولكنه ما يزال عابساً بعض العبوس :

ـ ويا لها من كتيبة !

شعر راسكولنيكوف برغبة مفاجئة فى أن يخاطبهم جميعاً بكلام لطيف ودود الى أبعد حدود اللطف والود . فبدأ يقول بلهجة طلقة ، متجهاً بكلامه الى نيكوديم فومتش :

ـ انظر يا كابتن ، ضع نفسك فى مكانى ... أنا مستعد لأن أعتذر الى السيد الليوتنان ، اذا كنت قد أخطأت فى حقه أى خطأ . أنا

طالب فقير ، مريض ، مرهق (هذا ما قاله :. مرهق) بالبؤس . أو قل انني كنت طالباً في الماضي ، ثم أصبحت عاجزاً عن سدّ حاجاتي فتركت الدراسة . ولكنني سأتلقى مالاً بعد قليل . ان أمي وأختي تعيشان في اقليم س ... ، وسوف ترسلان اليّ مالاً فأدفع ما عليّ . ان لصاحبة البيت الذي أقيم فيه قلباً طيباً كريماً ، ولكنها غضبت كثيراً ، لأنني فقدت موردي من اعطاء دروس خاصة ، فأصبحت لا أدفع لها أجر مسكني منذ أربعة أشهر تقريباً ، حتى لقد بلغ الغضب بها أنها أصبحت لا تبعث اليّ بوجبات الطعام . لذلك تراني لا أفهم من أمر هذا السند شيئاً . أهي تطالبني بمال مستعينةً بهذا السند الذي وقعته لها ؟ ولكن من أين أجيء بمالٍ أدفعه ؟ احكموا في الأمر بأنفسكم !

عاد السكرتير يقول من جديد :

ــ هذا أمر ليس من شأننا !

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه مخاطباً نيكوديم فومتش ، لا السكرتير ، ومحاولاً أن يخاطب في الوقت نفسه ايليا بتروفتش ، رغم أن هذا كان منهمكاً بأوراقه، وكان يقابله بقلة الاكتراث وبالاحتقار، قال :

ــ اسمح لي ، اسمح لي ، أنا أوافقك كل الموافقة ، ولكن اسمح لي أيضاً أن أشرح ظروفي ؛ اسمح لي أن أذكر لك من جهتي أنني أسكن عندها منذ ما يقرب من ثلاث سنين ، منذ وصلت من الأقاليم ، وأنني قبل كل شيء ، قبل كل شيء ... الأمر ... نعم ، لماذا لا أعترف أنا أيضاً بأنني منذ البداية قد وعدتها بأن أتزوج ابنتها ؟.. نعم لقد وعدتها بذلك كلاماً ... وكانت ابنتها فتاة ... أعجبتني على كل حال ، وان لم أكن قد تولهت بحبها ! هو الشباب ، باختصار ! فكانت صاحبة

البيت تمهلني في الدفع كثيراً ... وكنت أعيش حياة تتصف بكثير من ... نعم ، كنت متقلب الهوى ...

قاطعه ايليا بتروفتش بفظاظة ، شاعراً بالانتصار :

ـ ما من أحد يسألك أن تذكر تفاصيل من هذا النوع عن حياتك الخاصة أيها السيد ، ثم ان وقتنا ليس فيه متسع للاصغاء اليك ...

ولكن راسكولنيكوف سارع يقاطعه بعنف ، رغم أنه أصبح يشق عليه الى أبعد حدود المشقة أن يقول أي شيء . قال يرد :

ـ لا ، اسمح لي ، اسمح لي أن أروي لك من جهتي كيف جرت الأمور ... وأن أرويها لك مرتبة ، رغم أنني أوافقك على أنه ليس من المفيد أن أقص عليكم هذا كله ... اليكم ما حدث : منذ سنة ، ماتت تلك الفتاة بمرض التيفوس ، وبقيت أنا مستأجراً للمسكن الذي أقيم فيه ، فلما جاءت صاحبة البيت تقيم حيث تقيم الآن قالت لي (قالت لي ذلك بصداقة ومودة) : انها تثق بي ثقة مطلقة، ولكنها سألتني ألا أستطيع أن أوقع لها سنداً بمبلغ مائة وخمسين روبلاً ، هو المبلغ الذي تعتقد أنني مدين لها به ؟ اسمح لي ... لقد قالت لي بالحرف الواحد انها ستظل تمهلني بعد تسليمها هذا السند ، ستظل تمهلني في الدفع ما شئت ، وانها لن تستخدم بحال من الأحوال ، بحال من الأحوال ـ هذه أقوالها هي ـ لن تستخدم هذا السند اذا لم أدفع من تلقاء نفسي . وها هي ذي الآن ، بعد أن فقدت موردي من الدروس ، وبعد أن أصبحت لا أملك ما أقتات به ، تقدم السند للسلطات من أجل تحصيله . فما رأيكم في هذا ؟

قال له ايليا بتروفتش بوقاحة :

ـ ان هذه التفاصيل المؤثرة لا تعنينا في شيء أيها السيد ! عليك أن

توفع الافادة والتعهد ... أما أنك كنت مولهاً بحب الفتـاة أو أنك لم تكن مولهاً بحبها ، وأما الظروف المحزنة التى أعقبت ذلك ... فهذا كله لا شأن لنا به البتة !

دمدم نيكوديم فوميتش يقول لصـاحبه الليوتنـان وهو يجلس الى مكتبه ويمضى يوقع بعض الأوراق :

ــ أحسب أنك تقسو كثيراً !

لقد شعر نيكوديم فوميتش بشىء من الحرج .

قال السكرتير لراسكولنيكوف :

ــ اكتب !

فسأله راسكولنيكوف بلهجة فظة :

ــ ماذا اكتب ؟

ــ سأملى عليك ...

خيل الى راسكولنيكوف أن السـكرتير اصبح يعـامله بمزيد من الازدراء والاحتقـار بعد تلك الاعترافات التى أوردهـا . ولـكن الشىء الغريب هو أن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجـأة لا يبالى بالرأى الذى قد يراه غيره فيه . وقد حـدث له هذا الانقلاب بمثل لمح البصر سرعةً ، حدث له فى ثانية واحدة ، فلو شـاء أن يفكر لحظة واحـدة لأدهشـه فى أغلب الظن أن يكون قد حدَّث هـؤلاء الموظفين على هذا النحو ، وأن يكون قد أجبرهم على سماع مُسـارَّاته . من أين جاءته هذه الحالة النفسية الجديدة ؟ لو امتلأت الغرفة الآن لا برجال شرطة بل بأصدقاء حميمين لكان عاجزاً عن أن يوجه اليهم كلمة فيها شىء من مودة وصدق ، وذلك من فرط الفراغ الذى أصيب به قلبـه . ان احساسـاً غامضاً بالوحدة ، احساساً مبهماً بعـزلة أليمـة لا نهاية لها ، قد اجتاح

شعوره على حين فجأة . لا ، ليس صغار اعترافاته العاطفية امام ايليا بتروفيتش لا ولا صغار انتصار الليوتنان عليه هو الذى هز قلبه هزاً يبلغ هذا المبلغ من العمق . آه ... انه ليس يعنيه الآن أن يكون فيه صغار ، وأن يكون في الآخرين صغار ، وليست تعنيه المطامح ، ولا الرجال الذين هم برتبة ليوتنان ، ولا النساء الألمانيات ، ولا تحصيل السندات ، ولا المكاتب ، ولا غير ذلك ! ... انه لو حكم عليه بالحرق حياً في هذه اللحظة ، لما قام بحركة واحدة ، ولما زاد على أن يصغى الى الحكم الذى صدر عليه ، اذا هو أصغى . ان شيئاً جديداً كل الجدة قد تحقق الآن فى كيانه ، شيئاً لم يعرفه حتى ذلك الحين ، شيئاً هو حادث لا يُتنبأ به ولا سابقة له . ان راسكولنيكوف لم يدرك ذلك الشيء ، ولكنه كان يحس احساساً واضحاً بأنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب هؤلاء الناس ، هؤلاء الموظفين فى قسم الشرطة بالحى ، لا يستطيع أن يخاطبهم بأى كلام فضلاً عن الافضاء اليهم بعواطفه الشخصية ومشاعره الحميمة كما فعل منذ قليل . بل لقد أحسَّ راسكولنيكوف أنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب أقرب اقربائه بحال من الأحوال ، ولو كانوا اخوة وأخوات. ان راسكولنيكوف لم يكن قد شعر حتى تلك الدقيقة ، فى يوم من الأيام ، باحساس يبلغ هذا المبلغ من الهول . والأمر الذى كان يؤلمه مزيداً من الألم هو أن ما يشعر به كان احساساً ولم يكن فكرة . نعم كان احساساً مباشراً ، كان احساساً أشد ايلاماً من جميع الاحساسات التى شعر بها طوال حياته .

أملى عليه السكرتير صيغة الاقرار المستعملة فى هذه الحالة :

« لا أستطيع أن أدفع . أتعهد بالدفع بتاريخ كذا . لن أغادر المدينة . لن أبيع أشيائى ، ولن أتنازل عنها لأحد ، الخ » .

قال له السكرتير وهو ينظر اليه متعجباً :



راسکولنیکوف

ـ أرى أنك لا تستطيع الكتابة ، وأن القلم يسقط من يدك • أنت مريض ؟

ـ نعم ••• اشعر بدوار فى رأسى ••• ولكن أكمل مع ذلك

ـ انتهى ! لم يبق عليك الا أن توقع •

وقع راسكولنيكوف الاقرار ، فتناول السكرتير الورقة وانصر عنه الى الاهتمام باشخاص آخرين •

رد راسكولنيكوف الريشة الى مكانها ، ولكنه بدلاً من أن ينه ويذهب ، وضع كوعيه على المنضدة ، وضغط رأسه بين يديه • كان يش كأن مسماراً قد دُق فى قمة جمجمته • ووافتـه فكرة غريبة على ـ فجـأة : أن ينهض فوراً فيقترب من نيكوديم فوميتش ويقص عليـه ما حدث فى الليلة البارحة ، كلَّ ما حدث ، حتى أيسر التفاصيل ، و يقوده بعد ذلك الى غرفته ، فيريه الاشياء هناك ، عند الركن ، فى الثقب وبلغت رغبته فى ذلك من القوة أنه نهض ليضع مشروعه موضع التنفي لكنه لم يلبث أن قال لنفسه : « وربما كان عليَّ أولاً أن افكر لحظةً » ، ثم سرعان ما أضاف يقول : « لا بل الأفضل أن لا افكر البتة وأن أتخلص من كل شيء دفعة واحدة » • وها هو ذا يتوقف فجأة كمن تسمَّر مكانه : كان نيكوديم فوميتش يتحدث بحـرارة الى ايليـا بتروفيتش فاستطاع راسكولنيكوف أن يلتقط من حديثهما هذه الجمل :

ـ لا ، مستحيل، سوف يخلى سبيلهما كليهما ! أولاً، هناك تناقض احكم فى الأمر بنفسك : لو كانا هما القاتلين فلماذا يسـتدعيان البواب أليفضحا أمرهما وليشيا بنفسيهما ؟ أم تراهما استدعياه من باب المكر ألا ان هذا ليكون اسرافاً فى المكر ! ثم ان الطالب بسـتريا كوف قد ر البوابان ورأته امرأة قرب باب العمارة لحظة دخـوله • وكان فى صح

ثلاثة أصدقاء ودّعهم عند المدخل. وبحضور اصدقائه هؤلاء انما سأل اين يوجد مسكن العجوز . فكّر قليلاً : أكان يلقى هذا السؤال لو أنه جاء لهدف كهذا الهدف ؟ أما كوخ فقد قضى نصف ساعة تحت ، عند بائع الجواهر ، قبل أن يصعد الى بيت العجوز ، وهكذا يكون قد ترك بائع الجواهر وصعد الى بيت العجوز فى الساعة الثامنة الا ربعاً على وجه التحديد ... ففكر الآن ...

ـ اسمح لى ! فكيف نفسّر هذا التناقض الشديد فى أقوالهما ؟ هما يؤكدان أنهما قرعا الباب ، وأن الباب كان مغلقاً ، ثم يؤكدان أن الباب كان مفتوحاً بعد ثلاث دقائق حين عادا يصعدان فى صحبة البواب. فما تفسير هذا التناقض ؟

ـ هنا انما يكمن سر القضية : لقد كان القاتل فى داخل البيت حتماً ، وكان قد أوصد الباب بالمزلاج ، ولا بد أننا كنا سنكتشفه لولا أن كوخ قد ارتكب تلك الحماقة فمضى يبحث عن البواب هو أيضاً . ففى تلك الفترة بعينها ، أعنى الفترة التى انقضت بين نزول كوخ وصعود الثلاثة انما تمكّن القاتل من هبوط السلم ، واستطاع أن يتسلل من بين أيديهم بطريقة أو بأخرى . ان كوخ الآن يرسم على نفسه اشارة الصليب بكلتا يديه قائلاً : « لو قد لبثت فوق ، اذن لوثب علىّ وقتلنى بساطوره ! » ان كوخ ينوى أن تقام له فى الكنيسة صلاة شكر لله على ما خصه به من نعمة النجاة ! هيء هيء !...

ـ والقاتل ، ألم يره أحد ؟

ـ كيف يمكن أن يراه أحد ؟ ان المنزل أشبه بسفينة نوح .

بهذا عقّب السكرتير الذى كان يصغى الى الحديث من مكانه .

وكرر نيكوديم فوميتش يقول بحرارة شديدة :

ـ أقول لكم ان القضية واضحة ، واضحة جداً !

فقال ايليا بتروفتش مرعداً :

ـ لا ، ليست واضحة البتة !

رفع راسكولنيكوف قبعته ، واتجه نحو الباب ولكنه لم يبلغه ...

فلما أفاق من غيبوبته رأى نفسه جالساً على كرسى ، ورأى رجلاً يسنده من يمين ، وآخر يسنده من شـمال ، ورأى كأسـاً مملوءةً بماء أصفر ، ورأى نيكوديم فوميتش واقفاً أمامه يحدّق اليه ويتفرس فيه .

نهض راسكولنيكوف عن كرسيه .

فسأله نيكوديم فوميتش بلهجة مباغتة :

ـ ماذا بك ؟ أأنت مريض ؟

فقال السكرتير وهو يرجع الى منضدته ويرتد الى أوراقه :

ـ انه ، منذ كان يكتب الاقرار ، كان لا يكاد يسـتطيع تحـريك قلمه !

وصاح ايليا بتروفيتش من مكانه وقد عاد يرتب أوراقه هو أيضاً ، صاح يسأله :

ـ أأنت مريض منذ مدة طويلة ؟

كان ايليا بتروفيتش قد لاحظ المريض طبعاً اثناء اغمائه ، ولكنه ابتعد فوراً منذ رآه يفيق .

لم يزد راسكولنيكوف فى الاجابة عن سؤال ايليا بتروفتش على أن دمدم يقول :

ـ منذ أمس ...

ـ وهل خرجت أمس ؟

ـ نعم خرجت .

ـ مريضاً .

ـ مريضاً .

ـ فى أية ساعة ؟

ـ فى الساعة السابعة من المساء .

ـ الى أين ذهبت ؟ اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال .

ـ الى الشارع !

ـ جواب مختصر مفيد !

كان راسكولنيكوف شاحباً شحوباً شديداً . وقد أجاب عن تلك الأسئلة بصوت خشن متقطع دون أن يغض عينيه السوداوين المشتعلتين أمام نظرات ايليا بتروفيتش .

ـ هو لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، وأنت ...

فأجابه ايليا بتروفيتش بنبرة غريبة بعض الغرابة :

ـ لا ... بأ ... س !...

أراد نيكوديم فوميتش أن يضيف شيئاً آخر ، ولكنه أمسك عن الكلام حين ألقى نظرة على السكرتير الذى كان يحدق اليه من مكانه . وصمت الجميع فجأة . شىء غريب .

ثم قال ايليا بتروفيتش يختم الحديث :

ـ طيب ! فى وسعك أن تنصرف .

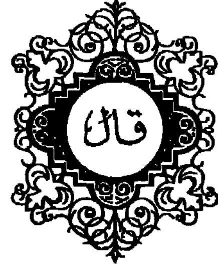
خرج راسكولنيكوف • ولكنه استطاع أثناء خروجه أن يسمع استئناف الحديث حاراً محتدماً • وبين جميع الأصوات كان صوت نيكوديم فوميتش ، المتسائل المستفسر ، أكثرها وضوحاً وتميزاً • حتى اذا صار راسكولنيكوف فى الشارع ثاب اليه كل وعيه وعاد اليه كل شعوره •

ـ تفتيش ! تفتيش ! سيقومون بتفتيش فوراً ! يا للصوص ! انهم يشتبهون فىّ !•••

كذلك كان يردد راسكولنيكوف بينه وبين نفسه مغذاً خطاه للرجوع الى بيته •

لقد عاد الخوف يستبد به من أخمص قدميه الى قمة رأسه •

الفصـــل الثاني



راسكولنيكوف متسائلاً : « وماذا لو كان التفتيش قد تم ؟ ماذا لو وجدتهم فى بيتى ؟ » •

ولكن راسكولنيكوف عاد الى بيته فلم يجد فيه أحداً ، ولا كان أحد قد جاء يفتشــه • حتى ناستاسيا لم تلمس شيئاً • ولكن رباه ! كيف أمكنه أن يدع هذه الأشياء فى الثقب منذ قليل ؟

أسرع راسـكولنيكوف نحـو الركن ، ودسّ يده وراء الورق ، وأخذ يخرج منه الأشياء فيدسّها فى جيوبه واحداً تلو آخر • عرف أن مجموع الأشياء ثمانية : علبتان صغيرتان تضمان أقراطاً للآذان أو ما يشبه ذلك (لم يدقّق كثيراً) ، ثم أربع علب صغيرة من الجلد ، فيها جواهر ؛ ثم سلسلة كانت ملفوفة بورقة من ورق الجـرائد ؛ ثم شىء آخر ملفوف بورقة من ورق الجرائد أيضاً ، وأغلب الظن أنه وسام •••

وزّع هذه الأشـياء على مختلف جيـوب معطفه ، ووضع بعضها فى الجيب الأيمن من سرواله ، وهو الجيب الوحيد الذى بقى للسروال ؛ وجهد أن يدسّها فى هذه الجيوب بحيث لا تمكن رؤية شىء من خارج• وتناول حافظة النقود أيضاً • ثم خرج من الغرفة مسرعاً حتى لقد ترك بابها فى هذه المرة مفتوحاً تماماً •

كان يمشى بخطى سريعة ثابتة • ورغم أنه كان محطماً فقد كان

يعي الحالة التي هو فيها . كان يخشى أن يلاحق ويطارد ، كان يخشى أن يبدأ التحقيق معه بعد نصف ساعة ، وربما بعد ربع ساعة . فلا بد له اذن ، مهما كلف الأمر ، أن يغيّب هذه الأشياء التي تثبت ارتكابه جريمة القتل ؛ لا بد له أن يتخلص منها ما ملك بعض قوة ، وبعض تفكير ... ولكن الى أين يذهب ؟

كان قد عزم على هذا الأمر وبتّ فيه : « أن يرمي جميع الأشياء في القناة ، فتسقط الاثباتات في الماء ، وتسقط معها القضية ! » . ذلك ما كان قد عزم عليه في الليلة السابقة ، أثناء هذيانه ، في تلك اللحظات التي كانت تعاوده فيها ذاكرته من حين الى حين ، فيحاول أن ينهض وأن يخرج قائلاً لنفسه : « أسرع ، أسرع ، تخلص من هذا كله ! » .

ولكن التخلص من هذه الأشياء لم يكن سهلاً .

ظل راسكولنيكوف يتجول مدة ربع ساعة على طول قناة كاترين ، ونظر مراراً الى السلالم التي تهبط الى الماء ، فكان لا يجوز أن يخطر بباله أن يضع مشروعه موضع التنفيذ ، فاما أن قارباً يوجد عند أسفل الدرجات وعليه نساء يغسلن غسيلهن ، واما أن مراكب قد ربطت هنالك بالأقلاس... أي أن جميع الأمكنة تعج بالناس. هذا عدا أن في الامكان أن يُرى وأن يراقب من على أرصفة الشاطىء . أليس أمراً يبعث على الشبهة والريبة أن ينزل رجل الى تحت ، عمداً ، ثم يتوقف ليرمي شيئاً من الأشياء في الماء ؟ وماذا لو طافت العلب على سطح الماء بدلاً من أن تغوص الى القاع ؟ لا شك أنها ستطفو ، ولا شك أن جميع الناس سيرونها ! بل ان جميع من لقيهم في طريقه حتى الآن كانوا يتفرسون فيه كأنهم لا همّ لهم سواه ! قال لنفسه : « لماذا يتفرسون فيّ هذا التفرس ؟ اللهم الا أن يكون هذا وهماً مني لا أكثر ! »

وخطر بباله أخيراً أنه ربما كان الأفضل أن يذهب الى مكان ما على شاطىء نهر نيفا • ان شاطىء نهر نيفا لا يعج بالناس كما يعج بهم شاطىء القناة • فهنالك لن يلاحَظ كما يلاحظ هنا ، وهنالك يكون رمي الأشياء في الماء أسهل منه هنا على كل حال ؛ وهو هنالك أبعد عن « المكان » الذي وقعت فيه الحادثة منه هنا ؛ نعم ، هذا خاصةً ! وسرعان ما د هش على حين فجأة : كيف أمكنه أن يظل يطوف مدة نصف ساعة ، قلقاً خائفاً ، في أمكنة خطرة هذا الخطر كله ، دون أن يدرك هذا الأمر قبل هذه اللحظة ؟ كيف يظل يطوف طول هذه المدة لا لشيء الا أن ينفذ مشروعاً تصوره في نومه أثناء هذيان ؟ اذن لقد أصبح ذاهلاً الى أبعد حدود الذهول ، ولقد أصبح شديد النسيان ! انه يعرف هذه الحقيقة الآن ! لا شك أن عليه أن يسرع • نعم ، ان عليه أن يسرع حتماً !

اتجه نحو نهر نيفا عن طريق شارع « ف ••• » غير أن فكرة أخرى وافته أثناء سيره : « لماذا نهر نيفا ؟ لماذا الماء ؟ أليس الأفضل ان أذهب الى مكان بعيد جداً ، ولو الى الجزر مرةً أخرى ، فأختار مكاناً في الغابة خالياً من الناس ، فأدفن كل شيء تحت احدى الأشجار ، بعد أن أضع على المكان علامةً تهديني اليه في المستقبل ؟ ورغم شعوره بأنه عاجز عن التمعن في هذا كله تمعناً واضحاً ، فان الفكرة قد بدت له سليمةً لا اعتراض عليها •

ولكن لم يُكتب له أن يبلغ الجزر أيضاً ، وانما جرت الأمور مجرى آخر • فما ان خرج من شارع « ف ••• » الى احد الميادين ، حتى رأى على يساره ، فجأةً ، مدخلَ فناءٍ محاط بجدران كبيرة من جميع الجهات ، ورأى على اليمين ، بعد المدخل مباشرةً ، سوراً «طويلاً» بغير ملاط ، هو سور عمارة مجاورة ذات ثلاثة طوابق ؛ ورأى على اليسار ؛ حاجزاً من خشب يوازى ذلك السور ، ويقع بعد المدخل مباشرة ، ويبلغ

طوله نحو عشرين قدماً ثم ينعطف . هذه أرض خلاء تتكدس فيها أنواع شتى من مواد متروكة مهجورة . فاذا نظر الناظر الى آخر الفناء بعد الحاجز ، رأى ركنَ سقيفة من حجر ، واطئة ، مسودة من الدخان ، لعلها كانت جزءاً من ورشة . فلا بد أن مصنعاً للعجلات أو للأقفال أو شيئاً من هذا القبيل كان يقوم هنا ، لأن الأرض سوداء من غبار الفحم في كل مكان تقريباً منذ باب المدخل . قال راسكولنيكوف لنفسه فجأة : « وجدت ضالتي ! أرمي كل شيء هنا ثم أنصرف ! » . واذ لم يرَ أحداً في الفناء ، أسرع يجتاز الباب ، فاذا هو يلمح ، في تلك اللحظة نفسها ، مزراباً مثبتاً بالحاجز الخشبي ، بمثابة مبولة (كما يوضع مثله كثيراً في المحلات التي من هذا النوع ، حيث يكثر العمال وأصحاب الحرف والحوذيون وأشباههم) : وفوق المزراب كُتبت على السياج ، بالطباشير ، الجملة التي تكتب عادةً من باب المزاح ، بخط رديء وأخطاء املائية : « ممنوعن الوقوف هنا » . قال راسكولنيكوف يغبط نفسه : لهذا المكان هذه الميزة على الأقل ، وهي أن أحداً لن يشتبه في أنني دخلته ووقفت فيه . وأضاف : « أرمي هنا كل شيء ، كل شيء ، دفعةً واحدة ، كدسةً واحدة ، ثم أمضي ! » .

وألقى على ما حوله نظرة أخرى ، وفيما كان يدخل يده في جيبه اذا هو يرى ، حذاء الجدار ، في المسافة التي تفصل الباب عن المبولة ولا يزيد طولها عن خطوتين ، صخرةً غير منحوتة يمكن أن يكون وزنها نحو عشرة كيلوجرامات . ان الرصيف يقع خلف الجدار في الشارع . وان وقع أقدام المارة ، وهم كُثُر دائماً في هذا المكان ، يُسمع في الداخل . ولكن أحداً لا يستطيع أن يراه في هذه الجهة من الباب الا اذا دخل ، وذلك أمر يمكن أن يحدث ، فلا بد لراسكولنيكوف اذن أن يسرع .

مال راسكولنيكوف على الصخرة فأمسك أعلاها بيديه كلتيهما امساكاً قوياً ، واستجمع قواه كلها ، فزحزح الصخرة من مكانها . ان حفرة صغيرة كانت قد تشكلت تحت الصخرة . فسرعان ما أخذ راسكولنيكوف يرمى فى هذه الحفرة كل ما كان فى جيوبه ، وكانت حافظة النقود آخر شىء رماه ، فكان مكانها فوق سائر الأشياء الآخرى وبقى فى الحفرة متسع . ثم أمسك بالصخرة من جديد ، وردها الى وضعها الأصلى مرةً واحدة ، فلا يكاد يبدو أنها ارتفعت عن وضعها الأصلى الا قليلاً . ولكن راسكولنيكوف نبش الأرض ، وكوم قليلاً من التراب حول الصخرة حتى أصبح من المستحيل أن يُلاحَظ أى تغير . وبعد ذلك خرج واتجه نحو الميدان ، فاذا هو مرةً أخرى ، كما حدث له فى مكتب الشرطة منذ قليل ، يشعر بفرح قوى جارف يستبد به لحظةً . قال يحدث نفسه : « ها هى ذى الاثباتات قد دفنت فى باطن الأرض ! منذ ذا الذى يخطر على باله أن يبحث عنها تحت هذه الصخرة ؟ لعل هذه الصخرة موجودة فى هذا المكان منذ وجد المنزل ، وستظل باقية ما بقى ! وهَبْهم اكتشفوا الأشياء ، فمن ذا الذى يمكن أن يشتبه فىّ ؟ انتهى الأمر ! لا براهين بعد الآن ! » وأخذ يضحك . سوف يتذكر فى المستقبل أنه ضحك ضحكاً عصبياً صغيراً أخرس متصلاً ، وانه كان ما يزال يضحك حين اجتاز الميدان . ولكنه ما ان دخل شارع ك ... الذى التقى فيه ليلة أمس الأول بالفتاة ، حتى انقطع ضحكه فجأة . ان خواطر أخرى توافى ذهنه الآن . بدا له على حين فجأة أنه سيشعر باشمئزاز لا سبيل الى التغلب عليه حين يمر قرب الدكة التى جلس عليها بعد انصراف الفتاة ، وأنه سيؤلمه أشد الايلام أن يصادف ، من جديد ، الشرطىّ ذا الشاربين الذى أعطاه حينذاك عشرين كوبكاً . ودمدم يقول : « شيطان يأخذه ! » .

كان يسير وهو يرمق ما حـوله بنظرة ذاهلة خبيثـة • ان جميع أفكاره تدور الآن حـول نقطة واحـدة يحس هو نفسـه أنها « النقطة الرئيسية » ، وأنه الآن ، الآن على وجه التحديد ، يقف وجهاً لوجه أمام هذه « النقطة الرئيسـية » ، وذلك لأول مرة منذ شـهرين • ثم اذا هو يقول لنفسه فجأة وقد اعتراه حنق رهيب : « لا شيطان يأخذ هذه القصة. دعنـا ! ما دامت القصـــة قد بدأت ، ما دامت قد بدأت ، فلتذهب الى الشيطان ••• هى و « الحياة الجديدة » ! ما أغبـانى ! ما اكثر ما صنعت اليوم من أكاذيب ! ما اكثر ما ارتكبت اليوم من حقـارات ! ما أبشـع ما أظهـرته من تزلف وصـغار ، منذ قليـل ، أمام ذلك التـافه ايليـا بتروفيتش !••• على كل حال ••• لا ضير ••• اننى لا أكترث بهم ، لا أكترث بهم ولا بأننى أظهرت لهم تزلفاً وصغاراً ! ليس هذا هو الأمر ••• ليس هذا هو الأمر البتة ! » •

وتوقف فجأةً • ان سـؤالاً جديداً لم يكن فى حسـبانه قط ، سؤالاً بسيطاً غاية البساطة ، يحيّره الآن ويصعقه صعقاً • قال يسـأل نفسه : « لو كنت قد نفّذتَ هذا الأمر عن وعى حقاً ، لا على نحو يبلغ هذا المبلغ من البلاهة ، لو كانت لك غاية محددة تماماً مرسومة تماماً ، فكيف تفسّر أنك الى هذه اللحظة لم تلق نظرة واحـدة على ما تحويه حافظة النقود ، وأنك لا تعرف ما الذى أردت أن تجنيه ولا تدرك الهدف الذى ارتضيت فى سبيله أن تحتمل كل هذا العذاب وارتضيت فى سبيله عامداً أن ترتكب عملاً يبلغ هذا المبلغ من الحقارة والخسة والدناءة ؟ ألم تكن تريد منذ لحظة أن ترمى فى الماء حافظة النقـود هـذه وجميع تلك الجواهر التى لم تكلف نفسك حتى عناء النظر اليها ؟ كيف تفسر هذا كله ؟ •••• » •

نعم هذه هى الحقيقة ! هذه هى الحقيقة تماماً ! وكان هو يعلم هذه

الحقيقة منذ مدة . ان هذا السؤال ليس جديداً عليه . انه حين قرر في الليل أن يرمي كل شيء في الماء ، انما قرر هذا القرار بدون أي تردد ، وبدون أية مماحكة ، كما لو كان ينبغي له أن يفعل هذا نفسه لا أي شيء سواه ... نعم انه يعلم كل هذا ، وانه يتذكر كل هذا ، حتى ليكاد يكون قد اتخذ قراره ذاك منذ البارحة ، لحظةَ كان ينبش صندوق العجوز ويُخرج منه العلب ... اذن ماذا ؟!...

« اذن أنا مريض جداً (الى هذه النتيجة وصل راسكولنيكوف جازماً) . لقد عذبت نفسي ومزقت نفسي وصرت أنا نفسي لا أعرف ماذا أفعل ... وامس ، وأمس الأول ، وفي جميع تلك الأيام الأخيرة ، كنت امزق نفسي بغير انقطاع . حين سأشفى من مرضي ، فلن ... لن أمزّق نفسي بعد ذلك ... ولكن ماذا ... ماذا اذا لم يكتب لي الشفاء يا رب ؟ آه ! ان هذا فوق طاقتي ! ... » .

كان راسكولنيكوف يسير بلا تردد . كان يرغب رغبة رهيبة في أن يسلو على أي نحو من الانحاء ، ولكنه لا يعرف ماذا يعمل من أجل أن يسلو . وهذا احساس جديد لا يستطيع تحديده يجتاح نفسه شيئاً بعد شيء ويشتد في كل دقيقة . هو نوع من اشمئزاز لا حد له ، اشمئزاز يشبه أن يكون جسمياً ، اشمئزاز من كل ما يحيط به ومن كل ما يراه في طريقه ، اشمئزاز عنيد ، كاسر ، حاقد ، مبغض . ان جميع المارة الذين يلقاهم كريهون ، كريهةٌ وجوههم ، كريهة حركاتهم ، وحتى مشيتهم كريهة . لو توجّه أحد اليه بكلام في هذه اللحظة ، لما زاد على أن يبصق في وجهه ، ولربما عضّه .

وتوقف عن السير فجأةً ، لحظةَ صار على رصيف « نيفا الصغير » في جزيرة فاسيلفسكي قربَ الجسر . قال لنفسه : « انه يسكن هنا في هذا البيت ! ما معنى هذا ؟ لقد جئت اذن الى رازوميخين رغم ارادتي !

ها قد تكرر اليوم عين ما حدث فى ذلك اليوم ••• ولكن هذا أمر عجيب جداً :أأنا جئت الى هنا واعياً عامداً أم أننى مشيت على غير هدى فاذا بى أصل الى هذا المكان مصادفة ؟••• لا بأس ! كنت أقول••• أمس الأول ••• اننى سأذهب اليه غداة قيامي بذلك « العمل » ••• طيب ••• أى ضير فى هذا ؟ سأذهب اليه ! ماذا جرى ؟ لكأننى الآن لا أجرؤ أن أذهب اليه ••• » •

وصعد الى الطابق الرابع حيث يسكن رازوميخين •

كان رازوميخين فى بيته ، فى غرفته الصغيرة ، يعمل ، يكتب • فتح الباب بنفسه • انهما لم يلتقيا منذ أربعة أشهر • كان رازوميخين يرتدى ثوباً مهترئاً يكاد يكون خرقة بالية ، وكان عارى القدمين الا من بابوج ؛ ولم يكن قد حلق ذقنه ولا غسل وجهه ، ولا مشط شعره •

عبرَّت هيئته عن الدهشة والاستغراب حين رأى رفيقه داخلاً عليه ، فهتف يقول وهو يتفرس فيه من قمة الرأس الى أخمص القدمين :

ـ ماذا ؟ أأنت ؟

ثم صمت وصفَر ، ثم أردف يقول وهو ينظر الى اسمال راسكولنيكوف الرثة :

ـ هل من الممكن أن تكون احوالك سيئة الى هذا الحد ؟ اجلس ، اجلس ! لا بد أنك متعب !

وحين تهالك راسكولنيكوف على الأريكة التركية المنجدة بقماش مشمع ، وهى أسوأ حالاً من أريكته ، أدرك رازوميخين فجأة أن رفيقه مريض فقال له :

ـ هيئتك تدل على انك مريض فعلاً !

وجس نبضه ، فسحب راسكولنيكوف يده بفظاظة ، وقال له :

ـ لا داعي الى ذلك . لقد جئت ... اليك السبب الذي دفعني الى المجيء : فقدت جميع الدروس التي كنت أعطيها ... أود أن احصل.. ولو على ... لكن لا داعي الى ذلك ... أصبحت في غير حاجة الى دروس ...

سأله رازوميخين وهو يتفرس فيه بانتباه :

ـ ولكن قل لي ، أأنت تهذي ؟

ـ لا ... لست أهذي !

قال راسكولنيكوف ذلك ونهض عن الأريكة . انه حين صعد الى رازوميخين لم يخطر بباله أنه سيكون عليه أن يراه وجهاً لوجه . وها هو ذا يلاحظ الآن على حين فجأة أنه لا شيء يضايقه اكثر ممايضايقه أن يرى أي انسان من الناس وجهاً لوجه . ان كل ما في نفسه من بغض قد ثار الآن . ولقد أوشك أن يختنق غضباً من نفسه منذ أن اجتاز عتبة بيت رازوميخين .

قال فجأة :

ـ وداعاً !

ـ واتجه نحو الباب .

ـ ولكن انتظر ! انتظر يا مختل !

فعاد راسكولنيكوف يقول وهو يسحب يده من جديد :

ـ لا داعي !

سأله رازوميخين :

ـ فلماذا جئت اذن ؟ أتراك جننت ؟ ان فى سلوكك هذا ما يشبه أن يكون اهانة لى • لن أدعك تتصرف وأنت على هذه الحال •

ـ اذن فاسمع ! لقد جئت اليك لأننى لا أعرف أحداً غيرك يمكن أن يساعدنى ••• نعم جئت اليك لأنك أفضل منهم جميعاً ، لانك أذكى منهم جميعاً ، ولأنك حصيف الرأى سديد الحكم • ولكننى أرى الآن أننى لست فى حاجة الى شيء • هل تسمع ؟ لست فى حاجة الى شيء اطلاقاً ••• لا الى خدمات أحد ولا الى عطف أحد ••• سأدبر أمورى ••• بنفسى ، وحدى • نعم ••• يكفى هذا • دعونى وشأنى أنتم جميعاً !•••

ـ ولكن انتظر لحظة يا سخيف ! أنت مجنون ، مجنون تماماً ! لن تزحزحنى عن اعتقادى هذا ! ولكن اسمع قليلاً : أما الدروس فأنا نفسى لا أعطى الآن دروساً ، لا ولا اكترث بالدروس ! غير أن عندى فى السوق صاحب مكتبة اسمه خيروفيموف ، هو فى رأيى خير درس ، ولو ساومنى تجار على أن أبيعه بخمسة دروس لما فعلت ! انه ينشر كتباً عن العلوم الطبيعية ! لا تستطيع أن تتخيل مدى رواج هذا النوع من الكتب • ان الناس يتخاطفونها تخاطفاً ! العناوين وحدها تساوى وزنها ذهباً ! أنت تدعى دائماً أننى غبى ، فاعلم ياعزيزى أن هنالك أناساً أغبى منى ، أقسم لك على ذلك ! لقد أخذ هو أيضاً يجارى التيار ، ويتبع الاتجاهات الجديدة • انه شخصياً لا يفهم شيئاً البتة ، ولكننى أشجعه طبعاً على السير فى هذه الطريق• أنظر مثلاً الى هاتين الملزمتين الكبيرتين (أقول ملزمتين ولكن هنالك عدداً كبيراً من الملازم) المطبوعتين باللغة الألمانية • فى رأيى أن الكلام الذى تضمنه ليس الا دجلاً وشعبذة• ان الكاتب يطرح هذا السؤال : هل المرأة انسان أم هي ليست انساناً • وقد انتهى الى أن يبرهن بفخامة وجلال على أن المرأة انسان ••• ان



رازو میخین

خيروفيموف يهيىء هذه الأشياء لعلاقتها بقضية المرأة التى تناقش كثيراً فى هذه الأيام ؟ وأنا أتولى الترجمة ... وسوف نطيل النص الألمانى الذى يتألف من ملزمتين ونصف ملزمة فنجعله ست ملازم ، ونجعل له عنواناً فخماً يملأ نصف صفحة ، ثم نحدّد ثمن سعر النسخة الواحدة من الكتاب بخمسين كوبكاً . وأنا أتقاضى عن ترجمة الملزمة الواحدة ستة روبلات ، أى خمسة عشر روبلاً عن هذا الكتاب . ومتى انتهينا من هذا الكتاب ، فسنترجم كتاباً عن الحيتان . وقد اخترنا من كتاب « الاعترافات » عدداً من النمائم التى سنترجمها أيضاً . لقد قال أحدهم لخيروفيموف ان روسو يشبه رادتشيف * وأنا أتحاشى طبعاً أن أعارضه .. شيطان يأخذه !... ها نحن اذن نصل الى الأمر الأساسى : هل تريد أن تترجم الملزمة الثانية من كتاب « هل المرأة انسان ؟ » اذا كنت تريد أن تفعل ذلك ، فخذ النص على الفور ، وخذ مع النص أقلاماً وورقاً — كل ذلك على نفقة الناشر — واقبلْ هذه الروبلات الثلاثة ، فاننى قد تقاضيت سلفةً عن ترجمة الملزمة الأولى والملزمة الثانية ، فتكون هذه الروبلات الثلاثة من حقك . حتى اذا فرغتَ من ترجمة ملزمتك ، قبضتَ ثلاثة روبلات أخرى . واننى لأرجوك خاصةً أن لا تتصور أن ما أفعله الآن هو خدمةٌ أقدمها أليك . بالعكس : فاننى ما ان رأيتك داخلاً علىَّ حتى قلت لنفسى : سوف يفيدنى كثيراً . فأنا أولاً ضعيف فى الاملاء ، وأنا ثانياً أقرب الى الضعف فى اللغة الألمانية ؛ لذلك ترانى فى أكثر الأحيان ألفّق وأخترع ، وأعزّى نفسى قائلاً ان النتيجة تكون بذلك أفضل . ولكن من يدرى ؟ قد لا تجيء النتيجة أفضل بل أسوأ ! ... هيه ، أتقبل أم لا ؟

تناول راسكولنيكوف النص الألمانى صامتاً ، وأخذ الروبلات الثلاثة أيضاً ، ثم خرج وهو ما يزال ساكتاً لا ينطق بكلمة واحدة .

وتابعه رازوميخين بنظراته مشدوهاً . ولكن ما ان وصل راسكولنيكوف الى ناصية الشارع الأول حتى قفل راجعاً على حين فجأة ، وصعد ثانيةً الى بيت رازوميخين ، فبعد أن وضع الملزمة والروبلات الثلاثة على المنضدة ، خرج مرةً أخرى دون أن ينطق بكلمة واحدة أيضاً .

قال رازوميخين وقد ثارت ثائرته أخيراً :

ـ لا شك فى أنك مصاب بحمى حارة ! ما هذه المهزلة التى تمثّلها؟ انك تفقدنى صوابى . لماذا رجعت ؟

قال راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم :

ـ لست فى حاجة الى ... ترجمة !...

فصرخ رازوميخين يسأله من أعلى :

ـ أنت فى حاجة الى ماذا اذن ؟

لم يجب راسكولنيكوف .

ـ اسمع ! أين تسكن الآن ؟

ـ شيطان يأخذك !

ولكن راسكولنيكوف كان قد صار فى الشارع . وعلى جسر نيقولا * ، اضطر أن يثوب الى رشده مرةً أخرى ، بسبب حادث مزعج وقع له : لقد هوى حوذى على ظهره بضربة سوط أليمة ، لأن راسكولنيكوف لم ينتبه الى تحذيراته التى كررها ثلاث مرات أو أربعاً فكادت تدوسه خيول العربة . وقد أخرجته هذه الضربة عن طوره ، فغضب غضباً بلغ من الشدة أنه صرف بأسنانه ، ووثب الى الافريز (لقد كان يمشى فى وسط الجسر لا حيث يمشى المشاة ، لا يدرى المرء لماذا !). فانطلقت من حوله الضحكات والتعليقات :

ـ عظيم !

ـ لا بد أن يكون مجنوناً !

ـ حيلة معـروفة : يتظاهرون بالسـكر ويرتمون عـامدين تحت العجلات ليبتزوا تعويضاً !

ـ من هذا يعيشون يا أصدقائى ، هذا مصدر رزقهم !

ولكن في تلك اللحظة التى رأى فيها راسـكولنيكوف نفسه قرب الافريز آخذ يحك ظهره ، متابعـاً بنظرته المشـدوهة الحانقة ، ابتعاد العربة ، أحس فجأة بأن أحداً يدس مالاً في يده . فنظر فرأى أمامه سيدة متقدمة فى السن قليـلاً ـ أغلب الظن أنها زوجـة تاجر ـ على رأسها قلنسوة من نسيج ، وقدماها فى حذاءين كبيرين ، ومعها فتاة تلبس قبعة وتحمل بيدها شمسية خضراء ، ولعلها بنتها . قالت له السيدة وهى تدس المال في يده : « خـذ هذا يا صاحبى من مال الله . . » . أخـذ راسكولنيكوف الصـدقة ، وتابعت المرأتان طريقهما . وكانت الصـدقة قطعـة نقد فضـية قيمتها عشرون كوبكاً . لا شـك أنهما ظنتـا من زيه الغريب ومظهره الزرى أنه شحاذ محترف . أما العشرون كوبكاً ـ وهى مبلغ ضخم بالقياس الى صدقة ـ فأغلب الظن أنهما أنعمتا بها عليه بسبب ضربة السوط التى أثارت شفقتهما .

قبض راسكولنيكوف على قطعة النقد بيده ، وسار عشر خطوات ، ثم التفت يواجه نهر نيفـا فى اتجـاه « القصر » . كانت السـماء صافية لا يعكرها سحاب ، وكان الماء أزرق اللون تقريباً ، وذلك ما لا يتفق الا فى القليل النادر . وكانت قبة الكاتدرائية * ، التى لا تبرز هذا البروز الا حين يُنظر اليها من هذا المكان من الجسر ، كانت متألقة ساطعة ، وكان

الناظر اليها يستطيع ، بفضل شفافية الهواء ، أن يميِّز أدق زخارفها . هدأ ألم راسكولنيكوف ، ونسى ضربة السوط التى هوى بها الحوذى على ظهره . ان فكرةً بقلقة مضطربة تشغل الآن ذهنه كله . حدَّق ملياً الى هذه الأماكن التى كانت مألوفة له . لقد حدث له فى الماضى ، حين كان ما يزال يتردد الى الجامعة * ، حدث له مراراً كثيرة قد تُعدُّ بالمئات، ولا سيما أثناء عودته الى بيته ، أن وقف فى هذا المكان نفسه ، فأخذ يتأمل المشهد الرائع ، فكان يُدهش دائماً من الأثر المبهم الذى يحدثه هذا المشهد فى نفسه . لقد كان دائماً ، بعد أن يتأمل هذا المشهد ، يشعر بعاطفة برود غريبة . كان هذا المشهد الفخم يبدو له خالياً من الروح ، يبدو له أخرس عقيماً ... وكان راسكولنيكوف يُدهش فى كل مرة من الاحساس القاتم الملغز الذى يشعر به ، وكان لشكِّه فى نفسه يرجىء دائماً شرح أسباب ذلك لنفسه . وقد تذكر الآن فجأةً ، بدقة حادة ، جميع المسائل التى هاجمته وحاصرته ، فبدا له أنه لا يتذكر هذا كله مصادفةً . ان مجرد توقفه فى هذا المكان نفسه الذى كان يتوقف فيه سابقاً قد بدا له غريباً مضحكاً . أكان يظن حقاً أنه ما يزال يستطيع أن يفكر فى نفس الأمور وأن يهتم بنفس المشاهد وأن يعنى بنفس الموضوعات التى كانت تستهويه فى الماضى وفى الآونة الأخيرة أيضاً ؟ أوشك راسكولنيكوف أن ينفجر ضاحكاً . ولكن قلبه قد انقبض فى الوقت نفسه انقباضاً يبلغ درجة العذاب . بدا له أن ماضيه كله ، وأفكاره كلها ، وجميع المسائل والعواطف التى كان يعالجها فى الماضى ، ترقد الآن فى أسفل ، تحت قدميه ، فى قرارة هوةٍ سحيقة لا نهاية لها ... وأن هذا المشهد نفسه ، وأنه هو ذاته ، وأن كل شىء ... كل شىء يطير الى مكان ما فى الأعالى . كان يبدو له أن كل شىء يختفى ويزول ويغيب ... نعم ، كل شىء !...

وعلى اثر حركة غير ارادية أحسّ بقطعة النقد الفضية مشدودة بقبضته ، فبسط يده وتأمل قطعة النقد ملياً ، ثم رماها في الماء بحركة يسيرة ، ثم استدار على عقبيه وعاد يسير فى طريق بيته • كان يحس فى تلك اللحظة أنه قطع بالمقص كل صلة بينه وبين العالم •

ولم يرجع الى بيته الا عند هبوط الليل ؟ أى انه ظل يسير ست ساعات كاملة • ولو سألته عن الطرق التى سلكها لما استطاع أن يجيبك بشىء •

خلع ثيابه وهو يرتجف ارتجاف حصان عاجز ، ثم استلقى على الأريكة ، وغطى نفسه بمعطفه ، فلم يلبث أن غاب عن شعوره •

وأفاق في وسط ظلام كامل ، حين أيقظته صرخة كريهة ! ماهذه الصرخة يا رب ! لم يسبق له فى يوم من الأيام أن سمع جلبة رهيبة بشعة الى هذا الحد : عويل ، ونشيج ، وصريف أسنان ، وصرخات ، وشتائم لا يتصورها العقل ! ما كان له أن يتخيل همجية كهذه الهمجية ، ووحشية كهذه الوحشية ! انتصب على أريكته مروّعاً مهدود القلب • ولكن التشاجر والصخب والشتائم ما تنفك تقوى وتشتد • وها هو ذا يتعرف صوت صاحبة البيت فجأةً ، فيصاب بدهشة كبيرة وذهول شديد • كانت تعول وتئن وتصيت وتتضرع ، وتشوه الألفاظ حتى ليستحيل على المرء أن يدرك جملة واحدة من كلامها • لعلها كانت تبتهل الى من يضربها أن يكف عن ضربها ؟ ذلك أن أحداً كان يضربها على السلم ، نعم ••• ان أحداً يضربها هنالك ضرباً مبرّحاً بلا شفقة ولا رحمة • وهذا صوت الرجل الذى يضربها قد بلغ من شدة الغضب والحنق والهول أنه أصبح نوعاً من صراخ أبح • كان هذا الرجل يقول كلاماً ، ولكن كلامه هو أيضاً كان لا يُفهم من فرط سرعته واختناقه ! ••• وأخذ راسكولنيكوف يرتجف على حين بغتة : تعرّف صوت

الرجل . انه صوت ايليا بتروفتش . ماذا ؟ ايليا بتروفتش هنا ، يضرب صاحبة البيت ؟ نعم ، انه يضربها بقدمه ، ويطرق برأسها درجة السلم : هذا واضح ، تدل عليه الضجات والصرخات والضربات ، ولا تخطيء في الدلالة عليه . ماذا جرى اذن ؟ هل انقلب العالم عاليه سافله ؟ وهذا راسكولنيكوف يسمع في جميع الطوابق ، من أعلى السلّم الى أدناه ، أصوات جمهور من الناس يحتشد صارخاً صائحاً . أناس يصعدون ، وأناس ينزلون ، والجلبة تزداد ، والأبواب تقرقع ... وأناسٌ آخرون يهرعون مسرعين . « لماذا ؟ لماذا ؟ أهذا ممكن ؟ » . كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف وهو يعتقد صادقاً بأنه قد أصبح مجنوناً ، ولكن لا ، انه ما يزال يسمع ذلك كله واضحاً كل الوضوح ... لا بد اذن أنهم آتون اليه أيضاً ، « لأن ... نعم ... لأن كل شيء يرجع ... الى أنني... بالأمس ... قد ... رباه ! » . أراد أن يغلق الباب بالكلابة ، ولكن يده رفضت أن تطيعه ، ولو قد أغلق الباب بالكلابة لما أجداه ذلك شيئاً من جهة أخرى . لقد كان الخوف يطوّق نفسه كدرع من جليد ، ويعذبه ويشلُّه ... ولكن ها هي ذي الجلبة كلها تهدأ رويداً رويداً بعد أن دامت ست دقائق طويلة ... ان صاحبة البيت تئن الآن وتتنهد . أما ايليا بتروفتش فاستمر يهدّد ويتوعد ويشتم ... وبدا أخيراً أنه هدأ هو أيضاً ، ثم أصبح صوته لا يُسمع البتة . « أتراه انصرف ؟ يا رب ! ». نعم ، لقد انصرف . وهذه صاحبة البيت تنصرف أيضاً وهي ما تزال تئن وتبكي . هذا بابها يُغلق مقرقعاً ... هؤلاء هم الناس يتفرقون جميعاً فيعود كل منهم الى مسكنه ... انهم يصيحون ويتناقشون ويستوضحون تارةً بأصوات قوية جداً (توشك أن تكون صراخاً) وتارة بأصوات خافتة جداً (توشك أن تكون همساً) ... لا شك أن عددهم كبير جداً

يكاد يضم جميع سكان المنزل . تساءل راسكولنيكوف : « رباه ! أهذا كله ممكن ؟ ولماذا ، لماذا جاء الى هنا ؟ » .

تهالك راسكولنيكوف على أريكته من جديد ، ولكن جفنه لم يعرف الى الغمض سبيلاً بعد ذلك . ولبث راقداً هذا الرقاد مدة نصف ساعة وهو يعاني عذاباً ورعباً أكبر من كل ما عرف في حياته من عذاب ورعب . وهذا ضياء شديد ينير غرفته فجأة . لقد دخلت عليه ناستاسيا مع شمعة وطبق حساء . فلما نظرت اليه ملياً فعرفت أنه ليس نائماً ، وضعت الشمعة على المنضدة ، وأخذت ترتّب على المائدة ما كانت تحمله اليه : خبزاً ، وملحاً ، وصحناً ، وملعقة .

قالت :

ـ لم يأكل شيئاً منذ أمس ! ظل يتسكع هنا وهناك طوال الليل ، وهذه حمى شديدة تنتابه الآن !

قال راسكولنيكوف لناستاسيا :

ـ ناستاسيا ، لماذا ضربوا صاحبة البيت ؟

فأجابته وهي تنظر اليه مبهوتة :

ـ من ضرب صاحبة البيت ؟

ـ منذ قليل ، منذ نصف ساعة ... ضربها ايليا بتروفتش مساعد مفوض الشرطة ، هنا ، في السلم ... لماذا ضربها هذا الضرب ؟... ولماذا جاء ؟...

تفرست فيه ناستاسيا صامتةً مقطبةً مدة طويلة . لقد آلمها هذا ، ثم شعرت بخوف .

سألها راسكولنيكوف وجلاً ، بصوت واهن :

ـ ناستاسيا ، لماذا تصمتين ؟

فقالت تجيبه بعد لحظة بصوت خافت كأنها تكلم نفسها :

ـ هو الدم ؟

ـ الدم ؟ أى دم ؟

كذلك تمتم وقد اصفر وجهه وأخذ يتقهقر فليتصق بالحائط . فأخذت ناستاسيا تنظر اليه صامتةً من جديد . ثم قالت بعد لحظة بلهجة قاسية واثقة :

ـ لم يضرب أحد صاحبة البيت .

فنظر اليها وهو لا يكاد يتنفس ، وقال لها بمزيد من الوجل :

ـ سمعت الجلبة بنفسى ... لم أكن نائماً ... جاء مساعد مفوض الشرطة ... وخرج الجميع من بيوتهم ، وهرعوا الى السلم .

ـ لم يجىء أحد . الدم هو الذى يصرخ فيك . حين لا يجد الدم مخرجاً فيأخذ يسدُ الكبد ، تتراءى للمرء عندئذ رؤى ... أتريد أن تأكل أم لا ؟

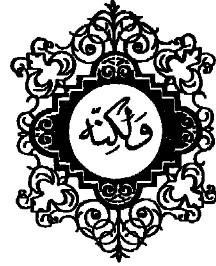
لم يجب راسكولنيكوف . وظلت ناستاسيا واقفةً الى جانبه ، لا تتكلم ، وما تزال تتفرس فيه .

ـ اسقينى يا ناستاسينكا ...

نزلت ناستاسيا ، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل جرةً صغيرة من الفخار الأبيض فيها ماء .

لا يتذكر راسكولنيكوف ما جرى بعد ذلك . كل ما يتذكره هو أنه شرب جرعة من ماء بارد ، وأنه قلب ماء الجرة على صدره . ثم أغمى عليه .

الفصل الثالث



لم يفقد وعيه كله طوال مدة مرضه . كان يعاني حالة حمى مصحوبة بهديان ، ولكن هذه الحالة قد تركت له نصف وعي . وقد تذكر بعد ذلك أشياء كثيرة .

كان يتراءى له تارةً أن أناساً كثيرين قد احتشدوا حوله ، وأنهم يريدون أن يأخذوه ، أن ينقلوه الى مكانٍ ما ، وأنهم يتناقشون ويشتجرون في أمره . وكان تارة أخرى يجد نفسه وحيداً في غرفته على حين فجأة : فقد ذهب الناس جميعاً لأنهم خافوا منه ، فهم يشقون الباب من حين الى حين لينظروا اليه ، وليهدّدوه ؟ وهم يتآمرون عليه ، ويضحكون منه ، ويزدرونه ، ويستفزونه .

وقد تذكر راسكولنيكوف أنه رأى ناستاسيا ساهرةً عليه قرب سريره مراراً . واستطاع كذلك أن يميّز رجلاً لا بد أنه كان يعرفه جيداً ، ولكنه لا يملك أن يقول من هو هذا الرجل على وجه التحديد . وكان ذلك يحزنه ويؤلمه ، حتى لقد كان يبكي . وكان يتراءى له في بعض الأحيان أنه راقد في سريره منذ شهر ، وكان يتراءى له في أحيان أخرى أن هذه المدة كلها يوم واحد يتصل ويستمر . ولكن ما باله نسي « ذلك الأمر » ، ما باله نسي « ذلك الأمر » نسياناً تاماً ! على أنه كان يتذكر في كل لحظة أنه قد نسي شيئاً لا يجوز له أن ينساه . وكان

عندئذ يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يتذكر ، ويتعذب ويئن ، ثم اذا هو يستولى عليه حنق مسعور أو يستبد به ذعر شديد ، فينهض عن أريكته ، ويحاول أن يهرب ، غير أن أحد الناس يمنعه من ذلك بالقوة ، فيهوى الى ضعفه من جديد ، ويغيب عنه شعوره مرةً أخرى . ثم عاد اليه وعيه تماماً .

حدث ذلك فى الساعة العاشرة من أحد الاصباح . كانت الشمس فى مثل تلك الساعة من أيام الصحو يسقط منها شعاع طويل على الجدار الأيمن من غرفته ، ويضيء الركن القريب من الباب . هذه ناستاسيا واقفة قرب سريره ، وهذا شخص آخر يتفرس فيه بكثير من الاستطلاع ، رجل لا يتذكر راسكولنيكوف أنه رآه قبل اليوم قط . هو فتى يرتدى قفطاناً ، وله لحية صغيرة ، وتدل هيئته على أنه مستخدم فى محل تجارى . ومن خلال الباب المشقوق ، تنظر صاحبة البيت .

نهض راسكولنيكوف ، وسأل وهو يومىء الى الشاب :

ــ من هذا يا ناستاسيا ؟

قالت ناستاسيا :

ــ صحا من غيبوبته !

فأمَّن المستخدم على كلامها قائلاً :

ــ نعم ، صحا !

وكانت صاحبة البيت تنظر من خلال شق الباب ، ففهمت أن راسكولنيكوف صحا من غيبوبته ، فأغلقت الباب مسرعةً وغابت . ان هذه المرأة كانت دائماً خجولة ، لا تطيق النقاش والعتاب . هى فى نحو الأربعين من عمرها ، لها حاجبان سوداوان ، وعينان سوداوان ، وهى بدينة سمينة ، ولعلها طيبة بسبب هذه السمنة ، وبسبب كسلها أيضاً ؛

وانها لتمتاز بكثير من البشاشة على كل حال ، ولكنها مفرطة فى العفة ...

عاد راسكولنيكوف يسأل من جديد ، وهو يتجه بسؤاله الى المستخدم رأساً :

ــ من ... أنت ؟

ولكن الباب فُتح فى تلك اللحظة واسعاً ، ودخل رازوميخين منحنياً بسبب طول قامته . وهتف يقول وهو يدخل :

ــ مسكنك هذا يشبه أن يكون حجرةً فى سفينة . أهذا مسكن ؟ لا يدخله المرء مرةً الا ويصطدم جبينه ! اذن لقد أفقت من غيبوبتك يا صاحبى ، هه ؟ أحسنت صنعاً .. لقد أعلمتنى باشنكا * منذ هنيهة أنك أفقت ...

قالت ناستاسيا :

ــ نعم ، أفاق الآن .

وردَّد المستخدم قائلاً وهو يبتسم ابتسامةً خفيفة :

ــ نعم ، أفاق الآن ...

سأل رازوميخين وهو يتجه الى المستخدم فجأة :

ــ ولكن ... من أنت ؟ أنا ، مثلاً ، اسمى فرازوميخين ، لا رازوميخين كما اعتاد الناس أن يسمونى ، بل فرازوميخين ... وأنا ابن رجل من السادة . ولكن ، أنت ، من أنت ؟

ــ أنا مستخدم فى محل التاجر شيلوبايف ، وقد جئت هنا لأعمال.

ــ هلاَّ تفضلت فجلست على هذا الكرسى !

قال رازوميخين ذلك وجلس على كرسى آخر فى الجهة الأخرى من المائدة . وتابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف :

ـ أحسنت صنعاً يا عزيزى بالصحو من غيبوبتك • فانك منذ اربعة أيام لم تطعم شيئاً ، غير قليل من الشـاى جُرّعته بالملعقة • وقد جئتك بزوسيموف مرتين • هل تتذكر زوسيموف ؟ فحصك بكثير من الاهتمام والانتبـاه ، ثم قال انك سـليم معافى ، الا من ضربة أصابت رأسـك • وأضاف ان الأمر لا يعدو أن يكون انزعاجا عصبياً بسيطاً مردُّه الى سوء التغذية• فقد كنت فى حاجة الى بيرة وفجل ، فلما حُرمت منهما مرضت• ولكنه يؤكد أن ذلك كله سينقضى بسرعة ، وأنك سـتبرأ فى القـريب أحسن مايكون البرء • يا له من رجل لامع ، زوسيموف هذا • لقد نجح نجاحاً فائقاً منذ الآن •

ثم أضاف رازوميخين يخاطب المستخدم من جديد :

ـ لا نريد أن نؤخرك • هلاّ تفضلت فذكرت لنا غرضك من هذه الزيارة !

وتابع يكلم راسكولنيكوف :

ـ لاحظ يا روديا أن هذه هى المرة الثانية التى يوفد فيها مكتبهم مندوباً • ولكن مندوبهم فى المرة الماضية لم يكن هذا الشاب ، بل كان رجلاً آخر ، ومع ذلك الرجل الآخر انما تباحثنا •

وعاد يسأل المستخدم قائلاً :

ـ من ذلك الذى جاء فى المرة الماضية ؟

فأجابه المستخدم :

ـ لا شـك أنك تقصـد الذى جـاء منـذ ثلاثة أيام • انه ألكسى سيميونوفتش • هو يعمل فى المحل أيضاً •

ـ أرى أنه أبرع منك • ما رأيك ؟

ـ نعم ، انه أكثر وقاراً ؟

ـ أهنئك ! طيب ، أكمل !

بدأ المستخدم كلامه مخاطباً راسكولنيكوف مباشرة :

ـ اليك الموضوع : بواسطة أتانازى ايفانوفتش فاخروشين الذى أرجو أن تكون قد سمعت عنه ، وبطلب من السيدة والدتك ، وصلت الى مكتبنا حوالة مالية لك ؛ فاذا كنت فى حالة تمكنك من الفهم ، فسوف أدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلاً تلقاها سيميون سيميونوفتش من آتانازى ايفانوفتش بناءً على طلب من السيدة والدتك • هل أُبلغت هذا الأمر •••

قال راسكولنيكوف حالماً مفكراً :

ـ نعم ، أذكر ••• فاخروشين •••

هتف رازوميخين يقول :

ـ هل سمعت ؟ انه يعرف التاجر فاخروشين ، فكيف لا يكون فى حالة تمكنه من الفهم ؟ ثم اننى ألاحظ أنك رجل عاقل ، فهيّا أكمل حديثك • انه ليحلو للمرء دائماً أن يسمع أقوال رجل عاقل •

فتابع المستخدم كلامه فقال :

ـ نعم ، ان فاخروشين هذا نفسه ، أتانازى ايفانوفتش فاخروشين، لم يتردد ، حين طلبت منك أمك ذلك ـ وهى التى أوصلت اليك بواسطته، فى مرة سابقة ، مبلغاً من المال ـ لم يتردد فى هذه المرة أيضاً أن يكتب الى سيميون سيمونوفتش طالباً منه أن يدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلاً ، بانتظار أن يدفع لك أكثر من ذلك فى المستقبل •

ـ عيناً ان قولك « بانتظار ان يدفع لك أكثر من ذلك فى المستقبل»

هى خير ما خرج من فمك . ولا بأس كذلك فى قولك « السيدة والدتك » . ما رأيك الآن ؟ أهو يملك شعوره كاملاً أم لا ؟

ـ أتمنى ذلك ... كل ما أريده هو أن يعطينى ايصالاً صغيراً يشهد باستلامه المبلغ .

ـ سيكتب لك الايصال فوراً . ما هذا الذى معك ؟ أهو سجل ؟

ـ نعم ، سجل .

ـ هاته . هيَّا يا روديا ! انهض قليلاً . سأسندك . وقّع له اسمك دفعةً واحدة . خذ القلم يا صاحبى ، لأن حاجتنا الى المال ماسة ، ماسة ...

قال راسكولنيكوف وهو يدفع القلم :

ـ لستُ فى حاجة ...

ـ لستَ فى حاجة الى ماذا ؟

ـ لن أوقّع .

ـ ولكن كيف يمكن أن ... بغير توقيع ...

ـ لستُ فى حاجة الى مال .

ـ لستَ فى حاجة الى مال ؟ ألا انك لتكذب يا عزيزى . أنا شاهد على أنك تكذب .

قال رازوميخين ذلك ، والتفت يخاطب الشاب :

ـ لا تقلق ، أرجوك ... هو يقول هذا ، ولكنه يهذى ... من جديد ... ثم انه يتفق له أن يهذى فى الحالة الطبيعية ... أنا أعرفه. وأنت رجل شريف . ليس علينا اذن الا أن نرشده ، أو قل أن نرشد يده ، فيوقّع . هيَّا ، ساعدنى !

ـ يمكنني أن أرجع مرةً أخرى •

ـ لا ، لا ، لماذا تزعج نفسك مرةً أخرى ؟ أنت رجل عاقل ••• هلمَّ يا روديا ، لا تؤخر ضيفنا ••• أنت ترى أنه ينتظر منذ مدة •

قال رازوميخين ذلك وتهيأ ، جاداً كل الجد ، لأن يقود يد راسكولنيكوف • فقال له راسكولنيكوف :

ـ دع عنك • سأوقّع بنفسي •

وتناول القلم ، ووقّع •

فدفع له المستخدم المال ، وخرج •

ـ مرحى ! والآن يا عزيزى ، ستأكل ! هه ؟

ـ نعم سآكل !•••

قال رازوميخين يسأل ناستاسيا التي لبثت هناك طوال تلك المدة :

ـ هل عندكم حساء ؟

ـ نعم ، عندنا حساء من أمس •

ـ أهو حساء بالرز والبطاطس ؟

ـ بالرز والبطاطس •

ـ قدّرت ذلك • هاتي الحساء ، وأتينا بشاى !

ـ حالاً !

نظر راسكولنيكوف حواليه مخبولاً • لقد قرر أن يصمت وأن ينتظر تتمة الأحداث • قال يحدث نفسه : « يخيّل الىّ أنني لا أهذى الآن • يخيل الىّ أنني لا أهذى الآن • يخيل الىّ أن هذا كله واقع وليس أضغاث أحلام ! » •

وبعد دقيقتين عادت ناستاسيا بالحساء ، وأعلنت أن الشاى سيكون

مهياً بعد قليل . وبعد الحساء ظهرت ملعقتان وجميع أدوات المائدة : وعاء الملح ، ووعاء الفلفل ، ووعاء الخردل لتطييب المرق ، الخ . ان مثل هذا الترتيب الدقيق لم يُراعَ منذ مدة طويلة . وكان غطاء المائدة نظيفاً.

قال رازوميخين :

ــ لا بأس ، يا ناستاسيوشكا ، فى أن ترسل الينا براسكوفيا بافلوفنا زجاجتين صغيرتين من البيرة . سوف يسرنا أن نشربهما .

فقالت ناستاسيا وهى تمضى لتنفيذ الأوامر :

ــ انك لتحب المسرات !

وكان راسكولنيكوف ما يزال ينظر حواليه زائغ الهيئة مشدود الانتباه . وفى أثناء ذلك الوقت كان رازوميخين الذى جلس الى جانبه على الأريكة ، يُنهض رأسه بيده اليسرى ، بخراقة كخراقة الدب ، ويحمل الى فمه باليد اليمنى معلقة من الحساء بعد أن ينفخ عليها عدة مرات حتى لا يحترق بها فم صاحبه . وكان الحساء فى الواقع فاتراً غير ساخن .

التهم راسكولنيكوف ملعقة أولى ، فملعقة ثانية ، فملعقة ثالثة ، بشراهة ونهم . فلم يلبث رازوميين أن توقف عن اطعامه قائلاً ان من الواجب أن يُستشار فى ذلك زوسيموف أولاً .

ودخلت ناستاسيا تحمل زجاجتى بيرة .

ــ هل تريد شيئاً من الشاى ؟

ــ نعم .

ــ هاتى لنا شاياً يا ناستاسيا ، فاننا فيما يتعلق بهذا الشراب ، أعنى الشاى ، نستطيع أن نستغنى عن صفات كلية الطب ! آ ... هذه هى البيرة !

قال رازوميخين ذلك ، وعاد الى كرسيّه ، وجذب اليه الحساء ، وأخذ يلتهم اللحم المسلوق ، كأنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام . دمدم يقول بمقدار ما يتيح له فمه المملوء لحماً أن يتكلم :

ـ نعم يا روديا ، نعم يا صديقى القديم ، على هذا النحو انما أصبحت آكل الآن كلّ يوم فى منزلكم . ان صاحبة البيت باشنكا هى التى تكرمنا هذا التكريم . انها تحيطنى بكل أنواع العناية والرعاية . طبعاً أنا لا أطلب شيئاً ، ولكننى لا أرفض شيئاً كذلك ... هذه ناستاسيا وشايُها ! هى الرشاقة نفسها فى صورة امرأة ! هل تريدين شيئاً من البيرة ياناستاسيا ؟

ـ مهرّج !

ـ وهل تريدين شيئاً من الشاى ؟

ـ الشاى ... لا أرفض الشاى !...

ـ اذن صبى لنفسك شيئاً . لا بل انتظرى ! سأخدمك أنا ، بنفسى . اجلسى الى المائدة .

قال رازوميخين ذلك وأسرع ينهمك فى صب الشاى ، فملأ فنجاناً ثانياً ، ثم ترك غداءه ، وعاد يجلس على الديوان . وكما فعل منذ قليل ، دسّ يده اليسرى تحت رأس المريض ، فأنهضه قليلاً ، وأشربه شايه بالملعقة ، نافخاً على كل ملعقة بكثير من العناية والاهتمام ، كأن سلامة المريض مرهونة بهذا النفخ . وكان راسكولنيكوف صامتاً لا يقاومه أية مقاومة ، رغم شعوره بأنه يملك من القوة ما يكفيه لأن يُنهض جسمه ، ولأن يبقى جالساً بغير مساعدة من أحد ، بل ولأن يستعمل يديه أيضاً ؟ حتى لقد مضى الى حد الاعتقاد أن فى وسعه أن يمشى اذا شاء . ولكنه بنوع من مكرٍ غريب ، مكرٍ يكاد يكون غريزياً ،

خطر بباله فجأة أن يخفي فواده ، بل وأن يتظاهر بغيبوبة تامة اذا لزم الأمر ، من أجل أن يتجسس خلال ذلك على ما يجرى حوله . غير أنه لم يستطع أن يتغلب على اشمئزازه : فبعد أن ابتلع نحو عشر ملاعق من الشاى ، سلّ رأسه ، ودفع الملعقة بنزوة طارئة ، وتهالك على الوسادة. ان رأسه يستريح الآن على وسادات حقيقية من ريش ، تجللها أغطية نظيفة . وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك واستغربه .

أعلن رازوميخين وهو يعود الى مكانه ويهجم على حسائه وبيرته من جديد :

ـ يجب على باشنكا أن ترسل الينا في هذا اليوم نفسه شيئاً من مربّب التوت نصنع منه لمريضنا شراباً .

قالت ناستاسيا التي كانت تبسط صحن فنجانها على أصابعها الخمس المتباعدة ، وترشف شايها فيرشح « من خلال السكر » في فمها :

ـ ولكن من أين عساها تأتي الآن بالتوت ؟

ـ التوت يا عزيزتي ستجده عند البقال . هل تعلم يا روديا ؟ لقد جرت هنا قصة لا تعرف عنها شيئاً ! حين هربت من عندى هروب وغد من الأوغاد ، دون أن تذكر لى عنوانك ، غضبتُ غضباً بلغ من الشدة أنني قررت فوراً أن أعثر عليك ... وأن أعاقبك ! وأخذت في ذلك اليوم نفسه ألاحقك وأطاردك . آه ... يمكن أن يقال انني ركضت وأزعجت الناس جميعاً لأهتدي اليك ... كنت قد نسيت عنوانك الحالي، أو قل انني ما نسيته لانني ما كنت أعرفه أصلاً . أما «مسكنك» القديم، فان كل ماكنت أذكره عنه هو أنه يقع في مكانٍ ما من « الأركان الخمسة » بعمارة تسمى «عمارة خارلاموف» ... والحق أن ذلك السيد ، صاحبَ العمارة ، لم يكن اسمه خارلاموف ، بل بوخ . فانظر كم لقيت من

عناء ! آه من أسماء الأعلام ! الخلاصة أننى غضبت غضباً شديداً ، غضباً بلغ من الشدة أننى ذهبت من الغد رأساً الى مكتب تسجيل العناوين : فاذا أنا أعرف منهم عنوانك فى غضون دقيقتين . نعم ، نعم ، انك مسجل عندهم !

ــ مسجَّل !

ــ نعم ، نعم ، مسجَّل . ومع ذلك لم يستطيعوا أن يعثروا على عنوان الجنرال كوبليف . لست أخترع شيئاً : لقد جرى هذا أمامى . هوه ! ما لنا نتوه فى التفاصيل !... على كل حال ، ما ان جئت الى هنا ، حتى كنت أعرف جميع شئونك ، نعم ، جميع شئونك ! يا صديقى أنا أعرف كل شىء . لقد أرَوْنى ايليا بتروفتش . وتعارفت مع نيكوديم فومتش ، والبواب ، والسيد زاميوتوف ، الكسندر جريجوريفتش زاميوتوف ، سكرتير قسم شرطة الحى ، وعرفت أخيراً باشنكا ... باشنكا ... انها زهرة من عرفتهم . ناستاسيا تعرف ذلك .

تمتمت ناستاسيا تقول وهى تضحك ضحكة ساخرة :

ــ عرف كيف يتملقها .

ــ عليك أن تضعى السكر فى فنجانك يا ناستاسيا نيكيفوروفنا !

صاحت ناستاسيا تقول وهى تنفجر ضاحكة :

ــ يا للحيوان !

ثم أضافت بعد أن انتهت نوبة الضحك :

ــ ليس اسمى نيكيفوروفنا بل بتروفنا .

قال لها رازوميخين :

ـ أحطنا علماً بذلك •

ثم استأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف :

ـ هكذا يا صاحبي • لقد أردت أن أستعمل سائلاً كهربائياً من أجل أن استأصل ، دفعةً واحدة ، جميع الأوهام المعشعشة في هذه النواحي • ولكن باشنكا غلبتني • يا صديقي ، ما كنت لأتصور في يوم من الأيام أنها بشوش ••• الى هذا الحد ••• هه ؟ ما رأيك ؟

لم يجب راسكولنيكوف ، رغم أنه لم يحول بصره القلق عن رازوميخين في لحظة من اللحظات ، ورغم أنه ما يزال يحدّق اليه •

تابع رازوميخين كلامه فقال دون أن يظهر عليه أي استياء من صمت راسكولنيكوف :

ـ حتى ليمكن أن يقال انها انسانة ممتازة من جميع الجهات •

هتفت ناستاسيا تقول من جديد ، وقد بدا عليها أن هذه المحادثة تسرها سروراً عظيماً :

ـ يا له من حيوان !

ـ المصيبة يا صديقي أنك لم تعرف كيف تدبر أمرك منذ البداية• ان على المرء أن يتبع في معاملتها طريقة غير طريقتك • ان لها طبعاً••• غريباً ! سنتكلم عن طبعها فيما بعد • ولكن كيف استطعت أن تُفسد أمورك معها الى الحد الذي انقطعت معه عن ارسال طعامك اليك ؟ وما قصة السند تلك ؟ يميناً انك لمجنون • كيف ترضى أن توقّع سندات ؟ ومشروع الزواج ذاك ، حين كانت ابنتها ناتاليا ياجوروفنا ما تزال على قيد الحياة ؟ انني أعلم كل شيء ! أنا أدرك أنني هنا أمسُّ الوتر الحساس، وأنني حمار • معذرة ، معذرة • ولكن قل لي بمناسبة الحماقات ما رأيك:

ليست براسكوفيا بافلوفنا حمقاء الى الحد الذى قد يفترضه المرء من أول نظرة ، أليس كذلك ؟

قال راسكولنيكوف بأطراف شفتيه ، مشيحاً بوجهه ، مدركاً مع ذلك أن استمرار الحديث أفضل :

ــ نعم ٠

فهتف رازوميخين وقد أسعده اسعاداً واضحاً أنه حصل على جواب :

ــ أليس كذلك ؟ ولكنها ليست ذكيــة أيضــاً ، هه ؟ ان لها طبعاً لا يُتوقع أبداً ٠ أنا ، على كل حال ، يحيّرنى هذا الطبع يا صاحبى ٠ لا بد أنها فى الأربعين من عمرها ٠٠٠ هى تقول انها لم تتجاوز السادسة والثــلاثين ٠ هــذا حــق من حقــوقهــا ٠ على أننى (أحلف لك !) لا أحــكم عليها الا من وجهــة النظر الفكرية ، من وجهة النظر ٠٠٠ الميتافيزيقية وحدها ٠ ان ما يقع بيننا يدخل فى نطاق الرمز ٠ هو نوع من علم الجبر يا صاحبى ٠٠٠ لست أفهم من ذلك شــيئاً ٠ سخافات كل هذا ! ولكنها اذ رأت أنك لم تعد طالباً ، وأنك فقدت ما كنت تعطيه من دروس ، وأنك أصبحت لا تملك ما تدثر به ظهرك ، وأنها غــدت منذ موت آنستها لا تستطيع أن تعدك عضواً فى الأسرة ، قد انتابها ذعر ٠ واذ انك من جهتك انطويت على نفسك بدلاً من أن تعيش كما كنت تعيش فى الماضى ، فقد قام فى ذهنها أن تطردك ٠ وكانت تفكر فى هذا المشروع منذ مدة ، ولكن السـند كان يقلقها كثيراً ؛ ولما كنت قد أكدت لهــا أن أمك ستدفع ٠٠٠

ــ قلت لها ذلك حقــارةً منى ٠٠٠ ان أمى توشــك أن تستجدى أكف النــاس ٠٠٠ لقد كذبت عليهــا لأجبرها على أن تحتفظ بى وأن تطعمنى ٠٠٠

قال راسكولنيكوف ذلك بصوت عالٍ واضح .

أجابه رازوميخين :

ـ نعم ، ولقد تصرفت عندئذ تصرفاً فيه تعقل وحكمة . ولكن المشكلة هي أنه في تلك اللحظة ظهر السيد تشيباروف ، وهو مستشار قضائي ورجل من رجال الأعمال ؛ فلولا هذا الرجل لما خطر ببال باشنكا ، وهي المرأة الخجول ، أن تتخذ أي اجراء . ولكن رجل الأعمال لا يملك هذا الخجل ، فكان أول سؤال ألقاه طبعاً هو هذا السؤال : هل هناك أمل في قبض قيمة السند . وكان الجواب بنعم ، لأن هناك أماً لها معاش مقداره مائة وعشرون روبلاً ، فلن تضن على ابنها رودنكا باخراجه من المأزق ولو اضطرها ذلك الى حرمان نفسها من الطعام ، ولأن هناك أختاً حنوناً سوف ترضى بأن تبيع نفسها عبدةً في سبيل انقاذ أخيها الحبيب . على هذا اعتمد الرجل . ما بالك تضطرب هذا الاضطراب ؟ هأنت ذا ترى يا صاحبي أنني أعرف الآن قصتك ، أعرفها من ألفها الى يائها . لم يذهب سدى ما أفضيت به الى باشنكا من مسارّات حين كنت ما تزال تعد نفسك ... ولئن كنت أقول لك هذا الكلام ، فلأنني صديقك . اسمع اذن ما حدث : حين يسترسل الانسان الشريف الحسّاس في مسارّات حميمة ، فان رجل الأعمال يجلس الى منضدته وينهمك في الحساب ليخرج بمنفعة . وهكذا تنازلت باشنكا عن السند لتشيباروف ، فلم يتورع تشيباروف هذا عن المطالبة بقيمة السند . وحين علمت أنا بهذا كله ، أردت أن أتدخل في الأمر فأرسل سائلي الكهربائي اليه هو أيضاً . ولكن الانسجام قام بيني وبين باشنكا أثناء ذلك ، فأوقفت القضية كلها ، وقضيت عليها في مهدها ، اذ كفلت أن تدفع المبلغ . لقد أصبحت كفيلك يا صاحبي ، هل تسمع ؟ واستدعينا تشيباروف ، فدسسنا في فمه عشرة روبلات ، فرد السند الذي يشرفني ، يا سيدي ، أن أقدمه

اليك . لن تطالب بعد الآن بسند ، بل ستُصدّق على عهد الشرف وحده. خذ السند . هلاّ أخذت السند ؟ لقد مزقته قليلاً ، كما يجب أن أفعل ...

وضع رازوميخين السند على المائدة . فألقى راسكولنيكوف عليه نظرة سريعة ، ثم التفت الى جهة الحائط دون أن يقول شيئاً ؛ فاستاء رازوميخين من ذلك ، وقال بعد دقيقة :

ـ أرى يا صاحبي أنني كنت غبياً مرة أخرى . لقد ظننت أنني بثرثراتي سأسرّي عنك وأسلّيك ، وهأنذا ألاحظ الآن أنني لم أزد على أن حركت غضبك !

ـ أأنت الشخص الذي كنت أثناء هذياني لا أتعرفه ؟

كذلك سأله راسكولنيكوف بعد أن صمت خلال دقيقة هو أيضاً ، ودون أن يلتفت اليه . فأجاب رازوميخين :

ـ نعم أنا ، حتى ان حضوري قد سبب لك بعض النوبات ، ولاسيما حين جئت اليك بزاميوتوف .

فالتفت راسكولنيكوف فجأة بعنف ، وحدّق الى رازوميخين سائلا :

ـ زاميوتوف ؟ سكرتير مفوض الشرطة ؟

ـ ولكن ماذا دهاك ؟ لماذا تضطرب هذا الاضطراب ؟ لقد أراد أن يتعرف اليك ... وانما أراد ذلك لأننا تحدثنا عنك كثيراً . وكيف كان يمكنني ، لولاه ، أن أعرف هذه الأشياء كلها عنك ؟ انه رجل شهم ، رائع ... في نوعه طبعاً . ونحن الآن صديقان ، نلتقي كل يوم تقريباً . ذلك أنني سكنت في مكان قريب . ألم تعرف ذلك بعد ؟ نعم ،

انتقلت منذ برهة وجيزة . وقد ذهبنا معاً الى لويزا مرتين أو ثلاث مرات . أتتذكر لويزا ايفانوفنا ؟

ـ هل كنت أهذي ؟

ـ أظن ذلك ! كنتَ غيرَ نفسك !

ـ وماذا كنتُ أقول ؟

ـ ماذا كنتَ تقول ؟ هه ... معروف ماذا يمكن أن يقول رجلٌ يهذي . والآن ، يا صاحبي ، لم يبق لنا وقت نضيعه . الى العمل !

ـ ماذا كنتُ أقول !

ـ ما باله يصر ؟ أتراه يخشى أن يكون قد فضح سراً من الأسرار ؟ لا تقلق اذن . لم يُفلِت منك كلام في حق السيدة الكونتيسة . ولكنك تكلمت كثيراً عن كلب حراسة من نوع « البولدوج » ، وتكلمت عن أقراط أذن ، وعن سلاسل ذهبية ، وعن جزيرة كريستوفسكي ، وعن بوابٍ ما ، وتكلمت أيضاً عن نيكوديم فومتش وايليا بتروفتش مساعد مفوَّض الشرطة . ثم انك يا سيدي قد اهتممت اهتماماً عظيماً بجوربك، فكنت تنتحب قائلاً : « أعطوني جوربي. اسرعوا. اعطوني جوربي ! ». فبادر زاميوتوف بنفسه يبحث لك عنه في كل ركن من الأركان ، حتى اذا وجده ، حتى اذا وجد تلك القاذورة حملها اليك بيديه ، بيديه البيضاوين المعطَّرتين المجللتين بالخواتم . عندئذ هدأ روعك ، ثم ظللت قابضاً بيديك على تلك القاذورة أربعاً وعشرين ساعة ، لا يستطيع أحد أن ينتزعها منك . لا بد أنها ما تزال في مكان ما تحت غطائك ! وكنت تطالب أيضاً بقصاصات سروالك ، حتى لقد كنت تبكي وأنت تطالب بتلك القصاصات . تساءلنا أية قصاصات تعني ، ولكن كان الأفضل أن لانحاول أن تفهم . والآن كفى كلاماً ، ولنبادر الى العمل . هذه خمسة وثلاثين

روبلاً . انني آخذ منها عشرة ، وسأعود اليك بالحساب بعد ساعتين . وفي أثناء هذا الوقت أكون قد أبلغت زوسيموف ، الذي كان ينبغي أن يكون هنا منذ مدة طويلة ، لأن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة . وأنت يا ناستاسيا ، هل لك أن تعنى به اثناء غيابي ! أعطيه ما يشربه ، أو أعطيه شيئاً آخر اذا هو رغب في ذلك . أما باشنكا فسوف أقول لها فوراً مايجب عمله . الى اللقاء !

قالت ناستاسيا منذ خرج :

ــ انه يدعوها باشنكا ! آه ! يا للماكر !

ثم فتحت الباب وأصاخت بسمعها ، ثم لم تطق صبراً فهرولت تهبط . انها تحترق سوقاً الى معرفة ما قد يقوله رازوميخين لمولاتها . وفي وسعنا أن نقول بوجه عام انها كانت مفتتنة برازوميخين افتتاناً واضحاً.

فما ان أغلقت وراءها الباب حتى رمى المريض غطاءه ، ووثب عن السرير كالمجنون . كانت قد انتظر خروجهما نافد الصبر الى حد الاحتراق والتشنج ، ليباشر العمل بأقصى سرعة . ولكن ما هو هذا العمل الذي يريد أن يقوم به ؟ ها هو ذا قد أصبح ، كأنما على عمد ، لا يعرف ماذا كان يريد أن يعمل !

« رباه ! قل لي شيئاً واحداً يا رب : أهم يعرفون أم هم لا يعرفون بعد ؟ أهم يعرفون منذ الآن كل شيء ولكنهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون شيئاً ؟ أكانوا يعبثون بي بينما أنا راقد هنا ؟ أتراهم سيدخلون عليّ فجأة ليقولوا انهم يعرفون كل شيء منذ مدة طويلة ، ولكنهم تظاهروا بالجهل عامدين ؟... ما العمل الآن ؟ هأناذا نسيت ما يجب أن أعمله ، كأنما على عمد ! هأناذا نسيته مع أنني كنت أتذكره منذ قليل ... » .

ظل راسكولنيكوف واقفاً في وسط الغرفة ينظر فيما حوله حائراً

حيرةً أليمة • ثم اقترب من الباب ، ففتحه وأخذ يتنصت ؛ ولكن ليس هذا ما كان يريد ان يعمله • وكأنه تذكر على حين فجأة ، فاذا هو يهرع نحو الركن ، حيث يوجد ثقب تحت ورق الجدار • أخذ يفتش هنالك باتنباه ، وادخل يده فى الثقب يتلمسه ، ولكن هذا ليس ما كان يريد أن يعمله أيضاً •• فاتجه عندئذ نحو المدفأة ، ففتحها ، ونبش رمادها ، فعثر على فصاصات السروال ومزق الجيب المنتزع كما كانت حين رماها فى هذا المكان • اذن لم ينظر أحد فى المدفأة • وعندئذ تذكر الجورب الذى جاء رازوميخين على ذكره منذ قليل • ان ما قاله رازوميخين صحيح • ان الجورب موجود تحت الغطاء فعلاً ، ولكنه بلغ من الاتساخ ومن الاهتراء بالحك أن زاميوتوف لا يمكن أن يكون قد لاحظ فيه شيئاً البتة •

« نعم ، زاميوتوف !••• قسم الشرطة ! ولكن لماذا استدعى الى قسم الشرطة ؟ أين كتاب الاستدعاء ؟ هوه ! اننى أخلط ! لقد استدعيت الى قسم الشرطة فى يوم ماضٍ ! وكنت حينذاك أدقق النظر فى الجورب. والآن ••• والآن ••• لقد كنت مريضاً ••• لماذا جاء زاميوتوف الى هنا ؟ لماذا أتى به رازوميخين الى بيتى ؟ » •

بهذا تمتم راسكولنيكوف مهدودَ القوى ، وهو يعود الى الجلوس على سريره • وتابع حديثه لنفسه :

« ماذا يجرى ؟ أأنا ما أزال أهذى أم أن هذا كله الآن واقع لا شأن له بأخيلة الهذيان ؟ يبدو لى أن هذا كله الآن واقع ••• آ ••• تذكرت : أهرب ، يجب أن أهرب بأقصى سرعة ، يجب أن أهرب حتماً • نعم ، ولكن الى أين ؟ وأين ثيابى ؟ لم يبق ثمة شك • لقد أخذوا ثيابى ••• لقد أخذوها عنى ! فهمت ! آ ••• هذا معطفى ••• لقد نسوه ! وهذا هو المال على المائدة ! الحمد لله ! وهذا هو السند ••• سآخذ المال وأهرب • سأستأجر بيتاً آخر ، ولن يعثروا علىَّ ! نعم ،

ولكن مكتب العنــاوين ••• آه ••• ســيكتشـفوننى ! ســيكتشـفنى رازوميخين ! الأفضل مع ذلك أن أهرب ••• ان أهرب الى مكان بعيد، الى أمريكا ، ثم أبصق عليهم ••• ويجب أن آخذ السند أيضاً ••• فقد ينفعنى هناك ••• ماذا آخذ أيضاً ؟ هم يعتقدون أننى مريض ! لا يخطر ببـالهم أن فى امكانى أن أمشى ••• هأ هأ هأ ! قرأت فى أعينهم أنهـم يعـرفون كل شىء ! المهم أن أسـتطيع الهبوط على السلم ! ولكن ماذا لو كانوا قد وضعوا حراساً يحرسون العمارة ! ماذا لو كان يوجد شرطة تحت ؟ ما هذا ؟ شـاى ؟ آ ••• ما تزال توجد بقيـة من بيرة ، نصف زجاجة ، باردة تماماً • » •

أمسك الزجاجة التى كان قد بقى فيها ما يملأ كأساً كبيرة ، فأفرغها فى جوفه دفعةً واحدة ، متلذذاً ، كأنما ليطفىء النار التى تحرق صدره. ولكن قبل أن تنقضى دقيقة واحدة ، كانت البيرة قد صعدت الى رأسه ، فاذا برعدة خفيفـة تسرى فى ظهره ، رعـدة توشك أن تكون لذيذة ، فاستلقى على سريره وسحب الغطاء يدثر به جسـمه • أخـذت أفكاره المحمومة المضطربة تغلى مزيداً من الغليان ، وسرعان ما اسـتولى عليـه نعاس لطيف• فاهتدى الى مكان رأسه على الوسادة متلذذاً ، وتدثر مزيداً من التدثر بالغطاء الرخص المحشو بالقطن الذى يقوم الآن مقام معطفه الممزق ، وزفر زفرة خفيفة ، ثم نام نوماً عميقاً مريحاً •

واستيقظ حين سمع أحداً يدخل عليـه ، ففتح حاجبيـه ، فرأى رازوميخين • كان رازوميخين قد فتح الباب واسعاً ، ووقف على العتبة متسائلاً أيدخل أم لا يدخل • أسرع راسكولنيكوف ينهض عن سريره جالساً ، ونظر الى صاحبه نظرة من يحاول أن يتذكر شيئاً ما •

قال رازوميخين :

ـ هه ••• أنت غير نائم ؟

ثم صرخ ينادى ناستاسيا فى السلّم قائلاً :

ـ ناستاسيا ، هاتى الصرة !

وعاد يقول لراسكولنيكوف :

ـ سأقدم اليك الحساب فوراً .

سأل راسكولنيكوف وهو يلقى على ما حوله نظرة قلقة :

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ يمكننا أن نقول ، أيها الأخ العزيز ، انك غير محروم من النوم. لقد حان المساء . لا بد أن الساعة غير بعيدة عن السادسة . معنى ذلك أنك نمت ست ساعات .

ـ ورباه ! كيف أمكن أن ...

ـ ماذا ؟ انك قد أحسنت صنعاً . ما أحسب أنك مستعجل ! ما أحسب أنك مرتبط بموعد ! أليس كذلك ؟ نحن نملك اذن كل وقتنا. اننى منذ ثلاث ساعات أنتظر أن تفيق من نومك . جئت اليك مرتين ، ولكنك كنت ما تزال نائماً. وقد ذهبت مرتين أيضاً الى زوسيموف. ولكننى لم أجده . لا ضير ! سوف يجىء ... ثم اننى قد تغيبت لأمور شخصية صغيرة . أنت تعلم أننى قد انتقلت اليوم من مسكنى ، انتقلت منه مع عمى ... ان لى عماً الآن . ولكن دعنا من هذا كله ... سحقاً لهذا كله ! هاتى الصرة يا ناستاسيا . سوف ... فوراً ... وكيف صحتك الآن يا صاحبى ؟

قال راسكولنيكوف :

ـ صحتى حسنة . أبللت من المرض . أأنت هنا منذ مدة طويلة ؟

ـ قلت لك اننى أنتظرك منذ ثلاث ساعات .

ـ نعم ، ولكن ... قبل ذلك ؟

ـ قبل ماذا ؟

ـ منذ متى تأتى الى هنا ؟

ـ ألم أقصص عليك ذلك ؟ ألا تتذكر ؟

شرد فكر راسكولنيكوف • ان ما جرى فى هذه الفترة يبدو له حلماً • كان عاجزاً عن أن يتذكر أى شىء بنفسه ، وألقى على رازوميخين نظرة مستفسرة •

قال رازوميخين :

ـ آ ••• اذن نسيت ! لقد أدركت فعلاً أنك لم تكن بخير حال• أما الآن فقد أحسن اليك النوم وشفاك • حقاً ان هيئتك الآن أفضل كثيراً مما كانت • مرحى ! الى العمل اذن ! وسوف تتذكر فوراً ! أنظر الى هنا ، أيها السيد العزيز !

وأخذ رازوميخين يفض صرته التى كان يبدو أنه يوليها أكبر اهتمام •

ـ نعم يا عزيزى ، هذا أمر يهمنى كثيراً ، ذلك أن علىّ أن أجملك رجلاً • هيا بنا ! لنبدأ من فوق •

ثم قال وهو يسحب من الصرة قبعة جميلة وان تكن من طراز عادى بخس الثمن :

ـ هل ترى هذه القبعة ؟ سأجربها عليك ، أتسمح بذلك ؟

قال راسكولنيكوف وهو يدفعه عنه بخشونة :

ـ لا الآن ••• بل وفى وقت آخر •••

ـ لا سبيل الى التملص يا صاحبى • لا تصر ! فى وقت آخر يكون الوقت قد فات • لن أنام الليل اذا لم أجرّبها عليك ، ذلك أننى اشتريتها كيفما اتفق ، دون أن أعرف قياس رأسك •

وألبسه القبعة ثم قال بلهجة المنتصر :

ـ انها تناسبك ... تناسبك كثيراً . لكأنها فصِّلت لك . لباس الرأس ياعزيزى أهم جزء من أجزاء اللباس ، فهو الذى يحدِّد مكانتك فى المجتمع . ان تولتسياكوف ، وهو صديق قديم لى ، يضطر الى خلع قبعته الرديئة كلما ظهر فى مكان عام يحتفظ فيه الآخرون بقبعاتهم على رءوسهم ، والناس يردون ذلك الى مشاعر الاحترام مع أن الأمر لا يعدو أنه أحسَّ بالخجل من قبعته الرديئة التى تشبه أن تكون عش عصفور . نعم ، تلك هى أسباب حياء هذا الرجل ! انظرى يا ناستاسيا ، انظرى الى هاتين القبعتين : انظرى الى قبعة بالمرستون هذه (قال ذلك ومضى يأتى من أحد الأركان بقبعة راسكولنيكوف المدوَّرة المشوَّهة ، التى لا يدرى أحد لماذا سمَّاها قبعة بالمرستون *) ، ثم انظرى الى هذه الآية من آيات فن صنع القبعات . واحزر كم دفعت ثمنها ؟ ما رأيك ؟ وما رأيك أنت يا ناستاسيا ؟ (لقد التفت رازوميخين الى الخادمة يسألها ، حين رأى راسكولنيكوف صامتاً لا يجيب) .

قالت ناستاسيا تجيب عن سؤاله :

ـ عشرين كوبكاً على الأقل !

فهتف يقول مستاءً :

ـ عشرين كوبكاً يا غبية ، يا حمقاء ؟ بعشرين كوبكاً لا يمكن شراؤك أنت فى هذه الأيام ! لقد دفعت ثمانين كوبكاً ، ولم يكن ثمنها قليلاً هذه القلة الا لأنها مستعملة . ثم اننى اشتريتها على شرط : ان فى وسعك أن تذهبى الى البائع فى السنة القادمة ، متى اهترأت هذه القبعة ، فاذا هو يُبدلها لك بقبعة جديدة مجاناً ، أحلف لك !... والآن هلموا الى الولايات المتحدة الأمريكية * ، كما كنا نسميها فى المدرسة . ولكننى

أنبِّهك قبل كل شيء الى أنني معتز جداً بهذا السروال (قال ذلك وبسط أمام راسكولنيكوف سروالاً رمادياً من نسيج صيفي خفيف) : لا ثقب فيه ، ولا بقعة ؟ هو اذن ، رغم أنه لُبس من قبل ، سروال جيد ؟ ناهيك عن الصديرة التي تناسبه على نحو ما توجب الموضة . أما أنه لُبس من قبل ، فتلك مزية ، فلقد أصبح بذلك أكثر ليونة وأشد مرونة . اسمع يا روديا : لكي ينجح المرء في الحياة ، يكفيه في رأيي أن يراعي الفصول: اذا لم تطالب بهليون في شهر كانون الثاني (يناير) ، فسيبقى لك دائماً بضعة روبلات في حافظة نقودك . نعم ، نحن الآن في منتصف فصل الصيف ، لذلك اشتريت سروالاً صيفياً . صحيح أنك ستحتاج في فصل الخريف الى قماش يضمن لك مزيداً من الدفء ، وسيكون عليك أن ترمي هذه الملابس ، لا سيما وأنها ستكون قد بليت ، بسبب اهمالك طبعاً ... ولكن فلنعد الى سؤالنا : احزر كم دفعت ثمن هذا السروال! روبلين وخمسة وعشرين كوبكاً ! لاحظ أنني اشتريته على ذلك الشرط نفسه الذي اشترطته في شراء القبعة : ان من حقك أن تستبدل به سروالاً بالمجان متى اهترأ . فعلى هذا النحو انما تتم الصفقات في دكان فديايف : يدفع المشتري مرة واحدة الى الأبد ، لأنه لن يضع قدميه مرة أخرى في هذا الدكان قط . ولننتقل الآن الى الحذاءين . كيف تجدهما ؟ واضح أنهما مستعملان ، ولكنهما ما يزالان يصلحان خلال شهرين ، فهذه بضاعة أجنبية : ان سكرتير سفارة انجلترا قد باعهما في الأسبوع الماضي. لم يكن قد انتعلهما الا ستة أيام ، ولكنه كان في حاجة ماسة الى المال . الثمن : روبل وخمسون كوبيكاً . صفقة رابحة ، أليس كذلك ؟

قالت ناستاسيا :

ـ ولكنهما قد لا يكونان على قياس قدميه !

ـ قد لا يكونان على قياس قدميه ؟ فما هذا الذي أخذته معي اذن ؟

قال رازوميخين ذلك واستل من جيبه حذاءً قديماً مهترئاً منقباً هو أحد أحذية راسكولنيكوف • ثم أردف :

ـ لقد اتخذت الاحتياطات اللازمة ! ماذا تظنين ؟ عرفنا قياس قدميه من قياس هذا الحذاء العجيب ! نعم لقد جرت الأمور كلها بدقة تامة وعناية محكمـة • أما الملابس الداخلية فقد تفاهمت بشأنها مع صاحبة البيت • اليك مؤقتاً ثلاثة قمصـان من نسيج سـميك ، ولكن صدرها على آخر موضـة • لنحسب الآن التكاليف كلها • قبعة : ثمانون كوبكـاً ؛ ملابس أخرى : روبلان وخمسة وعشرون كوبكاً ؛ المجمـوع : ثلاثة روبلات وخمسة كوبكات ، الحذاءان : روبل وخمسـون كوبكاً ، لأنهما فى حالة جيدة جداً • المجموع : أربع روبلات وخمسة وخمسون كوبكاً ، الملابس الداخلية ، جملةً واحدة ، خمسة روبلات • الباقى : خمسة وخمسـون كوبكاً ، نقوداً نحاسية من فئـة الكوبك • اليك هى • خـذها • هكذا يا روديـا تكون قد « تهنـدمت » الآن ، لأن معطفـك ما يزال قـابلاً للاستعمال ، حتى انه لا يخلو من ••• وجاهة • أرأيت قيمة اختيار المرء ملابسه من محلات شارمر ! * أما الجوارب وما الى ذلك ، فانني أترك لك أمر الاهتمام بها • وأما المال فما زلنا نملك منه خمسة وعشرين روبلاً • وليس عليك بعد الآن أن يقلقك أجر المسكن • ان باشنكا ستمهلك امهالاً غير محدود ، كما قلت لك • والآن يا عزيزى ، سوف تبدّل قميصك ، لأننى لا استغرب أن يكون مرضك كله قد تسلل اليك من هنا ••

قال راسكولنيكوف بعد أن استمع مشمئزاً الى الكلام المرح الذى تدفق من فم رازوميخين :

ـ دعنى ! لا أريد !

قال رازوميخين مصراً :

ـ لا مناص يا عزيزى ! لن يقول أحد اننى أبليت حذاءىّ فى غير طائل !

ثم التفت يقول لناستاسيا :

ـ هلمى يا ناستاسينكا ! لا تستحى ! ساعدينى ! نعم ... هكذا ..

استطاع رازوميخين وناستاسيا أن يبدّلا قميص راسكولنيكوف ، رغم المقاومة التى أبداها . وعاد راسكولنيكوف يتهالك على وسادته ، ولزم الصمت خلال دقيقتين قائلاً لنفسه : « سيلبثان مدة طويلة لايتركانى وشأنى » ثم سأل وهو ينظر الى الجدار :

ـ بأى مال اشتريتَ هذه الأشياء كلها ؟

فأجابه رازوميخين متعجباً :

ـ بأى مال ؟ عجيب ! بمالك أنت . لقد جاء الى هنا مستخدمٌ من عند فاخروشين يحمل اليك مالاً أرسلته أمك . ألا تذكر ؟

قال راسكولنيكوف بعد تفكير طويل شاق :

ـ نعم ، الآن تذكرت !

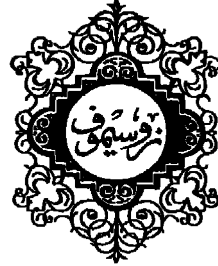
فتأمله رازوميخين مقطباً قلقاً .

وفُتح الباب ، ودخل رجل طويل القامة قوى البنية . أحسّ راسكولنيكوف أنه سبق أن رأى هذا الرجل .

هتف رازوميخين يقول فرحاً كل الفرح :

ـ زوسيموف ! أخيراً وصل !

الفصل الرابع



رجل طويل القامة ، سمين الجسم ، ممتلىء الوجه ، شاحب اللون ، حليق اللحية ، يوشك شعره أن يكون من فرط شقرته أبيض ، وهو ينتصب على رأسه قائماً . على عينيه نظارتان ، وفى احدى أصابعه المنتفخة خاتم من ذهب . انه فى السابعة والعشرين من عمره . فاذا نظرت الى معطفه الأنيق الواسع المصنوع من نسيج صوفى خفيف ، والى سرواله الصيفى الفاتح اللون، أدركت أنه واحد من أولئك الرجال الذين يُعنون بحسن أناقتهم وجمال هندامهم أشدّ العناية . ان قميصه الناصع البياض يتألق تألقاً باهراً ، وان صُديرته تزدان بسلسلة كبيرة من ذهب خالص . أما حركاته فهى تظل بطيئةً بعض البطء ، ثقيلةً بعض الثقل ، رغم ما يصطنعه فى مشيته من انطلاق . هذا الى أن الادعاء يظهر فيه واضحاً كل الوضوح ، رغم جميع الجهود التى يبذلها لاخفائه . ان كل الذين عرفوه قد لاحظوا أنه رجل صعب المراس شديد الطبع ، ولكنهم يجمعون على أنه يعرف مهنته معرفةً طيبة .

هتف رازوميخين يقول له :

ــ لقد ذهبت اليك مرتين يا صاحبى ! ها هو ذا قد أفاق من غيبوبته كما ترى .

قال زوسيموف :

ـ نعم ! نعم !ه

ثم أردف يسأل راسكولنيكوف وهو يتفرس فيه ويجلس عند قدميه على طرف السرير بغير مبالاة أو تحرج :

ـ هيه ! كيف حالنا الآن ؟

قال رازوميخين :

ـ ما يزال مكتئب المزاج ، ولقد كاد يبكي منذ قليل حين بدّلنا له قميصه !

ـ هذا طبيعي !... كان يمكنكم أن ترجئوا ذلك الى حين آخر ما دام يضايقه ... النبض جيد . أما زلتَ تشعر بشيء من صداع في رأسك ؟

قال راسكولنيكوف حانقاً مصراً :

ـ لا ! صحتي حسنة !

وكان راسكولنيكوف قد نهض على سريره ملتمع العينين متقد النظرات . ولكنه لم يلبث أن تهاوى على الوسادة والتفت نحو الحائط . وكان زوسيموف يراقب باتنباه فقال بلهجة متثاقلة :

ـ كل شيء على ما يرام . هل أكل شيئاً ؟

ذُكر له ماذا أكل المريض ثم سُئل عما يمكن أن يأكله . قال الطبيب :

ـ يمكن اطعامه كل شيء ! حساء ، شاي ... ولكن لا فطر ، ولا قثاء طبعاً . وقد لا يناسبه لحم البقر ايضاً . ولكن علام هذا الكلام كله ؟ (وتبادل نظرةً مع رازوميخين) . ولا حاجة الى الدواء بعد

الآن ، لا حاجة الى شيء بعد الآن . غداً أرى ... على أننا نستطيع منذ اليوم في الواقع أن ...

قال رازوميخين :

ــ سأصطحبه مساء غدٍ في نزهة . نذهب أولاً الى حديقة يوسوبوف ، ثم نذهب بعد ذلك الى « قصر الكريستال » * .

ــ لو كنت في مكانك لتركته غداً حيث هو . قد أخرج معه لحظة قصيرة ... على كل حال سوف نرى .

ــ خسارة ... ذلك أنني أحتفل اليوم بانتقالي الى المسكن الجديد الذي يقع على بعد خطوتين من هنا . ليته يستطيع أن يشاركنا ، ولو راقداً على أريكته ! أما أنت فسوف تجيء ، أليس كذلك ؟ (قال رازوميخين هذا متجهاً بالكلام فجأة الى زوسيموف) . لن تنسى ، هه ؟ هل تعلم ما الذي وعدتني به ؟

أجاب زوسيموف !

ــ قد أجيء ، ولكنني اذا جئت فسأجيء متأخراً . ماذا أعددت للحفلة ؟

ــ لم أهيء أشياء كثيرة ! شاي ، فودكا ، سمك مجفف ، فطائر أيضا . ليس بيننا تكليف . نحن أسرة واحدة .

ــ نحن ؟ من تقصد ؟

ــ رفاق ، شباب ، اكثرهم لا أعرفه من قبل . وسيحضر الاحتفال عمٌ لي جاء الى بطرسبرج لأعمال ، ولا أراه الا مرةً واحدة كل خمس سنين .

ــ ما هو عمك هذا ؟

ــ سلخ حياته كلها في مقاطعة نائية مديراً لمركز بريد ... وقد

أحيل على التقاعد فهو يتقاضى معاشاً صغيراً • عمره خمسة وستون سنة•• ما حاجتنا الى الكلام عنه ؟ على أننى أحبه فى الواقع • سيجىء بورفير سيميوفتش أيضاً ، قاضى التحقيق فى الحى • انه متخرج من « مدرسة القانون الامبراطورية » * • ولكنك تعرفه •••

ـ هل يمت اليك بقرابة أيضاً ؟

ـ قرابة بعيدة جداً ! ولكن لماذا أراك تستاء ؟ آمل أن لا تحملك المشاجرة التى وقعت بينك وبينه ذات يوم على أن تظن أنك معفى من حضور الحفلة •••

ـ هوه ! أنا لا اكترث به •

ـ أحسن ، أحسن • وهكذا ستضم الحفلة طلاباً ، واستاذاً ، وموظفاً ، وموسيقياً ، وضابطاً هو زاميوتوف •••

ـ قل لى : ما الذى يمكن أن يجمع بينك أو قل بينه (هنا أومأ زوسيموف باشارة من رأسه الى راسكولنيكوف) وبين رجل مثل زاميوتوف ؟

ـ يا لهؤلاء المتعبين ! المبادىء طبعاً ! يميناً انك جالس على المبادىء كجلوسك على خازوق فلست تجرؤ أن تقوم بحركة واحدة على ما يشاء لك هواك • أما أنا ففى رأيى أن الانسان الطيب الخَيِّر هو فى ذاته مبدأ من المبادىء • وزاميوتوف رجل رائع فى نظرى •

ـ هو على كل حال رجل يعرف معرفةً رائعة كيف يلعب على حبلين وكيف يجنى ربحاً من طرفين •

صاح رازوميخين وقد ازدادت حماسته ازدياداً شديداً :

ـ ما شأنى أنا وهذا ؟ هل قلت لك اننى أؤيده فى اللعب على حبلين وفى جنى الربح من طرفين ؟ ان كل ما قلته لك هو أنه فى نوعه انسان

جيد • ولو نظرنا الى جميع أنواع البشر لحق لنا أن نتساءل من هم أولئك الذين يصمدون فى الواقع للامتحان ويبرهنون على أنهم أخيار طيبون ! انني لعلى يقين من أنني أنا نفسي لا أستحق أن أُشترى ببصلة ، ولو أضفت أنتَ اليَّ •

ـ أنت تبالغ ! انا مستعد لأن اشتريك ببصلتين اثنتين !

ـ أما أنا فلا اشتريك الا ببصلة واحدة • ها ••• انك تستطيع أن تكون فكهاً ! ثم ان زاميوتوف ما يزال صبياً صغيراً • ولسوف تأتي مناسبات أشدُّ فيها أذنيه ، ولكن يجب عليَّ بانتظار ذلك أن أداريه لا أن أصده • لا سبيل الى اصلاح انسان بسوء المعاملة ، ولا سيما اذا كان صبياً ، فانما يجب على المرء أن يمكر مزيداً من المكر حين يُعامل صبياً صغيراً • ولكنكم ، معشر التقدميين المتصلبين ، لا تفهمون من هذا الأمر شيئاً ، ولا تحترمون الطبيعة الانسانية • وانتم حين لا تحترمون الطبيعة الانسانية انما تسيئون الى أنفسكم • واذا كنت تحرص على أن تعرف كل شيء ، فاعلم أن لنا ، أنا وهو ، قضيةً مشتركة •

ـ هل يمكننا أن نسألك عن هذه القضية المشتركة ، ما هي ؟••

ـ هي قضية ذلك الدهَّان نفسه • نعم ، سوف ننقذه من تلك الورطة ! على أنه أصبح الآن غير معرَّضٍ لأي خطر • لقد أصبحت القضية الآن واضحة ، واضحة جداً • وكل ما يقع على عاتقنا هو أن ندفعها الى نهايتها بسرعة •

ـ من ذلك الدهان ؟

ـ كيف ؟ ألم أقصص عليك القصة ؟ ها ••• فعلاً ••• أنا لم أقصص عليك الا البداية ••• ان قاتل العجوز المرابية ، أرملة الموظف ••• أقصد ••• ان الدهان اصبح الآن مقحماً في هذه القضية •

ـ سمعت عن جريمـة القتل هذه من قبل ••• حتى لقد اهتممت بها بعض الاهتمام ••• نعم ، وقرأت أيضاً ما تقوله عنها الصحف و •••

ـ وقد قُتلت اليزابث أيضاً !

بذلك نطقت ناستاسـيا على حين فجـأة ، متجهـةً بالـكلام الى راسكولنيكوف • كانت قد بقيت فى الغرفة طوال ذلك الوقت ، مستندةً الى الباب ، تتابع الحديث •

تمتم راسكولنيكوف يقول بصوت لا يكاد يسمع !

ـ اليزابث ؟

قالت ناستاسيا :

ـ نعم اليزابث ، السمسـارة • كانت تجيء الى هنا ، تحت ، حتى لقد رقّعت لك قميصاً •

التفت راسكولنيكوف نحو الحائط ، حيث تتناثر على الورق الأصفر الوسخ رسوم أزهار صغيرة بيضاء ، فاختار من هذه الأزهار زهرةً مخططةً بلون رمادى ومرسومةً رسـماً رديئاً ، فأخذ يتأملها محاولاً أن يحصى عدد تويجاتها وعدد الأسنان فى حافات أوراقها • وشعر بأعضائه تتخدَّر، حتى بدا له أنها ليست أعضاءه ، ولكنه لم يحاول أن يتحرك ، وظل ينظر الى الزهرة الصغيرة مصراً معانداً •

قال زوسيموف يسأل رازوميخين مقاطعاً ثرثرة ناستاسيا باسـتياء واضح :

ـ طيب ، فماذا وقع لذلك الدهَّان ؟

فتابع رازوميخين حديثه قائلاً بحرارة :

ـ لقد أقحم هو أيضاً فى جريمة القتل •

ـ هل هناك قرائن ؟ وما هى تلك القرائن ؟

ـ قرائن ؟ هنـاك قرائن ! والأمر فى الواقع أمر قرائن ! غـير أن القرينة التى يستشهدون بها ليست قرينة ، وذلك ما يجب البرهان عليه !.. المسألة بسيطة : لقد أخذوا يكررون تلك الحماقات نفسها التى ارتكبوها حين اشتبهوا فى الرجلين الآخـرين فاعتقلوهما ... أقصـد : كوخ وبسـترياكوف ! نعم لقـد كرروا تلك الحمـاقات نفسـها نقطةً نقطة . ما أغبى تصرفهم يا رب ! ان المرء ليشعر بالخزى والعار من هذا التصرف، ولو لم يكن له به شـأن ! قد يجىء الىَّ بسـترياكوف اليـوم !... بالمناسبة يا روديا : عليك أن تعرف هذه القصة لأنها وقعت قبيل مرضك، تماماً عشـية اليوم الذى أغمى عليك فيه بقسم الشرطة ... بينما كانوا يتحدثون فى هذا الأمر هناك .

نظر زوسـيموف الى راسـكولنيكوف مستطلعاً ، فلم يحـرك راسكولنيكوف ساكناً .

قال زوسيموف غامزاً :

ـ أرى يا رازوميخين أنك تسرف فى الحركة حول هذه القضـية حقاً !

فأجاب رازوميخين صارخاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

ـ لا ضير ! سننقذه من تلك الورطة على أية حال ! ان الأمر الذى يغيظنى فى هذا كله أكثر مما يغيظنى أى شىء آخر ليس وقوعهم فى الخطأ، فالوقوع فى الخطأ يمكن التسـامح فيه دائمـاً ، حتى ان الخطأ شىء رائع فعلاً لأنه يؤدى الى الحقيقة . ليس الخطأ اذن هو الذى يغيظنى منهم ، وانما يغيظنى منهم انهم يظلون ممتلئين احتراماً للأخطاء التى يقعون فيها. اننى أعتبر بورفير ، ولكن ... اسمع ، هل تعـرف مثـلاً ما هو الذى حيَّرهم وأضلَّهم فى أول الأمر ؟ أن البـاب كان مغلقـاً ، فلمـا عـاد

الرجلان مع البواب كان الباب مفتوحاً ، فاستنتجوا من ذلك أن كوخ وبستريا كوف هما القاتلان ! أرأيت الى هذا المنطق ما أعجبه !

ـ لا تتحمس هذا التحمس كله : لقد أوقفوهما فحسب .. لم يكن في وسعهم على كل حال أن ... بالمناسبة : لقد أتيح لي أن أقابل كوخ. يظهر أنه كان يشترى من العجوز الأشياء المرهونة التي تخلف أصحابها عن تجديد رهنها في الموعد المحدّد . أليس هذا صحيحاً ؟

ـ بلى ، بلى ، انه وغد حقير ! وهو يشترى سندات أيضاً . هو وغد حقير ، هو محتال خطير ... شيطان يأخذه ! ولكن ليس هذا ما يثير غضبي وحنقي ، وانما يثير حنقي وغضبي أنهم يتبعون روتيناً عتيقاً بالياً تراكم عليه الغبار من تقادم العهد . ان هذا الروتين هو الذي يثير سخطي ! وما أسهل أن يكتشف المرء ، في معالجة هذه القضية ، طرقاً جديدة كل الجدة ! ان في وسعنا ، اذا نحن اعتمدنا على علم النفس وحده ، أن نجد السبيل الى معرفة الحقيقة. هم يقولون : «لدينا وقائع». ولكن الوقائع ليست كل شيء ، ونصف القضية انما يكمن في طريقة تأويل هذه الوقائع ...

ـ وهل تستطيع تأويلها ، أنت ؟

ـ عجيب أمركِ ! ان المرء لا يمكنه أن يسكت حين يحس ، حين يحس بغريزته أن في وسعه تقديم خدمة اذا هو ... هل تعرف القضية تفصيلاً ؟

ـ أعرفها جيداً . ولكنني ما زلت أنتظر أن تقص عليّ حكاية الدهان .

ـ سأقص عليك حكايته . اسمع : غداة وقوع الجريمة تماماً ، في الصباح ، حين كانوا يدققون في استجواب كوخ وبستريا كوف ـ مع

أن هذين الرجلين كانا قد ذكرا جميع حركاتهما وسكناتهما، ورغم أن كل شيء قد اتضح اتضاحاً صارخاً ـ حدث على حين فجأة حادثٌ لم يكن متوقعاً على الاطلاق : ان فلاحاً اسمه دوشكين ، وهو صاحب خمارة تقع أمام العمارة التي وقعت فيها الجريمة ، جاء الى قسم الشرطة حاملاً علبة مجوهرات فيها قرطان ، وأخذ يروي قصةً عجيبة ، قال :

« أمس الأول ، في المساء ، بعد الساعة الثامنة بقليل ، (لاحظ الوقت : اليوم والساعة) رأيت الدهان نيقولا يهرع الى خمارتي ، وكان قد ارتادها مراراً قبل ذلك ، حاملاً اليَّ علبة صغيرة فيها قرطان ذهبيان يزدانان بأحجار صغيرة ، راجياً أن أرهنهما لديَّ لقاء قرض قيمته روبلان . فلما استجوبته لأعرف من أين أتى بالقرطين ، قال انه عثر بهما على رصيف ، فلم أسأله غير ذلك (ان دوشكين هو الذي يتكلم) ، ونقدته ورقة صغيرة أي روبلاً واحداً ، لأنني قلت لنفسي : اذا لم يرهن هذين القرطين عندي ليشرب بالقرض خمرة ، فسيرهنهما عند غيري ، فالأولى أن يبقيا بين يديَّ أنا : فبذلك أضمن على الأقل أن لا يطوفا العالم كله ، فاذا راجت اشاعة تقول انهما مسروقان ، مضيت الى قسم الشرطة لأبلغ عنهما » .

تابع رازوميخين كلامه فقال معقباً :

ـ واضح أن هذه القصة التي رواها دوشكين سخيفة . وأنا أعرف دوشكين هذا : انه كذاب كبير . انه ، هو نفسه ، يقرض برهن . فلئن أخذ من نيقولا شيئاً تساوي قيمته ثلاثين روبلاً فانه لم يفعل ذلك من أجل أن يبلغ عنه . كل ما هنالك أنه خاف . ودعنا من دوشكين هذا على كل حال . واسمع التتمة . قال دوشكين :

« أما ذلك الفلاح ، نيقولا ديمانتيف ، فانني أعرفه منذ زمن بعيد ،

فنحن كلانا من اقليم واحد هو اقليم ريازان (مقاطعة زارابسك) ؟ وهو يحب أن يشرب قليلاً ، وان لم يكن سكيراً مدمناً . وكنا نعلم أيضاً أنه كان يعمل ، أنه كان يدهن الجدران ، في ذلك المنزل ، مع دمترى ، ابن بلده . فلما نقدته ورقة الروبل ، بدّلها فوراً ، وشرب كأسين ، واحداً بعد آخر ، ثم تناول النقود الفائضة وانصرف . ولم أر دمترى معه فيتلك اللحظة . وفي الغد ، سمعنا أن آليونا ايفانوفنا وأختها اليزابث ايفانوفنا قد وُجدتا مقتولتين بضربات ساطور ؟ ولما كنا نعرفهما كلتيهما ، فقد راودني شك في أمر القرطين الذهبيين ، لأننا ، كما سبق أن قلت ، كنا نعرفهما ونعرف انهما تقرضان على رهون . عندئذ ذهبت الى العمارة ، وأخذت أتقصى الأمر قليلاً . سألت أولاً عن نيكولا أهو موجود ، فقال لى دمترى انه غائب يقصف ويلهو ، وانه قد عاد ثملاً في أول الصباح فلم يمكث الا عشر دقائق ، ثم خرج من جديد ؟ وعرفت أن ميتكا لم يره بعد ذلك ، وأنه طفق يتم عمله وحيداً . والبيت الذى كانا يدهنانه انما يقع في الطابق الأول ، ويطل على نفس السلّم الذى يطل عليه بيت المرأتين الشقيتين . عرفنا هذا كله ، ولكننا لم نقل عندئذ شيئاً لأحد .

(ان دوشكين هو الذى ما يزال يتكلم) . غير أننا أسرعنا نجمع كافة المعلومات التى يمكن جمعها عن جريمة القتل ، ورجعنا الى بيتنا وقد امتلأت نفوسنا ريبة واشتباهاً . وفي هذا الصباح ، في الساعة الثامنة من هذا الصباح (أى غداة غد وقوع الجريمة) ، رأيت نيقولا داخلاً على الخمارة . لا أستطيع أن أقول انه لم يكن قد شرب خمراً بعد ، ولكنني لا أستطيع أن أقول أيضاً انه كان ثملاً جداً ، وانما كان قادراً على متابعة حديث . وجلس على دكة دون أن ينطق بكلمة . ولم يكن يوجد في الخمارة عندئذ الا هو وشخص آخر عابر ، وشخص ثالث من رواد

الحمارة كان نائماً على دكة ؛ هذا عدا الصبيين اللذين يعملان فى الحمارة طبعاً . سألت نيقولا :

« ـ هل رأيت ميتكا ؟

« فأجابنى :

« ـ لا ، لم أره منذ أمس الأول .

« ـ وأين نمت فى هذه الليلة ؟

« ـ فى حىّ « الرمال » * ، عند أهل كولومنا * .

« ـ ومن أين جئت بالقرطين فى ذلك اليوم ؟

« ـ عثرت بهما على الرصيف .

« وكان يقول ذلك كله مشيحاً بوجهه عنى . سألته :

« ـ هل سمعت عن حدوث كذا وكذا ، فى ذلك المساء نفسه ، فى تلك الساعة نفسها ؟

« فأجابنى :

« ـ لا ، لم أسمع عن شىء من هذا !

« ولكنه حملق ، وابيضّ لونه حتى صار كالطباشير . وفيما أنا أروى له ما حدث ، رأيته يتناول طاقيته فجأة ، وينهض . حاولت أن أحبسه عن الخروج ، فقلت له :

« ـ انتظر يا نيقولا ! ألا تريد أن تشرب كأساً ؟

« وأومأت الى أحد االصبيين أن يسدّ عليه الطريق ، وتركت البسطة . لكن صاحبنا نيقولا ولىّ هارباً ، فهو الآن ينعطف عند ناصية الشارع ، حتى اننى لم أكد أراه . لم يبق اذن شك : انه هو الذى ارتكب تلك الجريمة ! » .

قال زوسيموف :

ــ واضح !

قال رازوميخين :

ــ انتظر ! اسمع التتمة ! مضت الشرطة كلها تبحث عن نيقولا طبعاً : فتشوا خمارة دوشكين ، ثم أوقفوا دوشكين ، وأوقفوا دمترى أيضاً ، وقلبوا كل شيء عاليه سافله عند أهل كولومنا ، ثم لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على نيقولا الا بعد ثلاثة أيام ، أى أمس الأول . قبضوا عليه في فندق قرب حاجز « س ... » . يظهر أنه حين وصل الى هناك استل صليبه الفضى ، وطلب مقايضة هذا الصليب بزجاجة فودكا صغيرة ، فأُجيب طلبه . وبعد بضع دقائق دخلت امرأة طيبة الى الاسطبل ، فاليك ما رأته من شق الباب : رأت نيقولا فى جانب من محطة العربات ، قد ربط حزامه بوتد وجعل فيه عقدة منزلقة ، وصعد على قطعة غليظة من خشب يريد أن ينتحر شنقاً . خطرت ببال المرأة هذه الفكرة الموفقة ، وهى أن تصرخ ، فصرخت ، فهرع الناس الى المكان ، وقالوا له :

« ــ آ ... أهكذا أنت اذن ؟

« فقال لهم :

« ــ نعم ... خذونى الى قسم الشرطة فى حىّ كذا ، وسأعترف هنالك بكل شيء !

فاقتادوه محاطاً بكل ما يجب لشخصه الكريم من احترام ، اقتادوه الى قسم الشرطة الذى حدّده ، أى الى قسم الشرطة فى حيّنا ، فسرعان ما بدأت الأسئلة تنهمر عليه انهمار المطر : كيف ، وماذا ، ولماذا ، وأين ، وما سنُّك ، وهلمّ جرا !... سؤال :

« ـ بينما كنت تعمل مع دمترى ، ألم تَرَ أحداً على السلّم فى ساعة كذا ؟

« ـ مرّ أناس كثيرون طبعاً ، ولكن ليست مهمتى أن ألاحظهم ..

« ـ أفلم تسمع شيئاً ما ، أفلم تسمع ضجةً ما ؟

« ـ لا ، لم أسمع شيئاً يلفت الانتباه !

« ـ وأنت يا نيقولا ، هل كنت تعلم فى ذلك اليوم أن العجوز فلانة قد قُتلت وسُرقت هى وأختها ، يوم كذا ، ساعة كذا ؟

« ـ لا علمت شيئاً ، ولا رأيت شيئاً . علمت بالأمر أول مرة من آتانازى منذ يومين ، فى الكاباريه .

« ومن أين جئت بالقرطين ؟

« ـ عثرت بهما على الرصيف .

« ـ لماذا لم تجىء الى العمل مع دمترى غداة ذلك اليوم ؟

« ـ لأننى قصفت ولهوت فى ذلك اليوم .

« ـ أين قصفت ولهوت ؟

« ـ فى مكان كذا .

« ـ لماذا هربت من عند دوشكين ؟

« ـ لأننى خفت .

« ـ من أى شىء خفت ؟

« ـ خفت أن أحال الى المحاكمة .

« ـ ولكن كيف يمكن أن تخاف من أمر كهذا ، ما دمت تعرف أنك لم تقارف جرماً ؟

وعقّب رازوميخين على ذلك بقوله :

ـ نعم يا زوسيموف ، بهذه الكلمات انما أُلقى عليه هذا السؤال ، بهذه الكلمات نفسها ، صدَّقت أم لم تصدّق ! نعم ، بهذه الكلمات نفسها ... أنا أعلم ذلك علم اليقين ؛ لقد نُقل الىَّ السؤال بنصه ، كلمةً كلمة . ما رأيك ؟ ما رأيك ؟

ـ نعم ، نعم ، ولكن هناك قرائن على كل حال ...

ـ لا أتكلم الآن عن القرائن ، وانما أتكلم عن السؤال الذى ألقوه عليه ، أتكلم عن طريقة هؤلاء الناس فى فهم مهنتهم . ولكن دعنا من هذا الآن ، ولنكمل وصف ما جرى بينهم وبين نيقولا . ضيقوا عليه الخناق ، ثم ضيقوا عليه الخناق مزيداً من التضييق ، فاعترف . قال :

« ـ لم أعثر بالقرطين على الرصيف ، وانما عثرت بهما فى البيت الذى كنا ندهنه أنا ودمترى .

« ـ كيف عثرت بهما ؟

« ـ كيف ؟ هكذا : كنا قد عملنا أنا ودمترى طول النهار حتى الساعة الثامنة ، وكنا نستعد للانصراف ؛ ولكن ها هو ذا دمترى يتناول فرشاة ويأخذ يلطخ لى وجهى . فلما لطخ لى وجهى ، ولىَّ هارباً ، فركضت وراءه أطارده . كنت أركض وأطلق صرخات وحشية ولكن حين خرجت من السلَّم ووصلت الى فناء المنزل ، رأيتنى أسقط على البواب الذى كان معه عندئذ بعض السادة . أما عدد أولئك السادة فاننى لا أذكره الآن . أخذ البواب يشتمنى ، ثم جاء البواب الثانى فأخذ يشتمنى أيضاً ؛ وخرجت امرأة البواب الأول من مسكنها فأخذت تشتمنا كلينا ؛ وفى تلك اللحظة كان يمر تحت باب الدخول سيد تصحبه سيدة ، فأخذ يشتمنا هو أيضاً ، لأننا كنا ، أنا ودمترى ، قد انبطحنا فسددنا عليه الطريق . كنت قد أمسكت دمترى من شعره ، ورميته على الأرض

ورحت أهوى عليه بوابل من اللكمات ؛ وكان دمترى تحتى ، قد أمسك شعرى وأخذت لكماته تنهمر علىّ أيضاً ـ ولكن ذلك كله لم يكن دافعه الخبث والشر ، وانما كان دافعه المودة والمحبة ، فهو نوع من التسلية . ثم تخلص دمترى ، وولىّ هارباً الى الشارع ، فركضت وراءه ولكنى لم أستطع أن أدركه . عندئذ عدت الى البيت وحدى لأرتّب أشيائى . وفيما أنا أرتّبها ، منتظراً دمترى ، اذا بى أدوس على علبة صغيرة ، قرب الباب ، فى الدهليز ، فنظرت ، فرأيتها ملفوفة بورق ، فنزعت الورق وفتحت العلبة ، فرأيت كلاّبتين ، كلابتين صغيرتين ، صغيرتين جداً ، فشددتهما فخرج القرطان ... » .

هتف راسكولنيكوف يسأل فجأة ، وهو يحدّق الى رازوميخين بنظرة مضطربة مروّعة ، بينما هو يُنهض جسمه ببطء ، ويسند يده الى السرير : '

ـ وراء الباب ؟ كانت العلبة وراء الباب ؟

ـ نعم ، ولكن ماذا بك ؟ ماذا دهاك ؟

وكان رازوميخين قد نهض هو أيضاً عن مقعده .

أجاب راسكولنيكوف بصوت لا يكاد يُسمع ، وهو يتهالك على وسادته من جديد ، ويعود يلتفت نحو الحائط :

ـ لا شيء .

ولبث الجميع صامتين برهة طويلة .

قال رازوميخين أخيراً وهو يلقى على زوسيموف نظرة سائلة مستفهمة :

ـ لا شك أنه كان قد غفا ، وأنه ما يزال يحلم ، أليس كذلك ؟

فحرك زوسيموف رأسه بايماءة خفيفة تعنى النفى . وقال :

ـ أكمل يا رازوميخين • ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك ، بعد ذلك ! نعم ••• ما ان رأى القرطين ، حتى نسى عمله ونسى دمترى ، وتناول قبعته وركض يسعى الى خمارة دوشكين ، فأخذ منه روبلاً ، كما أسلفنا ، وكذب عليه حين زعم له أنه عثر بالعلبة على الرصيف ؛ ثم طفق يقصف من صندوق المرأة العجوز الى يدى على الرصيف ؛ ثم طفق يقصف ويلهو ، كما أسلفنا أيضاً • أما عن جريمة القتل ، فانه ما يزال يصر على أقواله :

« ـ لا علمت شيئاً ولا رأيت شيئاً •

« ـ فلماذا اختفيت اذن حتى الآن ؟

« ـ خفت •

« ولماذا أردت أن تنتحر شنقاً ؟

« ـ لأننى قدّرت أن أمراً سيحدث لى •

« ـ ما هو الأمر الذى قدّرت أنه سيحدث لك ؟

« ـ قدّرت أننى سأحال الى المحاكمة •

وعقب رازوميخين على ذلك سائلاً زوسيموف :

ـ هذه هى القصة كاملة • فما الذى تظن أنهم استنتجوه من ذلك كله ؟

ـ ما عسى أظن ؟ هناك قرائن • ومهما تكن هذا القرائن ، فانها تبقى قرائن • الواقعة قائمة • ليس فى وسعهم أن يخلوا سبيل صاحبك الدهان ، رغم كل شىء •

ـ ولكنهم حشروه فى سلك القتلة وانتهى الأمر • لم يبق عندهم ظل من شك •••

ـ أنت تخطىء ••• أنت تتحمس وتندفع ••• يجب أن تنظر فى

واقعة وجود القرطين مع نيقولا. لا بد لك من التسليم بأن هذين القرطين اذا كانا انتقلا رأساً في ذلك اليوم نفسه ، في تلك الساعة نفسيها ، من صندوق المرأة العجوز الى يدى نيقولا ، فقد انتقلا بطريقة من الطرق. هذا أمر له خطورته فى التحقيق ...

ـ أتقصد طريقة انتقالهما الى يدى نيقولا ؟ ألا ان أمرك لعجيب ! هل يمكنك حقاً ، وأنت طبيب يُفرض فيه أن يعرف الانسان ، وأتيح له عدا ذلك أن يسبر الطبيعة الانسانية ، هل يمكنك أن لا ترى من خلال جميع هذه المعلومات ، طبيعةَ نيقولا هذا ؟ هل يمكن أن لا ترى منذ البداية أن كل ما صرّح به نيقولا أثناء تلك الاستجوابات جميعاً انما كان الحقيقةً خالصةً صافيةً ؟ لقد وصل القرطان الى يديه على النحو الذى ذكره تماماً . داس على العلبة فتناولها .

ـ الحقيقةً خالصةً !!... ولكنه اعترف هو نفسه بأنه كذب فى المرة الأولى .

ـ أصغ اليّ بانتباه ! ان البواب ، وكوخ ، وبسترياكوف ، والبواب الثانى ، وامرأة البواب الأول ، والبائعة التى كانت فى مسكنها حينذاك ، والمستشار القضائى كريوكوف الذى نزل من مركبة فى تلك اللحظة نفسها وكان يجتاز عتبة المدخل متأبطاً ذراع سيدة ، ان هؤلاء جميعاً ، أى ثمانية شهود أو تسعة ، قد أجمعوا فى أقوالهم على أن نيقولا كان قد بطح دمترى أرضاً ، وجثم عليه ، وراح يمطره بوابل من اللكمات ، وأن دمترى كان من جهة ممسكاً بشعره يكيل له اللكمات هو أيضاً ؛ وأنهما تدحرجا كليهما بالعرض فسدّا الطريق ، وأن الشتائم كانت تنهال عليهما من كل صوب ، وأنهما كانا « أشبه بالصبية الصغار » ، على حد تعبير الشهود نصاً ، يولولان ويتضاربان وينفجران ضاحكين ويتسابقان

فى القهقهة ويطارد كل منهما الآخر فى الشارع كالصبيان وقد ظهر فى وجهيهما من هزل الأطفال أشده ! هل سمعت هذا كله ؟ فاسمع الآن البقية : كانت الجثتان ، فوق ، فى ذلك الوقت نفسه ، ما تزالان ساخنتين ... ساخنتين ... نعم ، نعم ، لقد كانتا ساخنتين حين اكتشفتا . فلو كان نيقولا ودمترى هما القاتلين ، أو كان نيقولا وحده هو القاتل ، وكانا فى الوقت نفسه قد سرقا العجوز أو لم يزيدا على أن شاركا فى السرقة مشاركة فحسب ، لكان من حقى أن ألقى عليك هذا السؤال : هل تلك الحالة النفسية (أعنى الولولة ، والضحك ، والتشاجر الصبيانى تحت باب الدخول) تتفق والسواطير ، والدم والمكر الوحشى والسلب والنهب ؟ أيكونان قد قتلا منذ برهة قصيرة ، منذ خمس دقائق أو عشر فى أكثر تقدير - وهذه نتيجة مستخلصة من سخونة الجثتين - ثم هما يمضيان فجأة ، تاركين الجثتين والباب مفتوح ، مع علمهما بأن أناساً سيصلون من لحظة الى أخرى ؟ أيقتلان منذ برهة وجيزة ، ثم يتركان غنيمتهما ، ويمضيان يتدحرجان فى الشارع « كالصبية الصغار » ، ويضحكان ضحكاً صاخباً ، ويلفتان اليهما انتباه الناس جميعاً ، وهذا ما يؤكده عشرة شهود بصوت واحد ؟

- هذا غريب فعلاً . ذلك مستحيل طبعاً ، ولكن ...

- يا أخى ، لا داعى الى « لكن » هذه . اذا كان وجود القرطين بين يدى نيقولا ، فى ذلك اليوم نفسه ، فى تلك الساعة نفسها ، واقعة مادية هامة تشهد عليه - وهى مع ذلك واقعة تفسرها أقوال المتهم نفسه تفسيراً تاماً ، فيمكن اذن دحضها - أقول اذا كان ذلك كذلك فيجب أن ندخل فى الحساب وقائع أخرى تشهد للمتهم لا عليه ، وتؤكد براءته ، لا سيما وأنها وقائع ثابتة لا سبيل الى دحضها . ولكن ماذا تظن ؟ هل تعتقد أن قضاءنا ، وهو على ما هو عليه ، يمكن أن يسلّم بأن واقعة قائمة

على الاستحالة السيكولوجية وحدها ، واقعة مبنيةً على الحالة النفسية فحسب ، يمكن أن تُعدَّ واقعةً ثابتة لا سبيل الى دحضها ، واقعةً قادرة بمفردها على أن تهدِّم جميع وقائع الاتهام المادية أية كانت ؟ لا ، ان قضاءنا لن يسلم بهذا ، لن يسلِّم به في حال من الأحوال ، وذلك بحجة أن العلبة قد وُجدت ، وأن الرجل أراد أن يشنق نفسه ، وأنه « ما كان ليفعل ذلك لولا شعوره بجرمه ! » . تلك هي المسألة الرئيسية ، ذلك هو السبب الذي يحضني على الاندفاع والحماسة ، هل فهمت ؟

ــ أرى أنك تندفع وتتحمس فعلاً . انتظر ! نسيت أن ألقى عليك سؤالاً : ما هو الدليل الذي نملكه على أن العلبة التي تحوي القرطين مصدرها صندوق العجوز حقاً ؟

أجاب رازوميخين على مضض ، وقد عبس وجهه :

ــ ذلك ثابت . لقد عرف كوخ العلبة ، وحدَّد الشخص الذي رهنها عند العجوز ، وبرهن ذلك الشخص برهاناً قاطعاً على أنها علبته .

ــ هذا مؤسف . والآن ألقي عليك سؤالاً آخر : ألم يلمح أحد أحد نيقولا لحظةً كان كوخ وبسترياكوف يصعدان السلَّم ؟ أفلا يمكن اثبات ذلك بطريقة من الطرق ؟

أجاب رازوميخين متحسراً :

ــ لا ، لم يلمحه أحد ، وذلك هو الأمر المحزن . ان كوخ وبسترياكوف نفسيهما لم يلاحظا العمال أثناء صعودهما . صحيح أن شهادتهما الآن ... هما يقولان : « رأينا باب الشقة مفتوحاً ، وقدَّرنا أنه ربما كانت تجري فيها اصلاحات، ولكننا لم نتنبه أثناء مرورنا ، ولا نتذكر أكان فيها عمال أم لا . » .

ــ فالتفسير الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه اذن ، للتدليل على

براءتهما ، هو أنهما كانا يتضاربان ويضحكان مقهقهين • طيب ! هذا دليل قوى ولكن ••• اسمع لى : كيف تفسر انت الواقعة ؟ كيف تفسر العثور على القرطين اذا كانا قد وجداهما على نحو ما صرّحا ؟

ـ كيف أفسرها ؟ ليس هناك شيء يحتاج الى تفسير : الأمر واضح وضوح النهار ، أو قل فى اقل تقدير ان الطريق الذى يجب أن يسير فيه التحقيق واضح مرسوم • والعلبة هى التى ترسم هذا الطريق • ان القرطين قد سقطا من القاتل الحقيقى• كان هو فى أعلى، موصداً عليه الباب بالمزلاج ، حين رابط كوخ وبسترياكوف على الباب • وقد ارتكب كوخ حماقة كبيرة ، حين نزل فى اثر صاحبه ، فانتهز القاتل الفرصة ، فهرب من البيت ، ونزل هو أيضا ، اذ لم يكن له مخرج آخر • وفيما كان على السلم ، اختبأ عن أعين كوخ وبسترياكوف والبواب بدخوله الى المسكن الخالى الذى تركه دمترى ونيقولا منذ لحظة قصيرة ، فظل لاطياً وراء الباب بينما كان البواب والرجلان الآخران يصعدان • حتى اذا انقطعت ضجة وقع أقدامهم نزل بهدوء ، وذلك فى اللحظة التى كان فيها دمترى ونيقولا يطارد كل منهما صاحبه فى الشارع أى فى اللحظة التى كان قد تفرق فيها الجميع فلم يبق أحد فى مدخل العمارة • بل ان من الجائز أن يكون أحدهم قد رآه ، لكنه لم يلاحظه : ان ناساً كثيرين يمرُّون • أما العلبة فلا بد أنها قد سقطت من جيبه لحظة كان واقفاً وراء الباب ، فلم ينتبه الى ذلك ، لأن ذهنه كان مشغولا عندئذ بهموم أخرى كثيرة • نعم، ان العلبة تبرهن برهاناً قاطعاً على أن القاتل قد رابط هناك • تلك هى القصة كلها •

قال زوسيموف :

ـ هذا تفسير بارع ! نعم ••• حقاً هذا تفسير بارع جداً يا صاحبى ••• بارع جداً جداً •••

ـ ولكن لماذا ؟ لماذا تقول ...؟

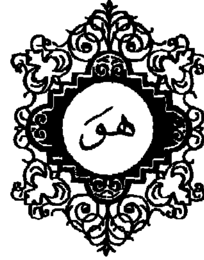
ـ لأن كل شيء فيه مرتب بحذق ومركّب باحكام ... لكأننا في مسرح !...

همَّ رازوميخين أن يتكلم فقال :

ـ هيه ...

ولكن الباب فُتح في تلك اللحظة نفسها ، فانفرج عن قادم جديد لم يكن يعرفه أحد من الحضور .

الفصل الخامس



سيدٌ ليس الآن في ريِّق الشباب ، سيد متكلف متصنع ، ذو أبهة وجلال ، تعبر هيئته عن التحفظ والعجرفة ، وقف على العتبة يلقى على ما حوله نظرات استطلاع فيها دهشة لا تخفى حتى لتجرح وكأن عينيه تلقيان هذا السؤال : « أتراني ضللت الطريق ؟ » انه يتفحص « حجرة » راسكولنيكوف الواطئة الضيقة وهو يشعر بشيء من الشك ويبدى نوعاً من الخوف بل ويظهر شيئاً من الأسف والمضض . وبمثل هذه الدهشة نفسها وجَّه بصره الى راسكولنيكوف ، ثم ثبَّته عليه ، فرأى راسكولنيكوف الذى لم يخلع ثيابه ولا حلق ذقنه ، والذى كان مشعث الشعر راقداً على سريره الحقير ، رآه يتفحصه من جهته دون أن يتحرك . وبهذا البطء نفسه أخذ يلاحظ رازوميخين الذى لم يكن ممشَّط الشعر ولا محلوق الذقن وكان هو أيضاً يتفرس فيه باستطلاع مستهتر وقح دون أن يتحرك . خيَّم صمت متوتر خلال ما يقرب من دقيقة ثم لم يلبث المشهد أن تغير تغيراً طفيفاً كما ينبغى أن تتوقع . ذلك أن القادم الجديد قد أدرك من بعض العلامات ، وهى علامات واضحة جداً على كل حال ، أن اصطناع وضع فيه أبهة مفرطة لن ينفعه كثيراً فى هذه الحجرة ، فلطَّف هيئته بعض التلطيف ، واتجه الى زوسيموف يسأله بأدب وكياسة ، مع احتفاظه

بشيء من الجمــود والصــلابة ، قائلاً بلهجة تبرز مقاطع الكلام ابرازاً واضحاً :

ـ روديون رومانوفتش راسكولنيكوف ، طالب أو طالب سابق ؟

تحرك زوسيموف ببطء ، ولعله كان سيجيب لولا أن رازوميخين الذى لم يسأله أحد شيئاً أسرع يسبقه الى الجواب فقال :

ـ هو ذا ••• راقد على السرير ••• ماذا تريد أنت ؟

ان هذا الســؤال الذى ليس فيه شيء من تحــرج : « ماذا تريد أنت ؟ » قد بلبل السيد المتصنع فأوشــك أن يلتفت نحو رازوميخين ، ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه ، فاتجه مرة أخرى بسرعة شديدة الى زوسيموف •

ـ نعم ، هذا راسكولنيكوف !

كذلك قال زوسيموف باهمال وتثــاقل ، وهو يشــير الى المريض بايماءة من رأسه ، ثم تثاءب ففتح فماً واســعاً سعةً غير مألوفة أيضاً • ثم أغطس يده فى جيب صُديرته ببطء فاستلّ منه ســاعة ذهبية كبيرة محدبة الشكل ، ففتحها ونظر فيها ، ثم أعادها الى جيبــه بذلك البطء نفسه وبذلك التوانى نفسه •

وفى أثناء هذا الوقت ، ظل راسكولنيكوف راقداً مقلوب الجسم ، وظل صامتاً لا يقول كلمة ؛ وكان يلقى على الزائر نظرةً ثابتةً عنيدة ، وان تكن هذه النظرة لا تعبر عن أية فكرة •

انه وقد تحوّل وجهه عن تلك الزهرة الصغيرة العجيبة المرسومة على ورق الجدار ، يبدو الآن شاحباً شحوباً شــديداً ، وتدل ملامحه على أنه يعانى ألماً هائلاً ، حتى لكأنه خارج من عملية موجعة أو كأنه يُستجوب أمام قاضى تحقيق • ولكن القادم الجديد أخذ يثير فيه بعض

الانتباه شيئاً بعد شيء ثم أخذ يثير فيه شكاً وارتياباً ، حتى لقد أثار فيه آخر الأمر نوعاً من خوف وخشية • فلما قال زوسيموف وهو يومئ اليه : «نعم هذا راسكولنيكوف» انتفض فجأة كأنما وخزته ابرة ، وجلس على السرير ، وقال بلهجة تكاد تكون تحدياً وان يكن صوته واهناً ضعيفاً متقطعاً :

ـ نعم ، أنا راسكولنيكوف ! ماذا تريد ؟

نظر اليه الزائر بانتباه وقال يعرّف بنفسه بلهجة رصينة وقور :

ـ بطرس بتروفيتش لوجين • أحب أن أظن أن اسمى ليس مجهولاً عندك تماماً •

ولكن راسكولنيكوف الذى توقع شيئاً غير هذا ، نظر اليه دون أن يجيب ، وكان زائغ البصر شارد الفكر كأنه يسمع اسم بتروفيتش أول مرة حقاً •

سأله بتروفيتش مرتبكا بعض الارتباك :

ـ كيف ؟ هل يمكن أن لا تكون قد تلقيت أىّ نبأ حتى الآن ؟

فلم يزد جواب راسكولنيكوف على أن راح ينزلق على الوسادة ببطء ، ثم صالب يديه وراء رأسه ، وأخذ ينظر الى السقف •

طاف بوجه لوجين تعبير عن حزن ، وأخذ زوسيموف ورازوميخين ينظران اليه بمزيد من الاستطلاع والفضول ، حتى بدا عليه الاضطراب فى آخر الأمر • ودمدم يقول :

ـ كنت افترض وأقدّر أن الرسالة ، وقد أودعت فى البريد منذ عشرة أيام ان لم يكن منذ خمسة عشر يوماً ، لا بد أن •••

فقاطعه رازوميخين فجأة بقوله :

ـ اسمع ! لماذا تبقى واقفاً هذه الوقفة على الباب ؟ هلمّ فاجلس اذا كان لديك شيء تريد أن تشرحه ... ان العتبة لا تتسع لكما كليكما أنت وناستاسيا ! يا ناستاسيوشكا ، تنحى قليلاً ، ودعيه يمر ! تقدم ! هذا كرسى ! ادخل !

قال رازوميخين ذلك ، وأبعد كرسيه عن المائدة ، جاعلاً بينها وبين ركبتيه فراغاً صغيراً ، ولبث على هذا الوضع ، المزعج بعض الازعاج ، برهةً من الوقت ، ينتظر أن « يتسلل » الزائر من هذه الفرجة . لقد اختار رازوميخين اللحظة المناسبة اختياراً لا يدع للزائر سبيلاً الى الرفض ، لذلك أسرع الزائر ينسل فى الفراغ الضيق متعثراً ، حتى اذا وصل الى الكرسى جلس وألقى على رازوميخين نظرة ريب وشك .

قال رازوميخين بغير اكتراث :

ـ لا تتحرج ! لا تتحرج ! ان روديا مريض منذ خمسة أيام ، وقد ظل يهذى ثلاثة أيام ، لكنه ثاب الآن الى رشده تماماً ، حتى انه أصبح يُقبل على الطعام نهماً . والجالس هناك هو طبيبه . وقد فحصه منذ برهة قصيرة . أما أنا فاننى أحد رفاق روديا ، كنت طالباً مثله وأصبحت الآن ممرضاً له . فلا تنتبه الينا ، ولا تحفل بنا ، ولا تتحرج منا . أكمل كلامك وقل ما تريد أن تقوله !

قال بطرس بتروفيتش :

ـ شكراً .

ثم التفت يسأل زوسيموف :

ـ ولكن ألا يزعج المريضَ حضورى وحديثى ؟

فأجابه زوسيموف مجمجماً :

ـ ل ... لا ! حتى لقد يسليّه هذا قليلاً !

قال ذلك وتثاءب من جديد .

قال رازوميخين :

ـ نعم ، نعم ! لقد أفاق من غيبوبتـه منذ مدة طويلة ، منذ هـذا الصباح !

قال رازوميخين ذلك بلهجة فيها من الألفة ورفع الكلفة ما جعل بطرس بتروفيتش يعدل عن رأيه ويغير موقفه فأخذ يشـعر بشيء من الارتيـاح والانطلاق ، ولعل ذلك يرجع بعض الرجوع أيضـاً الى أن هذا الفقير الحافى الوقح قد أفلح رغم كل شيء فى أن يُعرّف بنفسـه على أنه طالب .

بدأ لوجين يتكلم فقال :

ـ ان والدتك ...

فاذا برازوميخين يهتف بصوت عال :

ـ هِمْ !

فرشقه لوجين بنظرة مستوضحة مستفهمة . فقال له رازوميخين :

ـ ليس هذا شيئاً ! لا تلق الى هذا بالاً . هلمَّ أكمل كلامك .

رفع لوجين كتفيه متعجباً ، وواصل حديثه فقال :

ـ ان والدتك قد شرعت فى كتابة رسالة اليك حين كنتُ عندها. فلما وصلتُ الى هنا تعمدت أن لا أجيء لزيارتك قبل انقضـاء بضـعة أيام وذلك بغية أن اكون على يقين كامل من انك اطلعت على كل شيء. ولكننى أرى ، مدهوشاً كل الدهشة ...



السيد لوجين

فقاطعه راسكولنيكوف فجأة ، وقد بدا عليه الألم ، وظهرت فى هيئته علامات نفاد الصبر ، قاطعه قائلاً :

ــ أعرف ! أعرف ! أنت الخطيب ، أليس كذلك ؟ أعرف أعرف• ويكفينى هذا •

أحس بطرس بتروفيتش بأنه أهين فعلاً ، ولكنه صمت • كان يحاول جاهداً أن يفهم ما قد يعنيه كلام راسكولنيكوف • ودام الصمت برهة طويلة •

وفى اثناء ذلك كان راسكولنيكوف الذى التفت نحوه قليلاً ليجيبه، قد أخذ يتفرس فيه فجأة بعناد شديد واستطلاع قوى كأن وقته لم يتسع منذ قليل لأن يفحصه فحصاً كاملاً ، أو كأن شيئاً جديداً قد خطف بصره فيه ؛ حتى لقد أنهض رأسه عن الوسادة لهذا الغرض عمداً • وكان ذلك « الشىء » فى مظهر بطرس بتروفتش لا يخفى عن عين الناظر اليه فعلاً ، انه شىء خاص ، شىء لا أدرى ما هو ، شىء يسوغ الصفة التى أطلقها عليه راسكولنيكوف بغير تحرج حين سماه «الخطيب». ان المرء يلاحظ قبل كل شىء ــ يلاحظ بوضوح شديد ــ أن بطرس بتروفتش قد أسرع يستفيد من الأيام القليلة التى يعتزم قضاءها فى العاصمة ليجعل نفسه جميلاً وأنيقاً بانتظار وصول خطيبته ؛ وذلك ، على كل حال ، أمر مشروع تماماً ، برىء كل البراءة • حتى ليمكن أن يغفر المرء لهذا الرجل ، بسبب لقب « الخطيب » الذى أصبح يحمله ، ماكان يراه فى نفسه من رأى لعله مسرف فى التعظيم ، بعد التبدل الموفق السعيد الذى طرأ عليه • كان يمكن أن تُعد ثيابه كاملة كل الكمال رائعة كل الروعة ، لولا عيب واحد هو أنها خارجة من عند الخياط رأساً لهدف محدد وغاية معينة • حتى قبعته المستديرة الأنيقة الجديدة كانت تدل على ذلك الهدف وتنبىء بتلك الغاية : ان بطرس بتروفيتش

يداريها مداراة فيها شيء من الغلو ويمسكها بيديه امساكاً مفرطاً في الاحتياط والحذر • وحتى القفازان الأخاذان الزاهيان بلون البنفسج اللذان اشتراهما من محل جوفان كانا يشهدان بذلك الهدف ويشيران الى تلك الغاية، على الأقل لأن لوجين كان يحاذر أن يلبسهما، فهو يحملهما بيده بغية أن يكون لهما أثر في أعين الناظرين • ان ثياب بطرس بتروفتش تغلب عليها ، في العادة ، الألوان الزاهية التي يحبها المراهقون• ولقد كان يرتدي في ذلك اليوم سترةً صيفية جميلة بلون الكستناء ، وسروالاً صيفياً زاهياً ، وصديرة مناسبة من قماش رقيق جداً ، قد اشتراها منذ قليل أيضاً ، ورباطاً للعنق رقيق النسيج تخدّده خطوط بلون الورد ؛ وأجمل ما في ذلك كله أن هذه الملابس جميعها كانت تتسق وشخص بطرس بتروفيتش كل الاتساق • انك لو نظرت الى وجهه النضر الذي لا يخلو من جمال لا يمكن أن تقدّر أنه في الخامسة والأربعين من عمره • وهاتان اللحيتان للعارضين بلون الكستناء ، تحيطان بوجهه اطاراً لطيفاً • انهما مقدودتان على شكل ضلعين ، فهما تتكاثفان حول الذقن تكاثفاً حلواً ، وقد حُلقت الذقن حلقاً ناعماً فهي ملتمعة براقة • وشعره نفسه ، الذي لم يكد يشيب ، والذي تولى الحلاق تصفيفه وتجعيده ، ليس له ذلك المظهر المضحك الغبي الذي نراه عادةً في الشعر المجعَّد • ان شعره لا يضفي على وجهه ذلك التعبير الأبله الذي يلاحظ في وجه ألماني يرتدي ثياب الزفاف • ولئن كان في هذا الوجه الرصين الوقور شيء مزعج بل ومنفّر مع ذلك ، فان مردّ هذا الى أسباب أخرى •

نظر راسكولنيكوف الى السيد لوجين يتفحصه بغير كلفة ، ثم ابتسم ابتسامة مسمومة ، ثم استرخى على الوسادة مرة أخرى ، وعاد ينظر الى السقف من جديد •

ولكن السيد لوجين صمد ، وبدا عليه أنه قرر مذعناً أن لا يلاحظ الآن هذه الحركات الغريبة •

وقال يقطع الصمت بجهد ومشقة :

ـ يؤسفنى أشد الأسف أن أجـدك على هذه الحـال من المرض ولو قد علمت أنك مريض لجئت أزورك قبل الآن • ولكن الأعباء الكثيرة المتعبة قد حالت بينى وبين ذلك • هذا عدا أن هنالك دعوى هامة جداً توجب عليّ وظائفى ، كمحامٍ ، أن أرفعها الى مجلس الشيوخ • ناهيك عن المشـاغل التى لا بد أنك تدركها ••• اننى انتظر وصـول والدتك وأختك ، أنتظر وصولهما بين لحظة وأخرى •

تحرك راسكولنيكوف ، وبدا عليه أنه يريد أن يقول شيئاً ، وعبّر وجهه عن شيء من الانفعـال ؛ فأمسـك بطرس بتروفتش عن الكلام ، وانتظر برهـة ، ولكنه لم يلبث أن اسـتأنف حديثـه حين رأى أن راسكولنيكوف لا يتكلم ، فقال :

ـ ••• بين لحظة وأخرى • وقد بحثت لهما عن مسكن ينزلانه فى الآونة الأولى •

سأله راسكولنيكوف بضعف :

ـ أين يقع هذا المسكن ؟

ـ غير بعيد عن هنا • فى عمارة باكالايف •

قال رازوميخين مقاطعاً :

ـ فى شارع « الصعود » • تضم العمارة مسكنين مفروشين يؤجرهما التاجر يوشين • لقد ذهبت الى هناك •

ـ نعم ، هو مسكن مفروش •

قال رازوميخين :

ـ منزل حقير ، فظيع ، قذر ، عفن؛ وهو فوق ذلك مشبوه ، جرت فيه قصص بشعة ... لا يعلم الا الشيطان من هم أولئك الذين يقيمون فيه ... لقد زرته بنفسى على أثر فضيحة شائنة . ولكنه يمتاز بأن الأجور فيه زهيدة .

ردَّ السيد لوجين يقول بلهجة جافة :

ـ لم أستطع طبعاً أن أجمع هذه المعلومات ، لأننى لم أصل الا منذ مدة قصيرة . على أن الغرفتين نظيفتان كل النظافة ، ولما كانت الاقامة فيهما قصيرة جداً ...

ثم تابع كلامه ملتفتاً الى راسكولنيكوف :

ـ وقد وجدت مسكناً لنا نحن منذ الآن ، أعنى البيت الذى سنسكنه فى المستقبل ، وقد بوشر فى اعداده ؛ وبانتظار الانتهاء من ذلك أقيم أنا نفسى على مسافة خطوتين من هنا ، فى غرفة مفروشة كيفما اتفق ، عند سيدة اسمها ليبفكسيل ، فى شقة صديق لى هو آندره سيميونوفتش ليبزياتنيكوف ، وهو الذى دلَّنى على عمارة باكالايف .

ـ ليبزياتنيكوف ؟

كذلك سأل راسكولنيكوف ببطء ، كأن هذا الاسم يذكّره بشىء ما .

ـ نعم ، آندره سيمونوفتش ليبزياتنيكوف ، موظف باحدى الوزارات . أتراك تعرفه ؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

ـ نعم ... لا ...

ـ معذرة . لقد خيِّل الىَّ من سؤالك أنك ... لقد كنتُ فى

الماضي وليَّ أمره ••• هو فتى لطيف جداً ، مطلع على كل ما هو جديد• انني أحب معاشرة الشباب • من يعرفهم يتعلم كثيراً من الأشياء الجديدة•

قال بطرس بتروفتش ذلك وهو يلف السامعين بنظرة شاملة ، آملاً أن يحظى كلامه بتأييدهم •

سأله رازوميخين :

ـ بأى معنى ؟

فقال بطرس بتروفيتش وقد أسعده أن يُسأل :

ـ بالمعنى الجدى ، بالمعنى الهام الأساسى • صحيح أن جميع هذه الأشياء الجديدة ، جميع هذه الاصلاحات وهذه الأفكار * ، قد وصلت الى الأقاليم • ولكن اذا أراد المرء أن يرى الأمور رؤية أوضح ، رؤية أشمل ، فلا بد له أن يكون ببطرسبرج • وعندى أن خير وسيلة للتعلم انما هى ملاحظة أجيالنا الجديدة الفتية • وانى لأعترف بأننى قد ابتهجت كثيراً •••

ـ ما الذى ابتهجت له على وجه التحديد ؟

ـ سؤالك واسع قليلاً ••• قد أكون مخطئاً ، ولكن يخيَّل الىَّ اننى أجد الآن نظرة أوضح ، وأجد قدراً من حس النقد أكبر ، وأجد فكراً وضعياً أنمى وأوسع •

قال زوسيموف بغير اهتمام :

ـ هذا صحيح •

فردَّ رازوميخين قائلاً :

ـ أكاذيب ! ليس هناك أى فكر وضعى ! ان الفكر الوضعى يتم اكتسابه بكثير من المشقة والعناء ، وليس يهبط من السماء • ونحن أناس فقدنا عادة العمل والفعل منذ مائتى سنة أو نحو ذلك •

ثم أضاف يقول متجهاً بكلامه الى بطرس بتروفتش :

ــ صحيح أن الأفكار تختمر ، وأن الرغبة في حسن العمل موجودة أيضاً مهما تكن صبيانية ؛ حتى لقد نجد شيئاً من الاستقامة والشرف والأمانة ، رغم أن القاعدة العامة ما تزال هي القاعدة القائلة « ما رأيت ولا أخذت » . ولكن يؤسفني أن أقرر أن الفكر الوضعي لا وجود له .

قال بطرس بتروفتش يردُّ على رازوميخين وهو يشعر برضى واضح وارتياح لا يخفى :

ــ لا أشاطرك رأيك . صحيح أن هناك اندفاعات متطرفة ، وأن هناك اختلافات شديدة ، ولكن يجب أن نكون عادلين : ان هذه الاندفاعات المتطرفة تدل على أن أصحابها أناس مؤمنون صادقون ، وتدل أيضاً على أن الظروف ليست هي الظروف التي يجب توافرها . ولئن لم يتحقق حتى الآن الا القليل ، فلأنه لم يتهيأ حتى الآن الا وقت قصير ، ناهيك عن قلة الوسائل . وفي رأيي شخصياً أنه قد تحقق منذ الآن شيء ما : انتشرت الأفكار الجديدة ، الأفكار المفيدة ؛ انتشرت مؤلفات جديدة مفيدة بدلاً من الرومانسيات الحالمة التي ذاعت في القديم. نضج الأدب ، واستؤصلت أوهام كثيرة ضارة . بايجاز : قطعنا الصلة بالماضي قطعاً حاسماً ، وهذا وحده هو في رأيي شيء هام .

دمدم راسكولنيكوف قائلاً :

ــ يردِّد أقوالاً محفوظة حباً بالظهور !

لم يسمع بطرس بتروفتش ما قاله راسكولنيكوف ، فسأله مستوضحاً :

ــ نعم ؟

ولكنه لم يحصل على جواب .

وأسرع زوسيموف يقول :

ـ هذا كله صحيح جداً .

قال بطرس بتروفتش وهو ينظر الى زوسيموف نظرة فيها لطف ووداعة :

ـ أليس كذلك ؟

ثم اتجه الى رازوميخين يقول له بلهجة تنم فى هذه المرة عن الانتصار وتعبّر عن الشعور بالتفوق ، حتى ليكاد يخاطبه بقوله : « أيها الفتى » :

ـ عليك أن تسلّم بأن هناك سيراً الى أمام ، أو أن هناك تقدماً على حدّ التعبير الرائج الآن ، على الأقل باسم العلم والحقيقة الاقتصادية .

ـ كلام معاد مكرور !

ـ لا ، ليس كلاماً معاداً مكروراً .

كذلك قال بطرس بتروفتش ، ثم تابع يقول بتعجل لعل فيه اسرافاً :

ـ مثلاً ، قالوا لنا حتى الآن : « أحبّ قريبك » . فلنفرض أننى أحببته ، فما الذى يترتب على ذلك ؟ يترتب عليه أن أشطر معطفى شطرين فأعطيه أحدهما فنصبح كلانا عاريين نصف عرى ، وفقاً لما يقوله المثل الروسى : « من طارد أرنبين فى آن واحد لم يدرك أياً منهما » . أما العلم فانه يقول : أحبّ نفسك قبل سائر الناس ، لأن كل شىء فى العالم قائم على المنفعة الشخصية * . فاذا لم تحب الا نفسك صرّفت شئونك على نحو ما يجب أن تصرّفها ودبرت أمورك كما ينبغى أن تدبّرها ، فبقى معطفك كاملاً سليماً لم يُمزّق . وتضيف الحقيقة الاقتصادية الى ذلك أنه كلما ازداد وجود الثروات الفردية فى المجتمع ، أى كلما كبر عدد المعاطف الكاملة ، ازدادت الأسس التى يقوم عليها المجتمع متانةً وصلابة ،

وازداد نظامه احكاماً وقوة • معنى هذا أننى حين أجنى خيراً لنفسى وحدى ، فانما أحصّل فى الوقت نفسه خيراً لجميع الناس ، فينشأ عن ذلك أن قريبى ينال عندئذ أكثر من نصف معطف ، ولا يتم ذلك عندئذ بفضل كرم فردى ، بل يتم نتيجةً لرخاء عام ورفاهية شاملة • الفكرة بسيطة ، ولكنها لم تفرض نفسها - وا أسفاه ! - الا بعد وقت طويل ، لأنها كانت محجوبةً عن الأنظار بأحلام وهمية باطلة • ولم يكن المرء مع ذلك فى حاجة الى كثير من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء من أجل أن يدرك أن •••

قاطعه رازوميخين يقول بخشونة :

- معذرةً ، أنا أيضاً لا أملك كثيراً من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء ، فلنتقف اذن عند هذا الحد ، وحسبنا ما قلناه ! أنا انما تكلمت لأننى كنت أرمى الى هدف معيَّن ، أما هذه الثرثرة كلها التى لا تفصح الا عن اعجاب المرء بنفسه اعجاباً لذيذاً ، وأما هذا الكلام المعاد المكرور التى لا ينضب له معين ، فذلك كله ما يزال يبعث فى نفسى التقزز منذ ثلاث سنين حتى صرت احمرُّ لا حين أقوله أنا فحسب ، بل حين أسمع غيرى يقوله أيضاً• لقد تسرعتَ كثيراً فى اظهار ثقافتك وابراز معارفك• وذلك أمر يمكن أن يُغفر لك ، ولست ألومك عليه • ولكننى أردت أن أعرف من أنت ، ذلك أن الذين تعلقوا بالقضايا العامة من الأوغاد الحقيرين قد بلغوا من فرط الكثرة والتنوع ، وبلغوا من شدة افساد كل ما لمسوه ، فى سبيل مصلحتهم ، أنهم وسخوا كل شىء توسيخاً لا خلاص منه ولا يمكن محوه • وكفى هذا !•••

قال السيد لوجين بوقار شديد :

- أتراك تريد ، أيها السيد ، أن تشير غمزاً الى أننى •••

- رحماك ، رحماك ! كيف يمكننى أن ••• والآن ، كفى !•••

كذلك قطع رازوميخين كلامه ، والتفت الى زوسـيموف التفاتاً جازماً ، ليستأنف ما كان بينهما من حديث •

وملك بطرس بتروفتش من الذكاء ما جعله يقبل هذا الجواب فوراً • وكان قد قرر ، على كل حال ، أن ينصرف بعد دقيقتين •

قال يخاطب راسكولنيكوف :

ــ أرجو للعلاقات التى بدأت بيننا الآن أن تتوطد مزيداً من التوطد حين تبل من مرضك ، بفضل الظروف التى تعرفها ••• اننى اتمنى لك تحسن الصحة قبل كل شيء •

لم يلتفت راسكولنيكوف اليه • وهمَّ بطرس بتروفتش أن ينهض•

قال زوسيموف يخاطب رازوميخين بلهجة قاطعة :

ــ لا شك أن أحد زبائنها هو الذى قتلها •

فأجابها رازوميخين موافقاً :

ــ لاشك ! لاشك أن أحد زبائنها هو الذى قتلها• ان بورفير لايطلع أحداً على خواطره ، ولكنه يستجوب جميع الذين أودعوا عندها رهوناً•

سأل راسكولنيكوف بصوت عالٍ جداً :

ــ يستجوبهم ؟

ــ نعم ، لماذا تسأل هذا السؤال ؟

ــ لا لشيء !

وسأل زوسيموف :

ــ أين يمكنه أن يجدهم ؟

ــ سمَّى له كوخ بعضهم • وهناك أسماء أخرى مسجلة على الأوراق التى لُفت به الأشياء • وهناك آخرون جاءوا من تلقاء أنفسهم منذ علموا بالنبأ •••

ـ يميناً ان الذى ضرب هذه الضربة لا بد أن يكون وغداً كبيراً ، وغداً محنكاً ، ذا خبرة ! يا لها من جرأة ! يا لها من عزيمة !•

قال رازوميخين مقاطعاً :

ـ لا ، بالعكس ! وذلك بعينه هو ما يتوهّكم جميعاً • أنا أزعم أن القاتل أخرق ليس بذى تجربة ولا خبرة ، وأن هذه الجريمة هى خطوته الأولى على هذا الطريق • لو افترضناه بارعاً حاذقاً لغدت جميع الأمور سلسلة من وقائع لا يمكن تفسيرها • أما اذا افترضناه غير ذى تجـربة ولا خبرة ، فان المصادفة وحدها تكون هى التى أخرجتـه من الورطة وما أكثر ما تفعله المصادفات ! لعله لم يتنبأ بالعقبات التى ستعترض سبيله ، ولم يتصور الحواجز التى سيصطدم بها ! انظر كيف تصرف : لقد أخذ أشياء لا تزيد قيمة كل منها على عشرة روبلات أو على عشرين روبلاً ، فملأ بها جيوبه ، لقد نبش بين الخرق فى صندوق العجوز ، على حين أن الدرج الأعلى من الخزانة ذات الأدراج قد عُثر فيها على علبة تحـوى ألفاً وخمسمائة روبل فضة ، عدا النقـود الأخـرى • حتى السرقة لم يحسنها • انه لم يحسن الا القتل !••• هذه خطوته الأولى على طريق الاجرام ، اقول لكم هذه خطوته الأولى ! نعم ، لقد طاش عقله وذهب صوابه ••• أؤكد لكم أن ما أنقذه ليس هو الحساب بل هو المصادفة •

تدخل بطرس بتروفتش فى الحديث ، فقال يسأل زوسيموف :

ـ أظن أنكم تتحدثون عن جريمة القتل التى وقعت مؤخراً وكانت ضحيتها تلك المرأة العجوز ، أرملة الموظف ، أليس كذلك ؟

وكان بطرس بتروفتش واقفاً يحمل بيده قبعته وقفازيه • غير أنه ما يزال يحب أن يرسل بعض الأقوال الملائمة قبل أن ينصرف • كان

واضحاً أنه يهمُّه أن يخلف فى نفوس سامعيه أثراً حسناً ، فتغلب حب الظهور عنده على رجاحة العقل .

ـ هل سمعتَ عن هذه الحادثة ؟

ـ طبعاً ! ان جميع الجيران ...

ـ هل تعرف التفاصيل ؟

ـ لا أستطيع أن أزعم أنني أعرف التفاصيل ، غير أن ما يعنيني فى هذه القضية انما هو بعض ظروفها ، أو بعض المشكلات التى تطرحها. لست أتكلم عن أن عدد الجرائم التى تُرتكب فى الطبقات الدنيا قد ازداد ازدياداً كبيراً فى السنوات الخمس الأخيرة ؛ لا ولا أتكلم عن حوادث السطو وحوادث الحريق التى تتعاقب فى كل مكان بغير انقطاع. لا ، لا أتكلم عن هذا ؛ وانما الشيء الذى يبدو لى غريباً هو أن عدد الجرائم يتزايد فى الطبقات العليا أيضاً ، على موازاة تزايده فى تلك الطبقات الدنيا ان صح التعبير . هنا ، طالب سابق يهاجم عربة بريد* فى الطريق الكبير ؛ وهناك ، أناس ممن يحتلون مركزاً اجتماعياً حسناً ، يصنعون أوراقاً مالية مزيفة ؛ وهنالك أيضاً ، فى موسكو ، تُعتقل جماعة بكاملها من الأفراد تزيّف أوراق اليانصيب ، ومن بين الجناة الرئيسيين فيها أستاذ من أساتذة التاريخ العام * . وهنالك أخيراً ، يُقتل موظف من موظفى سفاراتنا فى سبيل الحصول منه على مال أو لأغراض أخفى من ذلك !... فاذا كان قاتل تلك العجوز واحداً من أبناء الطبقات العليا ـ ولا بد أن يكون كذلك ، لأن أبناء الشعب الفقير لا يرهنون ، فيما أعلم ، أشياء ذهبية ـ فكيف نفسّر اذن هذا التحلل الذى يعيث فساداً فى الجزء المتمدن المتحضر من مجتمعنا ؟

قال زوسيموف :

ـ ان للتبدلات الاقتصادية المفاجئة دخلاً كبيراً فى حدوث هذه الظاهرة •

وقال رازوميخين مجيباً عن سؤال بطرس بتروفتش :

ـ كيف نفسّر هذا التحلل ؟ الأمر بسيط : نفسّره بفقدان الفكر الوضعى والروح العملية •••

ـ أى ؟

ـ قل لى : بماذا أجاب ، فى موسكو ، أستاذ التاريخ العام ذاك حين سُئل لماذا يزيّف أوراق اليانصيب ؟ ، لقد أجاب بقوله : « ان جميع الناس يغتنون ويثرون بأية وسيلة من الوسائل ، لذلك أردت أنا أيضاً أن أغتنى وأن أثرى بأقصى سرعة • » • لا أتذكر الآن أقواله بنصها ، ولكن معناها هو أنه أراد أن يجمع ثروة بأقصى سرعة وبأقل تكلفة ، دون ن يتحمل مشقة أو أن يبذل جهداً • نعم ، لقد اعتاد الناس أن يعيشوا عالةً على الآخرين ، دون أن يحفلوا بشىء أو أن يكترثوا لشىء ، واعتادوا أن يقتصروا على القيام بأعمال سهلة ، فمتى آن الأوان ظهر كل واحد على حقيقته •••

ـ ولكن هناك أخلاق ••• هناك مبادىء رغم كل شىء •••

ـ ما الذى يقلقك ؟ ان هذا هو النتيجة التى تترتب على نظريتك نفسها !

ـ نظريتى أنا ؟

ـ استخرج النتائج التى تترتب على المبدأ الذى وضعته منذ قليل ، تجد أنه يجيز للانسان أن يقتل الآخرين •

صاح لوجين يقول :

ـ أرجوك !•••

قال زوسيموف :

ـ لا ، ليس هذا صحيحاً •

كان راسكولنيكوف ما يزال راقداً ، وكان شاحباً شحوباً شديداً ، وكانت شفته العليا ترتجف ، وكان يتنفس بمشقة وعسر •

وتابع لوجين كلامه فقال متعالياً :

ـ هنالك حدود معتدلة معقولة • ليست الفكرة الاقتصادية حضاً على القتل ؟ واذا فرضنا أن •••

فقاطعه راسكولنيكوف على حين فجأة يسأله بصوت مرتجف من شدة الغضب ، بصوت يشوبه نوع من فرح خبيث ، يشوبه نوع من التلذذ بالاهانة :

ـ هل صحيح أنك قلت لخطيبتك ، ساعة وافقت على زواجها منك، ان ما يسعدك مزيداً من السعادة أنها فقيرة معدمة ••• لأن من المفيد جداً أن ينتشل الرجل امرأة من وهدة الشقاء ، ليسيطر عليها بعد ذلك ••• وليزهو عليها بالخيرات التي غمرها بها ؟

صاح لوجين يقول بصوت شرير حانق ، وقد خرج عن طوره :

ـ أيها السيد ، انك تشوه فكرتي • معذرة • غير أن من واجبي أن أعلن لك أن الشائعات التي بلغتك ، أو قل الشائعات التي نُقلت اليك عمداً ، لا تقوم على أي أساس من الصحة ••• وأنني ••• أشتبه ••• الخلاصة ••• أشتبه في أن هذا السهم ••• الخلاصة ••• انما أرسلته أمك !••• على كل حال ، لا أكتمك ••• أنني بغض النظر عن هذا ••• قد لاحظت ••• رغم ما لأمك من مزايا عظيمة ••• أنها مشبوبة العواطف رومانسية النفس قليلاً ••• لكنني ما كان لي أن أتخيل

أنها يمكن أن تنظر الى الأمور هذه النظرة ، وأن تراها هذه الرؤية ..
وعلى كل حال ، على كل حال ...

صرخ راسكولنيكوف يقول له وهو ينهض عن وسادته ويحدّق اليه بعينين تقدحان شرراً :

ـ هل تريد أن أقول لك ؟

ـ ماذا تقول لى ؟

قال لوجين ذلك ، وانتظر جواب راسكولنيكوف متحدياً ، وخيّم الصمت بضع ثوان .

قال راسكولنيكوف :

ـ اعلم أنك ... اذا تجرأت مرة أخرى ، فقلت فى حق أمى كلمةً واحدة ، فلأنزلنّك تدحرجاً على الرأس ...

صاح رازوميخين يقول لراسكولنيكوف :

ـ ماذا دهاك ؟

فقال راسكولنيكوف :

ـ نعم ، هكذا ...

اصفر لوجين ، وعضّ على شفته ، ثم قال متمهّلا محاولاً أن يكظم غيظه بكل ما أوتى من قوة ، لأن الغضب كان يخنقه خنقاً ، قال :

ـ اسمع يا سيد . لم يفتنى أن ألاحظ منذ قليل ، حين دخلتُ ، الاستقبال الغريب الذى خصصتنى به ، ولكننى تعمدت أن أبقى لأرى الى أى حد سوف تمضى ... ولقد كان يمكن أن أغفر أشياء كثيرة لانسان مريض تربطنى به قرابة ... أما لك أنت ، فلن أغفر ... لن أغفر فى يوم من الأيام ...

صاح راسكولنيكوف يقول :

ـ لست مريضاً !

ـ ذنبك اذن أعظم !

ـ اذهب الى جهنم !

ولكن لوجين كان قد خـرج دون أن يكمل كلامه • تسلل بين المائدة والكرسى من جـديد ، ونهض له رازوميخين فى هذه المرة عن كرسيه ، ليفسح له مجال المرور • خـرج لوجين حتى دون أن يحيى برأسه زوسيموف الذى كان منذ برهة طويلة يومىء اليه برأسه مهيباً به أن يدع المريض وشأنه ؛ وقد خـرج وهو يرفع قبعته الى مسـتوى كتفه على سبيل الاحتياط ، لحظةً انحنى ليجتاز عتبة الباب • كان واضحاً من طريقة حنيه ظهره أنه انصرف وهو يحمل شـعوراً بأنه أهين اهانة فظيعة •

قال رازوميخين لراسولنيكوف وهو يهز رأسه متحيراً مرتبكاً :

ـ هل يمكن أن يتصرف أحد هذا التصرف ؟

فصاح راسكولنيكوف يقول خارجاً عن طوره ،

ـ دعونى ، دعونى جميعاً ! ألا تريدون أن تتركونى وشأنى أيها الجلاّدون ؟ أنا لست خائفاً منكم ••• لست الآن خائفـاً من أحـد • اخرجوا من هنا ! أريد أن أكون وحيداً ، وحيداً ، وحيداً •••

قال زوسيموف وهو يومىء لرازوميخين :

ـ فلننصرف !

ـ كيف؟ هل يمكن أن نتركه وهو على هذه الحال ؟

فكرر زوسيموف قوله :

ـ فلننصرف •

وخرج •

فكرّ رازوميخين لحظة ، ثم مضى يلحق بصاحبه زوسيموف •

قال زوسيموف وقد صارا على السلّم :

ـ لو لم نطعه لساءت حاله مزيداً من السوء • ما ينبغي أن نخنقه•

ـ ماذا أصابه ؟

ـ ليت هزّةً سارة تصيبه • نعم ، ذلك ما هو في حاجة اليه • لقد استرد قواه منذ قليل ••• أظن أن هناك أمراً يشغل باله ، أظن أن هناك فكرة تثقل على صدره ، وتحاصر فكره ••• وذلك ما أخشاه ! لا شك أن الأمر كذلك •••

ـ لعل للسيد بطرس بتروفتش دخلاً فيما هو فيه • ان الحديث الذي جرى بينهما يدل على أن السيد بطرس بتروفتش سيتزوج أخت راسكولنيكوف ، وأن روديا قد أُبلغ هذا النبأ برسالة وصلت اليه قبيل مرضه ببرهة وجيزة •

ـ نعم ، ان الشيطان هو الذي قاد هذا الرجل اليه ، في هذا اليوم عينه ! لعل هذا الرجل قد أفسد الآن كل شيء • ولكن قل لي : هل لاحظت أن روديا كان لا يكترث بشيء ، ولا يخرج عن صمته الا لأمر واحد كان يخرجه عن طوره هو جريمة القتل تلك ؟

أجاب رازوميخين موافقاً :

ـ نعم ، نعم ، لاحظت ذلك واضحاً كل الوضوح • ان هذه الجريمة تهمه ، بل وترعبه ••• ولكن مردّ ذلك الى أنه في ذلك اليوم نفسه الذي مرض فيه قد ارتاع في مكتب رئيس الشرطة ، حتى لقد أغمي عليه •

ـ ستقص عليَّ ذلك تفصيلاً في هذا المســاء ، وســأقول أنا لك شيئاً حينذاك . ان حالته تعنيني كثيراً . ســأجيء أســتطلع أخبــاره بعد نصف ســاعة . مهما يكن من أمر ، فلا خــوف عليــه من أن يُصاب باحتقان ...

ـ شكراً لك . وفي أثناء هذا الوقت ، ســأنتظر أنا عند باشنكا ، وسأكلف ناستاسيا بمراقبته .

نظر راسكولنيكوف الى ناستاسيا ضجراً نافد الصبر . ان ناستاسيا لم تشأ أن تنصرف .

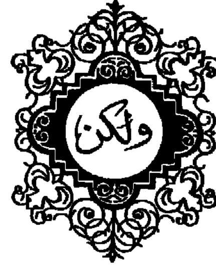
قالت له :

ـ هل لك بقليل من الشاي الآن ؟

ـ بل فيما بعد . الآن أريد أن أنام . اتركيني !

قال راسكولنيكوف ذلك ، واستدار نحو الحائط بحركة تشنجية . وخرجت ناستاسيا .

الفصل السادس



ما ان خرجت حتى نهض فأوصد الباب بالكلابة وفضّ صرة الملابس التى أتى بها رازوميخين وأعاد ربطها ، ثم أخذ يلبس . شيء غريب : لكأن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأة هادئاً كل الهدوء . لم يبق فيه أثر من ذلك الهذيان التى يشبه أن يكون جنوناً والذى كان يسكن فيه منذ قليل ، ولا بقى فيه شيء من ذلك الرعب الشديد الذى استولى عليه فى الآونة الأخيرة . ان حركاته الدقيقة الواضحة تدل على عزم قوى . وكان يدمدم قائلاً بينه وبين نفسه : « فى هذا اليوم ، فى هذا اليوم نفسه » . كان يدرك مع ذلك أنه ما يزال ضعيفاً ، غير أن توتراً نفسياً يقارب الجأش الرابط والفكرة الثابتة كان يهب له قوة وثقة . وكان من جهة أخرى يأمل أن لا يتهاوى فى الشارع.

فلما انتهى من ارتداء ثيابه الجديدة ، نظر الى المال الموضوع على المائدة ، ففكر ثم وضعه في جيبه . كان هناك خمسة وعشرون روبلاً . وتناول كذلك النقود النحاسية الصغيرة الباقية من الروبلات العشرة التى وقفها رازوميخين على شراء الملابس . ثم سحب الكلابة برفق ، وخرج من الغرفة ، وهبط السلّم وهو يلقى نظرة على المطبخ الذى كان بابه مفتوحاً تماماً : كانت ناستاسيا مائلةً مدبرةً تنفخ على سماور مولاتها ، فلم تسمع شيئاً . ومن ذا الذى كان يمكن أن يفترض ، على كل حال ،

أن راسكولنيكوف قد يخرج ؟ وما انقضت دقيقة واحدة حتى كان راسكولنيكوف فى الشارع •

الساعة تقارب الثامنة ، والشمس تغرب ، والجو خانق كما كان بالأمس ، ولكن راسكولنيكوف كان يستنشق ، بنهم شديد ، هذا الهواء المعفَّر الموبوء الذى تنشره المدينة الكبيرة • أخذ يشعر بدوار خفيف • وهذا نوع من طاقة وحشية يسطع فجأة فى عينيه الملتهبتين ، وينعكس على وجهه المهزول المزرق • كان لا يعرف الى أين يجب أن يذهب ، لا ولا يخطر بباله أن يلقى على نفسه هذا السؤال • كان لا يعرف الا شيئاً واحداً هو أن « كل شيء » يجب أن ينتهى فى هذا اليوم نفسه ، دفعة واحدة ، وفوراً ؛ وأنه بدون ذلك لن يعود الى بيته ، « لأنه لا يريد أن يعيش هكذا » • أما كيف ينتهى من ذلك كله ، وأما بأية وسيلة ينتهى من ذلك كله ، فانه لم يكن يريد أن يفكر فى هذا ! لقد كان يدفع عن نفسه هذه المسألة ، غير أنه يحس ويعلم أن كل شيء يجب أن يتغير بطريقة أو بأخرى « مهما يكن من أمر ، ومهما يحدث من حادث » • هذا ما كان يكرره لنفسه بيأس وثقة وعناد •

وقادت خطاه عادةٌ قديمة من عاداته ، فسار فى الطريق التى يسلكها فى نزهاته المألوفة ، واتجه رأساً نحو « سوق العلف » • حتى اذا أوشك أن يصل اليه رأى على أرض الشارع شاباً أسمر يعزف على أرغن بارباريا لحناً عاطفياً جداً وهو واقف أمام أحد الدكاكين • وكان الشاب يصاحب بالعزف غناءَ صبية فى نحو الخامسة عشرة من عمرها ، قد وقفت أمامه على الرصيف مرتديةً ثياب فتاة : تنورةً وخماراً وقفازين وقبعةً من قش تزينها ريشة حمراء بلون النار ؛ ومجموع ثيابها يبدو عتيقاً بالياً • كانت الصبية تغنى بصوت مغنيةٍ من مغنيات

الشوارع ، وهو صوت مصدَّع لكنه ممتع قوى ، وما تزال تمعن فى الغناء آملةً أن ينفحها صاحب الدكان كوبكين .

وقف راسكولنيكوف الى جانب شخصين أو ثلاثة أشخاص كانوا يصغون الى الغناء ، فأصغى هو أيضاً ، ثم أخرج قطعةً نقديةً قيمتها خمسة كوبكات فدسَّها فى يد الصبية . فما كان من الصبية الا أن توقفت عن الغناء عند النغمة التى كانت قد بلغتها ، وهى النغمة الأقوى علواً والأبلغ تأثيراً ، ثم صرخت تقول للعازف بصوت جاف : « كفى! »؛ واستأنف الاثنان سيرهما الى الدكان التالى .

اتجه راسكولنيكوف بالكلام فجأةً الى رجل كهلٍ كان قد سمع لعزف الأرغن الى جانبه ، وكان يبدو أنه متنزه هائم على وجهه ، فقال له :

ـ هل تحب أغانى الشوارع ؟

فنظر اليه الرجل مبهوتاً .

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال وكأن الأمر لا شأن له بغناء الشوارع البتة :

ـ أنا أحب أن أسمع الغناء على صوت أرغن باربارياً ، فى ليلة حالكة من ليالى الخريف ، ليلة رطبة باردة ، رطبةٍ على وجه الخصوص ، بينما المارَّة ، قد أزرقَّت وجوههم جميعاً حتى لكأنها خضراء ، ولا سيما حين ينهمر ثلج ذائب يتساقط قائماً لا تهب عليه نسمة من ريح، فتسطع رءوس مصابيح الغاز من خلال الثلج المنهمر .

قال السيد مدمدماً وقد روَّعه السؤال مثلما روَّعه هذا المظهر الغريب فى راسكولنيكوف :

ـ لا أدرى !... معذرةً ...

ومضى ينتقل الى الجهة الأخرى من الشارع .

سار راسكولنيكوف قدماً ، فوصل الى ناصية « سوق العلف » ، الى ذلك المكان نفســه الذى كان قد سـمع فيه البائع وزوجتَـه يحدثان اليزابث . ولكن البائع وزوجته لم يكونا هناك فى ذلك الوقت .

تعرف راسكولنيكوف المكان ، فوقف ، ونظر حوله ، ثم اتجـه الى شاب يلبس قميصاً أحمر كان يتثاءب عند مدخل دكانٍ لبيع الدقيق فقال له :

ــ هنا ، عند هذه الناصية ، يعمل بائعٌ وامرأته ، هه ؟

فأجابه الفتى وهو يروزه بنظره :

ــ يجىء الى هنا باعةٌ كثيرون لا يُحصى لهم عدد !

ــ ماذا يسمونه ؟

ــ يسمونه باسمه .

ــ وأنت ، ألست من زارايسك ؟ من أى اقليم أنت ؟

ــ منطقتنا يا صاحب السعادة ليست اقليماً بل مقاطعة ، واذ أن أخى هو الذى يسافر ، وأبقى أنا فى الدار ، فاننى لا أعرف شيئاً . أرجو أن تعذرنى يا صاحب السعادة !

ــ هل المحل الذى أراه فى الطابق الأعلى مطعم ؟

ــ بل هو كاباريه ... وفيه بلياردو ... وتجد فيه حتى أميرات ... هو محل عظيم !.

مضى راسكولنيكوف ينتقل الى الجهة الأخرى من الميدان . وهناك، عند الزاوية ، كان يرابط جمهور كثيف ليس فيه الا فلاحون . تسلـّل راسكولنيكوف الى حيث يتكاثف الجمهور أكبر تكاثف ، وأخذ يتفحص

الوجوه • كان يتمنى أن يكلم كل واحد من هؤلاء النـاس ، لا يدرى لماذا ! ولكن الفلاحين لم يلتفتوا اليه • كانوا يحتشدون جماعات صغيرة تتحادث متمازحة • وقف راسـكولنيكوف لحظةً يفكر ، ثم مضى يمنةً فى اتجاه شـارع « ف ••• » • حتى اذا غادر « سوق العلف » دخل فى زقاق ضيق •

سبق له كثيراً أن سلك هذا الزقاق المنحنى الذى يصل بين الميدان وبين شارع سادوفايا • لقد كان يحب فى الآونة الأخيرة ، حين كان كل شىء يثير فيه الاشمئزاز والتقزز ، أن يتجول فى هذه النواحى ، « نشداناً لمزيد من الاشمئزاز والتقزز » • ولكنه يسلك الآن هذا الزقاق دون أن يفكر فى أى شىء • ان فى هذا المكان عمارةً كبيرة ليس فيها الا خمارات ومطاعم ومقـاهٍ ، تخـرج منها فى كل لحظة نسـاء حاسرات الرءوس يرتدين ثياباً خفيفة ، ويحتشـدون جمـاعاتٍ فى مكانين أو ثلاثة على الرصيف ولا سيما قرب الأقبية حيث يكفى المرءَ أن يهبط درجتين أو ثلاثاً حتى يصـل الى بيوتٍ من بيوت اللذة • ان فى أحـد هذه البيوت الآن جلبةً كبيرة تجتاح الشارع كله : فهناك عزف على القيثارة ، وغناء ، ومرح بلغ ذروته ؛ وعند المدخل تزدحم نساء كثيرات ، فبعضهن جالسات على الدرجات ، وبعضهن جالسات حتى على الرصيف ، وبعضهن واقفات يثرثرن • وغيرَ بعيد من ذلك المكان ، يسير على أرض الشارع جندى سكران مترنح ، قد وضع فى فمه سيجارة ، وراح يحلف الأيمان بصوت عالٍ • كان كأنه يريد أن يدخل مكاناً ما ، ولكنه أصبح لا يعرف أين• وهذا رجل يرتدى أسمالاً رثة قد طفق يتبادل الشتائم مع رجل آخر يرتدى أسمالاً رثة أيضاً • وهذا شخص قد بلغ السكر منه كل مبلغ فاستلقى يرقد على أرض الشارع عرضاً •

وقف راسكولنيكوف قرب الجمـاعة الرئيسية من النسـاء • كنَّ

يثرثرن بصـوت أبح • انهن جميعاً حاسرات الرءوس ، يرتدين فساتين من قماش خفيف مشجَّر ، وينتعلن أحذية من جلد الماعز • منهن من تجاوزن الأربعين من العمر غير أن منهن صبايا فى السابعة عشرة • وجميعهن تقريباً متورمات الأعين •

اجتذبته الأغانى والجلبة الصادرة عن القبو ، دون أن يعرف لماذا • فى وسط الضحكات والصرخات ، كان يُسمع صوت رجل يغنى بصوت نحيل حاد ويصاحب غناءه عزف على قيثارة ، بينما أعقاب الأرجل تقرع الأرض قرعاً قوياً لاظهار الايقاع • مال راسكولنيكوف نحو البـاب ، وألقى من على الرصيف نظرات مستطلعة ، وراح يصغى مظلم النفس شارد الفكر • كانت الأغنية التى يصدح بها الصوت النحيل الحاد تقول:

يا حارسى الجميل

لا تضربنى ظلما بغير سبب

شعر راسكولنيكوف برغبة رهيبة فى سـماع هذه الأغنية ، كأن المسألة كلها فى نظره هى هذه !

قال يسأل نفسه : « ماذا لو دخلت ؟ انهم يضحكون مقهقهين • انهم سكارى • ماذا لو سكرت أنا أيضاً ؟ » •

سألته احدى النساء بصوت واضح لكنه أبح :

ـ ألا تدخل يا سيدى العزيز ؟

كانت المرأة شابة ، بل كانت بين هذه الجماعة من النسـاء المرأة الوحيدة التى لا يبعث منظرها على النفور البتة •

قال وهو ينتصب وينظر اليها :

ـ ما أجملها !

ابتسمت المرأة • لقد سرَّها هذا المديح سروراً عظيماً • وقالت له :

ـ أنتِ أيضاً شاب جميل •

فقالت امرأة أخرى تعارض بصوت أجش :

ـ لكنه نحيل جداً • خارج من المستشفى ، هه ؟

وكان يمر فلاح له وجه سكير مرحِ ماكر ، يرتدى سترةً حُلَّت أزرارها ، فقال فجأةً :

ـ يظهر أنهن بنـــات من أعلى طبقـة • ولكن هذا لا ينفى أن أنوفهن فطساء !

وأضاف :

ـ أرأيت الى هذا المرح ما أعظمه !

قالت له احداهن :

ـ هيَّا أدخل ما دمت قد جئت ؟

ـ فوراً يا حلوة ، فوراً •

أجابها الفلاح بذلك ، وهرول يهبط الدرجات •

وأراد راسكولنيكوف أن يستأنف سيره • فلما همَّ أن يستدير لينصرف ، صرخت البنت تقول له :

ـ اسمع يا سيد !

ـ ماذا ؟

فاضطربت ، وقالت له :

ـ سيسعدنى دائماً ، أيها السيد ، أن أقضى معك بضع ساعات ؛ ولكننى ••• أشعر الآن بخجل شديد منك • هلاَّ أهديت الىَّ ســتة كوبكات أشرب بها كأساً ، أيها الفارس الجميل !

فأخرج راسكولنيكوف من جيبــه ما وقع تحت يده : ثلاث قطع نقدية من فئة الخمسة كوبكات •

ـ آ ... يا للسيد السخى !

ـ ما اسمك ؟

ـ لن يكون عليك الا أن تسأل عن دوكليدا .

قالت امرأة من جماعة النساء ، وهى تومىء الى دوكليدا باشارة من رأسها :

ـ ما أعجب هذه الأساليب ! كيف ترضى هذه البنت أن تستعطى هذا الاستعطاء ؟ لو كنت فى مكانها لآثرت أن أدفن نفسى فى التراب من شعورى بالخزى والعار !

التفت راسكولنيكوف الى المرأة التى قالت هذا الكلام ، ونظر اليها مستطلعاً مستغرباً . هى مومس فى نحو الثلاثين من عمرها ، مجدورة الوجه منتفخة الشفة العليا ، تغطى بشرتها بقعٌ زرقاء . ولقد قالت كلامها بلهجة هادئة جادة .

تساءل راسكولنيكوف وهو يستأنف سيره : « تُرى أين قرأت أن رجلاً محكوماً عليه بالاعدام قد قام أو تخيَّل قبل اعدامه بساعة أنه لو اضطر أن يعيش فى مكان ما ، على قمة ، فوق صخرة ، بموضع لا تزيد مساحته على موطىء قدم ، وكان كل ما حوله هوةً سحيقة ، خضماً كبيراً ، ظلمات أبدية ، عزلةٌ خالدة ، زوابع لا تنقطع ، وكان عليه أن يبقى واقفاً على موطىء القدم هذا مدى الحياة ، بل ألف سنة ، بل أبد الدهر ، لظل مع ذلك يؤثر أن يعيش هذه العيشة على أن يموت فوراً ، أن يعيش فحسب ، أن يعيش ! أن يعيش أية عيشة ، ولكن أن يعيش .. نعم ،أين قرأت هذا ؟ ما أصدق هذا الكلام ! رباه ، ما أصدق هذا الكلام !... » *

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم أردف بعد لحظة :

ـ الانسان جبان ، ولكن جبانٌ أيضاً ذلك الذى يصفه بالجبن لهذا السبب !

ودخل فى شارع آخر، فما لبث أن قال لنفسه : « هه ! هذا « قصر الكريستال » ! لقد تكلم عنه رازوميخين منذ قليل ... ولكن ماذا كنت أريد أن أعمل ؟ نعم نعم ، كنت أريد أن أقرأ ... لقد ذكر زوسيموف أنه قرأ فى الجرائد ... » .

ـ هل عندكم جرائد ؟

كذلك سأل راسكولنيكوف وهو يدخل حانة واسعة ، جميلة المظهر ، ذات عدة قاعات ، ولكنها مع ذلك خالية الا من عدد قليل من الناس . كان هنالك شخصان أو ثلاثة يحتسون الشاى ؛ وفى قاعة أخرى ، فى آخر الحانة ، جلست جماعة من أربعة أشخاص يشربون الشمبانيا ، اعتقد راسكولنيكوف حين رآهم أن زاميوتوف أحدهم. ولكن المرء لا يمكن أن يكون واثقاً كل الثقة من صدق رؤيته ، على مسافة بعيدة هذا البعد .

قال لنفسه : « وأى ضير فى هذا على كل حال ؟ » .

سأله الخادم :

ـ هل تريد فودكا ؟

فقال له راسكولنيكوف :

ـ بل هات لى شاياً ، وجئنى بجرائد ، جرائد قديمة ، جرائد الأيام الخمسة الأخيرة . سوف أنفحك بقشيشاً سخياً .

ـ حاضر . اليك الآن جرائد اليوم . وهل تريد فودكا أيضاً ؟

ووصلت الجرائد والشاى . جلس راسكولنيكوف وانكب على

الجرائد باحثاً منقباً : « ايتسلر ـ ايتسلر ـ الأزتيكيان ـ ايتلسر • ـ بارتولا • ـ ماسيمو • ـ الأزتيكيان • ـ ايتسلر * ـ » الى الشيطان هذا كله ••• آ ••• أخيراً ••• هذه هي الأنباء المتفرقة ••• « سقوط في سلم » ، « تاجر سكران يحترق حياً » ، « حريق في حي الرمال » ، « حريق في بطرسبرج » ، حريق آخر في بطرسبرج » ، « ايتسلر •• ايتسلر •• ايتسلر •• ماسيمو •• » • آ ••• وصلنا •••

وجد راسكولنيكوف أخيراً ما كان يبحث عنه ، وأخذ يقرأ • ان الأسطر تتراقص أمام عينيه ، ولكنه قرأ « النبأ » حتى نهايته ، وطفق يبحث ، في شراهة ونهم ، عن تفاصيل جديدة في الأعداد التالية ، فكانت يداه ترتجفان من نفاد الصبر وهو يتصفح الجرائد • وفجأة جاء أحد فجلس الى مائدته ، بقربه • رفع راسكولنيكوف عينيه • انه زاميوتوف ، زاميوتوف نفسه ، بلا تبدل ولا تغير ، زاميوتوف ، بخواتمه ، وسلاسله ، والفرق الذي يشطر شعره الأسود العكف المطيَّب ، والصديرة الأنيقة ، والردنجوت الخلق قليلاً ، والقميص الذي ذهب بعض رونقه • كان زاميونوف مرحاً ، أو قل على الأقل انه كان يبتسم بكثير من المرح والطيبة • وكان وجهه الأسمر يبدو ساخناً بعض السخونة من الشمبانيا التي شربها •

بدأ يتكلم مدهوشاً فقال لراسكولنيكوف بلهجة من يعرفه منذ مدة طويلة :

ـ كيف ؟ أأنت هنا ؟ أمس قال لي رازوميخين انك لم تفق من غيبوبتك • شيء عجيب • هل تعرف أنني زرتك أثناء مرضك ؟

كان راسكولنيكوف يعرف أن زاميوتوف سيتعرض له • فوضع

الجرائد جانباً ، والتفت اليه • ان ابتسامة ساخرة تطوف بشفتيه ، ويرى المرء في هذه الابتسامة ، منذ الآن ، صبراً نافداً وغيظاً شديداً •

أجابه يقول :

ـ أعـرف أنك زرتني • حكى لي هذا • حتى لقـد بحثت عن جوربي • ولكن هل تعلم أن رازوميخين مجنون بك ، منذ ذهبتما معاً الى عند لويزا ايفانوفنا ••• نعم ، تلك التي حاولت أن تدافع عنها في ذلك اليوم ، غـامزاً « الليوتنان بارود » التي لم يفهم من غمزك شـيئاً • ألا تتذكر ؟ كيف أمكن أن لا يفهم أن الاشارة كانت واضحة ، هه ؟

ـ يا له من رجل صخّاب ؟

ـ من ؟ الليوتنان بارود ؟

ـ بل صديقك رازوميخين •

ـ انك تعيش حياة فرحة يا سيد زاميوتوف • تستطيع أن تذهب الى الأماكن المتعـة اللذيذة دون أن تنفق قرشـاً واحداً • قل لي : من ذلك الذي كان يصب لك الشمبانيا منذ قليل ؟

ـ نعم ، شربنا شمبانيا ••• أما الذي صبّها •••

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ساخراً :

ـ أعرف ••• هذه أجورك • انك تجني نفعاً من كل شيء •

ثم أضاف وهو يربت على كتف زاميوتوف :

ـ لا ضير في هذا ، يا صاحبي ، لا ضير ••• أنا لم أقل ما قلته عن نية سيئة خبيثة ، وانما قلته عن « محبة ومودة ، من باب التسلية » ، كما قال الدهّان حين كان يضرب ميتكا • أنت تعرف هذا في قضية مقتـل العجوز •••

ـ ولكن كيف تعرفه أنت ؟

ـ أنا ؟ ربما كنت أعرف أكثر مما تعرف .

ـ أمرك عجيب ... أغلب الظن أنك ما تزال مريضاً . ما كان ينبغي لك أن تخرج !

ـ أيبدو لك أمري عجيباً ؟

ـ نعم . عمّ كنت تبحث في الجرائد ؟

ـ في الجرائد ؟

ـ تتحدث الجرائد عن حرائق .

ـ نعم ، ولكن ليست الحرائق هي التي تهمني أنا !

قال ذلك ونظر الى زاميوتوف نظرة ملغزة ، وعادت بسمة ساخرة تعقف شفتيه ، ثم أضاف وهو يغمز بعينه :

ـ لا ، ليست الحرائق هي التي تهمني . اعترف أيها الشاب الشجاع أنك تحترق شوقاً الى أن تعرف ماذا كنت أقرأ !

ـ غير صحيح ! لقد ألقيت عليك ذلك السؤال كما يمكن أن ألقي عليك أي سؤال آخر . أليس من حق أحد أن يلقي سؤالاً ؟ ما بالك تبلغ دائماً هذا المبلغ من ...

ـ اسمع ، أنت رجل متعلم ، مثقف ، هه ؟

أجاب زاميوتوف بوقار :

ـ قطعت في المدرسة الثانوية ست سنين .

ـ ست سنين ؟ يا للفتى الظريف ! وله الى ذلك في شعره فرق ، وله في أصابعه خواتم ... هو رجل غني . يا للشاب اللطيف !

قال راسكولنيكوف ذلك وانفجر يضحك أمام أنف زاميوتوف

ضحكةً عصبية • فتراجع زاميوتوف الى وراء ، لا لأنه انزعج بل لأنه دهش •

كرر يقول بلهجة الجد :

ـ حقاً ان أمرك عجيب ! كأنك ما تزال تهذى !

ـ أنا ؟ أهذى ؟ أخطأ ظنك أيها الفتى الظريف ! • آ ••• أمرى عجيب ، هه ؟ ولكن لماذا لا تقول الكلمة التى تريد أن تقولها ، لماذا لا تقول اننى أحيّرك ؟ أحيّرك ، هه ؟

ـ فعلاً ••• تحيّرنى !

ـ الخلاصة ••• أنت تريد أن تعرف عمَّ كنت أبحث ، تريد أن تعرف ماذا كنت أقرأ ، أليس كذلك ؟ أنظر كم عدداً من الجرائد طلبت ! هذا يبعث على اشتباه قوى ، هه ؟

ـ هلاَّ قلت اذن !•••

ـ سأقول لك فيما بعد • أما الآن ، يا صديقى العزيز ، فاننى أعلن لك ••• عفواً ••• بل « اعترف » لك ••• لا ••• ليس هذا هو التعبير الصحيح ••• فانما التعبير الصحيح هو : « أدلى بافادتى ، وتسجل أنت » • نعم هذا هو التعبير الصحيح • وهأناذا أدلى لك بافادتى فأقول اننى أردت أن أقرأ ، أن أبحث ، أن أنقب ، وان أمعن فى التنقيب •••

هنا غمز راسكولنيكوف بعينيه وتوقف عن الكلام برهةً ثم استأنف يقول مدمدماً وهو يسرف فى تقريب وجهه من زاميوتوف :

ـ أن أمعن فى التنقيب ـ وأنا ما جئت الى هنا الا لهذا الغرض ـ عن جميع الأخبار التى تتصل بمقتل العجوز أرملة الموظف •

كان زاميوتوف يحدّق الى عينى راسكولنيكوف ، دون أن يقوم

بأية حركة ، دون أن يبعد وجهه عن وجهه • ان الشيء الذى أثار دهشة زاميوتوف بعد ذلك أكثر من كل ما عداه ، هو أن الصمت بينهما دام عندئذ دقيقة كاملة ، دون أن يكف أحدهما عن التحديق الى صاحبه والتفرس فيه •

صاح زاميوتوف فجأة وقد نفد صبره وأصبح لا يعرف ماذا يجب أن يظن :

ـ طيب ! وهل يعنينى أنا أن تقرأ أنت هذا النبأ أو ذاك من من الأنباء ؟

فدمدم راسكولنيكوف يقول دون أن يحرك ساكناً بسبب صيحة زاميوتوف :

ـ ان الأمر يتصل بتلك العجوز نفسها التى أغمى علىَّ فى قسم الشرطة منذ جرى الحديث عليها ، نعم ، لحظةَ جرى الحديث عليها • أفهمت الآن ؟

قال زاميوتوف وقد كاد يُجن جنونه :

ـ ماذا يجب أن أفهم ؟ ما الذى يجب أن أفهمه ؟

فما ان سمع راسكولنيكوف هذا حتى تبدل وجهه الهادىء الساكن فى ثانية واحدة ، ثم اذا هو ينفجر ضاحكاً كما انفجر ضاحكاً منذ قليل ، حتى لكأنه لا يستطيع أن يمسك عن الضحك • وفى مثل وميض البرق سرعةً ، طافت فى خياله بوضوح هائل ذكرى الاحساس الذى شعر به من قبل ، حين كان واقفاً وراء الباب ، ممسكاً ساطوره ، يرى المزلاج يتهزز ، بينما كان الرجلان ، فى الجهة الأخرى من الباب ، يشتمان ويحاولان فتح الباب ، فأحب هو على حين فجأة أن يهينهما ،

وأن يقيء لهم سيلاً من الشتائم ، وأن يمدّ لهما لسانه ، وأن يصعّر لهما وجهه ، وأن يضحك ، أن يضحك ، ان يضحك !

قال زاميوتوف :

ـ اما أنك مجنون ، واما أنك ...

ولكنه أمسك عن اتمام كلامه ، كأن فكرةً قد ومضت فى فكره على حين بغتة .

ـ واما ماذا ... اما ماذا ؟ ماذا ؟ هيّا ، قل !

قال زاميوتوف غاضباً :

ـ لا شيء . كل هذا سخف !

وصمت الاثنان .

ان راسكولنيكوف ، بعد انفجاره المفاجيء ، وضحكته العصبية ، قد أصبح حزيناً حالاً على حين فجأة . وها هو ذا يضع كوعيه على المائدة، ويسند رأسه بيده . لقد بدا عليه أنه نسى زاميوتوف نسياناً تاماً . ودام الصمت برهة طويلة .

قال زاميوتوف :

ـ لماذا لا تشرب الشاى ؟ سوف يبرد ...

ـ ماذا ؟ الشاى ؟ نعم ...

وحمل راسكولنيكوف الشاى الى شفتيه ، وازدرد لقمة من خبز ، حتى اذا ألقى بصره على زاميوتوف بدا عليه أنه تذكر كل شيء فجأة ، وأنه يطرد عنه خموده وخوره . وفى الوقت نفسه ، استرد وجهه ماكان يعبّر عنه منذ قليل من سخرية . واستمر يشرب الشاى .

قال زاميوتوف :

ـ أمثال هذه السرقات تتكاثر فى هذه الأيام . اليك هذا المثال : لقد قرأت فى الآونة الأخيرة فى « جريدة موسكو » أنه قُبض هناك على عصابة كاملة من مزيفى النقد . انهم شركة حقيقية تقوم بتزييف الأوراق المالية .

فأجابه راسكولنيكوف هادئاً :

ـ قرأت هذا منذ مدة طويلة . هذه قصة قديمة .

ثم أضاف مبتسماً :

ـ فى رأيك اذن أنهم لصوص محتالون !

ـ لصوص محتالون طبعاً !

ـ لصوص محتالون ؟ أما أنا فأرى أنهم أطفال ، أرى أنهم أغرار سذَّج ، لا لصوص محتالون . أهو أمر طبيعى أن يجتمع نحو خمسين شخصاً لغاية كهذه الغاية ؟ لو كانوا ثلاثة لكان عددهم هذا وحده كبيراً . وحتى فى هذه الحالة لا بد أن يكون كل واحد واثقاً بالاثنين الآخرين أكثر من ثقته بنفسه . اذ يكفى أن يزلّ لسان أحد منهم أثناء سكر ، فيثرثر قليلاً ، حتى يفسد الأمر كله . نعم ، سذَّج أغرار ! ولولا أنهم سذَّج أغرار لما عهدوا الى أناس لا يستحقون الثقة بأن يذهبوا الى البنوك يبدلون أوراقهم المالية . هل يُعهد بمهمة كهذه المهمة الى أى انسان ؟ ولنفرض الآن أن هؤلاء الأغرار قد نجحوا فأصبح كل واحد منهم يملك مليوناً . فماذا بعد ذلك ؟ هل يمكن أن يستمر هذا الى الأبد ؟ ان كل واحد سيظل رهناً بالآخرين مدى الحياة ! ألا ان الانتحار شنقاً خير من هذا ! ثم ان هؤلاء لم يحسنوا حتى تبديل أوراقهم المالية : ان الشخص الذى تقدم الى شباك الصرف فى البنك قد ارتعشت يداه ارتعاشاً قوياً حين قبض الخمسة آلاف روبل ؛ ثم لم يعدد الا أربعة

آلاف منها ، أما الألف الخامسة فقد أخذها على الثقة دون أن يعدَّها ، ولم يخطر بباله الا أن يدسَّها فى جيبه وأن يولىَّ هارباً بأقصى سرعة. لذلك أيقظ الريب والشبهة . ففسد الأمر كله بسبب ذلك الأبله . أهذا ممكن حقاً ؟

ـ أن تكون يداه قد ارتعشتا ؟ طبعاً ... هذا أمر يُتصوَّر . أنا أرى أن ذلك طبيعى جداً . هناك حالات يفقد فيها المرء سيطرته على نفسه ، اذ يكون الأمر فوق طاقته !

ـ مثلاً ؟

ـ أكان يمكنك أنت أن تحافظ على سيطرتك على نفسك فى حالة كتلك الحالة ؟ أنا على كل حال ما كان يمكننى أن أسيطر على نفسى ! كيف يرضى انسان أن يتعرض لمثل هذه المخاطرة فى سبيل مائة روبل ؟ كيف يمضى يبدِّل أوراقاً مالية مزيفة ؟ وأين ؟ فى بنك ، حيث الموظفون خبراء يعرفون كيف يكتشفون أى تزوير ! لا ، لا ، لو وقفت أنا ذلك الموقف لفقدت صوابى ! وأنت ؟ ألا تفقد صوابك فى حالة كتلك الحالة ؟

شعر راسكولنيكوف فجأةً ، مرة أخرى ، برغبة رهيبة فى أن « يمدَّ لسانه » استهزاءً ! وكانت تسرى فى ظهره رعدات أحياناً .

بدأ يتكلم فقال :

ـ أنا لو كنت فى مكان ذلك الرجل لتصرَّفت غير ذلك التصرف. اليك كيف كان يمكن أن أفعل : لو كان علىَّ أن أبدل تلك الأوراق المالية ، لرحت أعدُّ الألف الأولى مرة تلو مرة ، ثلاث مرات أو أربعاً ، وأنا أقلِّب كل ورقة على جميع الوجوه وأنظر اليها من جميع الجهات ؛ فاذا تناولت الألف الثانية أخذت أعدها حتى أصل الى النصف ، ثم سحبت من الحزمة ورقة بخمسين روبلاً فأخذت أفحصها فى الضوء

الساطع ثم أقلبها ثم أفحصها من جديد كأنني أخشى أن تكون مزيفه ، قائلاً للرجل : « انني شكاك قليلاً . ان لى قريبة قبضت ورقة مزيفة فاضاعت بذلك خمسة وعشرين روبلاً » ، ثم أروح أقص حكاية طويلة ؛ فاذا وصلت الى الألف الثالثة قلت له : « انتظر ! أظن أنني أخطأت في عدّ المائة السابعة ، هناك ، فى الألف الثانية » ، ثم تركت الألف الثالثة ورجعت الى الثانية ، وهكذا دواليك ... فاذا فرغت من العد ، عدت أسحب ورقةً كيفما اتفق ، من الألف الثانية مثلاً ، أو من الألف الخامسة ، وزحت أفحصها من جديد ، بالنظر اليها استشفافاً ، فاذا بشكوك تراودنى ، فأقول : « هل تستطيع ، من فضلك ، أن تعطينى ورقة غيرها بدلاً منها ؟ » ، وهكذا دواليك الى أن ينضح الرجل دماً وماءً ، والى أن يضيق بى ذرعاً فلا يدرى كيف يتخلص منى ، ثم انصرف ... لا ... عفواً ... لا أنصرف هكذا ببساطة ، بل أعود اليه فأستوضحه أمراً من الأمور ، وأسأله عن شيء من الأشياء . نعم ، كذلك كان يمكن أن أتصرف .

قال زاميوتوف وهو يضحك :

ـ حقاً انك لفظيع ! على أن هذا كله كلام . أما فى الواقع ، فلاشك أنك كنت ستفضح نفسك . هل تريد أن أقول لك رأيى ؟ اسمع اذن : فى رأيى أن أحداً لا يستطيع أن يسيطر على نفسه . وليس يصدق هذا عليك وعلىّ فحسب ، بل يصدق أيضاً على أكبر لص وأعظم وغد . اليك هذا المثال القريب : لقد قُتلت فى حيِّنا امرأة عجوز . يخيَّل الىّ أن الذى قتلها سفَّاح رهيب لم يحجم عن ارتكاب جريمته فى وضح النهار ، ثم تمكن أن ينجو بأعجوبة . ومع ذلك ارتجفت يدا ذلك القاتل : انه لم يحسن السرقة ، انه لم يصمد . الوقائع تبرهن على ذلك .

بدا الاستياء في وجه راسكولنيكوف .

ـ الوقائع تبرهن على ذلك ؟ حاولوا اذن أن تقبضوا عليه ! لاحقوه وطاردوه !

بهذا هتف راسكولنيكوف وهو ينظر الى زاميوتوف نظرة فيها احتقار واضح وفرح خبيث .

قال زاميوتوف :

ـ سنقبض عليه حتماً !

ـ من ؟ أنت ؟ تستطيع اذن أن تركض ...! أليس الأمر الرئيسي في نظرك هو أن تعرف هل الشخص الذي تشتبه فيه ينفق مالاً أم هو لا ينفق مالاً ؟ أنت تقول لنفسك: ان فلاناً لم يكن يملك في السابق مالاً ، وها هو ذا ينفق الآن كثيراً على حين فجأة ، فكيف لا يكون هو الجاني؟ ألا ان طفلاً صغيراً ليستطع اذن أن يضللك متى أراد !

أجاب زاميوتوف :

ـ هذا لا ينفي أنهم جميعاً يسلكون هذا السلوك . ان الجاني يرتكب جريمته بكثير من البراعة والحذق ، ويعرّض حياته للخطر ، ثم يُتيح للذين يتعقبوه أن يقبضوا عليه في حانة . انه أثناء انفاقه المال انما يُقبض عليه ... ليس جميع الجناة ماكرين مثلك . أنت ، مثلاً ، لا يمكن أن تذهب الى حانة ، اذا كنت قد ...

قطّب راسكولنيكوف حاجبيه وحدّق الى زاميوتوف بنظرة ثابتة. ثم قال متجهماً :

ـ يبدو أن لعابك يسيل شوقاً الى معرفة ما كان يمكن أن أفعله في مثل هذه الحالة .

فأجابه زاميوتوف برصانة ورزانة :

ـ نعم ، أتمنى أن أعرف ذلك .

وكان في صوت زاميوتوف وفي نظرته جدٌ مفرط .

سأله راسكولنيكوف :

ـ هل تتمنى ذلك كثيراً ؟

ـ كثيراً .

فبدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال لصاحبه وهو يقرب وجهه من وجهه مرة أخرى ، ويحدّق اليه بنظرة ثابتة من جديد ، قال بصوت هو نوع من التمتمة ، حتى ان صاحبه أحس هذه المرة برعدةٍ تسري في جسمه :

ـ فاسمع اذن ! اليك ما كان يمكن أفعله ! لو كنت أنا القاتل لأخذت المال والأشياء ، فخرجت من البيت فوراً دون أن أضيّع دقيقة واحدة ، ودون أن أدور في الشوارع دورة واحدة ، ومضيت الى مكان منعزل منزو هو حديقة محاطة بسياج مثلاً ، أو هو شيء من هذا القبيل . وأكون قد حددت سلفاً ، في تلك الحديقة أو في ذلك الفناء ، أكون قد حددت صخرة كبيرة وزنها ثلاثون رطلاً ، صخرةً لعلها موجودة في ذلك المكان منذ بناء المنزل ، فهأنا ذا الآن أزحزح تلك الصخرة التي لا بد أن تكون الأرض تحتها مقعرةً طبعاً ، وهأنا ذا أدفن المال والأشياء في هذا القعر ؛ حتى اذا انتهيت من دفنها ، ورددت الصخرة الى مكانها ، انصرفت لا ألوي على شيء ، ثم لبثت بعد ذلك سنةً أو سنتين أمتنع عن زيارة المكان وأخذ الغنيمة . هلمّ فابحث اذن ! ما رأيت ولا عرفت !

قال زاميوتوف الذي أخذ يدمدم دمدمة هو أيضاً ، دون أن يعرف لماذا ، قال وهو يتنحى بغتةً عن راسكولنيكوف :

ـ أنت مجنون !

سطعت عينا راسكولنيكوف ، واصفر وجهه اصفراراً رهيباً ، وارتجفت شفته العليا ، ومال حتى اقترب من زاميوتوف أكبر اقتراب ممكن ، وحرّك شفتيه دون أن ينطق كلمة واحدة ، وانقضى على هذه الحال نصف دقيقة •

كان راسكولنيكوف يعرف ماذا يفعل ، ولكنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه وأن يتحكم بسلوكه • ان كلمة رهيبة كانت تهمّ أن تنبجس من فمه ، كما كان المزلاج ، « فى ذلك اليوم » ، يهمّ أن يخرج من الرزة • كانت الكلمة توشك أن تفلت بين لحظة وأخرى ؛ كان راسكولنيكوف يوشك أن يطلقها ، أن ينطقها •

قال فجأة :

ـ ماذا لو كنت أنا قاتل العجوز واليزابت ؟

لكنه ثاب الى رشده ، وكبح جماح نفسه •

نظر اليه زاميوتوف مرتاعاً ، وانكفأ لونه حتى صار كغطاء المائدة بياضاً ، وتجعدت شفتاه بابتسامة ، وسأله بصوت لا يكاد يُسمع :

ـ ولكن أهذا ممكن ؟

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة خبيثة ، وقال له :

ـ اعترف بأنك صدّقت ، اعترف ، اعترف !•••

أسرع زاميوتوف يقول :

ـ لا لم أصدق قط ••• وأنا استبعد الآن ذلك أكثر مما استبعدته فى أى وقت مضى !

ـ وقع فى الفخ !• اذن لقد صدّقتَ فى يوم من الأيام ، ما دمت تقول انك تستبعده الآن أكثر مما استبعدته فى أى وقت مضى !

صاح زاميوتوف يقول مرتبكاً ارتباكاً واضحاً :

ـ لا ... أبداً ! ... آه ... أمن أجل أن تصل الى هذه النتيجة أخفتني ؟

ـ أأنت لا تصدّق اذن ؟ فعمً تكلمتم ، في ذلك اليوم ، حين خرجت أنا من القسم ؟ ولماذا أخذ الليوتنان « بارود » يستجوبني بعد صحوي من الاغماء ؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم صرخ ينادي خادم الحانة وهو ينهض ويتناول قبعته :

ـ هيه ! أنت ! الحساب !

هرع الخادم اليه قائلاً :

ـ ثلاثون كوبكاً .

ـ خذ ، وهذه عشرون أخرى بقشيشاً !

ثم قال لزاميوتوف وهو يمد اليه يداً مرتعشة ملأى بأوراق مالية :

ـ أرأيت ؟ أوراق حمراء ، وأوراق زرقاء ! * المجموع : خمسة وعشرون روبلاً ! فمن أين جاءتني هذه الأوراق ؟ ومن أين جاءتني ثيابي الجديدة ؟ أنت تعلم أنني لم أكن أملك كوبكاً واحداً . أراهن على أنك استجوبت صاحبة البيت الذي أقيم فيه ! ولكن كفى الآن ! « كفى حديثاً » * !... الى اللقاء . لك خالص تمنياتي !

وخرج راسكولنيكوف مختلجاً بنوع من احساس غريب ، احساس هستري ، تخالطه مع ذلك لذة عظيمة . ولكنه ظل في الواقع متجهم النفس خائر القوة . كان وجهه متقلصاً ، كأنه خارج من نوبة . وازداد اعياؤه بسرعة . انه الآن ، عند كل احساس جديد ، وعند كل صدمة جديدة ، تستيقظ فيه قواه وتعود اليه ، ولكن قواه هذه ما تلبث أن تخور بسرعة أيضاً ، مع زوال الصدمة وامحاء الاحساس .

وحين أصبح زاميوتوف وحيداً ، لبث جالساً الى تلك المائدة نفسها مدة طويلة ، غارقاً في تامله . ان راسكولنيكوف قد قلب له جميع أفكاره فيما يتعلق بنقطة معينة رأساً على عقب ، دون أن يعرف ذلك ، وجعل رأيه يستقر استقراراً لا عودة عنه ، ويثبت ثباتاً لا يتزحزح . قال لنفسه جازماً : « ان ايليا بتروفتش غبى ! » .

ما كاد راسكولنيكوف يفتح باب الحانة المفضى الى الشارع ، حتى كان رازوميخين على درجات المدخل يهمُ أن يدخل . ولكن الصديقين لم يرَ أحد منهما صاحبه ، رغم أن المسافة بينهما خطوة واحدة ، حتى لقد أوشك رأساهما أن يتصادما . ولبثا لحظة يشمل كل منهما صاحبه بنظره . لقد ذُهل رازوميخين ذهولاً ليس بعده ذهول . غير أن غضباً مفاجئاً شديداً لم يلبث أن سطع في عينيه ببريق رهيب .

زأر يقول بصوت عال :

ـ آه ... أهنا أنت ؟ قام عن سريره ، هرب من بيته ! أتعرف أنني بحثت عنك حتى تحت السرير ؟ بل لقد صعدنا الى السقيفة نبحث عنك ! وأوشكت بسببك أن أضرب ناستاسيا ! انظروا أين هو ! روديا ، ما معنى هذا ؟ قل لى الحقيقة كلها ! اعترف ! هل تسمع ؟

أجابه راسكولنيكوف بهدوء :

ـ معناه أنني سئمتكم جميعاً الى حد الموت ، وأنني أريد أن أكون وحيداً .

ـ وحيداً ؟ بينما أنت عاجز حتى عن المشى ، بينما وجهك أصفر كوجه الأموات ، بينما أنت تختنق طول الوقت ؟ ألا انك لأبله ! ماذا جئت تعمل في « قصر الكريستال » ؟ اعترف ، اعترف فوراً !

ـ اتركني .

كذلك قال راسكولنيكوف ؟ وأراد أن يمشى متخطياً رازوميخين

فغضب رازوميخين غضباً شديداً ، وخرج عن طوره ، فأمسك صاحبه من كتفه امساكاً قوياً ، وصاح يقول له :

ـ أتركك ؟ أتجرؤ أن تقول : « أتركنى » ! اسمع اذن : هل تعرف ما أنا فاعل بك ؟ سوف اقبض عليك بذراعى ، فأربطك بحبل كما تُربط صرَّة ، ثم أنقلك الى البيت فأحبسك فيه مقفلاً عليك الباب بالمفتاح !

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فى رفق ، فقال بلهجة تبدو هادئة كل الهدوء :

ـ اسمع يا رازوميخين ! ألست ترى اذن أننى لا أريد نعمك وأياديك علىَّ ؟ ما حاجتكم دائماً الى أن تتمرروا بالنعم أولئك الذين لا يعبأون بها ، أولئك الذين لا يستطيعون حقاً أن يحتملوها ؟ لماذا سعيت الىَّ فى بداية مرضى ؟ لعله كان يسعدنى جداً أن أموت . أفلم أُفهمك اليوم افهاماً كافياً أنك تعذبنى ، وأنك... تزعجنى وتضايقنى؟ ما حاجتكم هذه دائماً الى تعذيب الناس ؟ أؤكد لك أن هذا كله يؤخر شفائى ، لأنه يجعلنى فى حالة اهتياج متصل . انظر الى زوسيموف : لقد انصرف حتى لا يهيجنى . فاتركنى بسلام أنت أيضاً ، ناشدتك الله ! ثم أى حق لك فى أن تحتجزنى بالقوة ؟ ألا ترى أننى أملك عقلى كاملاً وأنا أكلمك فى هذه اللحظة ؟ قل لى : بأية وسيلة أستطيع أن أمنعك من التشبث بى بعد الآن ، وأن أحملك على ألا تغدق علىَّ نعمك وآلاءك هذه ؟ افرضْ اننى عقوق ، افرض اننى أسوأ الناس طراً ؛ ولكن دعونى ، دعونى جميعاً ، ناشدتكم الله ، دعونى ، دعونى !

كان راسكولنيكوف قد بدأ كلامه بلهجة هادئة ، متلذذاً منذ ذلك الحين بالسمِّ الذى سينفثه ، ولكنه أنهى حديثه مهتاجاً خارجاً عن طوره

محتبس الأنفاس مختنق الصدر ، كما حدث له ذلك منذ قليل مع لوجين .

فكّر رازوميخين لحظةً ثم ترك ذراع صاحبه ، وقال له بهدوء ، شاردَ الفكر تقريباً :

ـ اذهب الى الشيطان !...

فلما همّ راسكولنيكوف أن ينصرف ، زأر يقول له فجأة :

ـ انتظر ! أصغ اليّ ! اننى أعلن لك أنكم جميعاً ، من أولكم الى آخركم ، لستم الا ثرثارين صغاراً ، ومتبجحين تافهين! انكم ما ان يصيبكم شر يسير حتى تحضنوه كما تحضن الدجاجة بيضها . وحتى فى هذا انما أنتم تسرقون من الكتاب الأجانب! ليس فيكم ذرة من حياة ، ليس فيكم ذرة من حياة شخصية أصيلة ! ليس ما يجرى فى عروقكم دماً بل مصالة . ما من أحد منكم يوحى اليّ بالثقة . همُّكم الأول فى جميع الظروف هو أن لا تسلكوا سلوك رجال ...

وهنا رأى أن راسكولنيكوف يهمُّ أن ينصرف مرة أخرى، فصرخ يقول وقد تضاعف غضبه وحنقه :

ـ ق ... ف ! أصغ اليّ حتى النهاية ! أنت تعلم أننى احتفل الليلة بانتقالى الى المسكن الجديد . وربما كان ضيوفى قد وصلوا ... على أننى تركت هنالك عمى لاستقبالهم (كذلك أسرع يضيف) ... فاذا لم تكن أبله ، اذا لم تكن أبله كل البلاهة ، اذا لم تكن أبله متكبراً، هذه ترجمة عن لغة أجنبية لا أدرى أية لغة هى ... اسمع يا روديا ، أنا أعلم أنك فتى ذكى ، ولكن هذا لا ينفى أنك أبله ... فاذا لم تكن أبله ، فان مجيئك اليّ لقضاء السهرة عندى خير لك من أن تُبلى نعلى

حذاءيك متسكعاً فى غير طائل ، ما دمت قد خرجت !... وسآتيك بمقعد مريح رخص ... ان عند أصحاب البيت الذى أقيم فيه مقعداً من هذا النوع ... وتشرب فنجاناً من الشاى ، وتجالس الناس ... بل هناك ما هو خير من هذا : سأرقدك على مضجع ، ولكنك تكون بيننا على الأقل ... وسيجىء زوسيموف أيضاً ... سوف تأتى ، هه ؟

ـ لا .

هتف رازوميخين يقول نافد الصبر :

ـ لا تقل هذا . أنت لا تعرف نفسك . ثم انك لا تفهم من شئون الحياة شيئاً . لقد حدث لى ألف مرة أن بصقت على الناس ، ثم هرولت أسعى وراءهم . سوف تخجل من هذه العواطف ، وسوف ترجع الى البشر . تذكر عنوانى اذن : عمارة بوتشنكوف ، الطابق الثانى .

ـ يخيَّل الىَّ حقاً يا سيد رازوميخين أنك مستعد لأن تُضرب فى سبيل أن يكون لك على أحد فضل ومنة .

ـ أنا ؟ لا بل اننى مستعد لأن أجدع أنف من توسوس له نفسه بذلك !

ـ لن أجىء يا رازوميخين .

قال راسكولنيكوف ذلك ثم استدار وانصرف .

صرخ رازوميخين يقول وراءه :

ـ أراهن على أنك ستجىء ... والا لم أكن أنا أنا ... اسمع : هل زاميوتوف فى الحانة ؟

ـ نعم .

ـ رأيته ؟

ـ رأيتُه .

ـ وكلمته ؟

ـ كلمتُه .

ـ عمَّ كلمته ؟ هيَّا ، لا تقل اذا كنت لا تريد ان تقول . شيطان يأخذك ! العنوان : عمارة بوتشنكوف ، رقم ٤٧ ، بيت بابوشكين . تذكر العنوان !

مضى راسكولنيكوف حتى شارع سادوفايا ثم انعطف وغاب . وقد تابعه رازوميخين بنظره شارد الفكر حالماً ، ثم رفع كتفيه تعبيراً عن عدم الاكتراث ، ودخل ، لكنه لم يلبث أن توقف على السلَّم ، وقال يحدث نفسه بصوت عالٍ : « شيطان يأخذه ! انه يتكلم كما يتكلم انسان سليم العقل ، ومع ذلك يشبه أن يكون ... ولكن ما أغباني ! ألا يتكلم المجانين كلاماً معقولاً جداً ؟ ثم ان ذلك بعينه هو ما يخشاه زوسيموف فيما يخيَّل الىَّ ... » . وهنا لطم رازوميخين جبينه بيده متسائلاً : « ما عسى يحدث لو ... كيف أتركه وحيداً فى هذه اللحظة ؟ ان من الجائز جداً أن يلقى بنفسه فى الماء . آه ... لقد ارتكبت حماقة كبيرة ! ما كان ينبغى أن أتركه ينصرف ! » .

وأسرع رازوميخين يلاحق راسكولنيكوف ، ولكن لم يكن قد بقى لراسكولنيكوف أثر .

بصق رازوميخين على الأرض ، وقفل راجعاً الى « قصر الكريستال » بخطى واسعة ليسأل زاميوتوف بأقصى سرعة .

مضى راسكولنيكوف قُدماً الى جسر « س ... » * ، فتوقف فى وسط الجسر ، ووضع كوعيه على افريزه ، وأخذ ينظر الى بعيد . انه بعد أن ودَّع رازوميخين قد بلغ من الضعف والاعياء والوهن أنه لم يجرّ ساقيه الى هذا الموضع الا فى كثير من المشقة والعناء . تمنى لو يجلس فى أى مكان ، تمنى لو يرقد فى عرض الشارع !

مال راسكولنيكوف على الماء ، وأخذ ينظر ، على غير شعور ولا ارادة ، الى أواخر الانعكاسات الوردية لأشعة الشمس الغاربة ، والى صف المنازل التى يغشاها الغسق رويداً رويداً • هذه غرفة بعيدة من الغرف التى تقع تحت السقوف تلتمع نافذتها وتتوهج ، تحت شعاع الشمس الساقط عليها • وهذا ماء القناة يظلم مزيداً من الاظلام شيئاً بعد شيء • كان راسكولنيكوف يبدو كأنه ينظر بانتباه • ثم اذا بدوائر حمراء تأخذ تدور أمام عينيه ، واذا بكل شيء بعد ذلك ، اذا بالمنازل والمارّة والأرصفة والعربات تأخذ تدور من حوله وتتراقص• وها هو ذا يرى على حين فجأة مشهداً رهيباً فظيعاً فاذا هو يرتجف فينجو من الاغماء • كان قد أحسّ أن أحداً وقف بقربه ، فنظر فرأى امرأة فارعة الطول ، على رأسها خمار ، صفراء الوجه ، هزيلة ، عيناها حمراوان غائرتان فى حجاجيهما من السكر • كانت المرأة تنظر اليه فى عناد ، ولكن كان واضحاً أنها لا تبصر شيئاً ولا تميز أحداً • وها هى ذى تضع ساعدها قائماً على الافريز ، ثم ترفع قدمها اليمنى فتخطو خطوة فوقه وتتبعها بالقدم اليسرى فتلقى بنفسها فى الماء • دوّى الماء الموحل من صدمة سقوطها ثم ابتلع فريسته على الفور ، ولكن المرأة الغريق لم تلبث أن طفت على السطح بعد دقيقة واحدة ، ثم جرت مع التيار غاطسة الرأس والقدمين ، طافية الظهر ، قد انتفخ ثوبها فكأنه لحاف •

صرخت عشرات من الأصوات :

ـ انها تغرق ، انها تغرق !

فهرع الناس ، فسرعان ما امتلأ بهم الرصيفان ، واحتشد الجمهور على الجسر حول راسكولنيكوف يصدمه ويعصره عصراً •

وهتفت امرأة تقول ، من مكان غير بعيد ، بصوت نادب شاك :

ـ رباه ! هذه أفروزينيوشكا • أنقذوها أيها الأخيار الطيبون ! انقذوها !

وأخذ بعض المحتشدين يصرخون :

ـ علينا بقارب ، علينا بقارب !

ولكن لم يبق ثمة داع الى قارب : فان شرطياً من شرطة المدينة أسرع يهبط سلماً يفضى الى القناة ، ثم خلع معطفه وحذاءيه ، وألقى بنفسه فى الماء ، ولم يلق عناءً كبيراً فى اللحاق بالمرأة الغريق ، فان تيار الماء قد حملها حتى صارت على بعد خطوتين من الضفة ، فما هى الا أن قبض على ثوبها بيده اليمنى ، وأمسك باليد اليسرى عصا مدّها اليه زميل له ، حتى أُخرجت المرأة من الماء ، وأُضجعت على الدرجات الصخرية • ولم تلبث أن ثاب اليها وعيها ، فنهضت ، وجلست ، وأخذت تعطس وتشخر وتعصر ثيابها المبتلة مروّعةً مبهوتة • ولم تنطق بكلمة واحدة•

أعولت تلك المرأة نفسها قائلةً ، قرب أفروزينوشكا فى هذه المرة:

ـ لقد ركبها ألف عفريت أيها الاخوة • حاولت منذ مدة أن تشنق نفسها ، فأخرجنا عنقها من الحبل • ومضيتُ اليوم الى البقال بعد أن أوصيت الصغيرة بمراقبتها ، فاذا بالمصيبة تقع •• هى جارتنا يا أخى، جارتنا • نحن نسكن فى مكان قريب ، فى العمارة الثانية ، هناك ، آخر الشارع •••

تفرق الحشد ، وظل الشرطيان منهمكين حول المرأة الغريق • وهذا صوت يصرخ متكلماً عن شيء يتصل بقسم شرطة ••• ان راسكولنيكوف ينظر الى هذا كله وهو يحس احساساً غريباً بعدم الاهتمام وقلة الاكتراث • وها هو ذا يشعر بنفور وتقزز ، ثم يقول مجمجماً : « لا ، لا ، هذا شيء يدعو الى الاشمئزاز ••• الماء ••• لا فائدة منه ••

لن يحدث شيء ••• ما فائدة الانتظار اذن ؟ أما قسم الشرطة ••• ولكن لماذا غاب زاميوتوف عن القسم ؟ ان مكاتب قسم الشرطة تظل مفتوحة حتى الساعة التاسعة » • وأدار راسكولنيكوف ظهره للافريز ، ونظر حواليه • ثم قال بلهجة جازمة : « لِمَ لا ؟ ليكن ! » • وغادر افريز الجسر وسار متجهاً الى قسم الشرطة • كان قلبه خالياً مغلقاً • كان لا يريد أن يفكر • حتى القلق تبدد • لم يبق فى نفسه أثرٌ من انتفاضة القوة تلك التى أخرجته من غرفته « لينتهى من الأمر » • وحلّ محلّ تلك القوة خمولٌ وخمود وتبلد •

قال لنفسه وهو يسير على رصيف الجسر بملل وكسل وتوانٍ : « نعم ، هذا أيضاً حل • سأنتهى من الأمر مع ذلك ، لأننى أريد أن انتهى منه • ولكن هل هذا هو الحل حقاً ؟ آه ••• لا ضير ••• سيبقى لى موطىء قدم من الأرض أقف عليه • ولكن يا لها من نهاية ! هل يمكن أن يكون هذا نهاية ؟ أأقول لهم الأمر أم لا أقوله ؟ ولكن دعنا من هذا ! اننى متعب مكدود مرهق • يجب أن أضطجع حالاً ، يجب أن أقعد فى مكان ما • أعجب ما فى الأمر أن هذا كله غباء ! هيّا ، ابصقْ على هذا أيضاً ! آه ••• ما أكثر الحماقات التى يمكن أن تساور فكرنا أحياناً ! » •

كان على راسكولنيكوف ، من أجل الوصول الى قسم الشرطة ، أن يمضى فى أول الأمر قُدُماً ، ثم أن يلتفت يسرةً عند الشارع الثانى • ولكنه توقف قبل أن يصل الى العطفة الأولى ، وفكّر ، ودخل فى زقاق ضيق ، ثم تجول فى شوارع أخرى ، ربما بدون نية محددة تماماً ، ولكن ربما ليهب لنفسه مهلة جديدة أيضاً ، ليكسب فسحةً من وقت • كان يسير مطرقاً الى الأرض • وفجأة أحسّ كان أحداً يهمس فى أذنه ،

فرفع رأسه ، فوجد نفسه أمام « تلك » العمارة ، أمام مدخلها تمـاماً . انه منذ « ذلك » المساء لم يكن قد عاد الى المكان .

وهذه رغبةٌ لا سبيل الى مقـاومتها ولا يمكن تفسـيرها ، تسيطر عليه وتستبد به . دخل العمارة ، ونفذ الى الباب الأول ، الباب الأيمن ، وأخذ يصعد السلّم الذى يعرفه جيداً ، حتى وصل الى الطابق الثالث . كان ظلام حالك يلف السلّم الوعر الضيق . وقد توقف راسكولنيكوف على فسحة السلّم عند كل طابق ، فكان ينظر حواليه مستطلعاً مشوقاً . هذا زجاج النـافذة فى الطابق الأرضى قد أُبدل . قال راسـكولنيكوف يحدث نفسه : « انه لم يكن هكذا فى ذلك اليوم » . ثم وصل الى المسكن الذى يقع فى الطابق الأول حيث كان يعمل نيقـولا ودمترى . « البيت مغلق ، وقد أُعيد دهن الباب . معنى ذلك أن البيت معد للايجار » . وهذا هو الطابق الثانى ، ثم هذا هو الطابق الثالث . « هنا » . توقف راسكولنيكوف مسمـّرا : كان باب البيت مفتوحاً تماماً ، وكان فى البيت ناس ، ان كلامهم مسموع . لم يكن راسكولنيكوف يتوقع هذا . وبعد تردد قصير ، صعد الدرجات الأخيرة ، ودخل البيت .

انه يـُجدَّد أيضاً . ان فيه عمالاً . بدا راسكولنيكوف كالمذهول. لقـد كان يتصـور ، دون أن يدرى لماذا ، أنه سيجد البيت كمـا تركه تماماً ؛ حتى الجثتين كان يتصور أنه سيجدهما راقدتين على أرض الغرفة فى ذلك الموضع نفسه . فماذا يرى الآن : جدراناً عارية ، وما من أثاث! ما أغرب هذا ! تقدم نحو النافذة وجلس على حافتها .

لم يكن هنالك الا عاملان اثنان . انهما شابان ولكن أحدهما أكبر سناً من الثانى بكثير . كانا يفرشـان الجـدران بورق أبيض ذى أزهار صغيرة بنفسجية ، بدلاً من الورق القديم الأصفر الحائل الممزّق . شعر

راسكولنيكوف من ذلك بأسف . وأخذ ينظر الى الورق الجديد مغتاظاً ، كأنه يتحسر على أن تغيراً قد حدث .

يبدو أن العاملين قد أطالا يوم عملهم . وهما الآن يرتبان لفافات الورق ، ويستعدان للعودة الى المنزل . لم يلفت ظهور راسكولنيكوف انتباههما . صالب راسكولنيكوف ذراعيه على صدره وراح يصغى الى حديثهما .

قال الأكبر للأصغر :

ـ جاءتنى منذ الفجر ، لابسةً أجمل الثياب . قلت لها : « مالك تغنجين هذا الغنج » ، فقالت لى : « أريد بعد الآن يا تيتى فاسيلتش أن أكون لك جسماً وروحاً ! » . أسمعت ؟ وليتك رأيت الثياب التى كانت تلبسها . لكأنها صورة من صور الموضة ، صورة حقيقية من صور الموضة .

سأله الأصغر :

ـ وما صورة الموضة هذه يا عزيزى ؟

كان واضحاً أن الأصغر يتتلمذ على الأكبر .

ـ صورة الموضة واحدة من تلك الصور الملونة التى تصل الى الخياطين بالبريد من الخارج كلَّ سبت . والغاية منها أن تُرى الناس كيف يجب أن يلبسوا ، رجالاً ونساءً . هى رسم . فأما الرجال فثيابهم هى الردنجوت ، ولكن يجب أن ترى قسم ثياب النساء .. هناك حدِّث ولا حرج ... مهما تقل عنها فلن توفيها حقها !...

هتف الأصغر يقول مفتوناً بهذا الحديث :

ـ ما أكثر ما يراه المرء فى « بيتر » * هذه ! ان المرء يرى فيها كل شىء حقاً ، عدا امه وابيه !

قال الأكبر فى رصانة :

ــ نعم ، يرى كل شىء عدا أمه وأبيه !

نهض راسكولنيكوف ومضى الى الغرفة الثانية التى كانت فى الماضى تضم الصندوق والسرير والخزانة ذات الأدراج . فلما رآها خالية من الأثاث بدت له صغيرة صغراً رهيباً . لم يُبدل ورق جدرانها . وفى الركن ، يُرى المكان القديم الذى كانت فيه الأيقونات . نظر راسكولنيكوف حواليه ، ثم عاد الى النافذة يجلس على حافتها . نظر اليه العامل الكبير نظرة شزراء وسأله بخشونة :

ــ ماذا تفعل هنا ؟

ولكن راسكولنيكوف لم يجبه ، بل نهض وخرج الى فسحة السلم ، فأمسك بحبل الجرس وشده . هو ذلك الجرس نفسه ، وهو ذلك الرنين نفسه . شد الجرس مرة ثانية فمرة ثالثة . فكان يصغى ويتذكر . عاوده الاحساس الذىشعر به فى ذلك اليوم ، ذلك الاحساس الغريب الكاوى ، عاوده بحدة ما تنفك تقوى شيئاً بعد شىء . فكان يرتعش كلما رن الجرس مرة جديدة ، وكانت لذته تزداد .

صرخ العامل يقول وهو يمضى اليه ممتعضاً :

ــ ماذا تريد ؟

فعاد راسكولنيكوف الى الغرفة . وقال :

ــ أنا أبحث عن مسكن أستأجره ، وقد جئت أرى هذا البيت !

قال العامل :

ــ ما من أحد يزور مسكناً فى الليل . ثم ان عليك أن تصطحب البواب ...

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال :

ـ أرى أن الأرض قد غُسلت . هل سيُعاد دهنها ؟ لم يبق دم .

ـ دم ؟

ـ لقد قُتلت العجوز واختها . كان ههنا بركة دم ...

صاح العامل يقول قلقاً :

ـ ولكن من أنت ؟

ـ أنا ؟

ـ نعم أنت .

ـ تريد أن تعرف ؟ تعال معى اذن الى قسم الشرطة . هناك ساقول لك من أنا .

نظر العاملان كلٌّ منهما الى الآخر مبهوتين . وقال الآكبر للأصغر :

ـ هلمَّ ... لقد آن لنا أن ننصرف ، حتى لقد تاخرنا . هيَّا يا أليوشا ! يجب أن نغلق ...

قال راسكولنيكوف بلهجة طلقة :

ـ هلموا ننصرف !

وخرج أول الخارجين ، وهبط السلَّم ، حتى اذا وصل الى الباب المطل على الفناء ، صرخ ينادى البواب :

ـ هيه ! يا بواب !

وكان يقف عند باب العمارة عدة أشخاص ينظرون الى المارّة هم البوابان وامرأة وتاجر صغير يرتدى ثوباً من ثياب المنزل ، وأناس آخرون . مضى راسكولنيكوف اليهم قُدماً .

سأله أحد البوابين :

ـ ماذا تريد ؟

ـ هل ذهبت الى قسم الشرطة ؟

ـ عدت منه منذ برهة • ماذا تريد ؟

ـ أما يزالون هناك ؟

ـ ما يزالون هناك •

ـ وهل كان مساعد مفوّض الشرطة هناك أيضاً ؟

ـ وكان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضاً • ماذا تريد ؟

لم يجب راسكولنيكوف وتسمَّر بين الواقفين حالما •

اقترب العامل الكبير وقال :

ـ جاء يرى البيت •

ـ أي بيت ؟

ـ البيت الذى نعمل فيه • سألنا : « لماذا غُسل الدم ؟ » • ثم قال : « ارتكبت هنا جريمة قتل ، وأنا أريد أن أستأجر البيت » • وقد أخذ يشد حبل الجرس ، حتى كاد ينتزعه • ثم قال : « هلموا بنا الى قسم الشرطة ، فسأقول لكم هناك كل شيء » ، وألحَّ في هذا •

نظر البواب الى راسكولنيكوف متحيراً مرتاباً •

ثم صرخ يسأله مهدداً :

ـ ولكن من أنت ؟

ـ روديون رومانوفتش راسكولنيكوف ، طالب سابق • وأسكن قريباً من هنا ، في زقاق مجاور ، عمارة شيل ، شقة ١٤ ؛ اسأل عني بواب العمارة • انه يعرفني •

قال راسكولنيكوف ذلك كله بلهجة وانية ، شاردَ الفكر ، حتى دون أن يلتفت ، فقد كان يحدّق الى الشارع الذى اجتاحه الظلام منذ الآن .

ـ ولماذا جئت الى هذا البيت ؟

ـ لأراه .

ـ ما رأيك فى أن نقتادك الى قسم الشرطة ، هه ؟

كذلك قال التاجر الصغير فجأة ، ثم أسرع يصمت .

نظر اليه راسكولنيكوف من فوق كتفه ، وتفرس فيه بانتباه ، ثم قال له بلهجة ما تزال وانية هادئة :

ـ موافق ، هلمّوا بنا الى قسم الشرطة !

استأنف التاجر الصغير كلامه فقال بثقة أكبر :

ـ نعم ، يجب اقتياده الى قسم الشرطة . لئن جاء « لهذا » الغرض ، فان ذلك يدل على أن هناك شيئاً يشغل باله ، أليس كذلك ؟

جمجم العامل يقول :

ـ أهو سكران أم لا ؟ الله وحده يعلم !

وعاد البواب يصرخ وقد أخذ يغضب حقاً :

ـ ولكن ماذا دهاكم جميعاً ؟ وأنت ، ما مجيئك الينا لتزعجنا هذا الازعاج ؟

قال راسكولنيكوف ساخراً :

ـ ها ... انك تخاف الذهاب الى قسم الشرطة !

ـ ممَّ عسانى أخاف ؟ ولكن لماذا تأتى الينا فتزعجنا هذا الازعاج ؟

قالت المرأة :

ـ هذا لص !

فقال البواب الآخـر ، وهو فلاح ضخم يرتدى معطفاً فضـفاضاً ، ويحمل مجموعة من المفاتيح معلقة بحزامه :

ـ نعم ، علام نناقشـه ؟ اخـرج من هنـا أيها المتشرد ••• هيّا انصرف • اقول لك انصرف !

ثم أمسك راسكولنيكوف من كتفـه ، ورماه الى الخارج ، فترنح راسكولنيكوف وكاد يهوى على الأرض ولكنـه لم يسـقط ، ثم انتصب ونظر الى جميع الشاهدين صامتاً ثم مضى •

قال العامل :

ـ انسان عجيب !

فعقبت المرأة قائلة :

ـ جميع الناس عجيبون فى هذه الأيام !

وأضاف التاجر الصغير يقول :

ـ كان ينبغى أن نقتاده الى الشرطة مع ذلك •

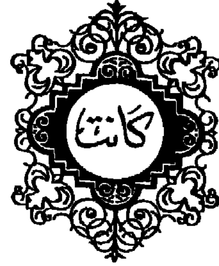
فقال البواب الكبير يحسم المناقشة :

ـ علام نقتـاده الى الشرطة ؟ هو محتـال ما في ذلك ريب ، ولو اقتدناه الى الشرطة لما عرفنا كيف نتخلص منه ، أنا أعرف أمثال هؤلاء الناس !•••

تساءل راسـكولنيكوف وهو يقف فى عرض الطريق عند احـد المفـارق وينظر الى ما حوله كأنه ينتظر أن يهديه أحد الى الحل الحاسم والقول الفصل : « أأذهب الى الشرطة أم لا أذهب ؟ » • ولكن ما من جواب جاءه من أى مكان • كان كل شىء أصمّ ميتاً كالحجارة التى كان

يسير عليها .. ميتاً بالنسبة اليه وحده . وها هو ذا يلمح فجاةً ، فى بعيد، على مسافة مائتى خطوة ، فى آخر الشارع ، فى الظلام المتزايد، ها هو ذا يلمح احتشاداً ، ويسمع جلبةً وصراخاً . وكانت تقف عربة فى وسط الجمهور المحتشد . دار راسكولنيكوف يمنةً واتجه نحو الحشد . كان يبـدو حقـاً أنه يريد أن يتشبث بأى شىء ، فلما أدرك هو ذلك ضحك فى فتور ، لأنه كان يعرف أن قراره فيما يتعلق بالشرطة قد اتُخذ وانتهى الأمر ، وكان يعلم علم اليقين أن كل شىء سيكون قد انتهى بعد قليل .

الفصل السابع



تقف في وسط الشارع عربة انيقة من عربات السادة ، قد قُرن بها حصانان اشهبان قويان ثائران . وكانت خاليةً قد نزل حوذيها عن مقعده ووقف الى جانبها يشد الحصانين باللجام ؛ وقد تجمهر حولها عدد كبير من الناس ، وراء حاجز من رجال الشرطة. وكان أحد رجال الشرطة يحمل بيده مصباحاً مشتعلا قد مال به الى تحت يضيء بنوره شيئاً كان يوجد على أرض الشارع ملتصقاً بالعجلات. وكان جميع الناس يتكلمون ويصرخون ويصيحون ، وكان الحوذى مضطرباً يردّد بين الفينة والفينة قوله :

ـ يا للمصيبة ! رباه ! يا للمصيبة !

استطاع راسكولنيكوف أن يشق لنفسه ممراً ، فأفلح أخيراً فى أن يرى ذلك الشيء الذى يثير هذا الاضطراب القوى وهذا الفضول الشديد . انه رجل يرقد على الأرض دامياً مغشياً عليه يرتدى ثياباً فقيرة رثة لكنها من ثياب « السادة » ، قد داسه الحصانان ، فالدم يسيل من جمجمته ومن وجهه المثخن المهشم المحطم . كان واضحاً أن الحادث خطير .

صاح الحوذى نادباً شاكياً :

ـ يا رب السماء ! كيف كان يمكن أن أتفاداه ! لا العربة كانت مسرعة ، ولا أنا سكت فلم أصرخ منبّهاً ! كانت العربة تسير فى رفق ، كان تسير على مهل . جميع الناس رأوا ذلك . ان كنت أكذب فقد كذب اذن جميع الناس . ولكن السكران لا يرى حتى فى وضح النهار ... هذا معروف . أبصرته يجتاز الشارع مترنحاً حتى ليكاد يتهاوى على الأرض من شدة السكر . صرخت أنبّهه ، مرةً ، مرتين ، ثلاث مرات ... ولجمت الحصانين ، ولكن ها هو ذا يمشى اليهما قُدُماً فيسقط بين حوافرهما ... فاما أنه فعل ذلك عامداً ، واما أنه قد بلغ منه السكر كل مبلغ ... وحصاناى مهران صغيران عصبيان ، فها هما يجمحان ، وهما هوذا يصرخ فيزداد جموحهما فتقع المصيبة ...

قال أحد شهود الحادث :

ـ نعم ، ذلك ما حدث .

وقال صوت آخر :

ـ نعم ، لقد صرخ الحوذى ، صرخ ثلاث مرات .

وقال ثالث مؤيداً :

ـ نعم ، ثلاث مرات ، جميع الناس سمعوا ...

على أن الحوذى لم يكن منهار العزيمة ولا شديد الخوف . وكان واضحاً أن المركبة يملكها شخص ثرى لا بد أنه كان ينتظر وصولها فى مكان ما . وهذه حقيقة لم تغرب عن بال رجال الشرطة طبعاً ، ولا أسقطوها من الحساب . لم يبق اذن الا أن يُنقل المصاب الى قسم الشرطة والى المستشفى . ولم يكن أحد يعرف اسمه .

فى أثناء ذلك ، كان راسكولنيكوف قد تسلل الى وسط الجمهور ،

ومال على الأرض ، فاذا بالمصباح الصغير يضيء وجه الشقي على حين فجأة ، واذا براسكولنيكوف يتعرفه فوراً .

صرخ يقول وهو يندفع الى الصف الأول :

ــ أنا أعرفه ! أنا أعرفه ! هو موظف محال على التقاعد ، هو الموظف مارميلادوف . انه يسكن قريباً من هنا ، في عمارة كوسل ... اسرعوا ، نادوا طبيباً ! سأدفع ! خذ ...

قال ذلك وأخرج من جيبه مالاً فعرضه على احد رجال الشرطة . كان راسكولنيكوف في حالة اضطراب تبعث على الدهشة .

سُرَّ رجال الشرطة بمعرفة شخص المصاب . وأسرع راسكولنيكوف يعرِّف بنفسه أيضاً ، فذكر اسمه ، وذكر عنوانه ، وألحَّ الحاحاً شديداً ، كما لو كان المصاب أباه ، على أن يُنقل مارميلادوف الى مسكنه . وكان مارميلادوف ما يزال فاقداً وعيه مغشياً عليه . قال راسكولنيكوف متعجلاً :

ــ بيته هناك : بعد ثلاث عمارات . انه يسكن في عمارة كوسل ، الألماني الغني ... لا شك أنه كان سكران عائداً الى بيته . أنا اعرفه . انه سكير ... له أسرة ، وزوجة ، وأولاد ، وبنت . لماذا المستشفى ؟ ان نقله الى المستشفى يستغرق وقتاً طويلاً . ولا بد أن يوجد في عمارته طبيب . سوف أدفع ، سوف أدفع . فبذلك يعتنى به ذووه ، ويفعلون ما يجب فعله فوراً . والا كان يتعرض للموت حتى قبل أن يصل الى المستشفى .

وأفلح راسكولنيكوف في أن يدسَّ قطعة نقدية في يد احد رجال الشرطة . وكانت القضية من جهة أخرى واضحة شرعية . وبدا

على كل حال أن نقل الجريح الى بيتـه أبسـط وأيسر • فرفع المصـاب وحُمل ، ووُجد من يساعد في ذلك • كانت عمـارة كوسـل تقع على مسافة ثلاثين خطوة • فكان راسـكولنيكوف يمشي وراء الجريح سـانداً رأسه بكثير من الحذر والاحتياط ، وكان يدل الآخرين على الطريق •

ـ من هنا ! من هنا ! وحين نصعد السلم يجب أن نجعل راسـه عاليـاً ••• دوروا ••• نعم هنـا ••• سـوف أدفع ••• أشـكر لكم صنيعكم •••

كذلك كان يدمدم راسكولنيكوف •

كانت كاترين ايفانوفنا ، على عادتها كلما أتيحت لها دقيقة من فراغ، تسير في غرفتها الصغيرة طولاً وعرضاً ، فتمضي من النـافذة الى المدفأة ومن المدفأة الى النافذة ، مصالبةً ذراعيها على صدرها ، مكلمةً نفسها ، ساعلةً من حين الى حين • ولقد تعودت منذ مدة من الزمن أن تتحدث مزيداً من التحدث الى ابنتها الكبرى بولينكا التي يبلغ عمرها عشر سنين والتي كانت ، رغم أنها لا تستطيع أن تفهم أشياء كثيرة بعد ، تدرك حقَّ الادراك أن أمها في حاجة اليهـا ، فكانت لذلك تتابعها بنظراتها الذكية محملقةً ، وتبذل كل ما تمـلك من قوة في سـبيل أن تتمثل ما كانت تقـوله لها • وفي تلك اللحظة ، كانت بولينكا تنضو عن أخيها الصغير ثيابه لتضعه في السرير بعد أن لبث مريضاً طوال النهار ، فكان الصبي الصغير ، بانتظار ابدال قميصـه الذي يجب أن يُغسـل في تلك الليلة نفسها ، جالساً على كرسي ، رزيناً صامتاً • كان منتصب الجسم ، ساكناً ، ملصقاً ساقيه احداهما بالأخرى ، موجهـاً ابهاميـه الى الخـارج ، نافخاً خدّيه ، محملقاً بعينيه ، يصغي الى ما كانت تقوله أمه لأخته دون أن يتحرك ، كما ينبغي للصغار العقلاء حين تُخلع عنهم ثيابهم للنوم• وكانت البنت الثانية ، وهي أصغر سناً منه ، وثيابها أطمـار بالية تمـاماً ، تنتظر

دورها واقفةً قرب الحاجز . وكان الباب المطل على فسحة السلّم مفتوحا على سعته كلها ، من أجل أن يهرب منه ولو جزءٌ من دخان التبغ الذي يأتى من الغرف الأخرى ، ويسبّب للمصدورة المسكينة نوبات سعالٍ طويلة أليمة قاسية . لقد نحلت كاترين ايفانوفنا مزيداً من النحول منذ أسبوع، وأصبحت البقع الحمراء على خدّيها مضطرمةً مزيداً من الاضطرام .

كانت تقول لابنتها وهى تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً :

ـ لا تستطيعين أن تعرفى ، لا تستطيعين أن تتخيلى ، يا بولينكا ، نوع الحياة الفرحة المرحة الباذخة التى كنا نحياها فى دار بابا ، ولا نوع الشقاء الذى نزل علىَّ بسبب هذا السكّير ، والذى سينزل عليكم انتم جميعاً كذلك . كان بابا فى رتبة تعدل رتبة كولونيل . كان يوشك أن يصبح حاكماً ، لم يكن عليه الا أن يخطو خطوة واحدة حتى يصبح حاكماً ؛ لذلك كان جميع الناس يجيئون اليه ويقولون له : « نحن نعدُّك حاكماً لنا منذ الآن يا ايفان ميخائيلتش . وحين ... كح كح كح ... لعن الله هذه الحياة ... (صاحت تلعن الحياة هكذا وهى تبصق وتضغط صدرها) ـ نعم ، حين ... آه ... حين رأتنى الأميرة بيزيملنى ، فى آخر حفلة رقص ، عند ماريشال النبالة ـ وهذه الأميرة هى التى باركتنى حين تزوجت أباك يا بوليا ـ نعم ... حين رأتنى أسرعت تسأل على الفور : « أليست هذه الفتاة الفتانة هى التى رقصت رقصة الشال حين تخرجت من المدرسة الداخلية ؟ » . ـ يجب ترقيع هذا الثقب ، عليك أن تأخذى ابرة وخيطاً فترقعيه ، كما علمتك ، والا فانه ... كح ... غداً ... كح كح كح ... سيتسع مزيداً من الاتساع (صرخت تقول ذلك صراخاً وقد هدّها السعال) . وفى ذلك الأوان انما وفد الينا من بطرسبرج شاب من الحاشية هو الأمير ستشيبجولسكى ... ورقص معى

رقصة مازوركا ، فاذا هو يجيء فى الغداة يريد أن يخطبني... فشكرته بألطف العبارات ، ولكنني صرفته قائلة له ان قلبي يملكه رجل آخر منذ مدة طويلة ، وهذا الآخر هو أبوك يابولياء وغضب أبوك غضباً شديداً.ـ هل أُعدّ الماء ؟ هيّا ائتني بالقميص . والجوارب ، أين هى ؟ يا ليديا (كذلك قالت لصغرى بنتيها) ستنامين هذه الليلة بدون قميص ... دبّرى أمرك ... ودعى الجوربين جانباً كذلك ... سأغسلهما فى الوقت نفسه ... ألن يعود هذا الرث السكران ؟ لقد لبس قميصه حتى أصبح وسخاً كممسحة . ومزقه أيضاً . أتمنى لو أغسل كل شيء دفعةً واحدة . فبذلك لا أتعذب ليلتين متواليتين .. يارب ! كح كح كح ... ما هذا أيضاً ؟ (هتفت تسأل هذا السؤال وهى ترى جمهوراً على فسحة السلّم ، وترى مع الجمهور أشخاصاً يحملون حِمْلاً ويحاولون أن يشقوا طريقهم نحو الغرفة) ماذا جرى ؟ ماذا يحملون ؟ رباه !

سأل الشرطي وهو ينظر حواليه بينما كان يُحمل مارميلادوف الى الغرفة دامياً مغشياً عليه :

ـ أين نضعه ؟

قال راسكولنيكوف :

ـ على الديوان ! أضجعوه على الديوان ، واجعلوا رأسه فى هذه الجهة .

صاح يقول واحد وهو على فسحة السلم :

ـ داسته عربة فى الشارع .

وقفت كاترين ايفانوفنا جامدة ، شاحبة الوجه ، تتنفس بصعوبة ومشقة . وأطلقت ليدوتشكا صرخة وهرعت الى بولينكا ، فعانقتها وهى ترتجف بجميع أعضاء جسمها .

حتى اذا أُضجع مارميلادوف على الديوان ، هرع راسكولنيكوف الى كاترين ايفانوفنا ، وقال لها مسرعاً :

ـ اهدئى ناشدتك الله ، لا تضطربى !... كان يجتاز الشـارع ، فمرت عربة فوقه . لا تقلقى . سيصحو من اغمائه . أنا أمرت بحمله الى هنا . لقد جئت اليكم مرةً قبل الآن ، هل تذكرين ؟ سيفيق من غيبوبته. سوف أدفع !

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول يائسةً وهى تندفع نحو زوجها :

ـ نال ما كان يسعى اليه !

لم يلبث راسـكولنيكوف أن لاحظ أن هذه المرأة ليست من تلك النساء اللواتى يغمى عليهن لأيسر الأسـباب . وبمثل لمح البصر سرعةً وضعت وسادةً تحت رأس المسكين : ما من أحد قد خطرت بباله هذه الفكرة من قبل . ثم أخذت كاترين ايفانوفنا تخلع ثيابه ، وتفحصه بدون تعجل ، ناسية نفسها ، عاضةً على شفتيها ، تكظم الصرخات التى تهم أن تنطلق من صدرها .

وفى أثناء ذلك استطاع راسكولنيكوف أن يقنع أحد الحضـور بأن يمضى يستدعى طبيباً . وكان يوجد طبيب فى عمارة مجاورة .

وكرر يقول لكاترين ايفانوفنا :

ـ أرسلت فى طلب طبيب . لا تقلقى . سوف أدفع. أليس عندكم ماء ؟ وأعطنى أيضـاً فوطة ، منشـفة ، أى شىء ، بسرعة ! لا نعلم بعد هل جرحه بليغ ... على كل حال ، هو جريح وليس قتيلا ... ثقى بذلك ... لننتظر ما سيقوله الطبيب .

هرعت كاترين ايفانوفنا الى النافذة . كان يوجد هناك ، فى ركن ،

على كرسي خاسف ، طستٌ كبير من فخار ، مملوءٌ ماءً ، قد هيأته من أجل أن تغسل في الليل ملابس أولادها وزوجها • ان كاترين ايفانوفنا هي التي تتولى غسل الملابس بيديها ليلاً ، وهي تفعل ذلك مرتين في الأسبوع على الأقل ، وقد تفعله أكثر من مرتين أحياناً ، ذلك انهم قد وصلوا الى حيث أصبحوا لا يملكون من كل ملبس من الملابس الا قطعةً واحدة لكل فرد تقريباً • وكاترين ايفانوفنا لا تحتمل الوساخة ، أو قل لا تطيق أن ترى الأدران تسود بيتها ، وتؤثر على هذا ان تقوم في الليل ، بينما الجميع نائمون ، بعمل تفرضه على نفسها ويفوق طاقتها : تغسل الملابس ثم تنشرها على حبل لتجف ، بغية أن تجد الاسرة أشياءها نظيفة في الصباح •

حملت الطست كما أمرها بذلك راسكولنيكوف ، وكادت تسقط معه على الأرض • وكان راسكولنيكوف قد استطاع في أثناء ذلك ان يعثر على منشفة • فبلّها بالماء وأخذ يغسل وجه مارميلادوف الدامي • وكانت كاترين ايفانوفنا تقف الى جانبه ، متنفسةً بمشقة وصعوبة ، ضاغطةً صدرها بيديها • لقد كانت هي نفسها في حاجة الى اسعاف • وبدأ راسكولنيكوف يقول لنفسه انه لعله قد اخطأه سداد الرأي حين ألحَّ على ضرورة نقل المريض الى هنا • وكان الشرطي مرتبكاً حائراً •

وصاحت كاترين ايفانوفنا تقول لابنتها :

ـ بوليا * ، اذهبي الى أختك صونيا ، وأحضريها بسرعة • فاذا لم تجديها في مسكنها ، فلا بأس ••• قولي ان أباها قد داسته خيول ، وان عليها أن تجيء حالاً متى عادت • أسرعي يا بوليا ! خذي ، ضعي هذا المنديل على رأسك •

وصرخ الصبي الصغير من على كرسيه يهيب بها أن تسرع قائلاً :

ـ أثلعي (أسرعي) •••

قال ذلك وعاد يغرق في صمته ، واسترد وضعه : محملق العينين، متصلب الجذع ، متجمد الجسم ، مشدود الساقين •

وامتلأت الغرفة بالناس في أثناء ذلك ، فلو أُلقيت تفاحة لما سقطت على الأرض من شدة ازدحامهم • وانصرف رجال الشرطة ، الا واحداً بقي الى حين ، بغية أن يصد الجمهور الذي كان يصل من السلّم ويتدفق نحوه من جديد • ان جميع المستأجرين الذين يسكنون عند مدام ليبفكسيل قد هرعوا من غرفتهم التي تقع في آخر البيت : تجمعوا في أول الأمر على الباب ، ثم اجتاحوا الغرفة نفسها •

غضبت كاترين ايفانوفنا ، فصرخت تخاطب الناس :

ـ دعوه يموت بسلام على الأقل • آه••• ما هذا الذي تفعله انت ؟ أسيجارةٌ في فمك كأنك في مسرح ؟ كح كح كح ! لم يبق الا أن تحتفظوا بقبعاتكم على رءوسكم أثناء رؤية المشهد • هه ••• هذا واحد قد احتفظ بقبعته على رأسه فعلاً ! هيَّا اخرجوا من هنا ••• احترموا الأموات على الأقل !

قالت ذلك ثم خنقتها نوبة سعال شديدة • ولكن تقريعها كان له أثره • واضح أنهم يخشون كاترين ايفانوفنا بعض الخشية • فهاهم اولاء سكان البيت يتجهون نحو الباب واحداً بعد آخر ، وهم يشعرون بذلك الاحساس الغريب ، احساس اللذة الذي يُلاحَظ دائماً حتى لدى أقرب الأقرباء أو الأصدقاء حين يرون شقاءً يحل بأحد ؛ وهو احساس لا يخلو منه انسان ، مهما يكن أسفه ومهما تكن شفقته من جهة اخرى•

وكانت تُسمع وراء الباب شزرات أحاديث يدور فيها الكلام على المستشفى ، وعلى أنه ليس من اللائق تعكير صفو عمارة في غير طائل •

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ ماذا ؟ ليس من اللائق أن يموت الانسان ؟

وهمَّت أن تفتح الباب وأن تصبَّ على هؤلاء النـاس سـيلا من الشتائم ، ولكنها حين وصلت الى العتبة رأت نفسها تصطدم بمدام ليبفكسل نفسها التى علمت بالمصيبة فأسرعت تعيد النظام الى نصابه ٠

ان مدام ليبفكسل هذه ألمانية مشاكسة مزعجة ٠

قالت وهى تصفق يديها احداهما بالأخرى :

ـ آه ٠٠٠ يا رب ! زوجك داسـه حصـان وهو سـكران ٠ الى المستشفى ، الى المستشفى انما كان يجب ٠٠٠ أنا صاحبة البيت ٠٠٠

فقالت كاترين ايفانوفنا فى تعالٍ وكبرياء :

ـ أرجوك يا آماليا لودفيجوفنا أن تفكرى فيما تقولين ٠٠٠ يا اماليا لودفيجوفنا ٠٠٠

كانت كاترين ايفانوفنا تخاطب صاحبة البيت دائماً فى تعال وكبرياء ، كيما « تلزم هذه حدودها » ؟ ولم تستطع حتى فى هذا الظرف أن تحرم نفسها من هذه اللذة ٠

قالت مدام ليبفكسل :

ـ قلت لك مرةً واحدة الى الأبد أن لا تسمينى اماليا لودفيجوفنا قط ٠ أنا آماليا ايفانوفنا ٠

ـ أنت لستِ آماليا ايفانوفنـا ، بل آماليـا لودفيجوفنا ؛ وانا لست واحدةً منأولئك الذين يتملقونك تملقاً ذليلاً ، ومنهم السيد ليبزياتنيكوف الذى تدوّى قهقهاته فى هذه اللحظة نفسها وراء الباب (وكان يدوى

وراء الباب ضحكٌ فعلاً ، وكانت تُسمع هذه الجملة : « ها هما تتماسكان بالأيدي ! » ، فانني سأسميك دائماً آماليا لودفيجوفنا • ولست افهم على كل حال لماذا يسوءك هذا الاسم الى هذه الدرجة • لقد رأيتِ ما حدث لسيميون زاخاروفتش : انه يموت • فأرجوك أن تغلقي هذا الباب فوراً ، وأن لا تدعي لأحد أن يدخل الى هنا • فليمت بسلام على الاقل ! والا فانني أؤكد لك أن سلوكك هذا سيعرفه الحاكم العام نفسه من الغد • ان الأمير قد عرفني قبل أن أتزوج ، وهو يتذكر سيميون زاخاروفتش ، وقد احسن وفادته مراراً • وجميع الناس يعلمون ان سيميون زاخاروفتش كان له أصدقاء وحُماةٌ كُثُر أهملهم هو نفسه بسبب عزته وكبريائه وشممه ، وبسبب ما كان يحسه من ضعفه المحزن الذي يمزق القلب تمزيقاً • ولكن شاباً عظيماً (وأومأت الى راسكولنيكوف) ذا ثراء وعلاقات ، شاباً يعرفه سيميون زاخاروفتش منذ طفولته ، يتولى مساعدتنا الآن ، ففي وسعك أن تكوني على يقين يا آماليا لودفيجوفنا من ان •••

قيل ذلك كله بسرعة قصوى كانت تتزايد من دقيقة الى دقيقة • ولكن السعال قطع بلاغة كاترين ايفانوفنا فجأة ؛ واستعاد المحتضر وعيه في تلك اللحظة فهرعت اليه• وفتح عينيه ، وأخذ ينظر الى راسكولنيكوف الواقف بقربه ، أخذ ينظر اليه دون أن يتعرف أحداً ودون ان يفهم شيئاً • وكان يتنفس تنفساً شاقاً عميقاً متقطعاً • وظهر دم على طرفي شفتيه • وكان العرق يتكاثف على جبينه كحبات اللؤلؤ • واذ لم يستطع أن يحدِّد شخصية راسكولنيكوف ، أجال بصره على ما حوله قلقا • وكانت كاترين ايفانوفنا تلقي عليه نظرة حزينة لكنها قاسية ، وكانت تسيل من عينيها دموع •

قالت يائسة :

ـ رباه ! ان صدره معجون عجناً ! ما أكثر الدم ! ما أكثر الدم ! يجب أن تُنزع عنه ملابسه • استدر قليلاً يا سيميون زاخاروفتش ، اذا كنت تقوى على ذلك •

تعرفها مارميلادوف • فنطق بصوت أبح :

ـ كاهن !

فتراجعت كاترين ايفانوفنا نحو النافذة ، وأسندت جبينها الى الزجاج ، وهتفت تقول وقد بلغت ذروة الكمد والكرب :

ـ قاتل الله هذه الحياة !

وعاد المحتضر يقول من جديد ، بعد لحظة صمت :

ـ كاهن !

فقالت كاترين ايفانوفنا :

ـ أر ••• سلنا ••• نستد ••• عيه !

ففهم وصمت • وكان يبحث عنها بنظراته وجلاً قلقا • فعادت اليه ووقفت بقربه • فهدأ قليلاً ولكن هدوءه لم يطل • فان عينيه لم تلبثا ان توقفتا على الصغيرة ليدوتشكا * (أثيرته) التي كانت في ركن من الأركان ترتجف ارتجاف من أصابته نوبة عصبية، وتحدّق اليه بعينها المدهوشتين، عيني الطفلة ، تحديقاً ثابتاً •

غمغم محاولاً أن يقول شيئاً وهو يومىء اليها قلقاً :

ـ أ ••• أ •••

فصرخت كاترين ايفانوفنا :

ـ ماذا أيضاً ؟

فقال وقد تلبثت نظراته على قدمي البنت الصغيرة الحافيتين :

ـ حافية ! حافية !

فزرأت كاترين ايفانوفنا تقول وقد بلغ غضبها أشده :

ـ اسكت ! أنت تعلم حق العلم لماذا هي حافية !

صاح راسكولنيكوف يقول متخففاً من قلقه :

ـ الحمد لله ! وصل الطبيب !

دخل الطبيب • انه شيخ شديد الحذر كثير التدقيق (وهو المانى) أخذ يلقى على ماحوله نظرات زاخرة بالريبة والشك• اقترب من المريض، وجسّ نبضه ، وتفحص رأسه باتنباه ، ثم تعاون مع كاترين ايفانوفنا على حلّ أزرار القميص المبتل بالدم ، وعرّى الصدر • كان الصدر خاسفا خسوفاً مروّعاً ، وكان مهروساً ممزّقاً • ان عدة اضلاع في الجهة اليمنى كانت محطمة مهشمة • وفي الجهة اليسرى ، عند القلب ، كانت ترى بقعةٌ سوداء ضاربة الى صفرة ، بقعة كبيرةٌ رهيبة : انها آثار حافر حصان • قطّب الطبيب حاجبيه • وروى له الشرطي أن الجريح قد تشبثت به احدى عجلات العربة ، فجرّته أثناء دورانها مسافة ثلاثين خطوة على أرض الشارع •

قال الطبيب لراسكولنيكوف هامساً :

ـ أغرب ما في الأمر أنه عاد اليه شعوره !

فسأله راسكولنيكوف :

ـ ما رأيك ؟

ـ سيموت حالاً

ـ أليس هناك أى أمل ؟

ـ لا أمل البتة • انه يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه • انه في النزع الأخير • ثم ان رأسه مصاب بجرح خطير جداً • همْ ••• يمكننا طبعا

أن نجرى له فصداً ••• ولكن ما فائدة ذلك ؟ انه ميت لا محالة • نعم، سيموت حتماً بعد خمس دقائق أو ست •

ـ لنجرِّب الفصد مع ذلك !

ـ طيب • ولكننى أنبِّهك مرةً أخرى الى أننا لن نجنى من ذلك أية فائدة •

وفى هذه اللحظة نفسها سُمع وقع أقدام مرةً أخرى • فتنحى الجمهور على فسحة السلَّم وظهر كاهن شيخ أبيض الشعر يحمل « الأعراض السرية » ، ووراءه شرطى جاء به الى البيت • فسرعان ما أخلى له الطبيب المكان ، بعد أن تبادل معه غمزةً ذات دلالة ، وبادر راسكولنيكوف يرجو الطبيب أن يبقى ولو لحظةً قصيرة • فرفع الطبيب كتفيه ، ولكنه بقى •

تنحى الجميع • ولم يدم الاعتراف الا وقتاً قصيراً جداً : فأغلب الظن أن المحتضر كان فاقداً ادراكه وكان عاجزاً عن الكلام ، وكان لا يستطيع ، فى أكثر تقدير ، أن ينطق الا باصوات متقطعة غير متميزة •

أمسكت كاترين ايفانوفنا يد ليدوتشكا ، فأنهضت الطفلة الصغيرة عن كرسيها ثم مضت الى الركن قرب المدفأة ، فجثت على ركبتيها وأركعت الأولاد أمامها •

استمرت البنت الصغيرة ترتجف • أما الصبى الصغير الذى كانت ركبتاه العاريتين على بلاط الأرض ، فكان يرفع يده اليمنى فى فواصل مطرِّدة ، فيرسم اشارات الصليب واسعةً كبيرة ، ثم يسجد فيلصق جبينه بالأرض ، وكان واضحاً أن هذا يحدث له لذة قصوى • وكانت كاترين ايفانوفنا تعض على شفتيها وتحبس دموعها • كانت تصلى هى أيضا ، وتعدل قميص الصغير من حين الى حين فى الوقت نفسه • حتى لقد

استطاعت ، دون أن تنهض ودون أن تقطع صلاتها ، استطاعت أن تسلّ من الخزانة ذات الأدراج منديلاً ألقته على كتفى الصبية العاريتين •

ولكن الباب المطل على البيوت الأخرى قد فتحه المستطلعون اثناء ذلك مرةً أخرى • كان جمهور الشاهدين على فسحة السلّم - وهم السكان الذين هرعوا من جميع طوابق العمارة - تزداد كثافته شيئاً بعد شيء ، الا أن أحداً منهم لم يتخط عتبة الغرفة • وكان لا يضيء هذا المشهد كله الا بقية شمعة •

وفى تلك اللحظة وصلت بوليا التى ذهبت تُحضر اختها ، فاندفعت تشق لها ممراً بين ذلك الجمور • دخلت منقطعة الأنفاس تقريباً ، لأنها قد ركضت بسرعة مفرطة ، فنزعت المنديل الذى كان يغطى رأسها ، وبحثت عن أمها بعينيها ، ثم اقتربت منها وقالت لها : « ستجيء ، فقد لقيتها فى الشارع ! » •

أركعت الأم ابنتها الى جانبها • ثم وصلت فتاة ، فتقدمت وسط الجمهور خجلةً بلا ضجة ، فكان ظهورها فى هذه الغرفة التى يسودها الفقر والبؤس والأسمال الرثة والموت واليأس أمراً غريباً يبعث على أشد الدهشة • كان هندامها لا يساوى أربعة قروش ، ولكنه صارخ صخاب يناسب أذواق وقواعد العالم الخاص الذى تعيش فيه هذه الفتاة ، ويلائم الغايات الدنيئة التى تسيطر على ذلك العالم • وقفت صونيا على العتبة لا تجرؤ أن تجتازها • وكانت تنظر حواليها زائغة الهيئة تائهة الفكر • كان يبدو عليها أنها لا تدرك شيئاً ولا تعى شيئاً ، وكان يبدو عليها أيضاً أنها ذهلت عن ثوبها الحريرى الذى اشترته مستعملاً - والذى كانت ألوانه الزاهية وذيوله الطويلة لا تناسب هذا المكان - و ذهلت عن تنورتها الفضفاضة التى تملأ عرض الباب كله ، وعن حذاءيها اللامعين وشمسيتها

التى لا فائدة منها البتة لأن الوقت ليل ، وعن قبعتها الصغيرة المصنوعة من قش ، المزدانة بريشة حمراء .

وكان يلوح تحت هذه القبعة ، الموضوعة مائلةً ، وجه صغير نحيل أصفر مرتاع ، فاغر الفم شارد العينين من الرعب .

ان صونيا تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، وهى قصيرة القامة هزيلة الجسم ، لكنها جميلة ، شقراء ، لها عينان زرقاوان رائعتان . وقد راحت تحدّق الى الديوان والى الكاهن بنظرات ثابتة . وكانت مقطعة الأنفاس هى أيضاً ، لأنها ركضت ركضاً سريعاً . ولا شك أن كلمات تبادلها بعضهم فى الجمهور همساً قد تناهت الى مسامعها فها هى ذى تخفض رأسها وتتقدم خطوةً الى أمام . ولكنها لم تعزم أمرها بعد على الابتعاد عن الباب .

انتهى الاعتراف والتناول . وعادت كاترين ايفانوفنا الى قرب الديوان . وتنحى الكاهن . ولكنه اعتقد أن من واجبه أن يوجّه الى كاترين ايفانوفنا بضع كلمات تواسيها وتقوى عزيمتها . فقاطعته كاترين ايفانوفنا تقول بلهجة خشنة غاضبة وهى تشير الى الأولاد :

ــ وهؤلاء ، أين أضعهم الآن ؟

فقال الكاهن :

ــ الله رحيم . أمّلى فى عون الرب !

ــ هو رحيم ولا شك ، لكنه ليس رحيماً بنا نحن .

قال الكاهن وهو يهز رأسه :

ــ هذا اثم يا سيدتى ، هذا اثم !

فصرخت كاترين ايفانوفنا مشيرةً الى المحتضر :

ـ وهذا ، أليس اثماً ؟

ـ لعل الذين كانوا سبب وقوع هذه المصيبة بغير ارادة منهم ، لعلهم يوافقون على أن يدفعوا لك تعويضاً بسبب فقدانك مواردك على الأقل .

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول بشراسة :

ـ أأنت لا تفهم اذن ؟ لماذا عساهم يدفعون لى تعويضاً ؟ ان هذا السكّير هو الذى ألقى بنفسه بين حوافر الخيل ! ثم ما كلامك هذا عن مواردى ! انه لم يمدنى بأية موارد فى يوم من الأيام ! انه لم يهيىء لى الا أنواع العذاب ! هذا كل ما أمدنى به ! لقد كان سكيراً ، سكيراً ، ما وصل الى يده شيء الا سارع يشرب به خمراً ؛ كان ينهبنا نهباً ، كان يذهب الى الحانات يتلف فيها حياتهم وحياتى ! سيموت الآن ، وسيكون موته توفيراً واقتصاداً !

ـ على المرء أن يعفو ويصفح ويغفر ، فى ساعة الموت ! ان الشعور بمثل هذه العواطف اثم يا سيدتى ، اثم كبير !

كانت كاترين ايفانوفنا ما تزال منهمكةً حول المحتضر ، تسقيه وتمسح عن رأسه العرق والدم ؛ فهى تتحدث مع الكاهن دون أن تنقطع عن عملها . ولكنها وثبت نحوه على حين فجأة حانقة غاضبة ، فقالت له :

ـ آه يا أبى ! ما هذا كله الا كلام ، كلام لا أكثر ! العفو والصفح والمغفرة ! هه ! لو لم يقع له هذا الحادث ، لرجع الى البيت فى هذا المساء سكران ؛ ولأنه لا يملك قميصاً غير هذا القميص الوسخ الممزق الذى يلبسه ، لكان علىّ أنا أثناء غطيطه فى النوم أن أتبلل بالماء لأغسل له القميص ولأغسل ملابس الأولاد ؛ ولكان علىّ بعد ذلك أن أجفف الغسيل كله على النافذة ، حتى اذا طلع الفجر أخذت أعمل فى الترقيع!

على هذا النحو كنت سأقضى الليل ! فعلام الكلام عن العفو والصفح والمغفرة اذن ؟ لقد عفوت وصفحت وغفرت منذ زمان !

واعترتها نوبة سعال شديدة فاضطرت أن تنقطع عن الكلام . وبصقت فى منديلها ووضعته تحت عينى الكاهن ضاغطةً صدرها بيدها الأخرى . كان المنديل مبللاً بالدم .

خفض الكاهن رأسه ولم يقل شيئاً .

وكان مارميلادوف المحتضر لا يحوّل عينيه عن وجه كاترين ايفانوفنا التى مالت عليه من جديد . كان يريد أن يقول لها شيئاً ما . حاول ذلك محركاً لسانه بمشقة ، متمتماً ببضع كلمات مبهمة غير متميزة، ولكن كاترين ايفانوفنا ، وقد أدركت أنه يريد أن يسألها أن تغفر له أسرعت تصرخ قائلة له بلهجة لا جواب عليها :

ـ اسكت ! اسكت ! لا داعى ! أعرف ما تريد أن تقول !

فصمت الجريح . ولكن بصره التائه سقط فى تلك اللحظة على الباب ، فلمح صونيا . لم يكن قد لاحظها قبل ذلك : كانت صونيا قد لبثت فى الجزء المظلم من الغرفة .

ـ من هذه ؟ من هذه ؟

كذلك تأتأ يسأل فجأةً بصوت أبحَّ لاهث ، وهو يحاول أن ينهض ، ويومىء بعينيه مرتاعاً الى الباب الذى كانت ابنته ما تزال واقفةً عنده .

فصرخت كاترين ايفانوفنا تقول له :

ـ ابق راقداً ! ابق راقداً !

ولكنه استطاع بجهد خارق أن يُنهض جسمه مستنداً بيده الى

الديوان • فحدّق الى ابنته برهةً من الوقت بنظرة غريبة ، كأنه لم يتعرفها • ذلك أنه لم يسبق له أن رآها بمثل هذا الزى الغريب • ولكنه لم يلبث أن تعرفها فجأة • كانت مُذلةً منهارةً تحس بالخزى والعار من ملابسها المبهرجة ، وهى تنتظر فى رفق ووداعة ، وفى اذعان وتسليم ، أن يجىء دورها لتوديع أبيها المحتضر •

ارتسم على وجه الأب تعبير عن ألم لا نهاية له ، وعذاب ليس له حدود • وصرخ يقول :

ـ صونيا ، ابنتى ، اغفرى لى !

وأراد أن يمد اليها يده ، لكنه فقد توازنه لأنه لم يتكىء على شىء ، فتدحرج عن الديوان منكبً الوجه على الأرض • أسرعوا ينهضونه ، وعادوا يُرقدونه على السرير • ولكنه كان قد أخذ يلفظ أنفاسه • أطلقت صوفيا صرخة ضعيفة ، وهرعت اليه ، وعانقته طويلاً ، فمات بين ذراعيها •

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول وهى ترى جثة زوجها :

ـ نال ما كان يسعى اليه • ولكن ما العمل الآن ؟ أين لى بالمال أنفقه على دفنه ؟ وهؤلاء ، هؤلاء ، من أين أطعمهم غداً ؟

اقترب راسكولنيكوف من كاترين ايفانوفنا • وبدأ يتكلم فقال :

ـ كاترين ايفانوفنا ! فى الأسبوع الماضى روى لى زوجك المتوفى قصة حياته تفصيلاً ••• ثقى أنه تكلم عنك بحماسة شديدة واحترام عظيم • وقد أصبحنا صديقين منذ ذلك المساء الذى عرفت فيه مدى اخلاصه لكم جميعاً ، ومدى ما يحمله لك خاصةً يا كاترين ايفانوفنا من حب وتقدير ، رغم آفته الشقية ، آفة الادمان على الشراب ••• فاسمحى

الآن اذن ••• اسمحي لى أن أساهم ••• أن أقوم بآخر واجباتى نحو صديقى المتوفى • خذى هذا المبلغ ••• أظن أنه خمسة وعشرون روبلاً ••• فاذا كان هذا يساعدكم ولو قليلاً ، فانني ••• لكنني سأعود اليكم ، سأعود اليكم حتماً ، وقد أعود من الغد ••• استودعكم الله !•••

قال ذلك وغادر الغرفة متعجلاً ، وشق لنفسه ممراً بين الجمهور بسرعة • ولكنه لم يلبث أن اصطدم بنيكوديم فومتش الذى علم بنبأ الحادث ، فأراد أن يتولى بنفسه اتخاذ الاجراءات الضرورية • لم يكونا قد التقيا منذ وقع ذلك المشهد فى قسم الشرطة ، ولكن نيكوديم فومتش عرفه من أول نظرة • قال :

ـ هه ! هذا أنت ؟

قال راسكولنيكوف :

ـ مات ! ولقد جاء الطبيب ، وجاء الكاهن ، وتمَّ كل شيء كما يجب أن يتم • لا تزعج كثيراً تلك المرأة الشقية • حسبها ما هى فيه من شقاء منذ الآن • واسها واشدد أزرها ان أمكن •••

ثم أضاف يقول ساخراً ، وهو يرمقه بنظرة ثابتة :

ـ أنا أعرف أنك رجل طيب القلب •

لاحظ نيكوديم فومتش ، فى ضوء الشمعة ، لاحظ بقعاً من الدم ما تزال طرية على صديرة راسكولنيكوف ، فقال ينبهه :

ـ ولكنك ••• ملطخ بالدم !

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة غريبة بعض الغرابة :

ـ نعم ، تلطخت •••

ثم ابتسم ، وحيَّاه بحركة من رأسه ، وأخذ يهبط السلَّم •

كان ينزل ببطء ، ولكنه كان يرتعش كمن أصابته حمى • ان موجةً كبيرة من الفرح والانفعال تغمر نفسه الآن ، على غير شعور منه • يمكن أن يشبَّه هذا الاحساس بالاحساس الذى يشعر به رجل محكوم عليه بالاعدام حين يعلم فجأة بصدور قرار بالعفو عنه •

فلما وصل الى منتصف السلَّم أدركه الكاهن الذى غادر البيت • تنحى راسكولنيكوف ليدع له مجال المرور ، وبادله تحيةً صامتة • ولكنه حين كان يهبط الدرجات الأخيرة سمع وراءه على حين فجأة وقع خطوات سريعة • كان واضحاً أن هناك من يحاول أن يلحق به • انها بولينكا • كانت تركض وهى تناديه صائحة : « اسمع ! اسمع ! » •

التفت راسكولنيكوف • كانت الفتاة قد هبطت الطوابق الأخيرة بسرعة شديدة ، وها هى ذى الآن تقف أمامه على الدرجة التى تعلو درجته • ان نوراً ضئيلاً مضطرباً كان يتسلل من الفناء الى ذلك المكان • ميَّز راسكولنيكوف الوجه الذى كان ينظر اليه ويبتسم له فرحاً كما يفعل الأطفال • انه وجه صغير هزيل ، ولكنه جميل• لقد هرعت الصبية وراءه مكلفةً بمهمة كان واضحاً أنها تسرها كثيراً •

سألته متعجلةً بصوت لاهث :

ــ اسمع ! ما اسمك ؟ وأين تسكن ؟

وضع راسكولنيكوف يديه على كتفى الطفلة ، ونظر اليها بنوع من الفرح • لقد وجد فى النظر اليها متعةً كبيرة دون أن يعرف لماذا •

سألها :

ــ من أرسلك ؟

فأجابته وهى تبتسم بمزيد من الفرح :

ـ اختى صونيا هى التى أرسلتنى .

ـ قدّرت ذلك .

ـ وأمى أيضاً . فحين سألتنى صونيا أن أجرى وراءك ، اقتربت أمى فقالت لى هى أيضاً : « نعم ، اركضى وراءه بسرعة يا بولينكا » .

ـ هل تحبين أختك صونيا ؟

ـ أكثر مما أحب أى شىء فى العالم !

قالت بولينكا ذلك بلهجة قاطعة ، وأصبح فى ابتسامتها مزيد من الجد على حين فجأة .

سألها :

ـ وأنا ، هل ستحبيننى ؟

فلم تزد الصبية ، فى الجواب عن هذا السؤال ، على أن قرّبت وجهها من وجهه ، ومدّت اليه شفتيها البريئتين ، بسذاجة ، ليقبلهما ، ثم عانقته بذراعيها الصغيرتين، النحيلتين كعودى ثقاب، عناقاً قوياً ، ومالت برأسها على كتفه ، وأخذت تبكى بكاءً رفيقاً ، وألطت وجهها على وجهه مزيداً من الالطاء شيئاً بعد شىء . وقالت بعد دقيقة وهى ترفع وجهها الذى غيرته الدموع والذى أخذت تمسحه بظهر يدها :

ـ مسكين بابا !

ثم أضافت تقول فجأة ، وهى تصطنع هيئة الجد التى يصطنعها الأطفال حين يريدون بغتةً أن يتكلموا « كما يتكلم الكبار » :

ـ ما أكثر المصائب فى هذا اليوم !

ـ وأبوك ، هل كان يحبك ؟

فتابعت كلامها تقول جادةً دون ابتسام ، كشخص كبير تماماً في هذه المرة :

ـ من بيننا جميعاً كان يحب ليدوتشكا حباً خاصاً . كان يحبها لأنها صغيرة جداً ، ولأنها مريضة أيضاً . وكان يجيئها دائماً بهدايا صغيرة . ونحن ، كان يعلمنا القراءة .

وأضافت تقول بوقار :

ـ أنا ، كان يعلمني قواعد اللغة ، والتاريخ المقدس . وكانت أمي لا تقول شيئاً ، ولكننا كنا نعرف أنها تسرُّ بذلك ، وكان بابا يعرف هذا أيضاً . وماما تريد الآن أن تعلمني اللغة الفرنسية ، لأنه آن الأوان لأن أتعلم ...

ـ وهل تجيدين الصلاة ؟

ـ طبعاً نجيد الصلاة . أنا أجيد الصلاة منذ مدة طويلة ! أنا ، أصلّي بصوت خافت ، لأنني كبيرة . أما كوليا وليدوتشكا فهما يصليان بصوت عال ، مع ماما . يرتلان أولاً : « سلام عليك يا مريم ... » ، ثم يتلوان دعاءً آخر : « اغفر لاختنا صونيا يا رب ، وباركها ! » . ويتلوان بعد ذلك دعاءً آخر : « اغفر لأبينا الآخر يا رب ، وباركه ! » . ذلك أن أبانا الأول مات . أما هذا فهو أبونا الثاني . لذلك ندعو للأول أيضاً .

ـ بولينكا ! اسمي أنا روديون . فادعوا لي أنا أيضاً في بعض الأحيان . أضيفوا في صلاتكم : « ولروديون المسكين » ، لا أكثر من ذلك .

قالت الصبية بحماسة وحرارة :

ـ طول حياتى ، سأدعو لك !

ثم أخذت تضحك فجأة ، واندفعت اليه فعانقته بذراعيها عناقاً قوياً. ذكر لها راسكولنيكوف اسمه ، وذكر لها عنوانه ، ووعد بأن يجيء اليهم من الغد . فانصرفت الفتاة وقد طفح قلبها حماسة .

كانت الساعة هى العاشرة حين أصبح الطالب راسكولنيكوف فى الشارع . وبعد خمس دقائق وصل الى الجسر ، الى ذلك الموضع نفسه الذى وقفت فيه المرأة المسكينة حين ألقت بنفسها فى الماء .

قال لنفسه بلهجة جازمة مظفَّرة : « كفى ! تراجعى يا أنواع السراب ! الى الوراء يا أيتها المخاوف الوهمية ! تقهقرى أيتها الأطياف ! الحياة موجودة ! ألست حياً فى الساعة التى أنا فيها ! ان حياتى لم تمت بموت المرأة العجوز ! لا ! ان ملكوتها الآن هو ملكوت السموات ! كفاك ايتها المرأة العجوز ! آن لك أن تدعى العالم هادئاً ! أما ملكوتى أنا فهو ملكوت العقل والضياء ... و ... القوة ... والارادة ... وسنرى من المنتصر منا نحن الاثنين الآن ! » . كذلك أضاف متغطرساً ، كأنما هو يخاطب ويتحدى قوة غامضةً ما . وتابع يكلم نفسه فقال : « كيف رضيت أن أحيا على حيِّز ضيق من المكان لا يزيد على أن يكون موطىء قدم ؟ أنا الآن ضعيف جداً ، ولكن ... أعتقد أن مرضى قد انتهى ... وحين خرجت منذ برهة ، كنت أعلم حق العلم أنه سينتهى . بالمناسبة : ان عمارة بوتشنكوف على مسافة خطوتين من هنا . سأذهب حتماً الى بيت رازوميخين ... نعم ، سأذهب اليه حتى ولو كان لا يقيم فى منزل قريب هذا القرب كله . ألا فليكسب الرهان ! ألا فليسخر منى ! أى ضير فى هذا ؟ ان ما أنا فى حاجة اليه هو القوة ، القوة . بغير

القـوة لا يصـل المرء الى شيء • والقـوة لا تُنال الا بالقـوة • هـذا ما لا يعرفونه ! » كذلك أضاف يقول بزهو وكبرياء وثقـة • واجتـاز الجسر بخطى واسعة • فكانت الكبرياء والثقة تزدادان فيه كلما انقضت دقيقة جديدة ؛ وكلما انقضت دقيقة جديدة كان يصبح رجلاً آخر • فما الذى حدث اذن حتى تحقق فى نفسه هذا التحول ؟ كان هو نفسـه يجهل ذلك • انه ، كالغريق الذى يتعلق بقشة ، يتصور أنه « يستطيع أن يحيا ، وأن الحياة ما تزال موجـودة ، وأن حيـاته « هو » لم تمت بموت المرأة العجوز ، العجوز » • ولعله أسرف فى التعجل حين انتهى الى هذه النتيجة ، ولكن ذلك لم يخطر له ببال •

قال لنفسه فجـأة : « ومع ذلك طلبت صلوات ودعوات للمسـكين روديون ! » ولكنه لم يلبث أن أضاف : « كان هذا من باب الاحتياط على كل حال ! » وأسرع يضحك من سذاجته الصـبيانية • لقد كان مزاجه مشرقاً اشراقاً رائعاً !

اهتدى الى مسـكن رازوميخين بسـهولة : كان المسـتأجر الجديد معروفاً فى عمارة بوتشنكوف ، ودلّه البواب على الطريق فوراً • فما ان وصل الى منتصف السلّم حتى كان يسمع ضجة حديث حار يقوم بين حشد كبير • كان الباب المطل على السلّم مفتوحاً على كل سعته • فكان يُسمع صراخ ونقاش • ان غرفة رازوميخين واسعة سعةً كافية ، فكانت تضم نحو خمسة عشر شخصاً • ووراء الباب ، كانت خادمتان ، مستعارتان من الجيران سـكان البيت ، منهمكتين حول سـماورين كبيرين ، وكانتا تهتمـان كذلك بزجاجات وصحـون وأطباق مثقلة بفطائر ومشهيّات • والصحون والأطباق مستعارة من الجيران أيضـاً • سـأل راسكولنيكوف عن رازوميخين ، فهرع اليـه رازوميخين مسروراً مفتـوناً • ان المـرء ليلاحظ من أول نظرة أنه قد أسرف فى الشراب ؛ ورغم أنه فى العـادة

لا يمعن فى الشراب الى حدّ السكر ، فان مظهره الآن لا يخطئه الظن.

قال راسكولنيكوف بسرعة :

ـ اسمع ! أنا لم أجىء الا لأقول لك انك كسبت الرهان ، وانه ما من انسان يستطيع فى الواقع أن يحزر ما قد يقع له ... ولكننى لا أستطيع أن أدخل ... لذلك أقول لك : السلام عليكم والى اللقاء . تعال الىّ غداً .

ـ اسمع ، سأصحبك ، ما دمت تقول أنت نفسك انك تبلغ من الضعف أنك ...

ـ وضيوفك ؟ قل لى : مَنْ ذلك الرجل المجعَّد شعره الذى ألقى الآن نظره علينا ؟

ـ ذاك ؟ الشيطان وحده يعلم من هو ! لا شك أنه رجل له بعمى علاقة ، أو أنه دعا نفسه بنفسه !... سأترك الضيوف مع عمى ! خسارة كبرى أنك لا تستطيع الآن أن تتعرف الى عمى ! شيطان يأخذهم جميعاً ! ثم انهم فى هذه اللحظة لا يملكون من العقل ما يمكنهم من أن يفطنوا الىّ ! وما أحوجنى الى استنشاق الهواء ! يا عزيزى ، لقد جئت فى الأوان المناسب . فلو تأخرتَ دقيقتين لأخذت أتضارب معهم ! ليتك سمعت ما كانوا يقولونه ! ليس فى وسعك أن تتصور عدد الأكاذيب التى يستطيع فرد أن يقولها ! ولكن قد تستطيع أن تتصور ذلك . لم لا ؟ وليكذبوا ما شاءوا أن يكذبوا على كل حال !... ولكن لا بد ان يأتى يوم تنفضح فيه الأكاذيب !... اجلس لحظةً ، سأنادى زوسيموف .

هجم زوسيموف على راسكولنيكوف بشراهة، وظهر عليه استطلاع قوى وفضول غريب ، ثم لم يلبث أن أشرق وجهه وأضاء .

قال جازماً بعد أن فحص المريض كيفما اتفق :

ـ عليك أن ترقد فى الفراش حالاً . وعليك قبل ذلك أن تتناول شيئاً حتى تنام . ابلع هذه الحبة ، هه ؟ لقد حضّرتها منذ قليل .

أجابه راسكولنيكوف :

ـ لأبلعنّ حبتين اذا لزم الأمر !

وبلع الدواء حالاً .

وقال زوسيموف لرازوميخين :

ـ انك لعلى صواب حقاً اذ تريد أن تصحبه . ما سيحدث غداً ، سنراه فى حينه ؛ أما اليوم فحالته ليست سيئة جداً . لقد تبدل تبدلا واضحاً عما كان عليه قبل قليل . ان الانسان يتعلم فى كل يوم اموراً جديدة .

جمجم رازوميخين يقول لراسكولنيكوف منذ صارا فى الشارع :

ـ هل تعلم بماذا همس زوسيموف فى أذنى لحظة خرجنا ؟ يا صاحبى ، سأكلمك بصراحة ، لأن هؤلاء جميعاً حمقى أغبياء . لقد طلب منى زوسيموف أن أثرثر معك أثناء الطريق ، حتى تثرثر انت أيضاً ، ثم أمضى أقصُّ عليه فوراً كل ما تكون قد قلته ... ذلك انه قد قام فى ذهنه أنك ... أنك مجنون ... أو أنك توشك أن تصبح مجنوناً . هل تتخيل هذا ؟ أنا أرى أولاً أنك أذكى منه ثلاثة أضعاف ؛ وأرى ثانياً أنك اذا لم تكن مجنوناً فلن تكترث بما قد يقوم فى ذهنه ؛ وأرى ثالثاً أن هذه الشريحة من اللحم التى هى طبيب جراح ، قد أصبحت لا تُعنى الا بالأمراض العقلية ، فاقتنعت بعد حديثك مع زاميوتوف بان ...

ـ هل روى لك زاميوتوف كل شىء ؟

ـ كلّ شيء . ولقد أحسن صنعاً . ان هذا أفهمني القضية كلها ، وقد فهمها زاميوتوف هو أيضاً . الخلاصة يا روديا ... الواقع أن ... حقاً أن الآن سكران قليلاً ، ولكن لا ضير ... الواقع أن هذه الفكرة ... هل تفهم ؟... قد ترسخت في أذهانهم ، هل تفهم ! لم يجرؤوا طبعاً أن يفصحوا عنها صراحةً ، لأن الأمر سخيف حقاً ، ولا سيما بعد أن اعتقلوا الدهّان . نعم لقد تبدد كل شيء الى الأبد كفقاعة صابون . ولكن لماذا هم أغبياء الى هذه الدرجة من الغباء ؟ لقد أسأتُ معاملة زاميوتوف قليلاً . ولكن هذا سر بيننا . أنت لا تعرف هذا ، أليس كذلك ؟ ذلك أنني لاحظت أنه أميل الى المماحكة والنزق ... حدث هذا كله عند لويزا . أما الآن فقد اتضح كل شيء . والحق أن المذنب الرئيسي انما كان ايليا بتروفتش . لقد استغل حادثة اغمائك في قسم الشرطة ، ثم خجل هو نفسه مما ذهب اليه ظنه . أنا أعلم كل شيء .

كان راسكولنيكوف يصغي بشراهة . وقد أفاض رازوميخين في الكلام بتأثير السكر .

قال راسكولنيكوف :

ـ انما أغمي عليّ لأنني كنت أختنق ، ولأن رائحة الدهان كانت تملأ الجو .

ـ عجيب أمرك ! ما بالك تشعر أنك في حاجة الى أن تبرير ! لم تكن رائحة الدهان وحدها هي السبب ، فانما أنت تحضن المرض منذ شهر ونيف . ان زوسيموف يشهد بهذا . لا تستطيع أن تتخيل مدى ما يشعر به هذا الغر ، زاميوتوف ، من خجل واضطراب . لقد قال : « انني لا أساوي اصبع هذا الرجل » ، يعني اصبعك أنت . هل تعلم يا أخي أنه يبرهن أحياناً على أن له عواطف طيبة كريمة ؟ ولكن الدرس

الذى تلقاه اليـوم فى « قصر الكريستال » قد بلغ منتهى الكمال • ذلك أنك أخذت فى أول الأمر تخيفه حتى أخذ يرتعد ! آه ••• حين أتصور كيف كدت تجبره اجباراً على أن يصدّق ذلك الأمر السخيف المستحيل ••• ثم اذا بك تمدُّ له لسانك مستهزئاً على حين فجأة !••• يا سلام ! نعم ، بلغ ذلك منتهى الـكمال ! ظل الرجل محطماً مسحوقاً • يميناً انك لأستاذ ، لقد عاملتهم بما يستحقون أن يعاملوا به • آه •• خسارة أننى لم أكن هناك ! هل تعلم ؟ لقد كانوا كانوا ينتظرونك عندى محترقين من نفاد الصبر • وكان بورفير أيضاً يود لو يتعرف اليك •••

ـ آ ••• أذلك الرجل أيضاً ؟••• ولماذا يعدوننى مجنوناً ؟

ـ أقصد ••• لا مجنوناً تماماً ! أظن يا صاحبى أننى أسرفت فى الثرثرة بعض الاسراف ••• ان ما فجأ بصره وخطف انتباهه هو أنك لا تهتم الا بهذا الأمـر • هم الآن يرون طبعاً لماذا تهتـم به • هم الآن يعرفون الظروف ، يعرفون أن ذلك كله قد اختلط بمرضك فأثارك • أنا سكران قليلاً كما ترى يا صاحبى • ولكن الشيطان وحده يعلم ماذا يدور فى فكره • أعود فأقول لك : ان الأمراض العقلية قد ذهبت بعقله• أما أنت فما عليك الا أن تبصق على هذا كله •••

وصمت الاثنان نصف دقيقة •

ثم بدأ راسكولنيكوف الكلام فقال :

ـ اسمع يا رازوميخين ، أريد أن أكلمك بصراحة • أنا آتٍ الآن من بيت رجل مات • ان موظفاً قد مات ••• وقد تركت هناك كل ما بقى لى من مال ••• هذا الى أننى قد قبلتنى منذ قليـل مخلوقة لو كنت قد قتلت أحـداً لكان فى وسـعها مع ذلك أن ••• ورأيت هنالك مخلوقة

أخرى ••• على قبعتها ريشة حمراء ••• ولكننى أرى أننى أهذر وأهذى ••• اننى ضعيف جداً ••• اسندنى ••• هناك السلّم ، أليس كذلك ؟

سأله رازوميخين قلقاً :

ـ ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

ـ رأسى يدور قليلاً ، ولكن ليس هذا هو الأمر ••• وانما الأمر أننى حزين جداً ، حزين جداً ! كامرأة ••• حقاً ••• انظر ! ما هذا ؟ انظر ! انظر !•••

ـ ماذا ؟

ـ ألا ترى ؟ ان فى غرفتى ضوءاً • نعم ، اننى أرى الضوء من خلال الشق •••

كانا قد وصلا من السلّم الى الفسحة السابقة على الفسحة الأخيرة، أمام باب صاحبة البيت ؛ ومن هناك كان يُرى ضوء فى غرفة راسكولنيكوف فعلاً •

قال رازوميخين :

ـ غريب ! لعلها ناستاسيا •

ـ ناستاسيا لا تجىء الىّ أبداً فى مثل هذه الساعة ؛ ثم انها نائمة منذ مدة طويلة ••• على أن هذا كله يستوى عندى ••• استودعك الله !

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ لا بد لى أن أصحبك طبعاً ! سندخل معاً !

ـ أعرف أننا سندخل معاً ، ولكننى أريد أن أصافحك وأن أودعك هنا • هلمّ هات يدك وودّعنى !

ـ ماذا دهاك يا روديا ؟

ـ لا شيء . هيَّا ، ستكون شاهداً .

واستمرا يصـــعدان السلَّم ، وخطر ببـال رازوميخين عندئذ أن زوسيموف ربما كان على حق ، فدمدم يقول بينه وبين نفســه : « كيف سمحت لنفسى أن أثير فى نفسه الاضطراب بثرثرتى ؟ » .

وفيما هما يقتربان من الباب سمعا فجأة أصوات كلام فى الغرفة .

هتف رازوميخين يسأل :

ـ ولكن ماذا يجرى هنا ؟

بادر راسكولنيكوف فأمسك قبضة الباب وفتحه على سـعته كلها . فتحه ووقف مسمَّراً على العتبة . كانت أمه وأخته تنتظرانه منذ سـاعة ونصف ساعة ، جالستين على الديوان . ترى لماذا كان يتوقع هذا اقل مما كان يتوقع أى شيء آخر ؟ لماذا خطرتا بباله أقلَّ مما خطر بباله أى انسان آخر ، مع أنه فى ذلك اليوم نفسه تلقى رسالةً تؤكد أن وصولهما قريب ، وشيك ؟ لقد لبثا طوال مدة الانتظار لا يكفان عن مساءلة ناستاسيا التى كانت ما تزال فى الغرفة أمامهما ، فاتسع وقتها لأن تروى لهما كل شيء عن راسكولنيكوف . ولقد استبد بهما ذعر شديد حين علمتا « أنه هرب اليوم من البيت » مريضـاً ، وأنه كان يهذى ، على ما يخـرج من القصة التى روتها ناسـتاسيا . « ماذا جـرى له يا رب ؟ » . ولقد بكت المرأتان كلتاهما وعانتا عذاباً شـديداً خلال مدة الانتظار هذه التى دامت ساعةً ونصف ساعة .

فلمـا ظهر راسكولنيـكوف استقبلتاه بصيحات فرح وحماسـة ، واندفعتا كلتاهما نحوه ، ولكن راسـكولنيكوف لبث جامداً كجثة . ان

فكرة مفاجئة لا تطاق قد نزلت عليه عندئذ نزول الصاعقة ؛ حتى ان ذراعيه لم ترتفعا لمعانقتهما ، فانه لم يكن يملك من القوة ما يمكنه من ذلك . شدّته الأم والأخت الى صدريهما ، وأغرقتاه بالقبل ، وكانتا تضحكان وتبكيان فى آن واحد . فتقدم خطوة ، وترنح ، ثم هوى على الارض مغشياً عليه .

انطلقت صيحات الرعب ، وأنات الخوف ، وصرخات الاستغاثة . وكان رازوميخين قد لبث على عتبة الباب ، فهرع الى الغرفة ، وامسك المريض بذراعيه القويتين ، فأرقده على الديوان بمثل لمح البصر سرعة .

وصاح رازوميخين يقول للأم والأخت مطمئناً مهدئاً :

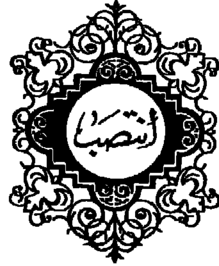
— ما هذا بشيء ، ما هذا بشيء ! ليس هذا الا اغماءً تافهاً لاقيمة له . لقد قال الطبيب منذ هنيهة ان صحته قد تحسنت كثيراً ، وانه شفى شفاءً تاماً ... الىّ بقليل من الماء ! ها ... ها هو ذا يسترد وعيه ، ها هو ذا يستعيد شعوره !

ثم أمسك يد دونيا امساكاً قوياً كاد يهشمها ، ليجبرها على أن تميل على أخيها فترى أنه « استعاد شعوره » .

كانت الأم والأخت تنظران الى رازوميخين نظرتهما الى اله ، وتشعران نحوه بامتنان عظيم وشكر عميق وعاطفة قوية وحنان شديد . كانتا قد عرفتا من ناستاسيا مافعله هذا « الشاب اللبيب » فى سبيل عزيزهما روديا طوال مدة مرضه ، كما نعتته بهذه الصفة بولشيريا الكسندروفنا راسكولنيكوفا ، فى ذلك المساء نفسه ، أثناء حديث حميم جرى بينها وبين دونيا .

الجزء الثالث

الفصل الأول



راسكولنيكوف وجلس على الديوان •
وأومأ ايماءةً خفيفة يهيب برازوميخين أن يوقف سيل المواساة العارم المتقطع الذى كان يغمر به أمه وأخته ، ثم أمسك بيديهما كلتيهما ، وراح يتأملهما صامتاً ، واحدة بعد أخرى ، خلال دقيقة أو دقيقتين • خافت الأم من نظرته ، فقد كانت هذه النظرة تشف عن عاطفة عنيفة الى حد الألم ، وكانت فى الوقت نفسه ثابتة تكاد تدل على جنون ••• واخذت بولشيريا الكسندروفنا تبكى • وكانت آدفوتيا رومانوفنا شاحبة الوجه ، وكانت يدها ترتجف فى يد أخيها •

قال راسكولنيكوف بصوت متقطع وهو يومىء الى رازوميخين :

ــ عودا الى بيتكما ••• معه ! الى الغد • كل شىء غداً سوف ••• هل وصلتما منذ مدة طويلة ؟

أجابت بولشيريا ألكسندروفنا :

ــ هذا المساء يا روديا • لقد تأخر القطار تأخراً رهيباً ! ولكننى لن أتركك الآن بحال من الأحوال يا روديا • سأقضى الليل قرب •••

قال وهو يحرِّك يده باشارة اهتياج وغيظ :

ـ لا تعذبونى هذا التعذيب !

صاح رازوميخين يقول :

ـ سأبقى بقربه ! لن أتركه دقيقةً واحدة . ليذهب ضيوفى الى الشيطان ! ألا فليغضبوا اذا حلا لهم أن يغضبوا ! ثم ان عمى هناك يترأس الحفل ...

قالت بولشيريا الكسندروفنا وهى تصافح رازوميخين من جديد :

ـ أنىّ لى أن أوفيك حقك من الشكر !

ولكن راسكولنيكوف قاطعها مرةً أخرى ، وقال مردداً فى غضب:

ـ لا أستطيع ! لا أستطيع ! لا تعذبونى ! كفى هذا ! اذهبوا ... لا أستطيع !...

دمدمت دونيا تقول مرتاعةً :

ـ لنذهب يا ماما ، لنخرج من هذه الغرفة ولو لحظةً قصيرة . ان لم نخرج كنا نقتله ... هذا أكيد ...

فهتفت بولشيريا تقول باكية :

ـ ألا يجوز لى اذن أن أنظر اليه قليلاً بعد فراقٍ دام ثلاث سنين ؟

وعاد راسكولنيكوف يتكلم فقال :

ـ انتظروا ... أنتم تقاطعوننى دائماً ... وقد اضطربت افكارى واختلطت ... هل رأيتما لوجين ؟

قالت الأم :

ـ لا ، يا روديا ، ولكنه يعرف أننا وصلنا •

ثم أضافت تقول بخجل :

ـ وقد عرفنا يا روديا أن بطرس بتروفتش قد تفضل فزارك فى هذا اليوم •

ـ نعم ••• تفضَّل !•• يا دونيا لقد أبلغت لوجين أننى سأدحرجه الى أسفل السلَّم اذا هو جاء الىَّ مرة أخرى • وأرسلته الى الشيطان •

ـ روديا ، ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ لا شك انك لا تريد ••• مع ذلك ••• أن

كذلك بدأت تقول بولشيريا ألكسندروفنا ، ولكنها نظرت الى دونيا فلم تلبث أن قطعت كلامها وصمتت •

كانت آدوفوتيا رومانوفنا تحدِّق الى أخيها بنظرات ثابتة وتنتظر التتمة • وكانت المرأتان قد عرفتا أمر المشاجرة من ناستاسيا ، بمقدار ما كانت ناستاسيا قادرة على أن تدركها وعلى أن تصوِّرها ، فكانتا لذلك فى حيرة شديدة واضطراب قوى •

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال بجهد ومشقة :

ـ دونيا ، أنا لا أريد هذا الزواج • لذلك يجب عليك أن تعلنى له رفضك من الغد • لا أحب أن يسمِّم حياتنا بعد الآن !

صاحت بولشيريا الكسندروفنا :

ـ رباه !

وبدأت آدفوتيا رومانوفنا تتكلم فقالت باندفاع :

ـ هلاَّ فكرت قليلاً فيما تطلبه منى يا أخى !•••

ولكنهـا لم تلبث أن سيطرت على نفسـها ، فاضـافت تقـول برفق وهدوء ولين :

ـ قد لا تكون صحتك الآن حسنة ... أنت متعب !

ـ أأنا أهذى اذن ؟ أهذا ما تتصورينه ؟ لا ، انا لا اهذى ! انك تريدين أن تتزوجى لوجين « فى سـبيلى أنا » ! ولكننى أنا أرفض هـذه التضحيات . لذلك ستكتبين له من الغد رسالة قطيعة . وسأقرأ الرسالة ، وينتهى كل شىء .

هتفت الفتاة تقول مستنكرة :

ـ لا أستطيع أن أفعل هذا . وبأى حق ...

فقاطعتها الأم مرتاعة وهى ترتمى عليها :

ـ أنت أيضاً تندفعين يا دونيتشـكا ... كفى الآن ... غدا ... ألست ترين اذن أنه ... آه ... والأفضل أن تنصرف أيضاً !

وصاح رازوميخين يقول :

ـ انه يهذى ! والا فهل كان يجرؤ أن ... لسـوف تخرج من رأسه هذه الحماقات كلها غداً . لقد طرده اليوم فعلاً . هذا صحيح . وغضب الآخـر طبعـاً . كان يفيض فى الكلام هنـا ، ويعـرض علمـه ومعرفته . لكنه خرج مع ذلك واضعاً ذيله بين ساقيه ...

هتفت بوليشيريا الكسندروفنا تقول :

ـ أصحيح اذن ؟

وقالت دونيا وقد امتلأ قلبها شفقة ورحمة :

ـ الى الغد يا أخى . هلمى يا أمى ! أستودعك الله يا روديا !

كرر راسكولنيكوف يقول مستجمعاً آخر قواه :

ـ اسمعي يا أختي ! أنا لا أهذي • ليس هذا صحيحاً • ان هذا الزواج دناءة ! لنفرض أنني أحط انسان • ولكن يجب عليك أنت ان لا ••• انه يكفي أن يكون واحد منا ••• ثم انني على كوني أحط انسان ، لن أعدك أختي اذا أنت ••• فاما لوجين واما أنا ! وانصرفوا الآن !

زأر رازوميخين يقول :

ـ ولكنك جننت ! يا لك من طاغية مستبد !

لم يجب راسكولنيكوف ، ربما لأنه كان لا يملك من القوة مايمكنه من الكلام • وعاد يرقد على الديوان ، واستدار الى جهة الحائط ، مهدود القوى تماماً •

نظرت آدفوتيا رومانوفنا مستطلعة مستوضحة • كانت عيناها تسطعان • حتى لقد ارتعش رازوميخين بتأثير هذه النظرة • ولبثت بولشيريا ألكسندروفنا جامدة مذهولة • وهمست تقول لرازوميخين يائسة :

ـ لكنني لن أستطيع أن انصرف بحال من الأحوال • سأبقى هنا ، في مكان ما • اصحبْ انت دونيا •

فأجابها رازوميخين همساً كذلك ، ولكنه كان غاضباً خارجاً عن طوره :

ـ بهذا تفسدين كل شيء • لنخرج الى فسحة السلّم على الأقل • يا ناستاسيا ، هاتي لنا ضوءاً •

حتى اذا صاروا في السلّم ، تابع كلامه يقول بصوت خافت :

ـ أحلف لك أنه كاد يضربنا أنا والطبيب منذ قليل . هل تفهمين؟ نعم ، كاد يضرب الطبيب نفسه. واضطر الطبيب أن يطيعه حتى لا يهيجه مزيداً من الهياج ، فانصرف ؛ ورغم أنني بقيت أنا تحت ، من أجل أن أحرسه ، فقد استطاع أن ينهض ... وأن يهرب ! فاذا أهجناه الآن وأغضبناه ، فسيهرب ، أو هو سيحاول ، في وسط الليل ، أن يرتكب عملاً ضد نفسه ...

ـ ما هذا الذي تقوله ؟

ـ ثم ان آدفوتيا رومانوفنا لا تستطيع أن تقضي الليل وحيدة في تلك الغرفة المفروشة . هلا فكرت قليلاً في المنزل الذي تنزلونه ! ألم يكن في وسع ذلك الوغد بطرس بتروفتش أن يجد لكما مسكناً أليق ؟ على أنني سكران قليلاً ، لذلك شتمت ... لا تولي هذا انتباهاً !

قالت بولشيريا الكسندروفنا مصرّة :

ـ اذن سأمضي أتوسل الى صاحبة البيت أن تهب لنا ، أنا ودونيا ، ركناً صغيراً نبيت فيه هذه الليلة . لا أستطيع أن أتركه وهو على هذه الحال ، لا أستطيع .

وكانا قد هبطا طابقاً وهما يتكلمان ، فأصبحا الآن أمام باب صاحبة البيت . وكانت ناستاسيا تتقدمهما درجة فتنير لهما الطريق .

كان رازوميخين يعاني اضطراباً خارقاً . انه قبل نصف ساعة ، على افراطه في الثرثرة أثناء مرافقته راسكولنيكوف الى بيته ـ كما اعترف هو نفسه بذلك ـ كان يشعر بأنه مرتاح تقريباً ، وبأنه ممتلىء نشاطاً رغم المقادير الضخمة من الخمرة التي شربها في السهرة . اما الآن فهو في حالة نشوة شديدة ، والخمرة تصعد الى رأسه بقوة متزايدة . هو الآن واقف بين السيدتين ، ممسك يديهما ، يحاول بصراحة قوية

أن يقنعهما بالحجج التي يعرضها • وأغلب الظن أنه من أجل أن يقنعهما بمزيد من القوة انما كان يشد يد كل منهما بما يشبه الكلابة ، عند كل كلمة يقولها ، فاذا هو يوجعهما ، بينما عيناه تلتهمان آدفوتيا رومانوفنا التهاماً ، دون أن تخرج • فكانتا من شدة الألم تخلّصان أصابعهما أحياناً من قبضة يده القوية المعروقة ، ولكنه لا ينتبه هو الى هذا ، حتى ليشدهما اليه شداً أقوى • ولو قد طلبتا منه في تلك اللحظة أن يرمى نفسه الى أسفل السلّم منكّس الرأس لفعل ذلك فوراً بلا مناقشة ولا تردد •

كانت بولشيريا السكندروفنا تستغرب بعض الاستغراب أن يضغط الشاب يدها هذا الضغط القوى ، وأن يكون تصرفه شاذاً هذا الشذوذ ، ولـكنها من شدة تأثرها حين تتذكر ابنها لوديا ، ومن اصرارها على ان ترى في رازوميخين عوناً أرسلته العنـاية الالهيـة ، كانت لا تريد ان تعترف لنفسها بهذه التفاصيل • أما آدفوتيا رومانوفنا ، فقد كانت ، رغم أنها ليست بالفتاة الخجول ، لا تخلو من شعور بالدهشة والذهول بل ومن احساس بالخوف والرعب ، حين يلتقي بصرها بتلك النظرة الملتمعة التي يلقيها عليها صديق أخيها ، غير أن الثقة العظيمـة التي اوحى اليها بها حديث ناستاسيا عن هذا الرجل الرهيب هي التي كانت تنتزعها من الرغبة في الهروب منه جارّةً معها أمها • ثم انها كانت تدرك حق الادراك انهما أصبحتا لا تستطيعان الخلاص منه الآن • يضاف الى هذا أنها قـد هدأت بعد عشر دقائق : فان رازوميخين يملك موهبة الظهور على حقيقته كاملةً من أول نظرة ، أيةً كانت الحالة التي هو فيها ، فاذا بمن يراه يعرف من ذا يعامل •

هتف رازوميخين يقول ليقنع بولشيريا الكسندروفنا :

ـ لا مجال للتفكير في الالتجاء الى صاحبة البيت ! تلك أكبر حماقة يمكن ارتكابها • لو بقيت لأثرت غضبها وحنقها رغم أنك أمه ، ولا يدرى

الا الشيطان ماذا يمكن أن يحدث ! اسمعيني ، اليك ما سافعله : تبقى ناستاسيا الآن الى جانبه ، وأصحبكما أنا كلتيكما الى بيتكما ، لانكما لاتستطيعان أن تسيرا وحيدتين هكذا في الشوارع. عندنا ، في بطرسبرج، من هذه الناحية .. الخلاصة !.. فمتى أوصلتكما رجعت الى هنا راكضاً ، فما ان ينقضي على ذلك ربع ساعة حتى أعود اليكما من جديد لأخبركما بكل شيء : أقول لكما كيف حالته ، وهل نام أم هو لم ينم ، الخ الخ . لكما عليّ عهد الشرف لأعودنّ اليكما بعد ربع ساعة . ثم أثب الى بيتي حيث يوجد ضيوف هم جميعاً سكارى، فاخذ زوسيموف ــ ان زوسيموف هو طبيبه ، وهو الآن في بيتي ولكنه ليس بسكران ، هو لا يسكر ابداً ــ آخذه وأمضي به الى روديا ، ومن هناك نجيء اليكما فوراً نحن الاثنين ؟ فبذلك تتلقيان أخباراً عن روديا مرتين في غضون ساعة ؟ وفي احدى هاتين المرتين تتلقيان الأخبار من فم طبيب ، نعم من فم طبيب ، فيكون فيها من الجد ما لا يكون في الأخبار التي قد أنقلها أنا وحدي بطبيعة الحال ... فاذا لم يكن روديا بخير اصطحبتكما اليه حتماً ، يميناً لاصطحبنّكما اليه ان لم يكن بخير ... أما اذا كانت حالته حسنة ، فلن يكون عليكما عندئذ الا أن ترقدا وتناما . وأنا سأقضي الليلة هنا ، على فسحة السلّم ؟ ولن يلاحظ هو ذلك . وسأطلب من زوسيموف أن يبيت عند صاحبة البيت ، فيكون بذلك تحت تصرفي ورهن اشارتي . من ينفعه في هذا الوقت أكثر ، أأنتما أم الطبيب ؟ الطبيب طبعاً ! فعودا اذن الى بيتكما ! ولا مجال للتفكير في الالتجاء الى صاحبة البيت . أنا يمكن أن أبيت عندها ، أما أنت فلا . لن تحب أن تبيتي عندها ... لأنها امرأة حمقاء . سوف تغار ... سوف تغار بسبب آدفوتيا رومانوفنا . اعلمي هذا اذا كنت تحرصين على أن تعرفي كل شيء ... هذه امرأة غريبة الأطوار جداً . على أنني أنا أيضاً غبي ! وهلمّ جرا ... أتثقان بي ؟ أتثقان بي ؟ أتثقان بي أم لا ؟

قالت آدفوتيا رومانوفنا :

ـ فلننصرف يا ماما . لا شك في أنه فاعل ما يقول . لقد ردّ اخي الى الحياة . واذا صحّ أن الطبيب يقبل أن يقضي الليلة هنا ، فهل تتمنى خيراً من هذا ؟

هتف رازوميخين يقول مفتتناً غاية الافتتان :

ـ حقاً ... انك لتفهمينني لأنك ملاك ! هيّا بنا . يا ناستاسيا ، اصعدي أنت الى فوق ، فوراً ، مع النور ، وسأعود أنا بعد ربع ساعة .

لم تعارضه بولشيريا الكسندروفنا أية معارضة ، رغم أنها لم تقتنع اقتناعاً تاماً . وأمسك رازوميخين ذراع السيدتين وجرّهما على السلم. ولكن الأم ظلت قلقة ، فكانت تقول لنفسها : « قد يكون لبيباً ومخلصا ، ولكن أهو قادر على أن يفي بوعده ، وهو على هذه الحال ؟ » .

قال رازوميخين وكأنه حزر مجرى خواطر بولشيريا الكسندروفنا، بينما هو يسير على الرصيف بخطى واسعة فلا تكاد تستطيع السيدتان ان تجارياه الا بمشقة كبيرة ، وذلك أمر لم يلاحظه على كل حال ؛ قال :

ـ آ ... أنا أفهم ! انك تقدّرين أنني في الحالة التي أنا فيها ، لا ... نعم ... أنا سكران ، سكران تماماً ، ولكن ليست هذه هي المسألة . ليست الخمرة هي التي أسكرتني ... فالضربة التي سقطت على رأسي انما سقطت على رأسي حين رأيتكما ! على كل حال ، لا تكترثا لهذا ! أنا أهذي ، أنا لست جديراً بكما ، لست جديراً بكما البتة ... وما ان أوصلكما ، حتى أذهب الى القناة ، فأصب على رأسي قادوسين من الماء . ليتكما تعرفان كم أحبكما كلتيكما ! لا تضحكا ! لا تزعلا ! ازعلا من جميع الناس ، ولكن لا تزعلا مني أنا ! أنا صديقه ، فانا اذن صديقكما . ذلك ما أريد أن يكون ! ولقد أوجست هذا منذ السنة

الماضية ... نعم ، فى لحظة ما ، هكذا . على اننى لم أوجس شيئاً البتة، لسبب بسيط هو أنكما هبطتما علىَّ من السماء . الخلاصة ، من الجائز جداً أن لا أنام طوال الليل . كان زوسيموف يخشى منذ قليل أن يجن روديا . لذلك يجب تحاشى اهاجته .

هتفت الأم تسأله :

ـ ما هذا الذى تقوله ؟

وسألته آدفوتيا رومانوفنا مروَّعة :

ـ حقاً ؟ الطبيب نفسه قال لك ؟

ـ قال لى ! ولكن كلامه ليس صحيحاً ، ليس صحيحاً على الاطلاق. آه ... كان من الأفضل أن لا تصلا الا غداً ! على كل حال ، لقد احسنا صنعاً اذ انصرفنا . وبعد ساعة سيأتيكم زوسيموف بتقرير كامل . ليس زوسيموف سكران مثلى ، ليس هو سكران . وأنا لن أكون سكران أيضاً ! آه ... لماذا شربت حتى ثملت ؟ لماذا ؟ لأنهم جرُّونى الى حديثهم ، أولئك الملاعين ! وكنت مع ذلك قد آليت على نفسى ان لا أناقش . وما أسخف ماكانوا يقولونه ! كدت أن أقتتل معهم ! وتركت عمى يترأس بدلاً منى . هل تصدِّقان ؟ انهم ينادون باللاشخصية ... يقولون ان على المرء أن لا يكون عين نفسه . ويسمُّون هذا ذروة التقدم . ويا ليت السخافات التى قالوها كان فيها شىء من أصالة وطرافة. أبداً ...

قالت بولشيريا ألكسندروفنا خجلةً وجلة :

ـ اسمع ...

ولكن مقاطعتها هذه لم تزده الا اندفاعاً وحماسة . فصاح يقول بصوت أعلى :

ـ آ ... أنت تقدرين اننى بسبب هذرهم وهذيانهم انما ... أبداً ! أنا أحب الهذر والهذيان والخطأ والضلال . ان الخطأ هو الميزة الوحيدة التى يمتاز بها الكائن الانسانى على سائر الكائنات الحية . من يخطىء يصل الى الحقيقة . أنا انسان لأننى أخطىء . ما وصل امرؤ الى حقيقة واحدة الا بعد أن أخطأ أربع عشرة مرة ! وهذا فى ذاته ليس فيه ما يعيب . ولكن الناس لا يعرفون حتى أن يخطئوا بأنفسهم . لك أن تقول آراء جنونية ، ولكن لتكن هذه الآراء آراءك أنت ، فأغمرك بالقبل. لأن يخطىء المرء بطريقته الشخصية ، فذلك يكاد يكون خيراً من ترديد حقيقة لقّنه اياها غيره . أنت فى الحالة الأولى انسان ، أما فى الحالة الثانية فأنت ببغاء لا أكثر . الحقيقة لا تطير ، أما الحياة فيمكن خنقها . لقد رئى هذا . الى أين وصلنا من هذا الآن ؟ نحن جميعاً ، بغير استثناء ، سواء فى ميدان العلم ، أو الثقافة ، أو الفكر ، أو العبقرية الخالقة ، أو المثل الأعلى ، أو الرغبات ، أو اللبرالية ، أو العقل ، أو التجربة ، نحن فى كل شىء ، فى كل شىء ، فى كل شىء ، نعم ، فى كل شىء ، ما زلنا فى الصفوف الاعدادية لدخول المدرسة الثانوية ! الأفكار الممضوغة ، ذلك هو ما نحبه ! أليس هذا صحيحاً ؟ أليس الأمر كما أقول ؟ أليست هذه هى الحقيقة ؟

كذلك قال رازوميخين وهو يهزّ يدى السيدتين ويضغطهما .

فدمدمت المسكينة بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ والله ... لا أعلم !

وأضافت آدفوتيا رومانوفنا قائلة :

ـ نعم ، هو هذا ، هو هذا ، رغم أننى لا أوافقك على جميع النقاط .

ثم سرعان ما أطلقت صرخة ألم ، لأن رازوميخين قد ضغط يدها في هذه المرة ضغطاً قوياً فلم تملك الا أن تطلق تلك الصرخة .

وهتف رازوميخين يقول مفتتناً :

ـ نعم ؟ تقولين نعم ؟ ألا انك اذن ... ألا انك اذن لينبوع خير ، وطهارة ، وعقل ، وكمال . ناوليني يدك ، ناوليني يدك ، وأنت أيضاً ، ناوليني يدك . أريد أن أقبل يديكما في هذا المكان نفسه ، في هذه اللحظة نفسها ، جاثياً على ركبتي ، راكعاً !

وركع في منتصف الطريق ، الذي كان خالياً في تلك اللحظة من حسن الحظ .

صرخت بولشيريا ألكسندروفنا تقول مروّعة :

ـ كفى ، من فضلك ! ما هذا الذي تفعله ؟

وقالت دونيا ضاحكةً ، رغم ارتياعها هي أيضاً :

ـ انهض ، انهض !...

ـ لن أنهض بحال من الأحوال ، لن أنهض الا بعد أن تناولاني يديكما ! نعم ، هكذا . وكفى الآن ! أنهض ونمضي . أنا امرؤ غليظ الطبع ثقيل الظل . أنا لست جديراً بكما . أنا سكران . وانني لأشعر من هذا بخزي وعار ... أنا لا أستحق أن أحبكما . أما السجود أمامكما فهو واجب يقع على كل انسان ليس أحمق كل الحمق . لذلك سجدت ... ولكن هذا هو مسكنكما . يكفي هذا وحده سبباً أجاز لروديون أن يطرد صاحبكما بطرس بتروفتش شر طردة ! كيف أباح لنفسه أن يُسكنكما في غرفة مفروشة كهذه الغرفة ؟ هذه فضيحة ! هل تعلمان نوع الناس الذين يؤوونهم هنا ؟ ثم يقول انك خطيبته !... أنت خطيبته أليس كذلك ؟ فاسمحي لي أن أقول لك اذن ان خطيبك رجل قذر !

بدأت بولشيريا ألكسندروفنا تتكلم فقالت :

ـ اسمع يا سيد رازوميخين ؟ انك تنسى أن ...

فأسرع رازوميخين يقول مستدركاً :

ـ نعم ، نعم ، أنت على حق ! أنا أقول سخافات ! انني لأشعر بخجل وعار . ولكن .. ولكن لا يمكنك أن تغضبي لأنني كلمتك بهذه الطريقة . ذلك أنني تكلمت مخلصاً صادقاً ، ولم أقل ذلك الكلام لأنني ... همْ ... لا ... لن أقول ... لو قلت لكان في كلامي ما يدعو الى النفور ... الخلاصة ... أنا لم أقل ذلك لأنني ... بك ... همْ ... لا ، ما ينبغي أن أقول لماذا ... لا أجرؤ ... ولكن ، حين دخل علينا في هذا اليوم ، أدركنا جميعاً على الفور أن هذا الرجل ليس منا . لا لأننا رأيناه يصل مجعَّد الشعر قد خرج من عند الحلاَّق رأساً ، لا ولا لأنه أسرع يعرض ثقافته ومعلوماته ، بل لأنه جاسوس ومستغل لأنه بخيل كيهودي ، لأنه دجال ، ولأن هذا كله واضح لا يخفى ! أتظنانه ذكياً ؟ لا بل هو غبي ، غبي ! أهذا زوج لك ؟ لا ، لا !

ثم أضاف يقول وهو يتوقف فجأة لحظة همُّوا أن يصعدوا السلم :

ـ اسمعا يا سيدتيَّ : ان الضيوف الذين هم في بيتي الآن أناس شرفاء مهما يكونوا سكارى ، ورغم أننا جميعاً نهذر ونهذي ـ وأنا أيضاً أهذر وأهذي ـ فان هذرنا وهذياننا سيفضيان بنا يوماً الى الحقيقة ، لأننا نحن نسير في طريق الاخلاص والتجرد عن المنفعة ، وليس هذا طريق بطرس بتروفتش ، فان بطرس بتروفتش لا يسلك طريق التجرد عن المنفعة ... نعم ، فرغم أنني وصفتهم في هذا المساء بجميع النعوت وانهلت عليهم بجميع الشتائم ، فانني اقدرهم جميعاً حق قدرهم . وأنا

أحب زاميوتوف رغم أنني لا احترمه . أنا أحبه فعلاً ، لأنه حيوان شائق على كل حال . أحب حتى ذلك الشرس زوسيموف ، لأنه شريف ولأنه يعرف مهنته . ولكن كفى الآن هذا . لقد قلت كل شيء... وسامحاني ، هه ! هيًّا بنا ! انني أعرف هذا الدهليز . لقد سبق أن جئت الى هذا المكان ، وهنا ، في رقم ٣ ، وقعت فضيحة . أين تسكنان ؟ في أي رقم ؟ ثمانية ؟ طيب ... أغلقا عليكما الباب طول الليل ، ولا تدعا لأحد أن يدخل . سأعود اليكما بأنباء بعد ربع ساعة ، وبعد نصف ساعة من عودتي الأولى ، سأعود ثانية مع زوسيموف . ستريان . استودعكما الله . أنا ذاهب !

قالت بولشيريا الكسندروفنا لابنتها خائفة وجلة :

ـ رباه ! ماذا سيحدث يا دونيتشكا !

فأجابت دونيا أمها وهي تخلع قبعتها وتنضو خمارها :

ـ هدئي روعك يا ماما . ان الله نفسه هو الذي أرسل الينا هذا السيد ، رغم أنه مسرف في السكر . في وسعنا أن نعتمد عليه ، أؤكد لك . انظري الى كل ما فعله في سبيل أخينا من قبل أن نصل ...

ـ آه يا دونيتشكا . الله يعلم هل يعود ! وكيف أمكنني أن أوافق على ترك روديا ؟... ثم انني لم أكن أتوقع أن أراه على هذه الحالة . ما على هذه الحالة كنت أتوقع أن أراه ! ما أقساه ! لكأنه لم يُسر برؤيتنا !

وتلألأت في عيني الأم دموع .

ـ لا يا أماه . ليس هذا هو الأمر . أنت ما رأيته رؤية جيدة ، لأنك كنت تبكين طول الوقت . انه مريض مرضاً شديداً . فهذا المرض هو سبب كل شيء .

ـ آ ... المـرض !... رباه ! ماذا سيحدث ؟ وهـل رأيت بأية لهجة خاطبك ؟

أضـافت الأم هذا السـؤال الأخير ، وهي تختلس نظرة الى عيني ابنتها لتقرأ ما يدور في ذهنها ، متعـزية بعض التعزي منذ الآن ، لأن دونيا دافعت عن أخيها ، فهذا دليل على أنها غفرت له .

ثم أردفت تقول وهي تنتظر ما عسى أن تقوله الفتاة :

ـ أنا واثقة بأنه سيرجع غداً الى عواطف أخرى .

فردّت آدفوتيا رومانوفنا تقول بلهجة قاطعة :

ـ أما أنا فواثقة بأنه سيكرر غداً ما قاله اليوم في هذا الموضوع .

وبهذا الردّ وضعت الفتـاة حـداً للحـديث بينها وبين أمها ، لأن بولشيريا الكسندروفنا كانت ، في هذه اللحظة على الأقل ، تخشى المجازفة في الكلام على هذا الأمر .

واقتربت دونيا من أمها فقبّلتها . فعانقتها أمها عناقاً قوياً دون أن تقول كلمة واحدة . ثم جلست تنتظر عودة رازوميخين قلقةً ، وتنظر وجلةً الى ابنتها التي غرقت في خواطرها وأفكارها مضطربةً هي أيضاً ، وأخذت تذرع الغرفة طولاً وعرضاً ، مصالبةً ذراعيها على صدرها . ان هذا المشي في الغرفة طولاً وعرضاً هو عادة من عـاداتها ؛ وأمها تخشى دائماً في مثل هذه الظروف أن تعكر تأملاتها .

لا شك أن رازوميخين كان مضحكاً جداً حين استولى عليه هذا الهيام المباغت بآفدوتيا رومانوفنا . ولـكن ما أكثر الذين لو رأوا آدفوتيا رومانوفنا ، ولا سـيما في ذلك الوقت الذي كانت تطوف فيـه بالغرفة حزينةً مفكّرةً مصالبة ذراعيها على صدرها ، ما أكثر الذين لو رأوها

لعذروا الفتى ولو كان في حالة طبيعية من غير سكر • ان آفدوتيا رومانوفنا فتاة جميلة جداً ، فارعة القوام ، معتدلة القد ، قوية ، واثقة بنفسها ـ كما تشهد بذلك كل اشارة من اشاراتها ـ دون أن يجرّدها ذلك من شيء من مرونتها وليونتها ، وخفتها ورشاقتها • هي تشبه أخاها وجهاً ، ولكنها يمكن أن توصف بأنها « آية في الجمال » • شعرها كستناوي اللون ، أزهى قليلاً من شعر أخيها • وعيناها اللتان تشبهان أن تكونا سوداوين، تلتمعان وتسطعان ، وتعبران عن عزة وشمم ، وتعبران أحيـاناً عن رقة وعـذوبة لا حـدود لهما • وهي شـاحبة ، لكن شحوبها ليس شحوب المرض ، فان وجهها يشع نضارة وعافية • وفمها أميل الى الصغر ، وشفتها السفلى حمراء قانية ، بارزة قليلاً كبروز ذقنها كذلك • وهذا هو العيب الوحيد في ذلك الوجه الرائع ؛ على أنه عيب يضفي عليها طابعاً أصيلاً من صلابة وثبات ، بل من تعالٍ وكبرياء • واذا كان وجهها يعبر عن الجد والتفكير أكثر مما يعبر عن المرح ، فان ابتسامتها ، وضحكتها الفرحة التي هي ضحكة الشباب والتي فيها شيء من اهمـال ، تناسبان فمها كثيراً • فلا غـرابة اذن أن نرى رازوميخين الذي يتصف بالحـرارة والبساطة والاستقامة ، أن نرى رازوميخين القوي كعملاق ، الثمل فوق ذلك ، الذي لم يسبق أن رأى جمالاً كهذا الجمال ، لا غرابة أن نراه يفقد عقله منذ أول نظرة • يضاف الى ذلك أن المصـادفة قد شـاءت ، بما يشبه العمد ، أن يرى دونيا في اللحظة التي كانت فيهـا زاخـرةً بالفرح لرؤية أخيها ، وأن يراها بعد ذلك وقد أخـذت شفتها السـفلى ترتجف اسـتياءً من مطالب هذا الأخ الوقحة ، فكيف كان يمكنـه أن يقاوم وأن يصمد ؟

ولقد صدق حين قال ، في سـكره ، ان صاحبة البيت الذي يسكن فيه راسكولنيكوف ، أي براسكوفيا بافلوفنا ، سوف تغار لا من آفدوتيـا

رومانوفنا فحسب ، بل ربما غارت كذلك من بولشيريا ألكسندروفنا ، فان هذه رغم أنها بلغت الثالثة والأربعين من العمر ، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير ، وهذا هو فى كثير من الأحيان شأن النساء اللواتى استطعن الاحتفاظ حتى اقتراب الشيخوخة بصحو الذهن ، ونضارة الاحساسات وحرارة القلب (ولنضف الى هذا مستطردين أن الاحتفاظ بهذا كله هو للمرأة الوسيلة الوحيدة التى تستطيع بها أن لا تفقد جمالها حين تشيخ). صحيح أن شعر بولشيريا ألكسندروفنا قد أخذ يبيض ويتناثر ؛ وصحيح أن غضوناً صغيرة رقيقة قد ظهرت حول عينيها منذ مدة طويلة ؛ وصحيح أن خدّيها قد خسفا وجفّا بسبب الهموم والأحزان ؛ ولكن هذا الوجه قد ظل جميلاً ؛ حتى ليمكن أن يقال انها صورة دونيا بزيادة عشرين عاماً ، مع فارق وحيد هو أن الشفة السفلى عند الأم ليست بارزة . وكانت بولشيريا ألكسندروفنا امرأة حسّاسة ، ولكن هذه الحساسية لا تمضى الى حد العاطفية المتصنعة . وهى خجولة ، ميّالة الى المجاراة ، مستعدة للتنازلات ، حتى حين يخالف ذلك اقتناعاتها . ولكن لهذا حدوداً . فمتى كان الأمر أمر شرفها وواجبها واقتناعاتها العميقة ، فما من ظرف من الظروف يمكن أن يحملها على تخطى تلك الحدود .

ما ان انقضت عشرون دقيقة على انصراف رازوميخين ، حتى نُقر الباب نقرتين خفيفتين : لقد عاد رازوميخين .

أسرع يقول منذ فُتح له :

ـ لن أدخل . لا يتسع الوقت . انه ينام نوعاً هادئاً مريحاً . أسأل الله أن يظل نائماً هذا النوم ست ساعات متتالية ! ناستاسيا قائمة عليه. أوصيتها أن لا تتركه الى أن أرجع . والآن سأمضى أُحضر زوسيموف. سيحدثكما هو عن حاله . ثم تعقلان فتنامان ، ذلك أننى أرى أنكما تكادان تسقطان من فرط التعب ...

قال ذلك ثم اندفع ينصرف •

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا تقول فرحةً كل الفرح :

ـ ما أعظم ما يمتاز به هذا الفتى من فطنة واخلاص !

فأجابت آفدوتيا رومانوفنا تقول بشيء من الحرارة وهي تستأنف سيرها في الغرفة طولاً وعرضاً :

ـ ان له طبيعة رائعة فيما يبدو •

وما ان انقضت على ذلك ساعة واحدة ، حتى سُمعت أصوات وقع أقدام في الدهليز ، ونُقر الباب من جديد •

كانت المرأتان قد انتظرتا في هذه المرة وهما ممتلئتان ثقة بصدق وعد رازوميخين • وقد جاء رازوميخين مصطحباً زوسيموف فعلاً • لقد رضي زوسيموف فوراً أن يترك الاحتفال ليعود راسكولنيكوف ، ولكنه لم يقبل أن يجيء الى السيدتين الا بشدّ الأذن ، لأنه كان يرتاب في حالة رازوميخين • فما أسرع ما رضي غروره وابتهج ابتهاجاً كبيراً حين أدرك أنهما كانتا تنتظرانه حقاً كما يُنتظر عرّاف • وقد لبث معهما عشر دقائق تماماً ، وأفلح كل الفلاح في أن يقنع بولشيريا الكسندروفنا وأن يهدىء روعها • وكانت أقواله كلها تشهد باهتمامه الشديد بالمريض ؛ ولكنه حافظ مع ذلك على هيئة الجد والرصانة التي تناسب طبيباً في السابعة والعشرين من عمره يُستشار في ظرف خطير ، فلم ينطق بكلمة واحدة تبتعد به عن موضوعه ، لا ولا أظهر أية رغبة في أن تقوم بينه وبين السيدتين صلات شخصية مستديمة • واذ لاحظ منذ دخوله جمال آفدوتيا رومانوفنا الباهر ، حاول فوراً أن لا ينتبه اليها أي انتباه ، وظل طوال مدة الزيارة لا يكلم الا بولشيريا ألكسندروفنا وحدها • وشعر من سلوكه هذا برضى كثير عن نفسه • أما فيما يتصل بالمريض فقد أعلن

أنه وجده هذه المرة في حالة مرضية على وجه الاجمال ؟ وشخص المرض فقال ان له ، عدا الظروف الماديه المؤسفة التي عاش فيها المريض خلال الاشهر الاخيرة ، ان له عدا تلك الظروف اسباباً سيكولوجية ، « فهو ثمرة عوامل كثيرة معقدة ، منها عوامل نفسيه ، كالهموم والمخاوف وبعض الافكار ، الخ » . واذ لاحظ ان افدوتيا رومانوفنا تصغي اليه بانتباه شديد جدا ، افاض في شرح رأيه مجاملاً . حتى اذا سألته بولشيريا ألكسندروفنا بصوت فلق خجول عما اذا كان هنالك شيء من « أعراض جنون ... » ، أجابها وهو يبتسم ابتسامة هادئة صريحة بأن أقواله قد بولغ في تفسيرها ؛ فلئن كان صحيحاً أنه لاحظ لدى المريض ميلاً الى مرض الفكرة الثابتة ، لئن لاحظ لديه علامات مرض الفكرة الوحيدة ــ لا سيما وأنه ، هو زوسيموف ، عاكف الآن على دراسة هذا الفرع الهام من فروع الطب ــ فان علينا أن نتذكر أيضاً أن المريض كان يهذي حتى هذا اليوم ، أو حتى هذا اليوم تقريباً فينبغي اذن ... » ؛ وأضاف زوسيموف يقول : « ولا شك أن وصول اسرته سيحسن اليه كثيراً ، وسيسري عنه ، أي سيساعد على شفائه » ، هذا اذا أمكن (أضاف ذلك بلهجة رزينة) أن « يجنب صدمات جديدة » . قال زوسيموف ذلك ثم نهض ، فحيّا تحية هي مزيج من جد ومودة ، وخرج تغمره عبارات الامتنان والدعاء من بولشيريا الكسندروفنا . حتى ان يد آفدوتيا رومانوفنا ، الصغيرة ، قد امتدت اليه من تلقاء نفسها ، فصافحها ، وخرج مفتوناً بهذه الزيارة ، ومفتوناً بنفسه أكثر من ذلك أيضاً .

قال رازوميخين يختم الزيارة وهو يخرج مع زوسيموف :

ــ سنتحدث غداً . أما الآن فيجب أن تناما ، يجب أن تناما حالاً . سأجيئكما غداً في أول ساعة ، لأنبئكما بكل شيء .

قال زوسيموف بحرارة حين صارا في الشارع :

ـ فتاة فتانة ، آفدوتيا رومانوفنا هذه !

زأر رازوميخين يقول :

ـ فتانة ؟ تقول فتانة ؟

وهجم عليه فجأة ، فأمسك بخناقه ، وتابع كلامه وهو يهزه من ياقته ويضغطه على حائط :

ـ اذا تجرأت في ذات يوم ... هل تسمع ؟ هل تسمع ؟ هل تسمع ؟

فقال زوسيموف متخبطاً :

ـ دعني يا سكّير !

فلما تركه حدّق الى رازوميخين بنظرة ثابتة ثم انفجر يضحك في قهقهة شديدة . كان رازوميخين واقفاً أمامه ، مترجّح الذراعين ، غارقاً في تأملات سوداء خطيرة .

قال رازوميخين مظلم الوجه مربدّ الأسارير :

ـ أنا حمار طبعاً ، ولكن أنت أيضاً ، أنت أيضاً ...

ـ لا ياصاحبي . شأني أنا شأن آخر . أنا لا أفكر في سخافات .

وأخذا يسيران دون أن يتبادلا كلمة واحدة ؛ وكان يبدو على رازوميخين أنه مهموم جداً . فلما وصلا الى قرب عمارة راسكولنيكوف قطع رازوميخين الصمت فقال :

ـ اسمع يا زوسيموف . أنت فتى رائع ، ولكنك بالاضافة الى جميع عيوبك السيئة ، تمتاز بأنك زير نساء ، وبأنك من أكثر أمثالك خلاعة ،

بل أنت نجس الى أبعد حدود النجاسة . أنت ترفّه نفسـك ، وتسمّن جسـمك ، ولا تتورع عن شيء ، لذلك أقول انك نجس ، فبهـذا انما يصبح المرء نجساً . وقد بلغت من الرخاوة حداً لا أستطيع معه أن أفهم كيف أمكنك أن تكون رغم هذا طبيباً بارعاً ، بل طبيباً مخلصاً متفانياً . أنت تنام على فراش من ريش (طبيب ينام على فراش من ريش !) ثم تنهض في الليل مسرعاً لتعود مريضاً من المرضى ! أحسب أنك بعد ثلاث سنين لن ترضى أن تنهض في سـبيل مريض . على أن المسـألة ليست هذه ! اليك المسـألة : ستبيت هذه الليلة في شـقة صاحبة البيت (لقـد استطعتُ أن أقنعها بذلك بعد لأي) ، وسـأبيت أنا في المطبخ . هذه فرصة لك من أجل أن تتعرف اليها ... ولكنها يا صاحبي ليست ماتظن. ليس ههنا ظل من ...

ـ ولكنني لا أظن شيئاً البتة !

ـ ههنا يا صاحبي خفر وحيـاء وخجل وعفـة لا تغالـب . وههنا بالاضافة الى ذلك تنهدات وذوبان كذوبان الشموع ، نعم ذوبان كذوبان الشموع ! خلّصني منها ناشدتك بجميع شياطين الأرض ! وهي باشة الى أبعد حدود البشاشة ... سأعرف كيف أشكر لك هذا الصنيع ، أحلف لأعرفنّ كيف أشكر لك هذا الصنيع !

أخذ زوسيموف يضحك مزيداً من الضحك ؟ ثم قال :

ـ ولكن ما عساني صانعاً بها ؟

ـ أؤكد لك أن هـذا لن يتعبك كثيراً . ستجلس على سريرها ، فتقـول لها أي شيء يخطر ببالك . نعم ، لن يكون عليك الا أن تجلس وأن تتحدث . صـفْ لها دواءً من الأدوية ما دمت طبيباً . ولن تندم على أنك فعلت ذلك . أحلف لك ! ثم ان عندها بيانو من طراز قديم .

أنت تعلم أنني أعزف على البيانو قليلاً ... وهناك أغنية روسية عاطفية تقول : « بدموعي السخينة ، سأسقي ... » . هي تعبد الأغاني العاطفية عبادة ، وبهذا انما بدأنا . واذ أنك عازف ماهر ، اذ أنك استاذ في العزف ، اذ أنك موسيقي مثل روبنشتاين * ... أحلفُ لك لن تندم !

ـ أتراك بذلت لها وعوداً ؟ تعهداً خطياً مثلاً ؟ ألعلك وعدتها بأن تتزوجها ؟

ـ لا ، لا ، لا شيء من هذا البتة ! انها ليست ما تظن . لقد حاول تشيباروف ...

ـ ما عليك اذن الا أن تتركها !

ـ ولكن هذا مستحيل .

ـ لماذا ؟

ـ لا لشيء الا لأنه مستحيل . هذا هو الأمر . أنا أشعر بارتباط ... فهمت ؟

ـ ولكن لماذا حاولت اغراءها ؟

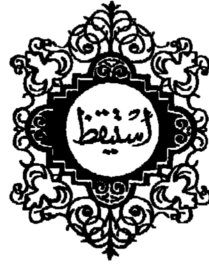
ـ أنا لم أحاول اغراءها البتة . لعلني أنا الذي أُغريت ، بسبب غباوتي . ويستوي عندها أن أكون أنا أو أن تكون أنت . كل ما يهمها أن يجلس الى جانبها رجل يتنهد لها . هي يا صاحبي ... لا ادري كيف أعبّر لك . أنت تجيد علم الرياضيات ، أليس كذلك ؟ حدثها اذن عن حساب التكامل . يميناً انني لا أمزح . أحلف لك انها لا تكترث بالأمر . سوف يكفيها أن تنظر اليك طوال السنة وأن تتنهد . انا مثلاً لبثت يومين على الأقل أحدثها ، عن مجلس النواب البروسي ، حديثاً طويلاً جداً ، اذ كان لا بد أن أحدثها عن شيء ما ! فكانت لا تزيد

على أن تتنهد وأن تنوب • ولكن حذار أن تكلمها في الحب ، فلو كلمتها في الحب لأمكن من شدة حيائها أن تصاب بنوبة تشنج • المهم أن تجعلها تعتقد بأنك لا تقوى على تركها • سيكفيك هذا • وستكون عندئذ كأنك في بيتك : اقرأ ، اضطجع ، اكتب • بل في وسعك أن تجازف فتقبلها•• ولكن امض الى هذا بحكمة وحذر !•••

ـ ولكن ما حاجتى الى هذا كله ؟

ـ لا أدرى كيف أشرح لك • اسمع : ان كلاً منكما قد خلق للآخر • حتى لقد فكّرت فيك من قبل • وما دمت ستنتهى الى هذه النهاية أخيراً ، فسيّان أن يتم هذا متقدماً بعض التقدم أو متأخراً بعض التأخر • ههنا يا عزيزى يتحقق مبدأ فراش الريش ، بل تتحقق اشياء أخرى كثيرة أيضاً • هنا خاتمة المطاف ، هنا المرساة ، هنا المرفأ الهادىء الآمن ، هنا سرّة الأرض ، هنا أسس الكون نفسها : الفطائر الطيبة ، القبرّة المقليّة ، سماور المساء ، التنهدات الهادئة ، الماء الغالى ! نعم ، ستكون كالميت ، وفى الوقت نفسه ستكون حياً : ترمى طائرين بحجر واحد ! آه ! أصبحت أقول سخفاً • آن أوان النوم • اسمع : يتفق لى أحياناً أن أستيقظ في الليل ؟ فاذا استيقظت هذه الليلة فسأذهب ارى كيف حال روديون • فلا تقلق كثيراً اذا أنت سمعت وقع أقدامى صاعداً اليه • ولكن اذا حدثك قلبك بشىء فاذهب اليه مرة• فاذا لاحظت شيئاً غير مألوف ، كهذيان أو حمى ، فأيقظنى • على أن هذا ضعيف الاحتمال ••• »

الفصل الثاني



رازوميخين في الغد بعد الساعة السابعة بقليل ، مشغول البال مهموماً . ان أموراً كثيرة داعيةً الى القلق قد هاجمته في ذلك الصباح ولم يكن قد تنبأ بها . ولم يكن قد تخيل في حياته أنه يمكن أن يستيقظ يوماً على هذه الحال . تذكر حوادث الأمس بجميع تفاصيلها ، وأدرك أنه قد وقع له شيء خارق تماماً ، وأنه أحس بعاطفة كان يجهلها كل الجهل حتى ذلك الحين ، عاطفة لا تشبه العواطف التي سبق أن أحس بها قبل ذلك في شيء . لكنه أدرك في الوقت نفسه ادراكاً واضحاً أن الحلم الذي نشأ في دماغه حلم مستحيل التحقق ، حلم يبلغ من استحالة التحقق أنه شعر منه بالخزي والعار ، فأسرع ينتقل الى هموم أخرى محسوسة مباشرة من الهموم التي أورثه اياها « ذلك اليوم المشئوم » .

والشيء الذي آلمه تذكّرُه أكثر من أي شيء آخر هو أنه تصرّف تصرُّف انسان « دنيء خسيس » ، لا لأنه قد سكر فحسب ، بل ايضاً لأنه كان غبياً أحمق فشعر بغيرة بلهاء فأخذ يذمُّ للفتاة خطيبها ، دون أن يعرف ما بينهما من علاقات على وجه الدقة ، بل ودون أن يعرف ماهو هذا الرجل على وجه التحديد . ثم أي حقٍ له في أن يحكم عليه بمثل هذه السرعة وبمثل هذه الخفة وهذا الطيش ؟ من ذا الذي نصبه قاضيا؟ وهل يمكن أن تقبل انسانة مثل آفدوتيا رومانوفنا أن تبيع نفسها بالمال

لرجل تافه حقير ؟ فلا بد اذن أنه يملك بعض المزايا ••• اما هذه الغرفة المفروشة التي استأجرها لهما فكيف كان يمكنه أن يعرف ما هي ؟ افليس يهيىء لهما شقة مناسـبة ؟ آه ••• ما أدنأ هذا كله في نظر رازوميخين الآن ! هل يبر ر سكره ذلك السلوك ؟ يا له من عذر ! ألا أن سـكره ذاك ليلطخه بمزيد من العار ! « الخمرة تكشف عن حقيقة الرجل » ، ولقد انكشفت الحقيقة كاملةً • « ان قذارة قلبـه الحسـود الطماع » قد ظهرت واضحة للعيان • ثم هل يجوز له أن يراوده ، هو رازوميخين ، حلمٌ كهذا الحلم ، على أي نحو من الأنحاء ؟ ما قيمته بالقياس الى هذه الفتاة ، هو السكّير العربيد ، المتشـدق المهذار ؟ بل « كيف يمكن ان تُعقد بينه وبينها مقـارنة تبلغ هذا المبلغ من السخف والاسـتهتار ؟ » • كذلك تساءل رازوميخين فاذا هو يحمر خجلاً ، ويشعر بكرب شديد، ثم اذا هو يتذكر تذكراً واضحاً جداً ، على حين فجأة ، بما يشبه العمد ، أنه قـال بالأمس ، على السـلّم ، ان صاحبة البيت سـتغار عليـه من آفدوتيـا رومانوفنـا ، فوقعت هـذه الفكرة من نفســه موقعـاً لا يطاق ولا يحتمل ، فاذا هو يضرب المدفأة بقبضة يده ضربةً استجمع لها كل ما يملك من قوة ، فجُرحت يده وكُسرت آجرة •

دمدم يقول بينه وبين نفسه ، بعد دقيقة ، وهو يحس بشعور عميق من المذلة : « لا شك أنه لا يمـكن محو أو اصـلاح جميع هذه الحقارات التي ارتكبتها ، لا الآن ولا في أي يوم من الأيام • فلا فائدة من التفكير فيها اذن ، وانما الأفضل أن أذهب اليهما دون أن أقول شـيئاً ، وأن أقوم بواجباتي دون أن أقول شيئاً كذلك ••• دون أن استغفر •• دون أن أقول شيئاً البتة ••• فقد ضاع كل شيء منذ الآن طبعاً !••• »•

ومع ذلك عُني رازوميخين بهندامه أثناء ارتداء ملابسه أكثر مما ألف أن يعنى به قبل ذلك اليوم• لم يكن يملك الا بدلةً واحدة• ولكن

هبه كان يملك بدلةً أخرى فلعله ما كان ليرتديها . قال يحدث نفسه : « لو كنت أملك بدلـةً أخـرى لتعمـدت أن لا أرتديهـا » . على أنه لا يسـتطيع أن يستخف ويسـتهتر ، فيذهب اليهما وسخ الثياب مشعث المظهر . فليس من حقه أن يهين مشاعر الآخرين ، لا سيما وأن هؤلاء الآخـرين محتـاجون اليه ، وأنهم هم الذين يطلبونه . لذلك حـرص رازوميخين على أن ينظف ملابسه بالفرشاة تنظيفاً عُنى به عناية خاصة. أما قميصه فقد كان نظيفاً . والحق أن رازوميخين كان من هذه الناحية شديد العناية دائماً .

وقد اهتم فى ذلك الصباح بزينته اهتماماً دقيقاً . وجد قطعةً من الصابون عند ناستاسيا ، فغسل شعره ورقبته ، وغسل يديه خاصةً . أما سؤاله أيحلق ذقنه أم لا (ولقد كان لدى براسكوفيا بافلوفنا أمواس ممتازة بقيت لها من زوجها المتوفى السيد زارتسين) ، فقد أجاب عنه بالنفى ، حتى لقد ثارت ثائرته حينذاك ، فقال : « لتبق لحيتى كما هى ! والا ظنتا أننى حلقت فى سبيل أن ... نعم ذلك ما ستظنانه ! اذن لن أحلق بحال من الأحوال ! » .

وتابع يقول لنفسه: « ثم اننى قذر أشد القذارة ، فظ أبلغ الفظاظة، قليل الأدب الى أبعد حد ... وهبنى رجلاً شريفاً (ذلك أننى اعرف نفسى وأعرف أننى رجل شريف) ، فهل لى أن اعتز وأن افتخر بأننى رجل شريف . المفروض فى كل انسان أن يكون شريفاً ، بل وأن يكون أكثر من ذلك . ثم ان لى (أنا أتذكر هذا جيداً) سقطات صغيرة ان لم تكن غير شريفة ، فلا يمكن أن توصف على وجه الدقة بأنها... هذا عدا الأفكار التى تساورنى فى بعض الأحيان ... فكيف أطمع فى أن اوازن بينى وبين آفدوتيـا رومانوفنـا ؟ على كل حـال ، فليذهب هذا كله الى

الشيطان ! نعم ، سأبقى كما أنا عن عمد ! سأظل وغداً ، خنزيراً ، عابثاً ••• ولا أكترث • سأبقى على هذه الحال ، وسأزيد ••• » •

وبينما كان رازوميخين يحاور نفسه هذا الحوار ، جاءه زوسيموف الذى بات ليلته فى صالون براسكوفيا بافلوفنا •

كان زوسيموف يتهيأ للعودة الى بيته ، فأراد قبل انصرافه أن يلقى نظرة على المريض • فأبلغه رازوميخين أن المريض نائم نوماً عميقاً • فأمر بأن لا يوقظ ، ووعد بأن يعود فى نحو الساعة الحادية عشرة • ولكنه أضاف يقول :

ـ هذا اذا وجدته فى غرفته ! ما أصعب أن يعالج الطبيب مريضاً وهو لا سلطة له عليه • قل لى : هل « هو » الذى سيذهب اليهما ؟ أم « هما » اللتان ستجيئان اليه ؟

أجاب رازوميخين وقد فهم معنى السؤال :

ـ أظن أنهما هما اللتان ستجيئان • وأغلب الظن أنهما ستحدثانه فى شئونهم العائلية • لذلك سوف أتركهم وأخرج • أما أنت فانك بصفتك طبيباً تملك حقوقاً أكثر •

ـ ما أنا بكاهن يسمع اعترافات • سوف أجىء ثم ما ألبث أن أخرج • ان أعمالاً كثيرة تناديني •••

قاطعه رازوميخين يقول وقد اربد وجهه :

ـ هناك شىء يقلقنى : أمس مساءً ، أثناء سكرى ، افلتت من لسانى ، وأنا أعود به الى البيت ، حماقات سخيفة • من ذلك خاصةً أننى قلت له ••• انك تخشى أن يكون به جنوح الى الجنون •

ـ وقد عدت تقول هذا للسيدتين •

ـ أعرف • هذه بلاهـة • اضربني اذا شئت • ولكن أأنت تعتقد حقاً أنه قد يجن ؟

ـ لا ، لن يجن • ولا تنس أنك أنت الذي وصـفته لي بأن فكرة ثابتة تسيطر عليه ، وذلك حين جئت بي اليه• وبالأمس زدنا النار أواراً ، ولا سيما أنت ••• حين رحت تتكلم عن الدهان • يا له من موضـوع حديث ، حين يكون هذا كله هو السبب في فقدانه صوابه !••• اه ••• لو كنت أعلم على وجه الدقة ما قد جـرى في قسـم الشرطة في ذلك اليوم ، لو كنت أعلم أن وغداً هنالك قد أهانه مفصحاً عن اشتباهه فيه ، لما سمحت لك بأن تجرى لسانك في حديث كذلك الحديث • ان المصابين بمرض الفكرة الثابتة يجعلون من الفأرة جبلاً ، ويرون أشياء كثيرة حيث لا يوجد شيء البتة ! اذا صدقت ذاكرتي، فان ما رواه زاميوتوف بالأمس قد أوضح نصف المسألة • نعم ، انني أعرف حالة رجل في الأربعين من عمره كان مصاباً بمرض الوسواس ، فلما كان جالساً الى المائدة ، فأخذ طفل في الثامنة من عمره يستهزيء به ، لم يسـتطع احتمال سخرياته ، فقتله • ونحن هنا ازاء شاب شقي يرتدي أسمالاً بالية ، ويعـاني بداية مرض ، فاذا بشرطي فظ غليظ يهينه موجهاً اليه شبهات كهذه الشبهات، فماذا تنتظر أن يحدث ؟ شخص مصـاب بالوسـواس ، هو الى ذلك على جانب عظيم من كبرياء مسعورة ، أفلا يكون ذلك هو السبب الحقيقي للداء الذي يعـاني منـه الآن • على كل حال ، لا ضير !••• بالمناسـبة : ان زاميوتوف فتى لطيف حقاً ، ولكن ••• هِمْ ••• لقد أخطأ أمس حين روى ذلك كله ! يا له من ثرثار فظيع !

ـ ولكن لمن روى ذلك ؟ لك ولي •

ـ رواه أيضاً لبورفير •

ـ ما قيمة أن يرويه أيضاً لبورفير ؟

ـ بالمناسبة : هل لك تأثير فيهما ، أقصد فى الأم والأخت ! يجب أن تكونا حذرتين معه اليوم •

أجاب رازوميخين قائلاً على مضض :

ـ سيجرى كل شىء على ما يرام •

ـ لماذا هو غاضب على لوجين ؟ ما مأخذه عليه ؟ ان هذا الرجل يملك مالاً ، ويبدو أن الفتاة لا تنفر منه • وهما لا تملكان فجلة ، هه ؟

صرخ رازوميخين يقول مهتاجاً :

ـ ما شأنك أنت وهذا ؟ أنىَّ لى أنا أعرف هل هما تملكان فجلة ، أم هما لا تملكان فجلة ! اسألهما ان شئت فتعرف ذلك •

ـ ما أغباك أحياناً ! واضح أنك ما صحوت من سكرك ! الى اللقاء • واشكر عنى لبراسكوفيا بافلوفنا ضيافتها • لقد حبست نفسها فى غرفتها ، وقلت لها « صباح الخير » من وراء الباب فلم تجبنى • وكانت قد استيقظت فى الساعة السابعة ، وجىء اليها بالسماور فى غرفتها عن طريق الدهليز • ولكننى لم أشرف برؤيتها •

فى الساعة التاسعة تماماً وصل رازوميخين الى منزل باكالايف ؛ فكانت السيدتان تنتظرانه منذ مدة طويلة محمومتين من نفاد الصبر • لقد نهضتا فى الساعة السابعة أو قبل ذلك • فلما دخل عليهما مظلم الوجه كظلام الليل ، حيَّاهما بخراقة ، وسرعان ما غضب من خجله هذا غضباً شديداً • ذلك أنه لم يضع فى حسابه ما ستستقبله به بولشيريا الكسندروفنا : لقد هرعت بولشيريا الكسندروفنا اليه ، فأمكست يديه ، وكادت تقبلهما، وألقى نظرةً خجلى على آفدوتيا رومانوفنا ، فكان وجهها الذى ينم فى العادة على الكبرياء ، يعبِّر فى هذه اللحظة عن شكر عميق وصداقة واضحة واحترام كامل ؛ وكان هو لا يتوقع شيئاً من هذا كله ،

بل كان لا ينتظر الا نظرات ساخرة ، واحتقاراً ظاهراً ، فلو استقبلته فعلاً بنظرات ساخرة واحتقار ظاهر وشتائم متلاحقة لكان وقع ذلك فى نفسه أسهل وأيسر ، ولكانت قدرته على احتماله أعظم وأكبر • لقد شعر الآن باضطراب كبير وبلبلة عظيمة حقاً • ولكن كان هناك موضوع للحديث من حسن الحظ ، فسرعان ما تشبث به •

حين علمت بولشيريا ألكسندروفنا أن روديا لم يستيقظ بعد ، وان « كل شيء على ما يرام » ، اظهرت ارتياحاً كبيراً ورضى عظيما ، لانها حقاً « فى حاجة الى أن تتحدث مع رازوميخين حديثاً طويلاً قبل ان ترى ابنها » • وأثير عندئذ موضوع الشاى ، فدُعى رازوميخين الى تناول الشاى مع السيدتين ، وكانتا قد انتظرتاه لهذا • دقّت أفدوتيا رومانوفنا الجرس ، فجاء خادم قذر المظهر رث الثياب ، فأُمر باحضار الشاى ، فأتى بالشاى أخيراً ، ولكن بطريقة تبلغ من القذارة وقلة اللياقة ان السيدتين صُعقتا خجلاً • وودّ رازوميخين لو يندد بهذه « الغرفة المفروشة » ، ولكنه تذكر لوجين فأمسك عن الكلام ، وشعر بحرج ، وابتهج ابتهاجاً عظيماً حين أخذت بولشيريا ألكسندروفنا تمطره بوابل من الأسئلة •

ظل يتكلم خلال ثلاثة أرباع الساعة ، فكان يقاطع دائماً وتطرح الأسئلة عليه من جديد • واستطاع مع ذلك أن يروى ــ بمقدار ما يعرف ــ الوقائع الأساسية من حياة روديون رومانوفتش منذ سنة حتى اصابته بالمرض الذى يعانى منه الآن • لكنه سكت عن أمور كثيرة كان ينبغى ان يسكت عنها ، ولا سيما المشهد الذى وقع فى قسم الشرطة وجميع النتائج التى نجمت عنه • وكانت السيدتان تلتهمان أقواله التهاماً • لكنه حين ظن أنه انتهى من الكلام وأرضى سامعتيه ، بدا أنه فى نظرهما لم يكد يبدأ الكلام •

قالت بولشيريا الكسندروفنا تسأله متعجلة :

ـ قل لى ، قل لى ... معـــذرةً ... اننى لا أعـرف اســـمك حتى الآن ...

ـ دمترى بروكوفتش .

ـ نعم ، قل لى يا دمترى بروكوفتش : أريد أن أعـرف اشـــياء كثيرة ، أشياء كثيرة ... كيف هو ... يرى الأمور الآن... بوجه عام ... أقصــد ... هل تفهمني ؟ ربــاه ! كيف أعبِّر ... كيف افصح بوضــوح ؟ ... أعنى : ماذا يحب ، وماذا لا يحب ؟ اما يزال شـديد الغضب سريع الاهتياج ؟ ما هى رغباته ... و ... و.... كيف أعبِّر ... ما هى أحــلامه ، اذا جــاز لى أن ... من ذا يؤثر فيه الآن أكبر تأثير ؟ الخلاصة ، أودُّ لو ...

قالت آفدوتيا رومانوفنا :

ـ ماما ! كيف يمكن الجواب على جميع هذه الأسئلة فى آن واحد؟

ـ يا رب ! ذلك أننى ، يا دمتــرى بروكــوفتش ، لم أكن اتوقع أبداً ، أبداً ، أن أجده على هذه الحال !

أجاب دمترى بروكوفتش يقول :

ـ هذا طبيعى جداً . أنا ليس لى أم ، ولكن لى عماً يجيء الى هنا كل سنة ، فكلما جاء صعب عليه أن يتعرفنى حتى من الناحية الجسمية ، مع أنه رجل ذكى ، عمى هذا. وقد افترقتم أنتم منذ ثلاث سنين، فجرى ماء كثير تحت الجسور خلال هذ السنين الثلاث . ماذا أقول لك ايضاً ؟ اننى أعرف روديون منذ سنة ونصف سنة . فكان منذ عرفته قاتم النفس متجهم الوجه شديد الكبرياء متعالياً ؛ وهو فى هذه الآونة الأخيرة (ولعل

ذلك يرجع الى عهد أبعد) كثير الشكوك والوساوس أيضاً . هو كريم طيب . وهو لا يحب أن يظهر عواطفه ، ويؤثر أن يرتكب اساءةً على ان يفتح قلبه . على أنه فى بعض الأحيان يبرأ من الوساوس ، فلا يظهر عليه عندئذ الا برودة فى العاطفة وفتور فى الاحساس حتى ليصل من ذلك الى درجة يفقد معها روح التواصل الانسانى ، فكان له طبعين متعارضين يتناوبان الغلبة واحداً بعد آخر . يتفق له أحياناً ان يكون صموتاً الى حدٍ رهيب : فاما أن يزعم أنه ليس فى وقته متسع ، واما أن يزعم أن الناس جميعاً يزعجونه ؛ ومع ذلك يظل مستلقيا على سريره لا يعمل شيئاً . وما هو بالساخر ، لا لأنه يفتقد روح الفكاهة ، بل لأنه كمن لا يريد أن يتلبث على سفاسف سخيفة وترهات باطلة . انه لا يصغى أبداً الى ما يقال له حتى النهاية . انه لا يهتم أبداً بالأشياء التى يهتم بها الآخرون فى لحظة من اللحظات . وهو معتد بنفسه اعتداداً عظيماً ، ويظهر أن من حقه ان يعتد بنفسه هذا الاعتداد . ماذا أقول أيضاً ؟... أظن أن وصولكما سيحسن اليه وسيحدث فيه أثراً نافعاً .

هتفت بولشيريا الكسندروفنا تقول وقد أرهقتها أقوال رازوميخين :

— سمع الله منك .

وعزم رازوميخين أمره أخيراً على أن ينظر الى آفدوتيا رومانوفنا بمزيد من الثقة والطمأنينة . كان قد نظر اليها مراراً أثناء الحديث ، ولكنه كان ينظر اليها خلسةً ، بسرعة كوميض البرق ، ثم يحول بصره عنها على الفور . وكانت آفدوتيا رومانوفنا تجلس أمام المائدة تارةً فتصغى بانتباه ، وتنهض تارةً أخرى فتأخذ تمشى على عادتها من ركن الى ركن مصالبةً ذراعيها ، كازةً شفتيها ، ملقية سؤالاً من حين الى حين ، ولكن دون أن تقطع سيرها ، دون أن تقطع تأملها الذى كان يبدو أنها تتابعه

مستمراً متصلاً • وكان من عادتها أيضاً أن لا تصغى حتى النهاية الى ما يُقال لها • كانت ترتدى فستاناً صغيراً داكن اللون من نسيج خفيف ، وقد عقدت حول عنقها منديلاً أبيض شفافاً • وقد لاحظ رازوميخين رأساً ، من علامات كثيرة ، أن السيدتين فى حالة شديدة من الفقر • ولو كانت آفدوتيا رومانوفنا مرتدية ملابس أميرة ، فلعلها كانت لا تثير فى نفسه كل هذا الخجل وهذا الوجل ، أما الآن فربما كان السبب فى الخوف الذى استقر فى قلبه انما يرجع الى أن ملابسها كانت فقيرة الى هذا الحد ، وأنه أدرك كل ما هى فيه من بؤس وحزن ؛ ولذلك أصبح يخشى كل قول من أقوالها ، وكل حركة من حركاتها ، وهذا أمر هو بالنسبة الى رجل ضعيف الثقة بنفسه أصلاً لا بد أن يكون مصدراً جديداً من مصادر الحرج والارتباك •

قالت آفدوتيا رومانوفنا مبتسمة :

ــ لقد علَّمتنا أشياء كثيرة هامة عن طبع أخى ، ولقد تكلمت دون تحيز ما فى ذلك شك • وكنت أظن أنك تقف منه موقف المعجب المتحيز •

ثم أضافت تقول حالمةً مفكِّرة :

ــ يخيَّل الىَّ أنه لا بد أن يكون فى حياته امرأة فعلاً !

ــ أنا لم أقل هذا • ولكن من الجائز أن تكونى على حق • غير أن •••

ــ ماذا ؟

ــ انه لا يحب أحداً ، ولعله لن يحب أحداً فى يوم من الأيام •

كذلك قال رازوميخين قاطعاً جازماً •

ـ أيكون عاجزاً عن أن يحب ؟

أفلت لسان رازوميخين يقول فجأة دون أن يتوقع هو نفسه ذلك :

ـ هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبها رهيبا في كل شيء ؟

ثم تذكر ما قاله عن أخيها ، فاحمر وجهه احمراراً شديدا واضطرب اضطراباً فظيعاً • فلم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تحبس ابتسامةً ساخرة وهي تنظر اليه •

واستأنفت بولشيريا ألكسندروفنا كلامها وقد استاءت بعض الاستياء فقالت :

ـ من الجائز أن يكون رأيكما كليكما في روديا خطأً • لا أتكلم الآن عن الحاضر يا دونيتشكا • ان ماكتبه بطرس بتروفتش في تلك الرسالة ، وما قد تصورناه أنا وأنت ، قد لا يكون صحيحاً • ولكنك لا تستطيع أن تتخيل يا دمتري بروكوفتش مدى ما يتصف به روديا من شدة الجموح وقوة النزوات • أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أركن الى طبعه ، حتى حين كان في الخامسة عشرة من عمره • واني لعلى يقين من أنه ما يزال حتى هذه الساعة قادراً على ارتكاب أشياء لا تخطر ببال أي انسان آخر غيره • لا تذهبا بعيداً : هل تعلمان أنه منذ سنة ونصف سنة قد عذبني عذاباً شديداً ، وكاد يميتني غيظاً وقهراً ، حين وضع في رأسه أن يتزوج تلك الـ ••• ماذا أقول ؟ تلك الـ ••• أقصد بنت زارنتسينا هذه ، صاحبة البيت الذي يسكن فيه ؟

اتجهت آفدوتيا رومانوفنا الى رازوميخين فسألته :

ـ هل تعرف تفاصيل عن هذا الأمر ؟

وتابعت بولشيريا الكسندروفنا كلامها فقالت بحرارة :

ـ هل تحسب أن دموعى وضراعاتى وشقاءنا ومرضى وموتى ، هل تحسب أن هذا كله كان يمكن أن يصده عن تحقيق ما قام فى رأسه ؟ لا ... كان سيجتاز جميع العقبات هادئاً كل الهدوء . ماذا ؟ هل من الممكن حقاً أنه لا يحبنا ؟

أجاب رازوميخين بتعقل وحذر :

ـ انه لم يقل لى كلمة واحدة عن هذا الأمر . ولكننى عرفت شذرات من السيدة زارتسينا نفسها ، مع أنها ليست كثيرة الكلام هى أيضاً . والحق أن ما عرفته غريب بعض الغرابة .

قالت المرأتان كلتاهما تسألانه :

ـ ما الذى عرفته ؟

ـ لم أعرف أشياء كثيرة . كل ما علمته أن هذا الزواج الذى كان مقرراً ومبتوتاً فيه ، والذى لم يحل دونه الا موت الخطيبة ، كانت السيدة زارتسينا مستاءة منه . ويقال عدا ذلك أن الخطيبة لم تكن جميلة ، حتى لقد كانت توصف بأنها دميمة ... وأنها بالاضافة الى ذلك ممراض ... وأنها فوق هذا غريبة الأطوار . ولكنهم يضيفون الى هذا أنها كانت لا تخلو من بعض المزايا . فلولا هذه المزايا لكان الأمر عجيباً لا سبيل الى فهمه البتة . ثم انها لم تكن تملك مهراً . على أن روديا آخر من يمكن أن يعنيه أمر المهر . الخلاصة أن الحكم على الموضوع فى ظرف كذلك الظرف صعب .

قالت آفدوتيا رومانوفنا موجزة :

ـ أنا مقتنعة بأنها كانت تملك مزايا كثيرة .

فعقبت بولشيريا ألكسندروفنا تختم الحديث قائلة :

ـ أسأل الله أن يعفو عني ويغفر لي • لا أكتمكما انني ابتهجت لموتها ، رغم أنني لم أعرف في يوم من الأيام أيهما كان سيشقى الآخر !

ثم آثرت الحذر والكتمان ، فعادت تسأل رازوميخين ـ وهي تلقي على دنيا نظرات مختلسة كان واضحاً أن دونيا تستاء منها ـ عادت تسأل رازوميين عن المشهد الذي حدث أمس بين روديا ولوجين • لم يكن خافياً أن هذا الحادث كان يشغل بالها ويقلق نفسها أكثر من أي شيء آخر ، حتى ليرعبها ويسبب لها رعدات تسري في جسمها • أعاد رازوميخين رواية القصة تفصيلاً ، ولكنه أضاف اليها في هذه المرة النتيجة التي يستخلصها هو ، فاتهم راسكولنيكوف ، دون لف ولا دوران ، بأنه أهان بطرس بتروفتش عن سابق عمد وتصميم ؛ ولم يلحّ في هذه المرة على مرضه الذي ذكر قبل ذلك أنه عذر يشفع له • وختم يقول :

ـ لقد أعدّ ذلك حتى قبل أن يمرض •

قالت بولشيريا الكسندروفنا مكروبة مقهورة :

ـ أظن ذلك أنا أيضاً •

ولكنها شُدهت حين رأت رازوميخين يتكلم في هذه المرة عن بطرس بتروفتش بكثير من الاعتدال ، بل وبشيء من الاحترام •

ولم تطق صبراً فقالت تسأله :

ـ أهذا هو رأيك اذن في بطرس بتروفتش ؟

فأجاب رازوميخين يقول بحرارة وجزم :

ـ لا يمكنني أن أرى غير هذا الرأي في خطيب ابنتك ، ولست أقول هذا من باب التأدب والمجاملة ، وانما أقوله لأن ••• لأن ••• أقوله ولو لهذا السبب البسيط : وهو أن آفدوتيا رومانوفنا نفسها هي التي

أرادت راضيةً أن تولى هذا الرجل شرف اختيـاره زوجاً لهـا . ولئن ذممتـه ذلك الذمَّ كله بالأمس ، فلأننى كنت بالأمس ســـكران ... سكران سكراً مقززاً ، ولأننى عدا ذلك ... كنت قد فقدت عقلى ... لأننى جننت ... جننت تماماً . أما اليوم فأنا أشعر من ذلك بخزى وعار.

قال رازوميخين ذلك ، واحمرَّ وصمت. واحمرَّت آفدوتيا رومانوفنا، ولكنها لم تقطع الصمت . انها لم تنبس بكلمة واحـدة منذ دار الحديث على لوجين .

ومع ذلك ظلت بولشيريا ألكسندروفنا مرتبكة ارتباكاً واضحاً لأن ابنتها لا تساعدها . ثم اعترفت مترددةً وهى تلتفت فى كل لحظة صوب ابنتها ، بأن هناك ظرفاً يقلقها الآن اقلاقاً شديداً .

بدأت تتكلم فقالت :

ــ الحق يا دمترى بروكوفتش ...

ثم اتجهت الى ابنتها فقالت تسألها :

ــ سأكون صريحة كل الصراحة مع دمترى براكوفتش يادونيتشكا، أليس كذلك ؟

فأجابتها آفدوتيا رومانوفنا تقول باقتناع :

ــ طبعاً يا ماما .

فلما أُذن لها بأن تبوح بحـزنها أحست بأن جبـلاً قد أزيح عن صدرها فأسرعت تقول :

ــ اليك الأمر : اليوم ، فى ساعة مبكرة من هذا الصباح ، وصلتنا بطاقة من بطرس بتروفتش رداً على الرسالة التى أنبأناه فيها بوصولنا . كان ينبغى له طبعاً أن يجىء الى المحطة لاستقبالنا كما كان وعدنا بذلك . ولكننا ، فى المحطة ، لم نجده هو بل وجدناه خادماً قادنا الى هذه الغرفة

المفروشة التى كان معه عنوانها . وأبلغنا الخادم أن بطرس بتروفتش سيجىء الينا اليوم فى الصباح . ولكن بطرس بتروفتش لم يجىء وانما بعث الينا بهذه البطاقة . الأفضل أن تقرأها بنفسك ، لأن هناك نقطة تقلقنى كثيراً . سرعان ما سترى ما هى هذه النقطة ، فتقول لى رأيك صريحاً يا دمترى بروكوفتش . انك تعرف طبع روديا أكثر مما يعرفه اى انسان آخر ، فسوف تستطيع اذن أكثر مما يستطيع أى انسان آخر أن تسدى الينا بنصيحتك . وانى لألفت نظرك الى أن دونيا قد اتخذت قرارها منذ اللحظة الأولى ، أما أنا فما زلت حائرة لا أدرى ما الذى يجب فعله ... وكنت أنتظرك .

فضّ رازوميخين البطاقة التى تحمل تاريخ اليوم الماضى ، وقرأ ما يلى :

« السيدة العزيزة بولشيريا ألكسندروفنا ، يشرفنى أن أُعلمك أننى بسبب موانع لم أكن أتوقعها لم أستطع أن أنتظركم على رصيف المحطة ، فأرسلت اليكم رجلاً بارعاً قد تحتاجون الى مساعدته . وكذلك سأحرم نفسى، فى صباح الغد ، من التشرف بزيارتكم، بسبب بعض الأعمال التى تستدعى ذهابى الى مجلس الشيوخ ، ولأننى أريد أيضاً أن لا أزعج اجتماعكم العائلى ، اعنى لقاءك الأول بابنك ولقاء آفدوتيا الكسندروفنا بأخيها . فلن يتاح لى اذن شرف لقائكم وتقديم احترامى لكم فى مسكنكم الا مساء غدٍ فى الساعة الثامنة تماماً . واننى أسمح لنفسى بأن أضيف الى هذا رجاءً ملحاً ، فأطلب اليكم أن تتدبروا الأمر بحيث تعفوننى من حضور روديون رومانوفتش اجتماعنا ، لأنه أهاننى أمس بفظاظة لا مثيل لها حين زرته أثناء مرضه ، ولأننى أريد أن أكلمكم على انفراد فى أمر أحب أن أعرف تفسيركم له ورأيكم فيه. ويشرفنى أن ألفت نظركم الى أننى سأضطر الى الانسحاب فوراً اذا أنا لقيت عندكم روديون رومانوفتش

رغم طلبي هذا ، ولن يكون لكم عندئذ أن تلوموا أحداً الا أنفسكم. وانما أكتب هذا لأنني أتنبأ بأن روديون رومانوفتش الذي كان يبدو مريضاً حينما زرته ثم استرد صحته فجأةً بعد ذلك بساعتين قد يجيء اليكم ما دام يخرج الآن . ان ما أقوله قد رأيته بعيني رأسي في بيت رجل سكّير داسته خيول فهشمته فمات . وقد أعطى روديون رومانوفتش ابنة ذلك السكير ، وهي بنت معروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس ، أعطاها خمسة وعشرين روبلاً بحجة دفع نفقات الجنازة ، فأدهشني ذلك أشد الدهشة ، أنا الذي أعرف الجهود التي بذلتموها في سبيل جمع ذلك المبلغ . اختم رسالتي هذه راجياً أن تنقلي الى آفدوتيا رومانوفنا المحترمة أبلغ اعتباري ، وأن تتفضلي بقبول أسمى مشاعر الاحترام والاخلاص من خادمك المطيع :

« ب . لوجين »

قالت بولشيريا الكسندروفنا وهي توشك أن تبكي :

ــ فما الذي يجب أن أعمله الآن يا دمتري بروكوفتش ؟ كيف يمكنني أن أطلب من روديا أن لا يجيء ؟ لقد كان يطالب أمس مطالبة صارمة بطرد بطرس بتروفتش ، فاذا بالآية تنقلب الآن ، فيكون هو الذي لا يجوز استقباله ! ولكنه سيجيء عامداً متى عرف ، فما عسى يحدث حينذاك ؟

قال رازوميخين فوراً بهدوء :

ــ افعلي ما قررته آفدوتيا رومانوفنا .

ــ آه ... رباه ! هي تقول ... هي تقول ... الله يعلم ماذا تقول .. وهي لا تشرح الأسباب التي تدفعها الى قول ما تقول ! هي تقول ان من الأفضل ، بل ان من المحتم قطعاً ، أن يجيء روديا هذا

المســاء ، فى الســاعة الثامنة ، وأن يلتقيا . أما أنا فكنت أريد حتى أن لا أطلعه على هذه الرسالة ، وكنت أوثر أن أعمد الى الحيلة بواسطتك ، لأمنعه من المجىء ، لأنه ... سريع الاهتياج جـداً ! ثم ان هنـاك أمراً لا أفهمه : من هو ذلك السكير الذى داسته الخيل فمات ، ومن هى تلك البنت ، وكيف أمكنـــه أن يعطى تلك البنت آخـر ما بقى له من المـال الذى ...

ـ الذى لقيتِ ذلك العناء كله فى الحصول عليه .

كذلك أضافت آفدوتيا رومانوفنا .

قال رازوميخين شارد الفكر :

ـ لم يكن أمس فى حالة طبيعية . لو عرفت كيف تصرف أمس فى حانة من الحانات ! ... هِمْ ... على كل حال ، لقد حدثنى بالأمس فعلاً ، حين كنت أقوده الى بيته ، عن موظف مات ، وحدثنى كذلك عن فتـاة ما ، لكنى لم أفهم من كلامه شيئاً . ثم اننى أنا نفسى ، بالأمس ، قد ...

ـ الأفضل يا ماما أن نذهب نحن اليه . أؤكد لك أننا بذلك سنرى ماذا بقى علينا أن نفعل . وقد آن لنا أن نذهب على كل حال . رباه ! هى الساعة العاشرة ونيف .

كذلك صاحت آفدوتيا رومانوفنـا وهى تلقى نظرةً على الســـاعة الذهبية الرائعة ، المرصعة بالمينـا ، التى كانت تحملها معلقـةً فى عنقها بسلسلة من صنع البندقية ، والتى تتنافر تنافراً عجيباً مع جملة زينتها . قال رازوميخين لنفسه : « هذه هدية الخطوبة ! » .

قالت بولشيريا ألكسندروفنا وقد طاش صوابها :

ـ آ ... آن الأوان ! اذا لم نذهب اليه ، فقد يظن أننا ما زلنا غاضبتين بسبب ما حدث أمس . آه ... يا رب !

قالت ذلك واسرعت ترمي على كتفيها خماراً أسود ، وتضع قبعتها على رأسها . وارتدت دونيتشكا ثيابها أيضاً . ان قفازيها ليسا مهترئين جداً فحسب ، بل هما مثقبان أيضاً . ولم يفت رازوميخين ذلك . على أن هذا الفقر الظاهر في ملابس السيدتين كان يضفي عليهما وقاراً خاصاً ، وهذا ما يحدث عادةً لأولئك الذين يعرفون كيف يرتدون ملابس فقيرة .

كان رازوميخين ينظر الى الفتاة باحترام وتقديس ، ويشعر باعتزاز وافتخار حين يتصور أنه سيصحبها . كان يقول لنفسه : « ان تلك الملكة * التي كانت ترقّع جوربيها في سجنها لا بد أنها كانت أثناء ذلك أعظم جلالاً وأكبر مهابةً منها في أعظم الأعياد وأروع الاحتفالات ! ».

وهتفت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ رباه ! هل كان في وسعي أن أصدّق يوماً أنني سوف أهاب ، كما أهاب الآن ، لقاءً مع ابني ، مع عزيزي ، مع روديا ؟

ثم أضافت تقول وهي تلقي على رازوميين نظرة خجلى :

ـ أنا خائفة يا دمتري بروكوفتش .

قالت دونيا وهي تقبّلها :

ـ لا تخافي شيئاً يا ماما ، بل ثقي به . أما أنا فواثقة .

صاحت المرأة المسكينة تقول :

ـ آه ... يا رب !... أنا أيضاً واثقة ! ومع ذلك لم أنم طوال الليل !

وخرجوا الى الشارع .

ـ هل تعلمين يا دونيتشكا ؟ انني ما ان غفوت قليلاً عند طلوع الصبح حتى حلمت فجأة بتلك المسكينة مارتا بتروفنا ... كانت تلبس ثياباً بيضاء ... واقتربت مني ... وأمسكت يدي ... وكانت تهزُّ رأسها وهي تنظر اليه نظرة قاسية ، قاسية جداً ، كأنها تلومني على شيء ما ... أهذه علامةٌ حسنة ؟ آه ... يا رب ! انك يا دمترى كروكوفتش لا تعلم ، بعد ، أن مارتا بتروفنا قد ماتت .

ـ لا ، لا أعلم . ولكن من هي مارتا بتروفنا هذه ؟

ـ ماتت فجأة ... تصور أنها ...

تدخلت دونيا تقول لأمها :

ـ ستقولين له هذا فيما بعد يا ماما . هو لا يعرف من هي مارتا بتروفنا هذه .

ـ صحيح ؟ لا تعلم ؟ كنت أظن أنك على اطلاع ... اغفر لي يا دمترى بروكوفتش ... أصبحت لا أعرف أين رأسي في هذه الأيام الأخيرة . حقاً انني أعدك معيناً أرسلته العناية الالهية ، لذلك كنت أحسبك مطلعاً على كل شيء . انني اعدك واحداً من أسرتنا . لا تؤاخذني اذا أنا كلمتك بهذه الطريقة !.. آه .. رباه ! ماذا أصاب يدك اليمنى ؟ أهي مجروحة ؟

دمدم رازوميخين يقول سعيداً كل السعادة :

ـ نعم ، مجروحة .

ـ انني أسرف في الصراحة أحياناً ، فتقرعني دونيا ... ولكن.. رباه ! ما هذا البيت الحقير الذي يقيم فيه ؟ تُرى هل استيقظ من نومه ؟ وتلك المرأة ، صاحبة البيت ، كيف تسمي هذا الجحر غرفةً ؟ اسمع ،

أنت تقول انه لا يجب أن يتكلم عما يعتلج فى قلبه ، فلا شك اذن اننى سأزعجه وأضجره ... بعواطفى وضعفى ! ألا تستطيع أن تهدينى يا دمترى بروكوفتش الى الطريقة التى يمكننى أن أعمد اليها فى معاملته ! لقد طاش صوابى تماماً ...

ـ لا تلقى عليه أسئلة كثيرة ، اذا رأيته يعبس أو يتجهم . ولا تسأليه عن صحته خاصةً ، فانه لا يحب هذا .

ـ آه يا دمترى بروكوفتش ، ما أصعب الأمومة ! وانظر الى هذا السلَّم ! يا له من سلَّم فظيع !

قالت دونيا ملاطفة :

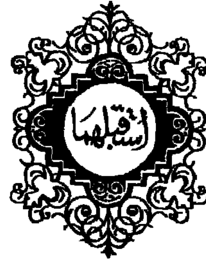
ـ ماما ، انك شاحبة الوجه جداً ، هدئى روعك يا يمامتى ! لا شك أنه سعيد بلقائنا ، فلماذا تعذبين نفسك هذا التعذيب ؟

هذا ما أضافته وقد سطعت عيناها .

ـ انتظرا ، سأرى أولاً هل استيقظ من نومه .

باطأت السيدتان خطاهما ، وتقدَّمهما رازوميخين على السلَّم . فلما وصلتا الى الطابق الثالث لاحظتا أن باب صاحبة البيت مشقوق قليلاً ، ورأتا فى الظلام عينين سوداوين حادتين جداً كانتا ترقبانهما . فلما التقت النظرات أُغلق الباب بشدة ، فقرقع قرقعة بلغت من القوة أن بولشيريا ألكسندروفنا أوشكت أن تصرخ رعباً .

الفصل الثالث



زوسيموف قائلاً في فرح : « هو بخير ، هو بخير » • ان زوسيموف يعود راسكولنيكوف منذ نحو عشر دقائق ، وقد جلس في ذلك المكان نفسه الذي جلس فيه بالأمس ، على ركن من الديوان • وكان راسكولنيكوف يجلس في الركن المقابل ، مرتدياً ثيابه كاملةً ، وقد اعتنى بغسل وجهه وتصفيف شعره ، وذلك أمر لم يقع له منذ مدة طويلة •

امتلأت الغرفة دفعةً واحدة ، ولكن ناستاسيا استطاعت مع ذلك أن تتسلل وراء الزائرين ، وبقيت تنصت الى الحديث •

كانت صحة راسكولنيكوف قد تحسنت بعض التحسن فعلاً ، ولاسيما اذا قورنت بما كانت عليه أمس • كل ما هنالك أنه الآن شديد الشحوب شارد الفكر متجهم النفس • فاذا نظرت اليه كنت كمن ينظر الى رجل أصابه جرح بالغ ، أو عاني ألماً جسمياً حاداً • كان مقطّب الحاجبين ، مكزوز الشفتين، محموم النظرة. وكان لا يتكلم الا قليلاً ، فاذا تكلّم تكلّم على مضض ، كأنه يقوم بواجب ، وكان في حركاته أحياناً نوع من قلق•

ليس ينقصه الا ضماد في الذراع أو عصبة من قماش في الاصبع

حتى يكتمل الشبه بينه وبين رجل أُصيب بداحوس أليم ، أو جرح موجع أو أى شىء آخر من هذا القبيل •

على أن هذا الوجه الشاحب المتجهم بدا أنه يتألق لحظةً حين دخلت الأم والأخت • غير أن ذلك لم يزد على أن يضيف الى الذهول المتجهم تعبيراً عن ألم مكثف • وسرعان ما انطفأ الألق ، وبقى الألم • ولم يفت زوسيموف الذى كان يراقب مريضه ويدرسه بكل ما يستطيعه من اهتمام وشغف طبيبٌ فى بدايات ممارسته مهنته، لم يفته أن يلاحظ لدى مريضه، بغير قليل من الدهشة ، حين وصلت أسرته ، نوعاً من تصميم أليم خفى ، يشبه التصميم الذى يقوم فى نفس انسان يرى عذاباً عليه أن يحتمله ، بدلا من الفرح الذى ينبغى أن تهيئه له هذه الزيارة فى الأحوال الطبيعية • وقد استطاع الطبيب أن يلاحظ بعد ذلك أن كل كلمة تقريباً من الحديث الذى جرى حينذاك كانت كأنها تثير وتنكأ جرحاً لدى المريض • ولكن الطبيب قد أدهشه فى الوقت نفسه أن يرى أن المريض كان يسيطر على نفسه بعض السيطرة ، فاستطاع أن يخفى هذه العواطف، مع أنه كان بالأمس يثور حنقه عند كل كلمة تُقال ، كمن استبدت به فكرة وحيدة ثابتة •

قال راسكولنيكوف وهو يقبّل أمه وأخته بعاطفة رقيقة وحنان واضح (وهذا ما ملأ بولشيريا الكسندروفنا فرحاً) :

ــ نعم ، ألاحظ أنا نفسى أننى شُفيت •

ثم أضاف يقول مخاطباً رازوميخين وهو يصافحه بمودة :

ــ لا أقول هذا مثلما قلته « أمس » !

سُرَّ زوسيموف كثيراً من وصول الزوار ، لأنه كان قد استنفد خلال الدقائق العشر التى قضاها مع المريض جميع موضوعات الحديث ، فبدأ كلامه يقول :

ـ حتى لقد دُهشت من رؤيته على هذه الحال اليوم . فاذا استمر هذا التحسن ، فلن تنقضي ثلاثة أيام أو أربعة حتى يعود كما كان تماماً ، أعني كما كان منذ شهر أو شهرين أو ربما ثلاثة .

ثم أضاف الى ذلك مخاطباً راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة محاذرة ، كأنه يخشى أن يثير غضبه :

ـ ذلك أن هذا المرض قد بدأ كامناً منذ مدة طويلة ، هه ؟ اعترف أن بعض الذنب في ذلك يرجع اليك ..

أجاب راسكولنيكوف يقول ببرود :

ـ جائز جداً .

تابع زوسيموف كلامه فقال متحمساً :

ـ أقول هذا لأن شفاءك الكامل متوقف بعد الآن عليك أنت خاصةً . أودُّ أن تقتنع الآن ، بعد أن أصبح الحديث معك ممكناً ، بأن علينا أن نفحص الأسباب الأولى ، الأسباب الأساسية ان صح التعبير ، التي ولدَّت مرضك ، بغية أن نستطيع ازالة تلك الاسباب . فاذا فعلنا ذلك شفيت ، والا تفاقم مرضك . أنا لا أعرف ما هي تلك الأسباب ؛ ولكن لا بد أنك تعرفها أنت . فأنت شاب ذكي ، ولا شك أنك لاحظت نفسك . ويخيَّل اليَّ أن بداية اضطراباتك قد جاءت حين تركت الجامعة تقريباً . فما ينبغي اذن أن تبقى عاطلاً عن أي عمل يشغلك . أعتقد أن عملاً موجهاً الى غاية محدَّدة سيحسن اليك كثيراً .

ـ نعم نعم . أنت على حق تماماً . سأعيد تسجيلي في الجامعة . وعندئذ سيجري كل شيء ... على ما يرام .

كان بين أهداف زوسيموف من اسداء نصائحه الحكيمة تلك أن ينال اعجاب السيدتين ، لذلك كان طبيعياً أن يرتبك بعض الارتباك وأن

يضطرب بعض الاضطراب حين فرغ من القاء خطابه فرفع عينيه نحو راسكولنيكوف فرأى فى وجهه سخرية ظاهرة لاتخفى. على أن ذلك لم يدم الا لحظة . فان بولشيريا ألكسندروفنا سرعان ما طفقت تفيض فى شكر زوسيموف ، وتعبّر له خاصة عن امتنانها من زيارته لهما فى الليلة الماضية .

قال راسكولنيكوف يسألها قلقاً :

ـ كيف ؟ هل ذهب اليكما ليلاً ؟ اذن لم تناما بعد رحلة متعبة كتلك الرحلة ؟

ـ فى الساعة الثانية كان كل شيء قد انتهى يا روديا . وقد ألفنا ، أنا ودونيا ، فى بيتنا ، أن لا تنام قطُّ قبل الساعة الثانية من الصباح .

واصل راسكولنيكوف كلامه فقال وقد أظلم وجهه فجأة ، وأطرق الى الأرض :

ـ أنا أيضاً لا أعرف كيف أشكره ...

ثم اتجه يخاطب زوسيموف فقال :

ـ بصرف النظر عن الناحية المالية ـ معذرة اذا أنا أشرت الى هذه الناحية ! ـ فانني لا أعرف فعلاً كيف استحققت كل هذه العناية منك. حقاً انني لا أفهم ... لذلك كانت هذه العناية تشق على نفسي ... أقول لك هذا بصراحة تامة .

أجابه زوسيموف وهو يحمل نفسه على الضحك حملاً :

ـ لا تثورنْ أعصابك يا صاحبي . افرض أنك أول زبائنى . ان الطبيب يدلّل دائماً زبائنه الأُول ، حتى لقد يُشغف ببعضهم . وأنت تعلم أن زبائنى ليسوا كُثُراً حتى الآن .

أضاف راسكولنيكوف يقول وهو يومىء الى رازوميخين :

ـ ناهيكم عن هذا ... الذى لم ينل منى الا أنواع التصديع وضروب الاهانة .

هتف رازوميخين قائلاً :

ـ أسخافات جديدة ؟ هأنت ذا قد أصبحت « عاطفياً » !

ألا انه لو كان يملك مزيداً من نفاذ البصيرة للاحظ أن الأمر ليس أمر « عاطفية » ، بل شيء آخر هو نقيض العاطفية تماماً . وقد لاحظت آفدوتيا رومانوفنا ذلك . وكانت تراقب أخاها فى قلق .

وتابع راسكولنيكوف كلامه كمن يتلو درساً حفظه فى هذا الصباح نفسه فقال :

ـ أما عنك أنت يا أماه فلا أكاد أجرؤ أن أتكلم . اننى لم أدرك الا اليوم مدى العذاب الذى لا بد أنك عانيته أمس حين كنت تنتظريننى هنا .

قال ذلك ومدَّ يده الى أخته على حين فجأة مبتسماً دون أن يقول كلمة . ولكن انفعالاً صادقاً يظهر فى ابتسامته هذه المرة . فأسرعت دونيا تتناول اليد الممدودة اليها ، فتصافحها بحرارة ، سعيدةً شاكرة . هذه أول مرة يتجه فيها الى أخته بعد الشقاق الذى وقع بينهما أمس . وأشرق وجه الأم سعادةً حين رأت هذه المصالحة الصامتة الحاسمة بين الأخ وأخته .

همس رازوميخين يقول متحمساً وهو يستدير على كرسيه :

ـ هذا ما يعجبنى فيه ! ان له دائماً اندفاعات كهذه !

وقالت الأم لنفسها : « وما أجمل الطريقة التى اتبعها ! ما أنبلها من بادرة ! ما أحلاها من حركة بسيطة رقيقة مرهفة أنهى بها سوء التفاهم الذى قام بينه وبين أخته ! لقد كفاه أن يمد اليها يده ، فى هذه اللحظة ،

وهو يرمقها بنظرة فيها رقة ولطف وحنان ••• وما أجمل عينيه ! ما أجمل وجهه كله !••• ألا انه لأجمل حتى من دونيتشكا ••• ولكن رباه ما هذه الثياب التى يرتديها ! ما أردأ ملابسه ! ان الخادم فى دكان آتانازى ايفانوفتش ، الخادم فاسيا نفسه ، يرتدى ثياباً أحسن من ثيابه ! أواه •• لشد ما أحب أن أرتمى على عنقه فأقبّله و ••• آخذ أبكى ••• لكننى أخاف ، أخاف جداً !••• انه غريب الأطوار يا رب ! هو يتكلم برقة وحنان ، ومع ذلك أنا خائفة ! عجيب ،ممّ أنا خائفة ؟ » •

استأنفت كلامها فجأةً ، اذ عادت تفكر فى ملاحظة ابنها ، فقالت له:

ــ آه يا روديا ! لا تستطيع أن تتصور مدى ما شعرنا به من شقاء ، أنا ودونيتشكا ، أمس • أما وقد انتهى هذا الآن ، أما وأنه انقضى فأصبحنا سعيدتين من جديد ، فاننا نستطيع أن نرويه لك • تصور أننا هرعنا الى هنا لنقبّلك ، منذ نزلنا من القطار ، فقالت لنا تلك المرأة ••• هه ••• ها هى ذى •• نعمت صباحاً يا ناستاسيا ••• نعم ، قالت لنا هذه المرأة ••• هكذا فجأةً ••• انك كنت فى السرير تعانى من حمى حارة ، ثم هربت وأنت تهذى هذياناً شديداً ، دون أن يعرف الطبيب عن ذلك شيئاً ، وأنهم ركضوا يبحثون عنك فى الشارع • لا تستطيع أن تتصور ما أحدثه هذا فينا من أثر !••• لقد تذكرت أنا على الفور النهاية الفاجعة التى انتهى اليها الليوتنان بوتانتشيكوف ، أحد أصحابنا القدماء ، صديق أبيك ــ هل تتذكر يا روديا ؟ ــ الذى كان مصاباً هو أيضاً بحمى حارة فهرب من البيت مثلك فسقط فى بئر الحوش ، ولم يمكن اخراجه منه الا فى الغد • وقد غلونا طبعاً فى تصور خطورة حالتك • وتمنينا أن نركض نبحث عن بطرس بتروفتش ليساعدنا قليلاً على الأقل ••• لأننا كنا وحيدتين ، وحيدتين •

قالت جملتها الأخيرة هذه بصوت فيه شكوى وتوجع • لكنها

أمسكت عن الكلام فجأة ، لأنها تذكرت أن الكلام عن بطرس بتروفتش ما يزال خطراً بعض الشيء ، « رغم أن الجميع قد أصبحوا سعداء من جديد » .

جمجم راسكولنيكوف يقول مجيباً :

ـ نعم نعم ، هذا كله مؤسف طبعاً ...

ولكن هيئة كانت تنم على ذهول وغياب يبلغان من الشدة أن دونيتشكا نظرت اليه مشدوهة .

وتابع يقول وهو يبذل جهداً واضحاً ليستجمع ذكرياته :

ـ ماذا كنت أريد أن أقول لكما أيضاً ؟ ها ... نعم ... أرجوك يا أمي ، وأرجوك أنت يا دونيتشكا ، أن لا يذهب بكما الظن الى أنني كنت لا أنوي أن أسبقكما الى الذهاب اليكما ، وأنني انتظرت أن تجيئا أنتما اليّ .

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا تقول مدهوشة هي أيضاً :

ـ ما هذا الذي تقوله يا روديا ؟

وقالت دونيا لنفسها : « ما باله ؟ أتراه لا يجيئنا الاّ من باب القيام بالواجب ؟ انه يصالحنا ويستغفرنا ، ولكن كأنه يقوم بسخرة ثقيلة أو يتلو درساً محفوظاً » .

ـ لقد أردت منذ صحوت أن أذهب اليكما ، لكن مسألة الثياب أخرتني ... لقد نسيت أمس أن أقول لها ، أعني أن أقول لناستاسيا أن ... تغسل هذا الدم . ولم أستطع أن أرتدي ثيابي الا الآن .

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا تسأله وقد ذهب صوابها :

ـ الدم ؟ أي دم ؟

فأجابها :

ـ لا تقلقى ، ليس الأمر بذى بال • هذا الدم سببه أننى ترنحت قليلاً أمس ، بسبب الهذيان ، فاصطدمت برجلٍ كانت قد داسته عربة ••• هو موظف •••

قاطعه رازوميخين قائلاً :

ـ هذيان ؟ ولكن هأنت ذا تتذكر كل شيء !

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة تنم على الهم :

ـ صحيح ••• أتذكر كل شيء ، حتى أدق التفاصيل • ولكن لماذا فعلت كيت وكيت ، لماذا ذهبت الى مكان كذا ، لماذا قلت ذلك الشيء فى ذلك المكان ، هذا ما لا أستطيع أن أفسِّره لنفسى •

تدخل زوسيموف فقال :

ـ هذه ظاهرة معروفة جداً • رب فعل يقوم به صاحبه على نحو رائع ، ببراعة فائقة وحذق مدهش ، ثم يبقى الباعث عليه والدافع اليه مموَّهاً ، لارتباطه بمشاعر مَرَضية شتى • فكأن الأمر كله حلم من الأحلام •

قال راسكولنيكوف لنفسه : « انه لحظ موفق أن يعدنى أشبه بمجنون ! » •

قالت دونيا وهى تلقى على زوسيموف نظرة قلقة :

ـ ولكن ألا يصدق هذا على أناس أصحاء أيضاً ؟

فأجابها زوسيموف قائلاً :

ـ هذه ملاحظة سديدة جداً ، بمعنى أننا جميعاً على وجه التقريب تشبه المجانين حقاً فى كثير من الأحيان ، مع فرق واحد مع ذلك هو أن « المرضى » مجانين أكثر منا قليلاً ، فمن الضرورى أن نميِّز ههنا

درجات . أما الانسان « السوى » ، فمن الواجب أن نقول انه لا يكاد له وجود . قد نجد فرداً سوياً ، أو فرداً قريباً من السوى ، بين عشرات الألوف وربما مئات الألوف من الأفراد .

اربدّت وجوه الحاضرين جميعاً حين سمعوا كلمة « المجانين » هذه التى أفلتت من لسان زوسيموف بغير حذر ولا ترو أثناء ثرثرته حول موضوعه المفضّل . وكانت تطوف على شفتى راسكولنيكوف الذى ما يزال جالساً ، كانت تطوف على شفتيه اللتين زال عنهما لونهما ، ابتسامة تنم على أنه كان مسترسلاً فى أحلام عميقة .

صاح رازوميخين يسأله بسرعة شديدة :

ــ هيه ، لقد قاطعتك ... ما حكاية الرجل الذى داسته العربة ؟

قال راسكولنيكوف وكأنه يستيقظ فجأة :

ــ ماذا ؟ آ ... نعم ... لقد تلوثت بالدم حين ساعدت فى نقله الى بيته ... بالمناسبة يا أمى : لقد فعلت أمس أمراً لا يغتفر . حقاً لم أكن أملك كل عقلى . لقد أعطيت امرأة ذلك الرجل ، أمس ، كل المال الذى أرسلته الىّ ... من أجل دفنه ... هى الآن أرملة ، مصدورة ، انها امرأة شقية فقيرة ... عندها ثلاثة يتامى صغار جائعين ... ما من قرش واحد فى بيتهم ... وهناك أيضاً بنت ... لعلكما كنتما ستفعلان مافعلته أنا لو كنتما فى مكانى. طبعاً لم يكن من حقى أن أفعل ذلك ، أنا أعترف بهذا ... لأننى أعرف حق المعرفة كيف حصلتما على ذلك المال . فمن أجل أن يساعد المرء غيره يجب عليه أولاً أن يكون له حق فى ذلك والا : « موتوا أيها الكلاب اذا لم تكونوا راضين » . أليس الأمر كذلك يا دونيا ؟

قال راسكولنيكوف هذا وابتسم ابتسامة خفيفة .

أجابته دونيا بلهجة جازمة تقول :

ـ لا ، ليس الأمر كذلك !

فدمدم يقول وهو يلقى عليها نظرة توشك أن تكون كارهة ، وتطوف بشفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ ها ... أنت أيضاً تزخرين بنيات طيبة . كان ينبغى لى أن أفهم هذا ! .. ذلك جميل جداً على كل حال .. ربما كان ذلك أفضل !... اذا وصلت الى نقطة لا تجسرين أن تتخطيها فسوف تشقين ، واذا تخطيتها فربما شقيت أكثر . ثم ان هـذا كله سخافات (أضاف ذلك مهتاجاً ، نادماً على أنه استسلم لاندفاعه) . وانما أردت يا أمى أن أعتذر اليك ، وأن استغفرك .

كذلك ختم راسكولنيكوف كلامه بصوت جازم متقطع .

قالت الأم راضية كل الرضى :

ـ كل ما تفعله يا روديا فهو خير . أنا واثقة بهذا .

فأجابها بابتسامة مصطنعة :

ـ لا تثقى كل هذه الثقة !

أعقب ذلك صمت . لقد كان الحديث كله متوتراً جداً ، سواء فى الصمت ، وفى المصالحة ، وفى الغفران . وكان الجميع يحسون ذلك .

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو ينظر الى أمه وأخته بطرف عينه : « لكأنهما خائفتان منى حقاً » .

والحق أن بولشيريا ألكسندروفنا كان يزداد خوفها على قدر امتداد صمتها .

وومضت هذه الفكرة فى ذهن راسكولنيكوف : « أنا انما كنت أحبهما اذن من بعد » .

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا تقول فجأة وهى تنتفض :

ـ هل تعلم يا روديا ؟ لقد ماتت مارتا بتروفنا !

ـ من هى مارتا بتروفنا ؟

ـ عجيب ! مارتا بتروفنا سفيدريجايلوفا . حدثتك عنها طويلاً فى رسالتى !

ـ آ ... آ ... نعم ... تذكرت ! اذن ماتت ؟ آ ... حقاً .. (قال ذلك مرتعشاً كمن يصحو من نوم) . ماتت ... أصحيح أنها ماتت ؟ مم ماتت ؟

أسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تجيبه وقد شجعها هذا الاستطلاع :

ـ ماتت فجأة . حدث ذلك يوم أرسلت اليك رسالتى . تصور ! وتصور أن أغلب الظن أن ذلك الرجل الرهيب هو سبب موتها . يقال انه كان قد ضربها ضرباً فظيعاً .

سأل راسكولنيكوف أخته :

ـ هل كان ذلك من عاداتهما ؟

ـ لا ، بالعكس . كان يبدو على الدوام صبوراً جداً معها ، بل ولطيفاً جداً فى معاملتها . وكان فى كثير من المناسبات كثير اللين والتسامح فى تصرفه ازاء طبع زوجته . ولكن ذلك دام سبع سنين ، فلعله فقد صبره على حين فجأة .

ـ اذن لم يكن فظيعاً الى ذلك الحد ما دام قد استطاع أن يسيطر على نفسه خلال سبع سنين . لكأنك تعذرينه يا دونيتشكا .

ـ لا ، لا ، انه رجل فظيع ! لا أستطيع أن أتخيل رجلاً أفظع منه.

كذلك أجابت دونيتشكا وهى تكاد ترتجف • وقطبت حاجبيها وغرقت فى أفكارها •

وأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تتابع كلامها فقالت :

ـ حدث ذلك فى ذات صباح • فأمرت باعداد العربة لتذهب الى المدينة بعد الغداء رأساً ، لأنها تذهب الى المدينة دائماً فى مثل تلك الحالات. يقال انها التهمت غداءها بشهوة قوية •

ـ بعد أن ضُربت ؟

ـ نعم ، هذه عادة من عاداتها • وما ان انتهت من تناول طعامها حتى أسرعت تستحم حتى لا تتأخر • انها تعالج نفسها بالحمامات • ان لديهم ينبوع ماء بارد ، فهى تستحم به بانتظام واطراد كل يوم • ولكنها ما ان غطست فى الماء حتى أصيبت بالسكتة •

قال زوسيموف معقِّباً :

ـ لا غرابة !

ـ وهل ضربها ضرباً شديداً جداً ؟

قالت دونيا :

ـ أى قيمة لهذا ؟

وقال راسكولنيكوف فجأة ، بلهجةٍ ليس هناك شىء يمكِّن من التنبؤ بها :

ـ هِمْ ••• ثم ما قيمة قصِّ سخافات من هذا النوع يا أمى ؟

فقالت بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ آه يا بنى !••• انما أنا رويت هذه الأمور لأننى أصبحت لا أعرف عمَّ ينبغى أن أتكلم !

فقال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة من جديد :

ـ أتراكم تخافون جميعاً منى ؟

قالت دونيا وهى تحدق الى عينى أخيها بنظرة قاسية :

ـ هذا صحيح . حتى ان ماما قد رسمت اشارة الصليب قبل صعودها السلم ، من شدة خوفها .

تقلص وجه راسكولنيكوف حتى لكأنه يوشك أن يقع متشنجاً .

فتمتمت بولشيريا ألكسندروفنا تقول مضطربةً كل الاضطراب :

ـ آه .. ما هذا الذى تقولينه يا دونيا ؟ لا تزعل يا روديا ، أرجوك ... لماذا تقولين هذا الكلام يا دونيا ؟ صحيح أننى طوال مدة الرحلة ، فى القطار ، كنت أتخيَّل كيف سنلتقى ، وما الذى سيقوله بعضنا لبعض ... وقد بلغت من شدة السعادة أننى لم أشعر بالرحلة . ولكن ما هذا الذى أقوله ؟ اننى ما زلت سعيدة ... الآن أيضاً أنا سعيدة ... ما كان ينبغى لك يا دونيا أن ... اننى سعيدة يا روديا ، ان رؤيتك تجعلنى سعيدة يا روديا ...

فدمدم راسكولنيكوف يقول لأمه خجلاً ، وهو يشد على يدها دون أن ينظر اليها :

ـ كفى يا ماما . سيتسع وقتنا للتحدث طويلاً !

ولكنه ما ان قال هذا الكلام حتى اضطرب فجأة ، واصفرَّ وجهه ، وعاوده ذلك الاحساس الرهيب الذى يعرفه حق المعرفة ، أعنى الاحساس ببرودة رهيبة تجتاح نفسه ، وشعر شعوراً لا يخالجه ريب بأنه قد كذب كذبة فظيعة ، وبأنه لن يستطيع أن يتكلم بعد الآن بقلب مفتوح فى يوم من الأيام ، بل وأنه لن يستطيع بعد الآن أن « يتكلم » فى أمرٍ من الأمور أياً كان . وبلغ الاحساس الذى ولَّدته هذه الفكرة فى نفسه

من شدة الايلام أنه كاد يفقد الشعور بالواقع فقداناً كاملاً خلال لحظة ، فنهض واتجه نحو الباب قُدُماً لا يلوى على شيء ولا ينظر الى أحد ٠

هتف رازوميخين يسأله وهو يمسكه من ذراعه :

ـ ماذا تفعل ؟

فعاد راسكولنيكوف يجلس ، وأجال بصره حواليه صامتاً ٠ فكان الجميع يتأملونه مشدوهين ٠

وهتف يقول فجأة :

ـ حقاً انكم جميعاً لتبعثون الضجر والسأم فى النفس ! هلاً قلتم شيئاً ! ما بالنا نبقى جالسين هكذا ! تكلموا ! تكلموا ! سوف نتكلم ٠٠٠ معاً ! أنجتمع ثم لا نقول شيئاً ؟ هيّا قولوا شيئاً ! هلموا !

قالت بولشيريا ألكسندروفنا :

ـ الحمد لله ٠ لشد ما خفت أن يتكرر ما حدث أمس ٠

وقالت آفدوتيا رومانوفنا تسأل أخاها مرتابةً :

ـ ما بك يا روديا ؟

فأجابها راسكولنيكوف وقد أخذ يضحك فجأة :

ـ لا شيء ٠٠٠ لا شيء ٠٠٠ تذكرت سخافة من السخافات !

دمدم زوسيموف يقول :

ـ اذا كان الأمر أمر سخافة من السخافات ، فهذا يبعث على الاطمئنان ٠ والا كان يمكن أن افترض ٠٠٠

ثم أضاف :

ـ على كل حال ، يجب أن أنصرف ٠ قد أجيء لأراك ، اذا أنا وجدتك !

وحيًا وخرج .

قالت بولشيريا الكسندروفنا :

ـ يا له من رجل رائع !

فقال راسكولنيكوف فجأة بصوت متقطع ، وبحرارة أشدَّ مما أظهر من حرارة حتى الآن :

ـ نعم ، هو رجل رائع ، مدهش ، مثقف ، ذكي ... لا أتذكر الآن أين التقيت به قبل مرضي . ولكن يبدو لي أنني سبق أن التقيت به.

ثم أضاف وهو يومىء الى رازوميخين باشارة من رأسه :

ـ وهذا أيضاً رجل ممتاز !

ثم التفت الى أخته يسألها فجأةً وقد أخذ يضحك لا يدرى أحد لماذا :

ـ هل يعجبك يا دونيا ؟

فأجابته دونيا قائلة :

ـ كثيراً .

قال رازوميخين وهو ينهض محمرَّ الوجه من الخجل والاضطراب :

ـ يا للأحمق !

وابتسمت بولشيريا الكسندروفنا ابتسامة خفيفة ، بينما كان راسكولنيكوف يضحك ضحكاً صاخباً .

ـ ولكن الى أين أنت ذاهب ؟

ـ أنا أيضاً مشغول .

ـ لا لستَ مشغولاً بشيء البتة ، ابق ! لا يكفى أن ينصرف زوسيموف حتى يكون عليك أن تنصرف أنت أيضاً . لا ، لا تذهب ! ثم

كم الساعة الآن ؟ الثانية عشرة ؟ ما أجمل هذه الساعة التى تحملينها يا دونيا ! ولكن ما بالكم تصمتون جميعاً من جديد ؟ لا يتكلم أحد غيرى هنا !

أجابت دونيا :

ـ هى هدية من مارتا بتروفنا .

وعقبت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ وقد كلف ثمناً غالياً جداً .

ـ هى ضخمة جداً بالقياس الى ساعة نسائية .

ـ أحب للساعات أن تكون ضخمة هكذا .

وقال رازوميخين لنفسه : « ليست هدية من الخطيب اذن » ، وابتهج لهذا دون أن يدرى كثيراً لماذا !

وقال راسكولنيكوف غامزاً :

ـ تصورت أنا أنها هدية من لوجين !

ـ لا ، انه لم يقدم الى دونيا حتى الآن أية هدية !

قال راسكولنيكوف فجأة وهو ينظر الى أمه التى ذُهلت من انتقاله الى هذا الكلام بغير تدرج ، ومن اصطناعه هذه اللهجة التي اصطنعها :

ـ آ ... آ ... هل تذكرين يا أمى أننى عشقت وأننى أردت أن اتزوج ؟

ـ نعم أتذكر يا بنى .

وتبادلت بولشيريا الكسندروفنا نظرة مع دونيتشكا ورازوميخين .

ـ نعم . وماذا أقول لك عن ذلك الأمر أيضاً ؟ لقد نسيت فأصبحت لا أتذكر ...

وتابع كلامه وهو يطرف الى الأرض ويصبح شارد الذهن حالماً من جديد :

ـ كانت فتاة ممراضاً ••• ممراضاً جداً • وكانت تحب أن تتصدق على المتسوّلين • وقد أجهشت باكية في ذات يوم حين حدثتني عن ذلك• نعم ••• نعم ••• أتذكر تذكراً كاملاً • لا يمكن أن يقال انها كانت جميلة ! حقاً ••• لا أدرى لماذا تعلقت بها • ربما لأنها كانت دائماً مريضة • وأحسب أنها لو كانت عرجاء أو حدباء لأحببتها أكثر • (قال ذلك وابتسم ابتسامة ذاهلة) • كان ذلك نوعاً من جنون الربيع !

قالت دونيا مندفعة :

ـ لا ، لم يكن نوعاً من جنون الربيع •

ألقى راسكولنيكوف على أخته نظرة منتبهة • ولكن كان يبدو عليه أنه لم يفهم كلامها ولا سمعه • ثم نهض وهو ما يزال شارد الفكر ، فمضى الى أمه ، فقبّلها ، وعاد يجلس في مكانه •

سألته بولشيريا الكسندروفنا مضطربةً أشد الاضطراب :

ـ أما زلت تحبها ؟

ـ هي ؟ ما زلت أحبها ؟ آ ••• نعم ••• أنت تتكلمين عنها ••• لا ••• ذلك كله قد أصبح الآن عالماً آخر ••• انقضى زمان طويل ••• انقضى زمان طويل ••• لا هذا فحسب ••• بل ان كل ما يجرى حولى الآن فكأنه يجرى في عالم آخر •••

قال راسكولنيكوف ذلك ، ونظر اليهم بانتباه ثم أردف يقول :

ـ اليكم هذا المثال : أنا أنظر اليكم الآن ، فكأنكم على مسافة ألف فرسخ مني ••• ولكن لماذا نتكلم عن هذه الأشياء ؟ ثم لماذا تسألونني ؟

(أضاف ذلك غاضباً ، وصمت ، وأخذ يقضم أظافره ، وغاب فى أحلامه من جديد) •

وقطعت بولشيريا ألكسندروفنا هذا الصمت الأليم ، اذ قالت فجأة :

ـ ما أردأ مسكنك يا روديا ! أنا على يقين من أن مسكنك هذا هو نصف أسباب كآبتك !

فقال راسكولنيكوف ذاهل الهيئة :

ـ المسكن ••• نعم ••• لا بد أن لمسكنى هذا دخلاً فى الأمر •• أنا أيضاً خطر ببالى هذا •

ثم أضاف يقول فجأةً وهو يضحك ضحكة غريبة :

ـ ولكن ليتك تعلمين عن أية فكرة غريبة عبَّرتِ أنت الآن يا أمى !

كان راسكولنيكوف يحس أن هذا الاجتماع ، وهذه الأم وهذه الأخت اللتين يراهما بعد فراق دام ثلاث سنين ، وهذه اللهجة الحميمة فى الحديث ، بينما هو عاجز عن أن يقول كل شىء ، كان راسكولنيكوف يحس أن هذا كله يوشك أن يصبح أمراً لا يطاق اطلاقاً • غير أن هناك مسألةً لا تحتمل مناقشتها ارجاءً ، مسألةً كان قد قرر منذ صحا من نومه أن يحلَّها فى هذا اليوم نفسه بطريقة أو بأخرى • وها هو ذا يحس الآن أن فى وسعه أن يتخذها وسيلةً للخروج مما هو فيه من ضيق وكرب ، فيرتاح لذلك بعض الارتياح •

بدأ كلامه فقال بلهجة خشنة قاسية :

ـ اسمعى يا دونيا • أنا طبعاً استغفرك عمَّا جرى أمس ، ولكننى أرى أن من واجبى أن أذكِّرك باننى ما زلت مصراً على الشىء الأساسى من أقوالى • اما أنا واما لوجين • قد أكون أنا أسوأ الناس طراً ، ولكن

ماينبغى أن تكونى أنت كذلك. يكفى أن يكون أحدنا سيئاً. اذا تزوجت لوجين ، فلن أعدَّك اختى .

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول بحرارة :

– روديا ، روديا ! ها نحن اذن نعود الى ما كنا فيه بالأمس ! لماذا تعد نفسك « أسوأ الناس طراً » ؟ أنا لا أستطيع أن أحتمل هذا . أمس أيضاً كان هذا نفسه ...

وأجابت دونيا تقول بلهجة جازمة ، خشنة كلهجته :

– هذا ناشىء عن خطأ ترتكبه يا أخى . لقد فكّرت هذه الليلة ، فاكتشفت قوام خطئك . ان كل شىء ناشىء ، فيما يبدو لى ، عن تصورك أننى أضحّى فى سبيل أحد . وهذا ليس صحيحاً البتة . فأنا انما اتزوج تحقيقاً لمصلحتى الخاصة ، لأن حياتى صعبة . طبعاً ... اذا استطعت فى المستقبل أن أنفع أهلى ... فسوف يسعدنى ذلك ، ولكن السبب الرئيسى للقرار الذى اتخذته ليس هو هذا ...

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو يقضم أظافره حانقاً : « انها تكذب ! يا للمتعجرفة ! انها لا تريد أن تعترف بأنها تحلم أن تكون محسنة . آه من هذه الطبائع ! حتى حين يحبون ، فكأنهم يكرهون . آه .. لشد ما أكرههم جميعاً ! » .

وتابعت دونيا تقول :

– باختصار : أنا أتزوج بطرس بتروفتش لأننى أختار أهون الشرين . واذ اننى قررت أن أنفّذ كل ما ينتظره منى ، بأمانة واستقامة وشرف ، فاننى أعتقد أننى لا أخدعه ... لماذا تبتسم ؟

سألها راسكولنيكوف بلهجة مسمومة :

ـ ستنفـّذين كل شيء ؟

ـ الى حد ما • وان الطريقة التى اتبعها بطرس بتروفتش فى خطبتى قد أفهمتنى على الفـور ما ينتظره منى • صحيح أن رأيه فى نفســه عال كثيراً ، ولكننى آمل أن يقدّرنى أيضاً ••• لماذا تضحك من جديد ؟

ـ وأنت لماذا تحمرّين من جديد ؟ انك تكذبين يا أختى ، تكذبين عامدةً ، بعناد امرأة ، حتى لا تتراجعى أمامى • أنت لا يمكن أن تحترمى لوجين : لقد رأيتُـه وتحدثت معه • اذن أنت تبيعين نفسك بالمال • اذن أنت تتصرفين تصرفاً دنيئاً على كل حال • وانه ليسعدنى ، انه ليسـعدنى كثيراً ، أن تكونى على الأقل قادرةً على أن تحمرّى خجلاً •

صاحت دونيا تقول وقد فقدت كل هدوئها :

ـ هذا غير صحيح • أنا لا أكذب ! لن أتزوجه دون أن أقتنع بأنه يقدرنى حق قدرى ، وأنه يحـرص علىّ • لن أتزوجـه دون أن أقتنع اقتناعاً جازماً بأننى أستطيع أن أقدره • ومن حسن الحظ أن فى وسعى أن أقتنع بهذا على وجه اليقين فى هذا اليوم نفســه • ليس هذا الزواج دناءة على نحو ما تصف • وهبك على صواب ، وهبنى قررت أن أرتكب عملاً دنيئاً ، أفلا تكون أنت قاسياً حين تقول لى هذا الكلام الذى تقول ؟ لماذا تتطلب منى بطولةً تعجز عنها أنت نفسك ؟ هذا ظلم واستبداد ، هذا عنف وطغيان ! اذا كنت أُشقى أحداً ، فانما أشقى نفسى ! أنا لم أذبح أحداً بعد ••• لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ لماذا اصفرّ وجهك هذا الاصفرار فجأة ؟ روديا ، ماذا بك ؟ روديا ، عزيزى •••

صاحت بولشيريا الكسندروفنا :

ـ رباه ! لقد بلغتْ من تعذيبه أنه سيُغمى عليه !

ـ لا ، لا ، لم يحدث شيء ، انتهى كل شيء • كل ما حدث هو أننى أحسست بشيء من دوار ••• ولكن لم يُغمَ علىّ • انكم تظنون كل

شيء اغماءً • ماذا كنت أريد أن أقول ؟ نعم : بأية وسيلة ستقتنعين ، في هذا اليوم نفسه ، بأنك تستطيعين احترامه ، وبأنه يقدرك ؟ ذلك هو ما قلته ، أليس كذلك ؟ يخيل الىَّ أنك قلت : « في هذا اليوم نفسه » ، أم تراني سمعت خطأً ؟

قالت دونيا :

ـ ماما ، أطلعي أخي على رسالة بطرس بتروفتش •

فمدَّت بولشيريا الكسندروفنا الرسالة اليه ، مرتعشةَ اليدين • فتناولها باهتمام شديد واستطلاع قوي ، ولكنه قبل أن يفضَّها نظر الى دونيا مدهوشاً • وقال ببطء ، كأنما وافته فكرة جديدة :

ـ غريب جداً أنني ثرت هذه الثورة كلها من أجل ••• لماذا هذا الاضطراب كله ؟ تزوجي من تشائين •••

قال هذا كمن يحدث نفسه ، ولكنه كان يتكلم بصوت عالٍ ، وظل برهةً من الوقت ينظر الى أخته مرتبكاً •

وفضَّ الرسالة أخيراً وهو ما يزال على ما هو عليه من دهشة لا تعليل لها • ثم أخذ يقرأ الرسالة ببطء وانتباه •

أعاد قراءة الرسالة مرتين • وكانت بولشيريا الكسندروفنا قلقة الى أبعد حدود القلق • وكان الجميع ، من جهة أخرى ، يتوقعون انفجاراً •

بدأ راسكولنيكوف كلامه بعد لحظة من تأمل ، فقال وهو يرد الرسالة الى أمه ، ولكن دون أن يخاطب أحداً بعينه :

ـ غريب • هو محامٍ • وله زبائن ، وحتى حديثه لا يخلو من••• حذلقة • ومع ذلك يحس المرء حين يقرؤه أنه ليس على شيء من تعليم أو ثقافة •

حدثت حركة شاملة : لقد كانوا يتوقعون شيئاً آخر غير هذا تماماً •

قال رازوميخين بلهجة قاطعة :

ـ ولكنهم جميعاً يكتبون هكذا ؟

ـ هل قرأت هذه الرسالة ؟

ـ نعم •

قالت بولشيريا الكسندروفنا مضطربة :

ـ أطلعناه عليها يا روديا ، و ••• سـألناه ••• النصح ••• منذ برهه •••

فقاطعها رازوميخين يقول :

ـ هذا أسلوب القضـاء لا أكثر ••• ان جميع الأوراق القضـائية تُحرَّر الآن بهذا الأسلوب !

ـ القضاء ؟ نعم ••• صحيح !••• ذلك أن أسلوب هذه الرسـالة ليس أسلوب رجل محروم من أى حظ من ثقافة ، ولكنه فى الوقت نفسه ليس أسلوباً أدبياً • ان اسلوبه هو كما قلت يا رازوميخين أسلوب رجل من رجال الأعمال •

قالت آفدوتيا رومانوفنا وقد أزعجتها لهجة أخيها من جديد :

ـ ان بطرس بتروفتش لا يخفى أن تعليمه كان متواضعاً ؟ بل انه ليعتز بأنه عصامى شق طريقه بنفسه •

ـ اذا كان يعتز فلا شك أن هناك ما يدعوه الى الاعتزاز ! أعتقـد أنك انزعجت يا أختى لأننى لم أخرج من هذه الرسـالة كلها الا بهذه الملاحظة التافهة ؟ وأنت تظنين أننى تعمـدت أن اتشبث بهذه السفاسف لأسخر منك • والحق عن ذلك بعيد : ففى صدد موضوع الأسلوب هذا، انما خطرت ببالى ملاحظة تبـدو لى فى هذه الحالة ذات شأن • لقد ورد

فى الرسالة تعبير يقول : « لن يكون لكم عندئذ أن تلوموا أحداً الا أنفسكم » ، وهو تعبير ذو دلالة بليغة فى ذاته ، عدا أنه يشتمل على تهديد : لقد قرر لوجين أن ينصرف فوراً اذا أنا حضرت • فهذا التهديد بالانصراف معناه أنه سيترككما اذا أنتما لم تطاوعاه ، مع أنه هو الذى حملكما على المجىء الى بطرسبرج • فما رأيك ؟ هل يمكن أن تسوءك هذه الكلمات حين يكتبها لوجين مثلما يمكن أن تسوءك لو كتبها هذا (قال ذلك وهو يومىء الى رازوميخين) أو كتبها زوسيموف أو كتبها أى واحد منا ؟

قالت دونيتشكا متحمسة :

ـ ل ••• لا !••• لقد أدركت حق الادراك أن فى أسلوبه سذاجة شديدة ، وأنه قد لا يكون حاذقاً كل الحذق فى استعمال قلمه • ان ملاحظتك سديدة جداً يا أخى ، حتى اننى لم أكن أتوقع أن •••

ـ نعم ، هذا هو طابع الأسلوب القضائى ، وبالأسلوب القضائى لا يمكن أن يكتب المرء غير هذا • ولعل لوجين كان فيما كتبه فظاً أكثر مما أراد • ومع ذلك أريد أن أخيّب ظنك قليلاً : ان فى هذه الرسالة نفسها تعبيراً آخر هو نميمة فى حقى ، نميمة خسيسة • لئن وهبت بالأمس مالاً لأرملة مصدورة يائسة ، فاننى لم أفعل ذلك « بحجة » دفع نفقات الجنازة ، بل لدفع نفقات الجنازة فعلاً • ثم اننى وضعت هذا المال لا فى يد الفتاة أو فى يد « البنت المعروفة بسوء السمعة » على حد تعبيره ، وانما وضعت المال فى يد الأرملة نفسها • اننى أرى فى كلامه هذا رغبة شديدة جامحة فى تلطيخ صفحتى ، وفى احداث شقاق بينى وبينكم • هنا يكشف الأسلوب القضائى عن نيات صاحبه بوضوح ، ويدل على تسرع فيه شىء من سذاجة • ان الرجل ذكى ، ولكن لا يكفى أن يكون المرء ذكياً حتى يتصرف بذكاء • هذا كله يطلعك على حقيقته • ثم اننى •••

لا أعتقـد أنه يحترمك كثيراً • لا أقول لك هذا الا لتحيطى علمـاً ••• ذلك أننى أتمنى لك الخير صادقاً كل الصدق •

لم تجب دونيـا • كانت قد اتخـذت قرارها منذ مدة ، فهى تنتظر حلول المساء •

سألت بولشيريا الكسـندروفنا ابنها ، وقد اشـتد قلقها بسبب طابع «الأعمال» هذا الذى ساد الحديث :

ـ فماذا قررت يا روديا ؟

ـ ماذا تعنين بقولك « ماذا قررت » ؟

ـ ان ••• بطرس بتروفتش يطلب فى رسالته أن لا تجىء الينـا هذا المساء ، وانه سينصرف اذا أنت جئت • فهل ••• تجىء ؟

ـ لست أنا من يجب أن يقرر • وانمـا ينبغى أولاً أن تعرفا هل يسوؤكما طلب بطرس بتروفتش أم لا ؛ وينبغى ثانياً أن تعرف دونيا هل فى هذا الطلب اهانة لها أم لا •

وأضاف راسكولنيكوف يقول بخشونة :

ـ أما أنا فسأفعل ما يناسبكما كلتيكما •

أسرعت بولشيريا الكسندروفنا تجيب :

ـ لقد اتخذت دونيتشـكا قرارها وانتهى الأمر ؛ وأنا أوافقهـا كل الموافقة •

قالت دونيا :

ـ نعم ، لقـد قررت يا روديا ••• قررت أن أطلب منك ، ملحة مصرة ، أن تحضر الاجتماع عندنا هذا المساء • هل تجىء ؟

ـ سأجىء •

والتفتت دونيا الى رازوميخين فقالت له :

ـ وأنت أيضاً ••• أرجوك أن تكون عندنا في الساعة الثامنة • يا أمي ، انني أدعوه أيضاً •

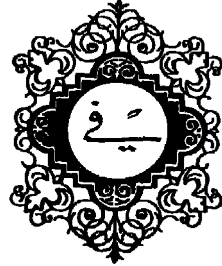
قالت بولشيريا الكسندروفنا :

ـ هذا حسن جداً يا دونيا •

ثم أضافت :

ـ ليكن ما تقررين • ثم انني أنا نفسي أوثر هذا • انني لا أحب أن أتظاهر وأن أكذب • نعم ، الأفضل أن نقول الحقيقة جميعاً ••• اغضب أو لا تغضب يا بطرس بتروفتش !

الفصل الرابع



في تلك اللحظة فُتح الباب برفق ، ودخلت الغرفة فتـاةٌ تلقى على ما حولها نظرات وجلى . فالتفت الجميع نحوها مدهوشين مستطلعين . ولم يتعرفها راسـكولنيكوف فى الوهلة الأولى . انها صـوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا . كان قد رآها أمس أول مرة ، ولكنه رآها فى لحظة خاصة وظروف خاصة ، ورآها مرتديةً ثيـاباً خاصـة ، فكانت صورتهـا المنقوشة فى ذاكرته صورة انسانة أخـرى غير هذه التى يراها الآن . هى فتاة بسيطة الملبس بل فقيرة الملبس ، تبدو فى ميعة الصبا حتى لكأنها بنيـة صغيرة ، متحفظة الحركات محتشـمة ، نقيـة الوجـه على شىء من خوف ووجل ، ترتدى ثوباً بسيطاً مما يُلبس كل يوم ، وتضع على رأسها قبعة بالية الزى ، ولكنها تحمل بيدها شمسية كالأمس .

فلما رأت ، على دهشة شـديدة منها ، أن الغـرفة تغصُّ بالناس ، لم تضطرب فحسب ، بل فقدت كذلك كل سـيطرة لهـا على نفسـها ، وتحركت تهمُّ أن تنسحب .

قال راسكولنيكوف وقد بلغ ذروة الدهشة :

ـ آ ... أهذا أنت ؟

وفقد هو أيضاً كل سيطرة له على نفسه .

وسرعان ما تذكرَ أن رسالة لوجين قد أخبرت أمه وأخته بوجود

هذه الآنسة « المعروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس » • وقد احتج هو منذ قليل على نمائم لوجين معلناً أنه رأى هذه الفتاة أول مرة مساء أمس ، وها هى ذى تدخل عليه الآن بشخصها فجأة • وتذكَّر أيضاً أنه لم يحتج أى احتجاج على ما ورد فى رسالة لوجين من أن « البنت معروفة بسوء السمعة » •

ومض ذلك كله فى ذهنه مضطرباً مبهماً بسرعة كسرعة البرق • ولكنه حين تأمل القادمة بانتباه أكبر ، رأى أنها مخلوقة مسكينة مُذلَّة ، مُذلَّة الى حدٍ كبير فلم يلبث أن أخذته بها شفقة • فلما تحركت تهمُّ من رعبها أن تهرب ، كان هو قد شعر باضطراب ، فأسرع يقول لها وهو يستوقفها بنظره :

ـ لم أكن أتوقع مجيئك البتة • هلاَّ سررتنى فجلست • لا شك أنك آتية من قِبَل كاترين ايفانوفنا • من فضلك • لا ، ليس هنا • بل هنا • اجلسى هنا •

حين دخلت صونيا ، كان رازوميخين جالساً على أحد الكراسى الثلاثة التى تضمها غرفة راسكولنيكوف ، فنهض ليفسح لها مجال المرور. وقد دلَّها راسكولنيكوف فى أول الأمر على مكان فى طرف الديوان هو المكان الذى كان يشغله زوسيموف منذ برهة • لكنه وقد تذكر أن الجلوس على الديوان ينم على رفع الكلفة ، وأنه يتخذ الديوان سريراً له ، أسرع يدلُّها على كرسى رازوميخين• وقال لرازوميخين وهو يجلسه على طرف الديوان الذى كان يجلس عليه زوسيموف :

ـ وأنت ، اجلس هنا •

جلست صونيا وهى تكاد ترتعش ، ونظرت الى السيدتين خجلةً وجلة • كان واضحاً أنها لا تفهم هى نفسها كيف تجرأت أن تجلس الى

جانبهما . وقد بلغت من الارتياع حين تصورت ذلك أنها نهضت على حين فجأة مضطربة أشد الاضطراب ، وثأثأت تقول متجهة بكلامها الى راسكولنيكوف :

ـ أنا ... أنا ما جئت الا لدقيقة واحدة ... اغفر لى ازعاجك . ان كاترين ايفانوفنا هى التى أوفدتنى اليك ... لأنها لم تجد أحداً غيرى يمكنها أن توفده . طلبت منى كاترين ايفانوفنا أن أرجوك ملحة ... أن تحضر غداً قداس الجنازة ... صباحاً ... بعد الصلاة ... فى مقبرة سان ميتروفان * ... وأن تجىء بعد ذلك الينا ... اليها ... لتصيب شيئاً من طعام ... هى ترجوك أن تهب لها هذا الشرف . نعم ، كلفتنى بأن أسألك هذا ...

قالت صونيا ذلك ، واشتد ارتباكها فصمتت .

نهض راسكولنيكوف هو أيضاً ، واضطرب هو أيضاً وقال يجيبها:

ـ سأحاول أن أجىء حتماً ... حتماً ...

ثم أردف يقول لها فجأة :

ـ هلاّ سررتنى فجلست . ان لى حديثاً معك . أرجوك . أأنت مستعجلة ؟ ولكن أرجوك ، هبى لى دقيقتين !

قال ذلك وقرّب لها الكرسى . جلست صونيا . وعادت تلقى على السيدتين نظرة خجلة وجلة ، ثم خفضت عينيها فجأة .

احمر وجه راسكولنيكوف الشاحب ، وتقبضت قسماته ، وقدحت عيناه شرراً ، وقال بلهجة قاطعة ملحة :

ـ يا أمى ، هذه صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا ، ابنة ذلك المسكين مارميلادوف الذى داسته الخيل مساء أمس على مرأى منى ، والذى سبق أن حدثتكم عنه .

ألقت بولشيريا الكسندروفنا نظرةً على صـونيا وهى تطرف بعينيها قليلاً • انها لم تستطع ، رغم الخشية التى توقظها فيها نظرة ابنها الثابتة المتحدية ، أن تمنع عن نفسها هذه المتعة • أما دونيا فقد حدّقت الى وجه الفتاة فى جد واصرار ، وأخذت تدرسها بعنـاية واهتمـام • وقد أرادت صونيا ، حين سـمعت التعريف بهـا ، أن ترفع عينيها ، ولكنها اضطربت مزيداً من الاضطراب •

وأسرع راسكولنيكوف يقول لها :

ــ وددت أن أعرف كيف جـرت الأمور عندكم اليوم • ألم تلقوا مضايقات ؟ من جهة الشرطة مثلاً ؟

فأجابت الفتاة :

ــ لا ••• جرى كل شيء مجرى عادياً • كان لا يمكن أن يشـك أحد فى سبب الوفاة • لم يزعجونا • ولكن السكان غاضبون علينا •

ــ لماذا ؟

ــ لأن الجثمان بقى مدة طويلة ••• والجو الآن حار ، والرائحة•• لذلك سينقل الجثمان اليوم الى المقبرة ، عند صلاة الغروب ، فيوضع فى الكنيسة الى الغد • كانت كاترين ايفانوفنا لا تريد ذلك فى أول الأمر ، لكنها تدرك الآن أن ليس هناك وسيلة أخرى •••

ــ اذن اليوم ؟

ــ لا بل هى ترجوك أن تشرفنا بحضور صـلاة الجنازة غداً ••• فى الكنيسة ••• وبأن تأتى غداً الينا للمشاركة فى الوليمة •

ــ أهى تقيم وليمة ؟

ــ نعم ، وليمة جنازة • وقد كلفتنى بأن أشكر لك المسـاعدة التى تفضلت عليها بها أمس • فلولاك لما ملكنا ما تنفقه على الدفن •

وأخذت شفتا الفتاة وذقنها تختلج فجأةً ، ولكنها كابرت وتجلدت فاستطاعت أن تسيطر على نفسها ، ثم أغضت طرفها من جديد .

تفحصها راسكولنيكوف أثناء الحديث تفحصاً دقيقاً . ان لها وجهاً صغيراً بائساً ، شديد الهزال والنحول ، شاحب اللون ، ليس فى قسماته اتساق كثير ، متكسّر الخطوط ، صغير الأنف مقرّنه . حتى ليصعب أن يقال انها جميلة . ولكن لها فى مقابل ذلك عينين زرقاوين تبلغان من الصفاء وتبلغان من قوة التعبير حين تتقدان أن وجهها يكتسى عندئذ طيبة وبراءة لا يملك المرء ازاءهما الا أن ينجذب اليها . هذا الى أن لوجه صونيا ، ولسائر شخصها ، صفة خاصةً تميزها هى أنها ، على كونها فى الثامنة عشرة من عمرها ، تبدو أصغر سناً من ذلك بكثير ، حتى ليكاد يحسبها المرء طفلة . وكان هذا يتجلى أحياناً فى بعض حركاتها ، فيكاد يبعث على الضحك .

سألها راسكولنيكوف وكان يواصل الحديث بالحاح :

ـ ولكن كيف استطاعت كاترين ايفانوفنا أن تتدبر أمورها بمثل ذلك المبلغ الضئيل من المال ، حتى لتولم وليمة ؟

ـ سيكون التابوت بسيطاً جداً ... وسيكون كل شيء بسيطاً ... فلا تكون النفقات باهظة ... لقد أجرينا الحساب منذ قليل مع كاترين ايفانوفنا ، فلاحظنا أن سيبقى لنا من المال ما نولم به وليمة ... لأن كاترين ايفانوفنا تحرص على هذا أشدّ الحرص . ليس فى الامكان أن لا ... ان فى هذا عزاءً لها . هذه طبيعتها ، هى هكذا ...

ـ مفهوم ، مفهوم ... لماذا تتفحصين غرفتى ؟ أمى أيضاً تقول ان غرفتى أشبه بقبر .

قالت صونيا تجيبه بنوع من همس قوى سريع ، وهى تخفض عينيها من جديد :

ـ أنت أعطيتنا كل ما كنت تملك ...

وعادت شفتاها وذقنها تختلج .

كانت قد لاحظت منذ برهة طويلة ما يسود غرفة راسكولنيكوف من فقر شديد ، فأفلتت هذه الكلمات منها الآن على غير ارادة أو شعور تقريباً . وخيَّم بعد ذلك صمت . وأضاءت عينا دونيا . وحتى بولشيريا ألكسندروفنا نظرت الى الفتاة فى رضى وبشاشة . ثم قالت وهى تنهض :

ـ نحن ذاهبتان الآن ، أنا ودونيا ، الى الغداء ، يا روديا . هلمِّى يا دونيا . أما أنت يا روديا فعليك أن تقوم بنزهة قصيرة ، ثم تستريح : تستلقى قليلاً ، وتجىء الينا بعد ذلك . أخشى أن نكون قد أتعبناك كثيراً .

أجاب راسكولنيكوف وهو ينهض متعجلاً :

ـ نعم نعم ، سأجىء . ثم ان هناك أعمالاً يجب أن أقوم بها .

صاح رازوميخين يقول مدهوشاً وهو ينظر الى راسكولنيكوف :

ـ أصحيح أنكم لن تتغدوا معاً ؟ ما هذا الذى تقوله ؟

ـ نعم نعم ، سأجىء . أما أنت يا رازوميخين ، فابق دقيقةً أخرى . لستما فى حاجة اليه على الفور يا أمى ، أليس كذلك ؟ ألست أحرمكما من ...

ـ لا ، لا ! ... وأنت يا دمترى بروكوفتش ، هل تصحبنا الى الغداء ؟ هل تتفضل فتقبل أن تصحبنا الى الغداء ؟

وثنَّت دونيا على طلب أمها فقالت هى أيضاً :

ـ أرجوك ، تعال ...

انحنى رازوميخين وقد أشرق وجهه فرحاً . ثم لم تنقض لحظة قصيرة حتى شعر الجميع بنوع من الضيق والحرج .

ـ وداعاً يا روديا ، بل الى اللقاء ... أنا لا أحب أن أقول وداعاً ! وداعاً يا ناستاسيا ... هوه ! هأناذا أعود فأقول وداعاً !...

ودّت بولشيريا ألكسندروفنا لو تحيي صـونيا أيضـاً ، ولكنها لم تفلح في ذلك ، فأسرعت تخرج من الغرفة .

ولكن آفدوتيا رومانوفنا ، حين مرّت أمام صونيا ، حيتها تحيةً فيها كياسة ، بل فيها مودة أيضاً . فاضطربت صونيا ، وأحنت رأسها متعجلةً وجلةً ، بينما طاف بقسمات وجهها تعبير أليم ، كأن ما أظهرته لها آفدوتيا رومانوفنا من أدب ولطف قد شق على لنفسها حتى ليكاد لا يطاق .

هتف راسكولنيكوف يقول لأخته وقد خرج في اثرها الى فسحة السلم :

ـ استودعك الله يا دونيا ! هلاّ صافحتني !

فأجابته دونيا وهي تلتفت اليه بحركة خرقاء فيها عطف وحب :

ـ ولكنني صافحتك ، هل نسيت ؟

ـ أي ضير في أن تصافحيني مرة أخرى ؟

وتناول يدها ، وشدّ على أصابعها شداً قوياً ، فابتسمت له دونيا ، واحمرّت ، وسحبت يدها بسرعـة ، وهرعت تلحق بأمّها سـعيدة كل السعادة لا تدري لماذا !

قال راسكولنيكوف وهو يعود الى الغرفة ويلقى على صـونيا نظرة صافية مضيئة :

ـ عظيم ! اللهم اجعل الموتى في سـلام ، وأبق الأحيـاء على قيـد الحياة . أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ هو كذلك ، هه ؟

كانت صونيا تنظر مدهوشة الى وجهه الذى استردّ هدوءه على حين

فجأة • وكان هو يتفرس فيها بانتباه صامتاً • ثم لم تلبث قصة أبيها أن عادت الى ذاكرته بغتةً •

***

بدأت بولشيريا الكسندروفنا تتكلم ، منذ صارتا فى الشارع ، فقالت تخاطب ابنتها :

ـ رباه ! دونيتشكا ! اننى أشعر بارتياح عظيم لأننا خرجنا من عنده ! نعم ، اننى أحس كأن حملاً قد أزيح عن صدرى • لو قال لى قائل بالأمس ، فى القطار ، أن ترك ابنى سيسرنى ، فهل كنت أصدّق ؟

ـ أكرر لك يا أمى أنه ما يزال مريضاً جداً • هل يمكن أن لا تكونى قد لاحظت ذلك ؟ لعل حزنه الناشىء عن أنه يعيش بعيداً عنا هو الذى جعله فى هذه الحالة • يجب على الانسان أن يكون متسامحاً ، فيمكنه عندئذ أن يغفر أموراً كثيرة ، كثيرة جداً •

فأجابتها بولشيريا ألكسندروفنا بلهجة حادة ساخطة :

ـ وهل كنت أنت متسامحة ؟ اسمعى يا دونيا : لقد أنعمت النظر اليكما ، فهل تعرفين ماذا لاحظت ؟ لاحظت أنك صورته تماماً ، تشبهينه جسماً وروحاً ، بل وتشبهينه روحاً أكثر مما تشبهينه جسماً • كلاكما مكتئب المزاج ؟ كلاكما متجهم النفس ، مندفع الطبع ؟ كلاكما متكبر متعال وسخى كريم • أليس كذلك يا دونيتشكا ؟ يستحيل أن يكون أنانياً يا دونيتشكا ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ آه ••• حين أفكر فيما سيحدث عندنا هذا المساء ، يتجمد قلبى !

ـ لا تقلقى ياماما ! لن يحدث الا ما يجب أن يحدث •

ـ ولكن هلاّ فكرت يا دونيتشكا فى الظرف الذى نحن فيه ؟ ماذا لو رجع بطرس بتروفتش عن وعده ؟

هذا ما أفلت من لسان بولشيريا ألكسندروفنا المسكينة بغير حذر أو تبصر • فأجابتها دونيا بلهجة جافة تنم على الاحتقار :

ـ ليكن ! ان ذلك لن يشرّفه كثيراً !

فأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

ـ لقد أحسنا صنعاً اذ تركنا روديا • كان يستعجل الخروج لأمر ملح • بهذا يُتاح له أن يتحرك قليلاً ، وأن يستنشق هواء نقياً • الجو خانق في غرفته ! ولكن أين يمكن أن يتنفس الانسان في هذه المدينة ؟ حتى في عرض الشارع يحس المرء أنه في غرفة بلا نوافذ ! رباه ! يا لها من مدينة !••• انتبهي ••• ابتعدي ••• كادوا يدوسونك ! هذا بيانو محمول ! آه ••• ما أكثر ما يُصدم المرء هنا !••• أنا خائفة أيضاً من تلك البنت !•••

ـ أية بنت ؟

ـ صوفيا سيميونوفنا تلك التي كانت •••

ـ لماذا أنت خائفة منها ؟

ـ عندي مايشبه الاحساس يا دونيا بأن••• صدقيني أو لا تصدقيني ••• ولكنني منذ أن دخلت ، قلت لنفسي ، في تلك الدقيقة نفسها ، ان كل شيء ربما كان مردّه الى هذا •••

هتفت دونيا تقول غاضبةً :

ـ لا شيء مردّه الى هذا ••• عجيبة أنت واحساساتك ياماما !••• انه لا يعرفها الا منذ أمس ••• حتى انه لم يتعرفها حين دخلت !

ـ سوف ترين ! ••• لئن كانت تقلقني ••• سوف ترين ••• سوف ترين ! ••• آه ••• ما أشد ما أشعر به من خوف ! كانت تنظر اليّ ، كانت تنظر اليّ بعينين ••• بعينين لا أدرى ماذا أقول فيهما •••

حتى لقد كنت من نظراتها لا أكاد أستطيع المكوث فى مكانى ••• هل تتذكرين طريقته فى تقديمها الينا وتعريفنا بها ؟ ان الأمر الذى يبدو لى غريباً عجيباً هو أن يقول عنها بطرس بتروفتش ذلك الكلام ، ثم اذا بروديا يقدمها الينا ، ويقدمها اليك أنت خاصةً ! ذلك دليل أنها عزيزة لديه •

ـ ما أكثر ما يكتبه الناس ! ألم يكتبوا عنا نحن أيضاً أشياء كثيرة ؟ ألم يقولوا عنا نحن أيضاً أشياء كثيرة ؟ أتراك نسيت ذلك ؟ أما أنا ••• فانني واثقة بأنها انسانة ••• محترمة ••• وأن كل ما قيل عنها ليس الا افتراء •••

ـ اسأل الله أن يكون هذا صحيحاً !

ـ أما بطرس بتروفتش فليس الا نماماً دنيئاً •

كذلك قالت دونيتشكا بلهجة قاطعة على حين فجأة !

فخفضت بولشيريا ألكسندروفنا عينيها ، وانقطع الحديث •

***

قال راسكولنيكوف وهو يقود رازوميخين نحو النافذة :

ـ اليك الأمر الذى أريد أن أحدثك فيه •••

فقالت صونيا متعجلةً وهى تحيى لتنصرف :

ـ أستطيع اذن أن أقول لكاترين ايفانوفنا انك ستجيء ؟

ـ لحظةً يا صوفيا سيميونوفنا • ليس هناك أسرار • انك لا تضايقيننا البتة ••• وأنا أريد أن أقول لك كلمتين أيضاً •••

قال ذلك ثم التفت الى رازوميخين قبل أن يتم جملته ، فواصل كلامه له قائلاً :

ـ اليك الأمر ••• أنت تعرف ذلك الرجل الذى يسمى ••• ما اسمه ؟ نعم ••• بورفير بتروفتش ••• أنت تعرفه ، أليس كذلك ؟

ـ أعرفه • نحن قريبان !

ثم أردف يسأل باستطلاع قوى :

ـ ولكن لماذا هذا السؤال ؟

ـ أليس هو للذى يحقق فى القضية ، قضية مقتل العجوز ؟ ألم تقل أمس انه هو الذى يحقق فيها ؟

حمق رازوميخين فجأة وسأل :

ـ طيب وماذا ؟

ـ لقد استجوب أولئك الذين لهم أشياء مرهونة ، وأنا لى أشياء مرهونة هناك ••• أشياء صغيرة على كل حال : خاتم أعطتنيه أختى تذكاراً عند سفرى الى بطرسبرج ، وساعة أبى الذهبية • والرهنان كلاهما لا يساويان أكثر من خمسة روبلات أو ستة ، لكنهما تذكاران ، وأنا أحرص عليهما • فما الذى يجب علىَّ أن أفعله الآن ؟ لا أريد لهذين الشيئين أن يضيعا ، ولا سيما الساعة • فمنذ قليل ، حين تكلمنا عن ساعة أختى ، ارتجفت أنا خوفاً من أن تسألنى أمى أن ترى ساعتى • ان هذه الساعة هى الشىء الوحيد الذى بقى لها من أبى ! فاذا ضاعت هذه الساعة كان يمكن أن تمرض من ذلك أمى • هكذا هنَّ النساء ! فأنا أنتظر منك نصيحة • أنا أعلم أنه سيكون من الواجب أن أدلى بافادة فى قسم الشرطة ، ولكن أليس الأفضل أن تتجه الى بورفير نفسه ؟ ما رأيك ؟ اننى أود أن أسوِّى هذا الأمر بأقصى سرعة • لسوف ترى أن أمى ستسأل عن هذه الساعة حتى قبل الغداء !

هتف رازوميخين يقول مضطرباً أشد الاضطراب :

ـ أنت على صواب : لا فائدة من الذهاب الى الشرطة • الأفضل أن نتجه الى بورفير • آه ••• أنا مسرور ! نستطيع أن نمضى اليه فوراً • هو على مسافة خطوتين • وسنجده حتماً •

ـ اذن هلمَّ بنا اليه !

ـ وسيسرُّه أن يتعرف اليك ! لقد حدثته كثيراً عنك ، عدة مرات • أمس أيضاً حدثته عنك • هلمَّ نذهب اليه • اذن كنت تعرف العجوز ؟ هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! ان كل شيء يترابط ترابطاً را ••• ئعاً ! آ ••• نعم ••• يا صوفيا ايفانوفنا ••

ـ يا صوفيا سيميونوفنا (هكذا صحَّح راسكولنيكوف) ••• هذا الرجل هو صديقى رازوميخين ، وهو رجل طيب ••

قالت صونيا دون أن تنظر الى رازوميخين ، قالت مضطربة خجلة :

ـ اذا كان عليكما أن تخرجا الآن •••

فقال راسكولنيكوف يحسم الأمر :

ـ نعم ، فلنخرج• سأجيء اليك فى هذا النهار يا صوفيا سيميونوفنا ولكن قولى لى أين تقيمين ؟

قال لها راسكولنيكوف ذلك دون ارتباك حقيقى ، ولكنه كان يتكلم بسرعة محمومة ، متحاشياً أن ينظر الى الفتاة •

ذكرت له الفتاة عنوانها واحمر وجهها • وخرجوا جميعاً •

سأله رازوميخين وهو يهبط السلَّم وراءهما :

ـ أأنت لا تغلق بابك اذن بالمفتاح ؟

فأجابه راسكولنيكوف بقوله :

ـ أبداً •

ثم أضاف يقول باهمال :

ـ على أننى أنوى منذ سنتين أن اشترى قفلاً •

ثم قال يخاطب صونيا بلهجة مرحة :

ـ ما أسعد الذين لا يملكون شيئاً يستحق أن يوصدوا عليه الأبواب بالأقفال ، أليس كذلك ؟

حتى اذا صاروا فى الخارج وبلغوا الباب الكبير ، توقفوا •

ـ أنت ذاهبةٌ يمنةً يا صوفيا سيميونوفتش ••• بالمناسبة : كيف فعلت حتى استطعت أن تعثرى على بيتى ؟

ألقى عليها هذا السؤال وكأنه كان يريد أن يقول شيئاً آخر • لقد ظل طوال الوقت يشتهى أن يتلبث ببصره على عينى الفتاة الصافيتين الهادئتين دون أن يفلح فى ذلك •

أجابته صونيا :

ـ أنت نفسك ذكرت لبوليتشكا عنوانك •

ـ ذكرته لبوليا ؟ آ ••• نعم ••• بوليتشكا ! هى الصغرى ••• هى أختك ! اذن أنا أعطيتها عنوانى ؟

ـ هل نسيت هذا ؟

ـ لا ••• الآن تذكرت •

ـ ثم اننى سمعت أبى الراحل يتحدث عنك • لكننى لم أكن أعرف اسمك••• وهو أيضاً لم يكن يعرف اسمك ••• فجئت الآن••• ولما كنت قد عرفت اسمك أمس ، سألت اليوم : « هل هنا يسكن السيد راسكولنيكوف ؟ » ••• ولم أكن أعرف أنك تقيم فى غرفة مفروشة••• أستودعك الله ••• سأقول لكاترين ايفانوفنا •••

كانت تشعر بسرور رهيب من أنها استطاعت أخيراً أن تودِّع لتنصرف • وسارت خافضة العينين ، مسرعةً ، تستعجل الهروب من

نظراتهمـا وأن تقطع العشرين خطوة التي تفصلها عن ناصيـة الشـارع التالية على اليمين ، وأن تبقى أخيراً وحدها فتستطيع أثناء سيرها البطيء ، دون أن تنظر الى أحد ودون أن ترى شيئاً ، أن تفكر وتتذكر وتزن في ذهنها كل كلمة قيلت وكل أمر حدث • انها لم تشـعر طوال حياتها ، بشيء يشـبه ما تشـعر به الآن • ان عالماً جديداً كاملاً يدخل الى نفسها غامضاً مضطرباً • وتذكرت فجأة أن راسكولنيكوف يريد أن يجيء اليها في هذا النهار ، وربما في الصباح ، وربما على الفور •

دمدمت تقول منقبضة الصدر متضرعة كطفل خائف :

ـ لا ، لا اليوم ، أرجوك ! رباه ! أيجيء الي ، في هذه الغرفة؟•• اذن سوف يرى ••• رباه !

ولم يكن في وسعها طبعاً أن تلاحظ أن سـيداً مجهولاً كان يتبعها في تلك اللحظة • كان هذا السيد قد تبعها منذ باب العمارة الكبير ، حين توقفت هي وراسـكولنيكوف ورازوميخين على الرصيف يتبـادلون بضع كلمـات • وكان هذا السـيد المجهـول قد بدا كأنه يرتعش حين التقط عرضاً ، أثناء مروره بهم ، تلك الكلمات التي قالتها صـونيا : « سألت : هل هنا يسكن السيد راسـكولنيكوف » • فألقى على المتحادثين الثلاثة ، ولا سيما على راسكولنيكوف الذي كانت الفتـاة تتجه اليه بالكلام ، نظرة سريعة لكنها منتبهة ، ثم تفحص المنزل وحفظ رقمه • تم ذلك كله بمثل لمح البصر سرعة ، ودون أن يلفت نظر أحد ، ثم ابتعد الرجل متباطيء الخطى منتظراً • ورأى صـونيا تودّع الشـابين ، فأدرك أنها ذاهبة الى مسكنها •

قال يسائل نفسه وهو يتذكر ملامح صونيا : « الى مسكنها ! ولكن أين مسـكنها ؟ لقـد رأيت هـذا الوجـه في مكان ما ••• يجب أن أستعلم ! » •

فلما وصل الى ناصية الشارع انتقل الى الرصيف المقابل ، والتفت فرأى صونيا تسير الآن فى نفس الاتجاه ، ولكن دون أن تلاحظ شيئاً . فلما وصلت هى أيضاً الى الناصية مضت فى نفس الشارع الذى مضى هو فيه . فأخذ يتبعها دون أن يحوّل عنها بصره . حتى اذا قطع نحو خمسين خطوة رجع الى الرصيف الذى كانت تسير عليـه صـونيا ، ولحق بها ، وأخذ يسير وراءها على مسافة خمس خطوات منها .

هو رجل فى نحو الخمسين من عمره ، أطول من وسطى الرجال ، بدين ، عريض المنكبين عالى الكتفين ، حسن الملبس أنيق الهنـدام ، له مظهر سيد من السـادة ، يحمل عصـا جميلة يقرع بها أرض الرصيف عند كل خطوة من خطواته ، ويداه موشحتان بقفـازين جديدين . ان وجهه العريض لا يخلو من وسامة ، وان لبشرته نضارة لا يُرى مثلهـا فى سكان بطرسبرج . وان شعره أشـقر زاه ، ما يزال كثيفـاً ، لم يكد يشيب ؛ وان لحيته المزدهرة الكثيفة أزهى من شعر رأسه أيضاً . عينـاه زرقاوان لهما بريق كبريق المعدن ، ولهما نظرة ثابتة ملحاح . وشفتاه حمراوان حمرة قوية . انه ، على وجه الاجمال ، رجل ما يزال محافظاً على نضارته ، يبدو أصغر كثيراً من سنه .

فلما وصلت صونيا الى القنـاة ، التقيـا على الرصيف ؛ فاسـتطاع الرجل أن يلاحظها فرأى ما كان يعبّر عنه وجهها من ذهول وتفكير . وحين وصلت أمام العمارة التى تسكن فيها ، اسـتدارت فدخلت البـاب الكبير ، فتبعها مدهوشاً بعض الدهشة . حتى اذا بلغت فناء المنزل اتجهت يمنة نحو الركن الذى يوجد فيه السلّم المفضى الى مسـكنها . فجمجم السيد المجهول يقول لنفسه : « عجيب ! » ، وأخذ يصعد درجات السلّم وراءها . وفى تلك اللحظة انما انتبهت اليه صونيا .

صعدت صونيا حتى وصلت الى الطابق الثانى ، فسارت فى الرواق،

ثم قرعت جرس باب الشقة ٩ ، حيث يقرأ المرء على بابها هاتين الكلمتين مكتوبتين بالطباشير : « كابرناوموف ، خيَّاط » • فجمجم السيد المجهول يقول من جديد : « عجيب ! » • لقد أدهشته هذه المصادفة الغريبة • وقرع هو باب الشقة المجاورة ، الشقة ٨ ، ان المسافة بين البابين لا تزيد على ست خطوات •

قال وهو ينظر الى صونيا ضاحكاً :

ـ آ ••• أنت تسكنين عند كابرناوموف ! لقد أصلح لى صديرتى أمس • أنا أسكن هنا ، قريباً منك ، عند السيدة ريسليش ، السيدة جورتود كارلوفنا ريسليش •

نظرت اليه صونيا بانتباه •

وتابع هو كلامه يقول لها بلهجة فيها مرح خاص :

ـ نحن اذن جاران • أنا لا أقيم ببطرسبرج الا منذ ثلاثة أيام • لسوف يسرنى أن ألقاك مرةً أخرى •

لم تجب صونيا • وفُتح الباب ، فانسلت الى بيتها • كانت وجلى ، فكأنها تشعر بخجل وعارٍ من شيء ما •••

***

كان رازوميخين مضطرباً اضطراباً شديداً فى الطريق الى بورفير• وقد كرر يقول لراسكولنيكوف عدة مرات :

ـ هذه فكرة حسنة ! أنا مسرور ، مسرور جداً !

قال راسكولنيكوف لنفسه : « ولكن ممَّ هو مسرور ؟ » •

وتابع رازوميخين :

ـ كنت أجهل أنك أنت أيضاً قد رهنت عند العجوز بعض الأشياء•

هل حدث ذلك منذ مدة طويلة ؟ أقصد : هل منذ مدة طويلة ذهبت اليها ؟

فقال راسكولنيكوف لنفسه : « يا للساذج ! يا للأحمق ! هل منذ مدة طويلة كنت عندها ؟ » • وتوقف لحظةً يفكر • ثم قال يجيب صاحبه :

ـ قبل موتها بثلاثة أيام ، فيما يبدو لى •

ثم أسرع يضيف بلهجة يُظهر بها اهتمامه الشديد بأشيائه المرهونة :

ـ على أننى لا أنوى استرداد أشيائى حالاً • فانتى لم يبق معى الا روبل واحد ••• ومردُّ هذا الى ذلك « الهذيان » اللعين الذى اعترانى أمس !

وقد نطق كلمة « الهذيان » هذه نطقاً فيه تأكيد واصرار •

فسرعان ما قال رازوميخين مزاوداً دون أن يدرى لماذا :

ـ نعم ، نعم ••• ذلك هو السبب اذن فى أنك ••• فى ذلك اليوم ••• آه ••• لشد ما فجأنى ذلك ••• انك ، أثناء هذيانك ، كنت لا تنقطع عن الكلام عن خواتم ، وعن سلاسل ، وعمّا لا أدرى أيضاً ••• آ ••• نعم •• اتضح الآن كل شىء •• اتضحت الأمور •• أصبح كل شىء واضحاً !••

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « هكذا قامت الفكرة فى أذهانهم اذن ونمت ••• ان هذا الرجل مستعد لأن يُصلب فى سبيلى ، ومع ذلك يشعر بسعادة عظيمة لأن السبب الذى جعلنى أتكلم أثناء الهذيان عن خواتم ، قد « اتضح » له الآن ! لقد ترسخت الفكرة فى أذهانهم جميعاً ! » •

ثم سأل صاحبه بصوت عالٍ :

ـ هل تعتقد أننا سنجده فى بيته ؟
فأسرع رازوميخين يجيبه قائلاً :

ـ سنجده ، سنجده ! انه شاب شهم يا صاحبى ... سوف ترى . صحيح أنه أخرق قليلاً ... وان يكن ممن يرتادون المجتمع الراقى .. على أننى أجده أخرق من ناحية أخرى ، بمعنى آخر ... انه شاب ذكى ، ذكى ، ليس بالغبى البتة ... ولكن لتفكيره مجرى غريباً بعض الغرابة . فهو كثير الشك والريب ، قوى الاشتباه والحذر ، شديد الاستخفاف والاستهتار ... يحلو له أن يضلّك ... لا أقصد أن يضلّك ، بل أن يخلق لك الأوهام ... الخلاصة : هو الأسلوب العتيق ... أسلوب الوقائع المادية ! ولكنه يجيد مهنته ... يتقنها !... فى السنة الماضية حقق فى قضية قتل كانت قد اختفت جميع آثارها . وهو يرغب كثيراً فى التعرف اليك ، يرغب فى ذلك كثيراً جداً .
ـ لماذا يرغب فى ذلك كثيراً ؟

ـ لا بسبب أن ... وانما لأننى ، فى الآونة الأخيرة ، أثناء مرضك ، اتفق لى أن حدثته عنك مراراً . فكان هو يصغى ... فلما علم أنك تدرس القانون ، وأنك لم تستطع أن تنهى دراستك بسبب الظروف ، قال : « خسارة ! ... فاستنتجت من ذلك ... أقصد ... من كافة هذه الأشياء مجتمعة ... لا من ذلك وحده ... وبالأمس ، قال زاميوتوف ... اسمع يا روديا ، أمس مساءً ، حين كنا عائدين الى بيتك معاً ، كنت أنا سكران جداً ، فلعلنى أسرفت فى الثرثرة ، فأرجو يا روديا أن لا تغلو فى حمل كلامى على محمل الجد .
ـ ماذا ؟ هم يعتقدون أننى مجنون ، أليس كذلك ؟ ولكن قد يكونون على حق .
قال راسكولنيكوف ذلك وضحك .

ـ نعم نعمْ ••• لا بل !••• دعك من هذا الكلام ! ان كل ما قلتُه (وسائر ما عداه أيضاً) ليس الا سخفاً ••• ليس الا ثمرة السكر !

صرخ راسكولنيكوف بغضب نصفه تصنع وتظاهر :

ـ ولكن علام تعتـذر ؟ أوه !••• ما أكثر ما تضجرنى وتزعجنى هذه الأمور كلها •

قال رازوميخين :

ـ أعرف ، أعرف ، أنا أفهم • ثق اننى أفهم • بل ان الكلام عن هذا كله عار !

ـ اذا كان الكلام عن هذا كله عاراً ، فلنكف اذن عنه !

صمت الاثنان• كان رازوميخين مفتوناً• وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك مشمئزاً • وكان من جهة أخـرى قلقـاً مما قاله له رازوميخين عن بورفير منذ هنيهة •

قال يحدث نفسه وقد شحب لونه وخفق قلبه : « لهذا الرجل أيضاً سيكون علىّ أن أشـكو الفقر ، وأن أظهر بمظهر من يستحق الشـفقة والرثاء ••• وأن أفعل ذلك بطريقة تبـدو طبيعيـة • ولكن الطريقـة الطبيعية هى أن لا أقول شيئاً البتة ، أن لا أقول شيئاً البتة ! ولكن لا ••• ان هذا أيضاً لن يبدو طبيعيـاً !••• على كل حال سـوف نرى كيف ستجرى الأمور ، وسوف نرى هل كان من الخير أن أذهب الى هناك أم لم يكن ذلك من الخير !••• الفراشـة تطير الى لهب الشـمعة من تلقاء نفسها • قلبى يخفق • هذا نذير سوء ! » •

قال رازوميخين :

ـ هنا ، فى هذه العمارة الرمادية •

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « النقطة الأساسية هى هذه :

هل بورفير على علمٍ بالزيارة التى قمت بها أمس لمسكن العجوز ، وهل هو على علمٍ بسؤالى عن الدم ؟ يجب علىّ أن أعرف هذا منذ أدخل ، من النظرة الأولى ، يجب أن أقرأه فى وجهه لحظة دخولى ، والا فان... لأعرفنّ هذا ولو هلكت ! » .

وقال يخاطب رازوميخين فجأة ، وهو يبتسم ابتسامة ماكرة :

ــ هل تعرف ماذا لاحظت عليك ؟ لقد لاحظت عليك منذ هذا الصباح ، يا صاحبى ، أنك مضطرب اضطراباً غير مألوف كثيراً . أأنا مخطىء ؟

أجاب رازوميخين مستاءً :

ــ أنا مضطرب ؟ لا لست مضطرباً البتة .

ــ دعك من هذا الكلام يا صاحبى ! الأمر واضح ! منذ قليل ، كنت جالساً على الكرسى كما لا تجلس عادةً . كنت جالساً على حافة الكرسى تماماً ، وكنت كمن أصيب بمغص . وكنت تثب من طرف أقصى الى طرف أقصى ، فتارةً تغضب، وتارة تجعل لسانك كالعسل حلاوة ! بل لقد كان وجهك يحمر احمراراً شديداً . وقد احمر وجهك خاصةً حين دُعيت الى الغداء . نعم ، اصطبغتَ بالحمرة حتى جذور شعرك .

ــ غير صحيح . أنت تكذب . الى ماذا تريد أن تغمز ؟

ــ أريد أن أغمز الى أنك خجول كتلميذ . ها ... هأنت ذا تحمر من جديد !

ــ يا للخنزير !

ــ ولكن علام هذا الاضطراب كله ؟ مسكين روميو ! اسمع : لن يفوتنى أن أتكلم عنك اليوم فى مكان ما . هاً هاً هاً ! سوف أُضحك أمى كثيراً ... وسوف أضحك شخصاً آخر أيضاً .

قال رازوميخين وقد طاش عقله وتجمد رعباً :

ـ اسمع ، اسمع ، هذا أمر خطير ، هذا ••• يا للعواقب !••• ما عساك قائلاً لهما ؟ أنا ••• يا صاحبي ••• آه ••• يا لك من خنزير !•••

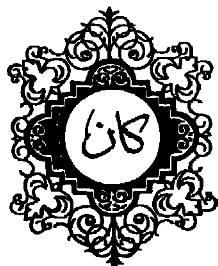
ـ وردة ، وردة من ورود الربيع حقاً ! ليتك تعلم كم يناسبك هذا ! روميو طوله ست أقدام ! ثم انك قد غسلت وجهك اليوم ، ونظفت أظافرك ، هه ؟ ذلك ما لم يحدث يوماً • ها ••• وها أنت ذا قد تدهنت وتطيبت ! هيّا اخفض رأسك لأرى ! يا لك من خنزير !

كان راسكولنيكوف يقول هذا الكلام وهو يضحك ضحكاً يبلغ من الشدة أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه • وعلى هذه الحال من الضحك الشديد انما دخل الشابان بيت بورفير بتروفتش • وذلك بعينه هو ما أراده راسكولنيكوف• من آخر البيت كان يمكن أن يُسمع دخولهما ضاحكين • وقد استمرا يضحكان وهما فى الدهليز •

همس رازوميخين يقول لراسكولنيكوف غاضباً وهو يقبض على كتفه :

ـ اياك أن تقول كلمة واحدة فى هذا الموضوع هنا ، والا هشّمت بوزك !

الفصل الخامس



كان راسكولنيكوف قد دخل الشقة . دخل دخول من يبذل كل ما يملك من قوة حتى لا ينفجر ضاحكاً . ودخل وراءه رازوميخين محمرّ الوجه ، أخرق الحركات ، متقبض القسمات من الغضب . كان وجهه فى تلك اللحظة ، بل كان شخصه كله مضحكاً حقاً ، يبرّر ما كان فيه راسكولنيكوف من قهقهة صاخبة . وقد انحنى راسكولنيكوف يحيى رب البيت حتى قبل أن يقدّم اليه . وكان رب البيت واقفاً فى وسط الغرفة يلقى على القادمين نظرة سائلة . ثم مدّ راسكولنيكوف اليه يده فصافحه ، وهو يبذل جهداً ظاهراً فى سبيل أن يكبح جماح مرحه ، وأن ينطق بالكلمات القليلة التى يوجبها التعارف . ولكنه ما ان أفلح فى اتخاذ هيئة الجد ، وفى أن يدمدم ببضع كلمات حتى عاد ينظر الى رازوميخين رغم ارادته ، فلم يستطع فى هذه المرة أن يصمد ، فاذا بضحكه يتدفق قوياً لا سبيل الى مغالبته ، لا سيما بعد أن كظمه مدة طويلة . فاذا بالغيظ الخارق الذى يستقبل به رازوميخين هذا الضحك « الصريح » يضفى على المشهد كله مظهر مرح طبيعى ، بل ومرح صادق . وقد فاقم رازوميخين مظهر المرح مزيداً من المفاقمة كأنما على عمد : ذلك أنه زأر يقول لراسكولنيكوف وهو يُجرى يده بحركة تنم على الغضب قائلاً :

ـ آ ... يا للشيطان الرجيم !

فاذا بالحركة التى أجراها تصدم منضدة عليها فنجان شاى فارغ ، فيطير كل شيء فى الهواء ، ويسقط على الأرض مقرقعاً .

هتف بورفير بتروفتش يقول مرحاً :

ـ لماذا تحطمون الأثاث يا سادة ؟ لماذا تلحقون أذى بالدولة ؟

اليكم وصف المشهد الذى كان يُرى فى تلك اللحظة: راسكولنيكوف يضحك ملء حنجرته تاركاً يده فى يد رب البيت ، ولكن دون أن يفقد حس القصد والاعتدال ، منتظراً اللحظة المناسبة التى سوف يستطيع فيها أن يسحب يده بسرعة وعلى نحو طبيعى . ورازوميخين قد هوى به سقوط المنضدة وتهشم الفنجان الى درك الخجل والاضطراب ، فألقى على الحطام نظرة سوداء ، وبصق على الأرض ، وابتعد نحو النافذة ، فلبث أمامها مديراً ظهره ، عابس الوجه مقطب الأسارير ينظر الى الخارج دون أن يرى شيئاً . وبورفير بتروفتش يضحك ويرغب فى الضحك ، لكنه ينتظر شروحاً بطبيعة الحال . وفى ركن من الأركان ، يجلس زاميوتوف على كرسى .

كان زاميوتوف ، حين دخل الزائران ، قد نهض ينتظر وانفرج فمه عن ابتسامة ، لكنه يبدو مدهوشاً مرتاباً ، ولاسيما ازاء راسكولنيكوف، فهو ينظر اليه الآن متفرساً بانتباه .

ان وجود زاميوتوف قد فاجأ راسكولنيكوف وأزعجه ، فقال يحدّث نفسه : « هذا عنصر آخر يجب أخذه فى الحسبان » .

وبدأ يتكلم فقال يعرّف بنفسه مصطنعاً الخجل :

ـ معذرةً ، أرجوك . اسمى راسكولنيكوف ...

قال بورفير بتروفتش يجيبه :

ـ لا داعي الى الاعتذار البتة ؟ انه لجميل جداً أنك دخلت على هذا النحو •

وأردف يقول مشيراً الى رازوميخين :

ـ هيه ! ما باله لا يريد حتى أن يحيّي ؟

قال راسكولنيكوف :

ـ حقاً لست أدرى ما سبب حنقه عليّ الى هذا الحد • كل مافعلته هو أنني قلت له أثناء الطريق انه أشبه بروميو ••• وبرهنت له على صدق قولي • لا شيء غير هذا • أو ذلك هو ما يخيّل اليّ على الأقل !

دمدم رازوميخين يقول شاتماً دون أن يلتفت :

ـ خنزير !

فقال بورفير ضاحكاً :

ـ لا بد أن هناك أسباباً خطيرة كل الخطورة تجعله يغضب هذا الغضب كله لكلمة بسيطة صغيرة !

فقال رازوميخين يقاطعه وقد أخذ يضحك هو أيضاً على حين فجأة :

ـ هيه ! اسكت أنت يا قاضي التحقيق ! ثم فلتذهبوا جميعاً الى الشيطان !

قال ذلك واقترب من بورفير بتروفتش مشرق الوجه منبسط الأسارير كأن شيئاً لم يحدث • وتابع كلامه فقال :

ـ نحن جميعاً حمقى في الواقع • اسمع : هذا صديقي روديون رومانوفتش راسكولنيكوف • انه أولاً ، من كثرة ما سمع عنك ، أراد أن يتعرف اليك ؟ وهو ثانياً يحب أن يحدثك في قضية صغيرة • هه !

زاميوتوف ؟ ماذا تفعل هنا ؟ أأنتما متعارفان اذن ؟ منذ متى ؟

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « ما معنى هذا أيضاً ؟ » .

ظهر الاضطراب على زاميوتوف ، ولكن اضطرابه لم يكن شديداً. وقال يجيب بلهجة طلقة :

ـ اننا تعارفنا أمس فى بيتك !

ـ اذن لقد أعفتنى العناية الالهية من جهد كان ينبغى أن أبذله . تصور يا بورفير أنه يلحّ ، منذ أسبوع ، الحاحاً شديداً على أن أعرّفك به . فهأنتما قد استغنيتما عنى ، فتعارفتما دون وساطة منى ... أين تبغك ؟

كان بورفير بتروفتش يرتدى ملابس البيت : ثوب منزل ، وقميصاً نظيفاً ، وبابوجين قديمين معقوفين . هو رجل فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ؛ مربوع القامة ؛ بدين الجسم ؛ له كرش ، حليق الوجه تماماً فلا شارب ولا لحية ؛ مقصوص الشعر على رأس ضخم مدوّر بارز القفا ؛ متورّم الوجه ، أفطس الأنف قليلاً ، أصفر اللون كأنه مريض، ولكن هيئته لا تخلو من تعبير عن الحيوية ، ولا عن المرح . حتى لقد كان يمكن أن يعبّر وجهه عن شىء من الطيبة لولا عيناه اللتان تنظر اليهما فترى فيهما اخضلالاً وبريقاً كبريق المعدن فى آن واحد ، وتكاد تحجبها أهداب يضرب لونها الى بياض ، وكأنهما من غمزهما المستمر ترسلان اشارات لا تنقطع . ان نظرة هاتين العينين تنافى سائر هيئته بعض المنافاة (وهى هيئة فيها شىء من أنوثة) وتجعل هذه الهيئة تبدو أميل الى الجد والجهامة مما قد يتوقعه المرء عند أول نظرة يلقيها عليه .

ما ان علم بورفير بتروفتش أن زائره يرغب فى أن يحدثه فى « قضية صغيرة » ، حتى رجاه أن يجلس على الديوان ، ثم جلس على

الطرف الآخر ، منتظراً عرض القضية ، مُظهراً أشدّ الاهتمام . ان مثل هذا الانتباه الصادر عن رجل لا تعرفه ، يبدو لك غير طبيعي ، بل ويُشعرك بشيء من الحرج والارتباك ، ولا سيما اذا كان ما ستقوله لا يستحق في رأيك هذا الانتباه ؟ ومع ذلك شرح راسكولنيكوف قضيته ببضع كلمات ، في دقة ووضوح ، فبلغ من رضاه عن نفسه أنه أُتيح له أن ينعم النظر في بورفير بتروفتش أثناء ذلك . وكان بورفير بتروفتش ، من جهته ، لا يحوّل بصره عن راسكولنيكوف دقيقة واحدة . وكان رازوميخين قد استقر أمامهما ، فهو يتابع عرض القضية بشغف عارم وصبر نافد ، متجهاً بنظراته الى هذا تارة ، والى ذاك تارةً أخرى ، وكان في هذا شيء من غلو طبعاً .

دمدم راسكولنيكوف يقول بينه وبين نفسه : « يا للأبله ! » .

أجاب بورفير بلهجة رسمية جداً :

ـ يجب عليك أن تبعث الى الشرطة بلاغاً تقول فيه انك وقد علمت بالنبأ ، نبأ مقتل العجوز ، تريد ابلاغ قاضي التحقيق المكلف بالقضية أن هذه الأشياء هي أشياؤك وأنك تريد استردادها . أو أن ... على كل حال ، سيكتبون اليك ...

قال راسكولنيكوف وهو يحاول أن يصطنع الخجل ما وسعه ذلك :

ـ ولكنني ... ولكنني ... في الوقت الحاضر ... لا أملك مالاً ... فحتى هذه الأشياء التافهة التي لا قيمة لها لا أستطيع أن ... كل ما أريده الآن هو أن أصرّح بأن هذه الأشياء لي ، وبأنني متى أصبح معي مال سوف ...

أجاب بورفير بتروفتش مستقبلاً هذه الايضاحات المالية ببرودة :

ـ ليس لهذا من قيمة . تستطيع على كل حال أن تكتب اليّ رأساً

اذا أردت فتقول : لما كنت قد علمت كيت وكيت ولما كانت الأشياء كذا وكذا هي أشيائي ، فانني أرجوكم أن ... الخ .

فأسرع راسكولنيكوف يسأله ، مظهراً بذلك اهتمامه بالناحية المالية من جديد :

ـ أأكتب هذه العريضة على ورق عادي ؟

ـ نعم نعم ، على ورق عادي ...

أجابه بورفير بتروفتش بهذا ، ثم نظر اليه على حين فجأة نظرة فيها سخر صريح ، غامزاً بعينيه كأنه يقول له ان أسلوبه هذا لا يخفى على ذكائه . على أن من الجائز أن لا يكون ذلك الا احساساً خالج راسكولنيكوف ، لأن الغمزة لم تدم الا لحظة قصيرة كومض البرق . ومع ذلك لا بد أن الغمزة كانت تشتمل على شيء من هذا المعنى . ومهما يكن من أمر ، فان راسكولنيكوف مستعد لأن يحلف أغلظ الايمان على أن بورفير قد غمز ... فاذا بكلمتين تومضان في ذهنه بسرعة شديدة ، فيقول لنفسه : « انه يعلم ! » .

وتابع كلامه يقول وقد خارت همته قليلاً :

ـ اغفر لي ازعاجك بهذه الترّهات ... صحيح أن هذين الشيئين اللذين كانا مرهونين عند العجوز لا تساوى قيمتهما أكثر من خمسة روبلات ، ولكنى أحرص عليهما حرصاً شديداً ، لأنهما تذكار من واهبيهما ؛ اعترف لك بانني ذُعرت أشد الذعر حين علمت أن ...

قال رازوميخين متعمداً وهو يبيّت نيةً واضحة :

ـ الآن فهمت ! ذلك هو السبب في أنك انتفضت أمس حين كنت أثرثر أنا مع زوسيموف فقلتُ له ان بورفير يستجوب الأشخاص الذين كانوا قد رهنوا أشياء عند العجوز .

طفح الكيل عنـدئذ ٠ فهذا هو راسـكولنيكوف يخرج عن
فيلقى على رازوميخين نظرة سوداء تشـتعل غضـباً ٠ ولكنه لم يد
سيطر على نفسه فوراً، ثم قال له بحنق أحسن اصطناعه فى حذق و

ـ يا عزيزى ، يخيـّل الىّ أنك تسخر من عقلى ٠ انا أوافق
أننى أسرف قليلاً فى الاهتمام بأشياء هى فى نظرك تافهة لا قيمة
ولكن هذا ليس سبباً يدعو الى اعتبارى أنانياً أو بخيلاً ، لأن هذه
التافهة فى نظرك قد لا تكون تافهة فى نظرى أنا ٠ لقد قلت لك من
ان تلك الساعة الفضية التى لا قيمة لها هى الشيء الوحيد الذى بقى
أبى ٠ فاسخر منى ما شئت أن تسخر ، ولكن أمى قد وصلت (وهن
راسكولنيكوف نحو بورفير فجأة) ، فاذا علمت (استأنف راسكوا
كلامه وهو يعود الى رازوميخين مسرعاً ويحاول أن يجعل صوته
مرتجفـاً) فاذا علمت أن هذه السـاعة قد فُقدت ، فسـوف تهو
حضيض الكرب واليأس ٠ هكذا خُلقت النساء !

هتف رازوميخين يقول بمرارة :

ـ ولكننى لم أقصد هذا قط ! أنا لم أقل ما قلته بهذا المعنى
نقيض ما أردت أن ٠٠٠

تساءل راسكولنيكوف مهموماً مغموماً : « هل نجح هذا الأس
هل كان كلامى طبيعياً ؟ ألم أبالغ ؟ لماذا قلت : هكذا خلقت النساء

قال بورفير بتروفتش يسأل لسبب من الأسباب :

ـ آ ٠٠٠ وصلت أمك ؟

ـ نعم ٠

ـ متى ؟

ـ مساء أمس ٠

وصمت بورفير كأنه يفكر • ثم أردف يقول بهدوء ، ببرود :

ـ أشياؤك لا يمكن أن تُفقد بحال من الأحوال • ثم انني كنت أنتظرك منذ مدة طويلة •

قال بورفير ذلك ، ثم التفت نحو رازوميخين وكأنه لم يحدث شيء ، فمدَّ اليه منفضة سجائر ، لأن رازوميخين كان يهزُّ سيجارته بغير شفقة فيسقط رمادها على السجادة •

ارتعش راسكولنيكوف ، ولكن بورفير الذى كان مشغولاً بسيجارة رازوميخين ، كان يبدو عليه أنه لا يلاحظه •

صرخ رازوميخين سائلاً :

ـ كيف ؟ كنت تنتظره ؟ أكنت تعرف اذن أن له رهوناً « هناك » هو أيضاً ؟

فاتجه بورفير الى راسكولنيكوف رأساً وقال له :

ـ كان رهناك ، الخاتم والساعة ، موجودين « عندها » ، ملفوفين بورقة واحدة ، وقد كُتب اسمك على الورقة واضحاً بقلم الرصاص ، كما سُجِّل على الورقة تاريخ الرهن أيضاً •

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكاً أخرق ، ويحاول خاصةً أن ينظر الى عيني بورفير :

ـ ما أقوى ذاكرتك !

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن أن يضيف قائلاً على حين فجأة:

ـ لئن أبديت هذه الملاحظة ، فلأن هناك اشخاصاً كثيرين جداً قد رهنوا أشياء ••• فلا بد أن يصعب تذكر أسمائهم جميعاً ••• أما أنت فانك تتذكرهم تذكراً واضحاً ، واضحاً ، و ••• و •••

ثم قال لنفسه : « ما أغبانى ! ضعيف جداً ! لماذا أضفت هذا الكلام ؟ » •

أجابه بورفير بشيء من سخر طفيف لا يكاد يلاحَظ :

ـ ولكن جميع أولئك الأشخاص أصبحتُ أعرفهم ، وأنت الشخص الوحيد الذى لم يطالب بأشيائه حتى الآن •

ـ ذلك أننى كنت مريضاً •

ـ هذا أيضاً سمعت عنه • بل لقد سمعت كذلك أنك كنت قلقاً مضطرباً من شيء ما • ثم انك ما زلت تبدو شاحباً •

ـ لست شاحباً البتة • بالعكس : صحتى الآن حسنة جداً •

كذلك ردّ راسكولنيكوف بفظاظة وشراسة ، وقد تغيرت لهجته فجأة • لقد غلى الغضب فى نفسه ، فأصبح لا يستطيع كبحه •

وقال يحدث نفسه من جديد : « هذا الغضب هو الذى سيفضحني! ولكن لماذا يعذبوننى هذا التعذيب ! » •

عاد رازوميخين يتكلم فقال :

ـ صحتك جيدة جداً ! اسمعوا هذا الكلام ! كان حتى أمس لا يكاد يعى ، وكان يهذى ! هل تصدق يا بورفير أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه ، فما أن أدرنا ظهورنا ، أنا وزوسيموف ، حتى ارتدى ثيابه وتسلل خلسةً ليمضى يتسكع لا أدرى أين ، الى منتصف الليل ، أو الى منتصف الليل تقريباً ، وهو فى حالة هذيان كامل ؟ هل تستطيع أن تتخيل شيئاً كهذا يا بورفير ؟ أمر غريب !

قال بورفير بتروفتش وهو يهزُّ رأسه بحركة من الحركات التى تجريها النساء :

ـ حقاً ؟ فى « حالة هذيان كامل » ؟ غريب !•••

وأفلت لسان راسكولنيكوف يقول غاضباً أشد الغضب :

ـ هذا سخف ! لا تصدقه !

ولكن بورفير بتروفتش بدا كأنه لم يسمع هذه الأقوال العجيبة !

قال رازوميخين وقد تحمس مزيداً من الحماسة على حين فجأة :

ـ ولكن هل كان يمكن أن تخرج لولا أنك كنت فى حالة هذيان؟ ولماذا خرجت ؟ ماذا كان هدفك من الخروج ؟ ولماذا خرجت خفيةً ؟ انك لم تكن تملك عقلك ! أستطيع أن أقول لك هذا الآن وقد زال كل خطر!

قال راسكولنيكوف متجهاً بالكلام الى بورفير وهو يبتسم ابتسامةً فيها وقاحة وتحد :

ـ لقد أرهقونى أمس ارهاقاً فظيعاً ، فهربت لأستأجر مسكناً آخر لا يستطيعون أن يعثروا عليّ فيه ؛ وحين خرجت حملت كل ماكنت أملكه من مال . وقد رأى زاميوتوف ذلك المال . يا سيد زاميوتوف ، أكنت بالأمس سليمَ العقل أم لا ؟ عليك أنت أن تحسم النقاش .

لو استطاع فى تلك اللحظة أن يخنق زاميوتوف لما تردّد فىذلك. كانت نظرة زاميوتوف وكان صمته يؤلمانه أشد الألم ، ويغيظانه أعظم الغيظ .

قال زاميوتوف يجيبه بجفاف :

ـ فى رأيى أنك كنت تتكلم كلام انسان عاقل جداً ، بل وكلام رجل حاذق جداً ... كل ما هنالك أنك كنت سريع الاهتياج والغضب.

وقال بورفير بتروفتش مقاطعاً :

ـ واليوم ذكر لى نيكوديم فومتش أنه لقيك أمس ، فى ساعة متأخرة ، بمنزل موظف داسته عربة .

فقال رازوميخين يستأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف :

ـ نعم ، لننظر فيما فعلته في بيت ذلك الموظف مثلاً : ألم تتصرف تصرف رجل مجنون هناك ؟ لقد أعطيت أرملته كل ما كان معك من مال لدفع نفقات الجنازة . أفما كان في وسعك ، اذا أنت حرصت حرصاً مطلقاً على مساعدتها ، أن تعطيها خمسة عشر روبلاً أو حتى عشرين روبلاً ، أو أن تحتفظ لنفسك بثلاثة روبلات في أقل تقدير ؟ ولكنك لم تفعل هذا ، بل جدت عليها بكل ما تملك : خمسة وعشرين روبلاً !

ـ ولكن لعلني عثرت في مكان ما على كنز . مايدريك ؟ ولهذا كنت كريماً ذلك الكرم كلّه بالأمس . ان السيد زاميوتوف يعلم أنني وجدت كنزاً ! اغفر لنا يا بورفير بتروفتش (قال ذلك لبورفير بتروفتش مختلج الشفتين) اغفر لنا ازعاجك بمثل هذه السفاسف طوال نصف ساعة ! نحن نضجرك ، أليس كذلك ؟

ـ بالعكس ، بالعكس ! ليتك تعلم كم يهمني أمرك ويشوقني حديثك ! انها لمتعة عظيمة أن يراك المرء وأن يصغي اليك ... أعترف لك أنني شديد السرور بأنك قررت أخيراً أن تقدم الي طلباً .

هتف رازوميخين يقول لبورفير :

ـ هيه ! هلاّ قدمت الينا شيئاً من الشاي على الأقل ! لقد جفّ حلقي تماماً !

ـ هذه فكرة رائعة ، ولعل سائر الصحب يوافقونك عليها ! ولكن ألست تحب أن تصيب قبل الشاي شيئاً أدنى الى سدّ الجوع واقامة الأود؟

ـ هيّا ...

وخرج بورفير ليأمر بالشاي .

كانت الخواطر تعصف فى رأس راسكولنيكوف كالاعصار . وكان مهتاجاً أشد الاهتياج .

قال يحدث نفسه : « أنكى ما فى الأمر أنهم لا يخفون ولا يكتمون، أنهم لا يتحرجون ! كيف حدث، وأنت لا تعرفنى بعد، أن تتحدث عنى مع نيكوديم فومتش ؟ معنى ذلك أنهم لا يحاولون حتى أن يخفوا أو يكتموا، وأنهم يطاردوننى جميعاً كما يطارد الفريسةَ سربٌ من كلاب الصيد ! انهم يبصقون فى وجهى صراحةً ! (كذلك قال لنفسه وهو يرتجف من شدة الغضب) . ما بالكم لا تكونون صريحين ! لماذا تلعبون معى لعبة القط والفأرة ؟ حقاً ان هذا لمن قلة الأدب يا بورفير بتروفتش ! ولعلنى لن أسمح به بعد الآن !... لسوف أنهض واقفاً، فأرميكم بالحقيقة كلها صفعاً على وجوهكم . ولسوف يرون عندئذ مدى الاحتقار الذى أحمله لهم ! » .

دارت هذه الخواطر فى رأس راسكولنيكوف وهو يجد فى التنفس مشقة كبيرة . تابع يحدث نفسه : « ولكن ألا يمكن أن يكون هذا كله احساساً باطلاً، وهماً من أوهام الخيال، سراباً لا أكثر ؟ ألا يمكن أن أكون مخطئاً فى الحكم على الأمر كله من أوله الى آخره، وأن لا يكون غضبى ناشئاً الا عن نقص الخبرة وقلة التجربة وعن عجزى عن تمثيل دورى الساقط ؟ لعلهم يقولون كل ما يقولونه بدون فكرة مبيتة أو نية سيئة !... لا، ان كل ما يقولونه عادى، ولكن المرء يحس وراء كل كلمة من كلماتهم ... صحيح أن من الممكن أن يتكلم جميع الناس بهذه الطريقة وهذا الأسلوب، ولكن لا بد أن هؤلاء يضمرون أشياء يلمعون اليها الماعاً . لماذا قال كلمة « عندها » بالحاح خاص ؟ ولماذا قال زاميوتوف اننى كنت أتكلم كلام رجل « حاذق » ؟ لماذا يخاطبوننى بهذه اللهجة ؟ نعم، هى اللهجة .. ورازوميخين موجود، هو موجود، فلماذا لا يشتبه

فى شىء ؟ لماذا لا يخطر شىء ببال هذا الأبله ؟ ها هى ذى الحمى تعترينى من جديد ! هل غمزنى بورفير بعينه منذ لحظة أم هو لم يغمزنى ؟ ترى لماذا وجّه الىّ تلك الغمزة ؟ أتراهم لا يريدون الا أن يثيروا أعصابى وأن يخرجونى عن طورى ؟... اما أن ذلك كله ليس الا سراباً ، واما أنهم « يعرفون » ... ولكن زاميوتوف وقح ! هل زاميوتوف وقح ؟ لا بد أنه فكّر طويلاً أثناء الليل . كنت أوجس أنه سيفكر ! هو هنا كأنه فى بيته . بورفير لا يعده ضيفاً . هو يجلس مديراً ظهره لبورفير ! انهما متواطئان . و « علىّ » تواطؤهما ! لا شك فى أنهما كانا يتكلمان عنى أنا قبل وصولنا . هل يعرفان أننى ذهبت أرى الشقة ؟ ليتنى أعلم هذا بسرعة ، بسرعة ! حين قلت اننى هربت أمس مساءً لأبحث عن شقة استأجرها ، فان بورفير لم يفطن الى أقوالى . نعم ، لقد دسست مسألة الشقة هذه بحذق . سوف يفيدنى هذا فى المستقبل !... فى حالة هذيان ... هأ هأ هأ !... ولكنه يعرف كل ما فعلته أمس . كان يجهل أن أمى وصلت ! وقد سجّلت العجوز تاريخ الرهن بقلم الرصاص ! أنت تكذب ، لن أُسلم نفسى ! ما هذه بوقائع على كل حال . سراب لا أكثر ! ومع ذلك تذكرون هذا كله على أنه وقائع ! والشقة نفسها ليست واقعة ، وانما هى هذيان ! ألا اننى أعرف ماذا سيجب علىّ أن أقول لهم ! أهم يعرفون ما حدث في الشقة ؟ لن أنصرف قبل أن أعرف هذا. لماذا جئت ؟ هأنا ذا أغضب الآن ! هذه واقعة ، هذه ! أوه ... ما أشد اهتياجى وما أسرع غضبى ! ولكن لعل هذا أفضل ... فاننى بذلك أمثل دور المريض ... سيحاول أن يهيجنى ... أن يشوش أفكارى . لماذا جئت ؟... » .

ذلك كله ومض فى ذهن راسكولنيكوف سريعاً كالبرق .

وعاد بورفير بعد لحظة . انه يبدو الآن مرحاً جداً .

قال يخاطب رازوميخين ضاحكاً ، بلهجة مختلفة كل الاختلاف عن اللهجة التى كان يتكلم بها منذ قليل :

ـ هل تعرف يا صاحبى أننى بعد سهرة الأمس فى بيتك الجديد ، أخذ رأسي يدور ، واننى ما زلت الى الآن ...

ـ كانت سهرة شائقة ، أليس كذلك ؟ لا تنس أننى تركتكم فى أجمل لحظة . من الذى انتصر ؟

ـ لم ينتصر أحد طبعاً . لقد أخذوا يتناقشون فى مشكلات أبدية ، وحمى وطيس المناقشة !...

ـ تصور يا روديا انهم اندفعوا يتجادلون فى هذا الموضوع : أهناك جرائم أم ليس هناك جرائم؟ يا للسخافات التى قالوها !... شيء فظيع..

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة عادية يقول :

ـ هذه مسألة اجتماعية عادية جداً ، مع ذلك !

وتدخل بورفير فقال :

ـ غير أن السؤال لم تكن هذه صيغته .

فأسرع رازوميخين يعترف قائلاً وقد اشتعلت حماسته على عادته :

ـ صحيح . لم تكن هذه صيغته تماماً . اسمع يا روديا ، اسمع وقل لى رأيك . أنا حريص على معرفة رأيك . لقد اندفعت أمس معهم بانتظار وصولك . وكنت قد أعلنت لهم جميعاً أنك آت . بدأت المناقشة بوجهة نظر الاشتراكيين . معروفة وجهة نظر الاشتراكيين . الجريمة احتجاج على تنظيم اجتماعى غير سليم . ليست الجريمة شيئاً غير هذا . ليس هناك أى باعث آخر على الجريمة .

صاح بورفير بتروفتش يقول :

ـ هأنت ذا تعود الى الافتراء !

كان بورفير بتروفتش ينتعش انتعاشـاً واضحـاً ، ولا يكف عن الضحك وهو يلاحظ رازوميخين ، فكان ذلك يزيد هياج رازوميخين .

وتابع رازوميخين كلامه يقول محموماً :

ـ نعم ، ليس هنـاك أي باعث آخـر ، في نظر الاشـتراكيين . أنا لا أفترى . سوف أريك كتبهم . هم يرون أن كل شيء ، أن كل شيء على الاطلاق ، انما مردُّه الى « جو البيئة السيء » ، لا أكثر من ذلك . نعم ، هذا هو تعبيرهم المفضَّل . وليس هناك الا خطوة واحدة بين هذا القول وبين الاعتقاد بأن جميع الجـرائم ستزول دفعـةً واحدة متى نُظم المجتمع تنظيماً سليمـاً . فمتى زالت أسـباب الاحتجـاج ، أصبح جميع الناس « صالحين » من تلقاء أنفسـهم . ان الاشـتراكيين لا ينظرون الى الطبيعة بعين الاعتبار ، بل يسـقطونها من الحسـاب . هم لا يرون أن الانسانية هي التي ستصل من تلقاء ذاتها ، بتطور تاريخي « حي » ، الى أن تصبح مجتمعاً سليماً ، وانما يتصورون نظاماً اجتماعياً سوف يخرج من رأس عالم رياضي لا يدري أحد ما هو ، فاذا هو ينظم النوع الانساني بأسره في طرفة عين ، ويجعله صالحاً مبرأً من كل خطيئة ؟ وذلك طبعاً في خارج أي تطور تاريخي ، حيـاني ، حي . هذا هو السبب في أنهم بغريزتهم يكرهون التاريخ : « ليس التاريخ الا أهوالاً كريهة وحماقات حقيرة » . هذا ما يقولونه . وهم يفسّرون كل شيء بالحمـاقة . وذلك هو السبب في أنهم يكرهون تطور الحياة تطوراً حيـاً ، وينادون خاصةً بأن : « لا نفوس حية » !... ان النفس الحية تتطلب الحيـاة ، فالنفس الحية لا تخضع للميكانيكا ، النفس الحية ريّابة ، النفس الحية رجعيـة ! لذلك تراهم يصنعون نفساً من كاوتشوك ينبعث منها نتن الموت ، ولكنها ليست حيةً على الأقل ، يصنعون نفساً طيّعة ذليلة لا تتمرد ! كل ذلك

فى سبيل أن يصلوا الى حيث قادونا : الى تلك المجموعة من الآجر ، المقسّمة ممرات وغرفاً ، التى يسمونها «تعاونية» ! * ان تعاونيتهم هذه جاهزة ، والطبيعة وحدها هى التى لم تصبح جاهزة بعد ، لأنها تقتضى الحياة ، لأنها لم تفرغ بعد من التطور الحياتى، لأنها لم تتأهب بعد للمقبرة! ألا ان المنطق وحده لا يمكن أن يجعلنا نثب فوق الطبيعة ونتخطاها . ان المنطق يتصور ثلاث حالات ، مع أن الحالات ملايين ! أفنحذف هذه الملايين كلها باسم قضية الرخاء وحدها ؟ لا شك أن حلّ المشكلة بهذه الطريقة هو أسهل الحلول ! كل شيء واضح : لم تبق حاجة الى التفكير ! ذلك مغر جذاب . فانما المهم أن لا نفكر . وفى الامكان بعد ذلك أن نحصر سر الحياة كله فى ورقتين مطبوعتين !

قال بورفير ضاحكاً :

ـ ها هو ذا يندفع . يجب تكبيله !

ثم أضاف يقول ملتفتاً نحو راسكولنيكوف :

ـ تصوّر أن هذا نفسه هو ما حدث أمس ... وذلك فى غرفة تعلو فيها خمسة أصوات أو ستة ... وكان قد سقانا فوق ذلك حتى سكرنا . هل تتصور ما حدث ؟ لا يا صاحبى ، أنت مخطىء ... ان « للبيئة » دخلاً كبيراً فى الجريمة . أستطيع أن أؤكد لك ذلك .

ـ أعرف أن للبيئة دخلاً كبيراً فى الجريمة . ولكن قل لى : هب رجلاً فى الأربعين قد اغتصب بنتاً فى العاشرة ، فهل البيئة هى التى دفعته الى ارتكاب هذه الجريمة ؟

قال بورفير برصانة تثير الدهشة :

ـ بالمعنى الدقيق للكلمة ، يجوز أن نقول ان البيئة هى التى دفعته

الى ذلك . نعم ، ان اغتصاب بنت صغيرة يمكن جداً أن يعلَّل بالتأثير الذى تحدثه البيئة .

كاد رازوميخين أن يستعر غضبه استعاراً رهيباً . وزأر يقول :

ـ هذا هراء . وبمثل هذا الهراء أستطيع أن « أبرهن » لك على أن السبب فى أن أهدابك بيضاء هو أن ناقوس* كنيسة القديس يوحنا بموسكو يبلغ علوه مائتين وثلاثين قدماً ، وأن أبرهن لك على ذلك بوضوح ، وجلاء ، وأن أبرهن عليه برهاناً فيه تقدمية ، بل وفيه ليبرالية. أتريد أن أبرهن لك على ذلك ؟ هل تراهن على أننى قادر أن أفعل ؟

ـ افعل ! سوف نرى كيف تستطيع أن تفعل !

ـ هتف رازوميخين يقول وهو ينهض بوثبة واحدة ، ويحرّك يده باشارة تنم على الأسف والمضض :

ـ ما أشدّ ولعه بالتمثيل والعبث ! لا حاجة الى الكلام معك ، لا داعى الى هذا العناء ! ذلك أنه يفعل هذا عامداً ، أنت لا تعرفه بعد يا روديا ! ولقد تحيَّز أمس لهم ، ليسخر منهم ويعبث بهم ! الله يعلم ماذا قال لهم أمس ! وما كان أشد سرورهم برؤيته منحازاً الى صفهم ! انه قادر على أن يظل يمثّل خمسة عشر يوماً بغير انقطاع . فى السنة الماضية ، روى لنا ، لسبب من الأسباب ، أنه سيصبح راهباً ، وظل يخدعنا بهذه القصة شهرين كاملين . ومنذ مدة قصيرة ، أوهمنا بأنه سيتزوج ، وقال انه هيأ للاحتفال كل شيء حتى لقد أوصى ببدلة جديدة، وصدّقناه نحن وأخذنا نهنئه . فماذا كان ؟ لم يكن هناك خطيبة ، لم يكن هناك شيء البتة : سراب لا أكثر !

ـ أنت تكذب ! لقد أوصيت بالبدلة الجديدة أولاً ، والبدلة الجديدة هى التى أوحت الىّ بفكرة تضليلكم جميعاً !

سأله راسكولنيكوف باهمال :

ـ أأنت تحب التغرير بالناس كل هذا الحب حقاً ؟

ـ أكنت تظن غير ذلك ؟ انتظر اذن ، فسوف ترى أنت أيضاً . هأ هأ هأ ! ولكن اسمع ، سأقول لك الحقيقة كلها : ان جميع هذه المسائل التى دار عليها الحديث ، كمسألة الجريمة ، ومسألة البنات الصغيرات ، ومسألة « البيئة » ، قد ذكرتنى بمقالة لك منشورة ، مقالة شاقتنى دائماً على كل حال ، وعنوانها : « فى الجريمة » ... أو شىء من هذا القبيل ... لا أذكر الآن . لقد أتيح لى منذ شهرين أن أستمتع بقراءة تلك المقالة فى مجلة « القول » الدورية .

هتف راسكولنيكوف يقول مدهوشاً :

ـ مقالتى ؟ فى مجلة « القول » الدورية ؟ صحيح أننى ، منذ ستة أشهر ، بعد تركى الجامعة ، كتبت مقالة عن كتاب كان قد صدر منذ مدة قصيرة ، ولكننى بعثت بالمقالة الى مجلة « القول » الأسبوعية ، لا الى مجلة «القول» الدورية .

ـ لكنها نشرت فى « مجلة القول الدورية » .

ـ لعل المجلة الأسبوعية لم تنشره فى ذلك الحين لأنها توقفت عن الصدور ؟

ـ نعم . ولكنها حين توقفت عن الصدور قد انصهرت فى مجلة « القول » الدورية ؛ وذلك هو السبب فى أن مقالتك قد نشرت فى المجلة الدورية منذ شهرين ؟ أكنت تجهل ذلك ؟

كان راسكولنيكوف يجهل ذلك فعلاً .

قال له بورفير بتروفتش :

ـ غريب . انك تستطيع أن تطالب المجلة بأجرك عن المقال .

ما أعجب طبعك ! أنت تعيش اذن فى عزلة كاملة فتجهل حتى الأمور التى تتصل بك من قرب • هذا واقع •

هتف رازوميخين يقول :

ـ مرحى روديا ! أنا أيضاً كنت أجهل هذا ! سأركض فى هذا اليوم نفسه الى قاعة مطالعة ، فأطلب المقالة • هل ظهرت منذ شهرين ؟ ولكن فى أى يوم على وجه الدقة ؟ لا بأس ، سأجدها على كل حال • هذه حكاية حقاً • أتنشر مقالة ولا تذكر عن ذلك شيئاً ؟

ـ ولكن كيف عرفت أن المقالة لى • أنا لم أوقّعها الا بالحروف الأولى •

ـ عرفت ذلك عرضاً وعرفته فى الآونة الأخيرة فقط ، بفضل رئيس التحرير الذى أعرفه • وقد شاقتنى المقالة كثيراً ، وأثارت اهتمامى •

ـ أذكر أننى حلّلت فى تلك المقالة الحالة النفسية التى يكون عليها القاتل طوال مدة الجريمة •

ـ نعم ، كنت تقول ان تنفيذ الجريمة يُصحب دائماً بحالة نفسية مرضية • وجهة نظر أصيلة ، أصيلة جداً ••• ولكن هذا الجزء من مقالتك ليس هو الجزء الذى أثار اهتمامى أكثر من غيره ، وانما أثارت اهتمامى فكرة دسستها فى نهاية المقالة ، ولم تتلبث عليها طويلاً ، وانما أشرت اليها اشارة سريعة من سوء الحظ • وقد أردت أن تقول ، اذا كنت تتذكر ذلك ، أن على الأرض أناساً يستطيعون ••• لا يستطيعون فحسب ••• بل لهم كذلك حق مطلق فى أن يرتكبوا جميع أنواع الأفعال الشائنة والجرائم ، وانه لا قيمة لأى قانون بالنسبة الى هؤلاء الناس •

ابتسم راسكولنيكوف ازاء هذا الكلام الذى يؤول فكرته تأويلاً مراوغاً .

سأل رازوميخين بنوع من الذعر :

ـ ماذا ؟ ما هو الموضوع ؟ الحق فى ارتكاب الجريمة ؟ ولكن لا بسبب « البيئة » على كل حال ، هه ؟

فأجابه بورفير :

ـ لا ، لا ، انك لم تفهم المقصود ؟ المسألة فى تلك المقالة هى أن الناس فئتان : فئة العاديين ، وفئة الخارقين . فأما « العاديون » فيجب أن يعيشوا طائعين خاضعين ، وليس لهم حق فى مخالفة القانون ، وذلك لأنهم عاديون . وأما « الخارقون » ، فيحق لهم أن يرتكبوا جميع الجرائم وأن يخالفوا جميع القوانين ، وذلك لأنهم « خارقون » . أكان هذا رأيك أم تراني مخطئاً ؟

دمدم رازوميخين يقول :

ـ ولكن كيف ؟ ليس من الممكن ... أن يكون الأمر كذلك ...

وابتسم راسكولنيكوف ابتسامة ساخرة من جديد . لقد أدرك فوراً ما الذى يريد أن يبلغه بورفير ، ما الذى يريد أن يستدرجه اليه أو أن يستخرجه منه . وكان يتذكر مقالته . وقرر أن يرد على التحدى بمثله.

بدأ يتكلم فقال بلهجة بسيطة متواضعة :

ـ ليس هذا ما أردت أن أقوله على وجه الدقة . على أننى أعترف بأنك عرضت فكرتى عرضاً أميناً ، بل وأميناً كل الأمانة اذا شئت (كأنه كان يسره أن يوافق على أن فكرته قد عُرضت عرضاً أميناً كل الأمانة). والفرق الوحيد هو أننى لم أقطع بأن جميع الخارقين يجب عليهم أن يرتكبوا دائماً جميع أنواع الجرائم كما تقول . ولو قد فعلت ذلك لمنعت

الرقابة نشر المقالة فيما يخيّل الىّ • كل ما أوحيت به هو أن الانسان الخارق يملك الحق ••• لا الحق الرسمي بل الحق الشخصي في أن يأذن لضميره بتخطى بعض الحواجز ••• وذلك في حالة واحدة هي الحالة التي يتطلب فيها تنفيذ فكرته هذا التخطي (وهي فكرة قد يتوقف عليها سلام النوع الانساني) • أنت تدعي أن مقالتي غير واضحة ، فأنا مستعد لأن أشرحها لك في حدود الامكان • ولعلني لا أخطىء اذ افترض أن هذه هي رغبتك • فليكن لك ما تشاء !•• في رأيي أنه لو كانت اكتشافات كبلر أو نيوتن ، بسبب تضافر ظروف معينة ، ما كان لها أن تتحقق الا اذا ضُحّي في سبيلها بحياة فرد أو عشرة أفراد أو مائة فرد بل بحياة عدد من الأفراد أكبر يعيقون تحقيقها أو يقفون حائلاً دونها ، فانه يكون من حق نيوتن بل ومن واجبه ••• أن « يزيح » أولئك الأفراد العشرة أو المائة في سبيل أن ينفع الانسانية باكتشافه • ولكن ليس يترتب على هذا قط أن من حق نيوتن أن يقتل اى انسان يحلو له أن يقتله ، ولا أن يسرق كل يوم من أحد الأسواق • وأذكر أنني أوضحت في مقالتي أن جميع المؤسسين والمشرّعين في تاريخ الانسانية ، من أقدمهم الى أحدثهم ، مروراً بأمثال ليسورجوس وسولون ومحمد ونابليون وغيرهم ، يمكن أن يوصفوا جميعاً بأنهم مجرمون ، لأنهم حين أقاموا قانوناً انما خالفوا بذلك نفسه قانوناً قديماً كان يُعدُّ مقدساً وكان موروثاً عن الأسلاف ؛ وما كان لهم طبعاً أن يمتنعوا عن سفك الدم (مهما يكن بريئاً في بعض الأحيان ، ومهما يكن قد بُذل بذلاً بطولياً في سبيل القانون القديم) حين يسهّل سفك هذا الدم مهمتهم ؛ بل ويحسن أن نلاحظ أن أكثر هؤلاء الرواد الذين أحسنوا الى الانسانية وأصلحوا المجتمع انما كانوا أناساً شاذين دمويين • وأوجز فأقول انهم جميعاً ، لا أعظمهم فحسب بل الذين يعلون أقل علوٍ فوق الحد الوسط أيضاً ، أي الذين

قادرين ولو قدرة يسيرة على التعبير عن أفكارهم الجديدة ، انما كانوا مضطرين بحكم طبيعتهم نفسها الى أن يكونوا قتلة ، قليلاً أو كثيراً طبعاً ؛ ولولا ذلك لما استطاعوا أن يخرجوا عن الحد الوسط ، وهم بحكم طبيعتهم أيضاً ما كان لهم أن يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط ؛ بل وفي رأيي أنه كان من واجبهم أن لا يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط .
الخلاصة : ها أنت ذا ترى أنه ليس فيما قلته حتى الآن شيء جديد كل الجدة . أما عن تقسيمي الرجال الى فئتين ، فئة العاديين وفئة الخارقين ، فانني أوافق على أن في هذا التقسيم شيئاً من التحكم ، ولكنني لم أقدم أرقاماً أيضاً . وأنا انما أومن بفكرتي الرئيسية ، وهي أن الرجال ينقسمون ، بحكم قوانين الطبيعة ، الى فئتين ، « بوجه عام » : فئة دنيا هي فئة العاديين الذين لا وجود لهم الا من حيث أنهم مواد ان صح التعبير ، وليس لهم من وظيفة الا أن يتناسلوا ، وفئة عليا هي فئة الخارقين الذين أوتوا موهبة أن يقولوا في بيئتهم « قولاً جديداً » . ولا شك أن هناك تقسيمات فرعية لا حصر لعددها ، ولكن السمات المميزة التي تفصل هاتين الفئتين قاطعة . فأما الفئة الأولى ، وهي فئة المواد ، فان افرادها ، على وجه العموم ، أناس « خُلقوا محافظين » ، أناس معتدلون يعيشون في الطاعة ويحلو لهم أن يعيشوا في الطاعة . وعندي أن عليهم أن يطيعوا ، لأن الطاعة هي ما كُتب لهم ، وليس في طاعتهم ما يسيء اليهم أو يذل كرامتهم . وأما الفئة الثانية فهي تتألف من رجال يتميزون بأنهم جميعاً يكسرون القانون ، بأنهم جميعاً مدمِّرون ، أو بأنهم جميعاً ميالون الى أن يصبحوا كذلك بحكم ملكاتهم . وجرائم هؤلاء الرجال تتفاوت خطورتها وتتنوع أشكالها طبعاً . وأكثرهم يريدون ، بأساليب متنوعة جداً ، تدمير الحاضر في سبيل شيء أفضل . فاذا وجب على أحدهم ، من أجل تحقيق فكرته ، أن يخطو فوق جثة ، أو فوق بركة دم ، فانه

يستطيع (فى رأيى) أن يعزم أمره على أن يخطو فوق الجثة وفوق بركة الدم مرتاح الضمير ؟ وكل شيء رهن بمضمون فكرته ، وبما لها من أهمية طبعاً . بهذا المعنى وحده انما تحدثت فى مقالتى عن حق ارتكاب الجريمة (انك تتذكر أن نقطة البداية التى انطلقنا منها انما كانت مسألة حقوقية). على أنه لا داعى الى القلق كثيراً . فان الجمهور لا يكاد يعترف لهؤلاء الرجال أبداً بهذا الحق . بالعكس : ان الجمهور يضطهدهم ويشنقهم (كثيراً أو قليلاً) ، وهو فى هذا يمارس حقه ، ويقوم بوظيفته كجمهور محافظ ، رغم أن الأجيال اللاحقة من هذا الجمهور نفسه ستخلد ذكر أولئك المضطهدين المعذبين ، فتقيم لهم التماثيل ، وتقدسهم (كثيراً أو قليلاً) . فالفئة الأولى من الرجال هى سيدة الحاضر ، والفئة الثانية هى سيدة المستقبل . الأولون يحفظون العالم ويزيدونه كماً ، والآخرون يحركونه ويقودونه الى غاية . ولهؤلاء وأولئك حق واحد فى الحياة . أى ان لهم كلهم حقوقاً متساوية ، و « عاشت الحرب الأبدية ! » ، الى أن تقوم أورشليم الجديدة طبعاً !

ـ أأنت تؤمن اذن بأورشليم الجديدة ؟

أجاب راسكولنيكوف بصوت ثابت :

ـ أؤمن !

قال ذلك خافضاً رأسه مثبتاً بصره على نقطة من السجادة ، كما كان طوال مدة حديثه المستفيض .

ـ وهل تؤمن بالله أيضاً ؟ اغفر لى فضولى !

فأجاب راسكولنيكوف وهو يرفع بصره الى بورفير :

ـ أؤمن به .

ـ وهل تؤمن ببعث لعازار ؟

ـ أؤ ••• أؤمن به • ولكن لماذا تسألني عن هذا كله ؟

ـ هل تؤمن بذلك نصاً وحرفاً ؟

ـ نصاً وحرفاً !

ـ صحيح ؟ اغفر لى فضولى • لقد سألتك عن هذ كله من باب حب الاطلاع • ولكن اسمح لى • سوف أعـود الآن الى ما كنت تقوله • أنا أرى أن الجمهور لا يضطهدهم ويعذبهم جميعاً • بالعكس : بعضهم •••

ـ بعضهم ينتصرون أثناء حياتهم ؟••• نعم بعضهم يحققون غاياتهم أثناء حياتهم ، وعندئذ فانهم هم الذين •••

ـ هم الذين يرسلون الآخرين الى التعذيب ...

ـ نعم ، اذا لزم الأمر ••• وأكثرهم يفعلون ذلك حقاً • ملاحظتك هذه ••• لطيفة جداً •

ـ أشكرك • ولكن قل لى : كيف نميِّز هؤلاء الخارقين عن أولئك العاديين ؟ هل هم يحملون علامات خاصة منذ ولادتهم ؟ أقصد أنه لا بد من دقـة أكبر ، أى لا بد من عـلامة مميزة واضحة • اغفر لى هـذا الاهتمام ، وهو اهتمام طبيعى لدى رجـل عملى يريد الخير • ألا يمكننا مثلاً أن نلبسهم رداء خاصاً ، أن نخلع عليهم زياً موحداً ، أن نميِّزهم بعلامة فارقة ؟ اذ لا بد أن تسلِّم معى بأنه اذا حدث اختلاط ، فتخيل رجل من رجال الفئة الأولى أنه ينتمى الى الفئة الثانية ، فأخذ « يزيح » جميع العوائق ، على حد تعبيرك الموفق ، فان •••

ـ صحيح ••• هذا يحـدث كثيراً • ملاحظتك هـذه ألطف من سابقتها أيضاً •

ـ أشكرك •

ـ لا داعي الى الشكر • ولكن لاحظ أن هذا الخطأ لا يمكن أن يقع الا لأفراد الفئة الأولى ، أى فئة العاديين (الذين لعلنى لم أوفق كثيراً حين أطلقت عليهم هذا الاسم) : ان كثيراً من هؤلاء العاديين ، رغم ميلهم الفطرى الى الطاعة ، يمكن أن نلاحظ فيهم نزوةً من تلك النزوات التى نلاحظها فى الطبيعة ، ونلاحظها حتى لدى الأبقار ، فاذا هم يحبون أن يحسبوا أنفسهم رجالاً من الطليعة ، رجالاً مدمِّرين ، واذا هم يقحمون أنفسهم فى الدعوة الى « القول الجديد » ، صادقين مخلصين من جهة أخرى • وكثيراً ما يحدث لهم فى الوقت نفسه أن لا يعترفوا بأولئك الذين هم مجدِّدون حقاً ، حتى لقد يعدونهم أناساً منحطين ، رجعيين ، جديرين بالاحتقار • ولكنى أعتقد أن هذا ليس فيه خطر كبير ، فما ينبغى لك أن تقلق ، وذلك لسبب بسيط هو أن هؤلاء لا يقطعون شوطاً بعيداً فى يوم من الأيام ، وفى وسعك طبعاً ، من أجل أن تعاقبهم على حماستهم الطائشة ، وأن تردَّهم الى مواقعهم ، فى وسعك أن تجلدهم أحياناً • ولكن هذا كل شيء ؟ بل انه لا حاجة الى أن يتولى أحد هذه المهمة ، فانهم يجلدون أنفسهم بأنفسهم ، لأنهم أناس أخلاقيون جداً ، فبعضهم يجلدون أنفسهم بأيديهم ، وبعضهم يطلبون الى أقرانهم البشر أن يؤدوا لهم هذه الخدمة • ثم انهم يفرضون على أنفسهم أنواعاً من الكفارات على رءوس الأشهاد فيكون هذا درساً مفيداً وعبرة جميلة • الخلاصة : ليس عليك أن تقلق • ذلك هو القانون !

ـ حسناً ! لقد طمأنتنى من هذه الناحية قليلاً على كل حال • ولكننى أرى خطراً آخر • قل لى من فضلك : هل هم كثيرون أولئك الأفراد الذين يحق لهم أن يذبحوا غيرهم ، هل هم كثيرون أولئك « الخارقون » ؟ اننى مستعد طبعاً لأن أنحنى احتراماً لهم ، ولكن لا بد

أن توافقني على أن المرء لا بد أن يشعر برعدة تسرى فى ظهره اذا هم كانوا كثيرين ؟ أليس كذلك ؟

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً بتلك اللهجة نفسها :

ـ لا تقلق من هذا أيضاً . فعلى وجه العموم ، لا تولد الا قلة قليلة جداً من هؤلاء الأفراد الذين يملكون فكرةً جديدة حقاً ، أو يقدرون على أن يعبروا عن فكرة جديدة . هنالك شيء واحد محقق ، هو أن نسبة الأفراد الذين يولدون فى هذه الفئة أو تلك لا بد أنها يحددها قانون طبيعى ما تحديداً دقيقاً . وهذا القانون ما يزال حتى الآن مجهولاً ، ولكننى أعتقد أنه موجود ، وأنه سيمكن اكتشافه فى المستقبل . ولئن وُجدت كتلة من الأفراد تبلغ هذا المبلغ من الضخامة ، فما ذلك الا لمحاولة خلق انسان مستقل بعض الاستقلال ، ولو بنسبة واحد الى ألف ، وذلك بتطور ما يزال سرياً مجهولاً ، وبواسطة أنواع شتى من تصالبات عروق وأنواع ، الخ . أما الأفراد الذين يملكون استقلالاً أكبر فان نسبتهم أصغر من ذلك : هم واحد بين عشرة آلاف (أتكلم على وجه التقريب) . وأما الأفراد الذين يملكون درجةً عليا من الاستقلال فان نسبتهم أصغر من ذلك أيضاً : هم واحد بين مائة ألف . وأما العباقرة فلا يوجد منهم الا واحد بين مليون . وأما كبار العباقرة ، الذين هم قمة النوع الانسانى ، فلا بد أن تنتظر أن تمر على الأرض ألوف ملايين الأفراد حتى يظهر منهم واحد . أنا لم أقم طبعاً بجولة فى البوتقة التى يتم فيها هذا كله ، ولكن القانون موجود ، ولا بد أن يكون هناك قانون من هذا النوع . فلا مصادفة هنا !

صاح رازوميخين يقول أخيراً :

ـ قولا لى : أأنتما تمزحان ؟ أأنتما بسبيل أن يخدع كل منكما

الآخر ؟ ان كلاً منهما جالس أمام صاحبه يستهزىء به ويضحك عليه ! أأنت تتكلم جاداً يا روديا !

رفع راسكولنيكوف وجهه الشاحب نحو رازوميخين صامتاً ، حزيناً ولم يجب بشيء . فلما رأى رازوميخين هذا الوجه الهادىء المتألم ، استغرب تلك اللهجة اللاذعة الفظة « المتحدية » التي استعملها بورفير. قال رازوميخين :

ـ طيب يا صاحبي ، اذا كنت تتكلم جاداً ... فمن حقك طبعاً أن تقول ان هذا كله ليس فيه جديد ، فهو يشبه ما قرأناه وسمعناه ألف مرة . ولكن الشيء « الجديد » حقاً في الأمر ، الشيء الذي تنفرد به ـ وهذا ما أشعر منه بهول ورعب ـ هو أنك تجد أن من الطبيعي أن يسفح انسان دماً وهو واعٍ كل الوعي ، وأنك تدافع عن هذا الرأي بمثل هذا التعصب كله ... سامحني . معنى ذلك أن هذه هي الفكرة الأساسية التي تتضمنها مقالتك . وأنا أرى أن هذا السماح « الأخلاقي » بسفح الدم ، أفظع حتى من السماح بسفح الدم رسمياً أو شرعياً .

قال بورفير :

ـ صحيح تماماً . هو أفظع منه .

وقال رازوميخين يخاطب راسكولنيكوف :

ـ لا ، لا ، لقد سمحت لنفسك بالاندفاع في مزالق الخطأ . هناك خطأ . سوف أقرأ المقالة . حقاً لقد أسرفت في الغلو . لا يمكن أن يكون هذا تفكيرك . سوف أقرأ المقالة ...

قال راسكولنيكوف :

ـ ليس في المقالة شيء من هذا كله . المقالة لا تتضمن الا اشارة .

قال بورفير وقد أصبح لا يستطيع أن يستقر في مكانه :

ـ نعم ، نعم ، الآن أصبحت أدرك رأيك فى الجريمــة بشىء من الوضوح • اغفر لى الحاحى (أنا أعرف أننى أضايقك) • لقد طمأنتنى منذ قليل فى موضـوع الاختلاط الذى يمكن أن يحـدث بين الفئتين • ولكن ••• هناك حالات تظل تقلقنى من وجهة النظر العملية • لنفرض أن رجلاً أو شاباً يعدُّ نفسه مثل ليكورجوس أو مثل محمد • انه سوف يشرع فوراً فى « ازاحة » جميع العوائق • سوف يقول : ان على عاتقى أن أقوم بحملة بعيدة ؛ ومن أجل القيام بحملة لا بد لى مال • ولذلك سوف يبدأ بالحصول على المال للقيام بحملته • واضح ؟

هنا انفجر زاميوتوف ضاحكاً فى ركنه ضحكاً قوياً على حين فجأة• ولكن راسـكولنيكوف ظل سـاكناً ، حتى أنه لم يرفع نحـوه عينيـه • وأجاب يقول بلهجة هادئة :

ـ أعترف بأن حـالات كهـذه لا بد أن تقع فعـلاً • ان الحمقى والمغرورين يقعون فى هذا الفخ ، ولا سيما اذا كانوا شباباً •

ـ أرأيت ؟ فماذا اذن ؟

أجاب راسكولنيكوف ضاحكاً :

ـ ما شأنى أنا ؟ أنا لا دخل لى ! هكذا انما جرت الأمور دائماً • قال هو منذ قليل (هنا أومأ راسـكولنيكوف الى رازوميخين) اننى أبيح سفح الدم • ما قيمة ذلك ؟ ان المجتمع تحميـه المنافى والسجون وقضـاة التحقيق والمعتقلات ؟ فعلام القلق ؟ طاردوا السارق !

ـ واذا قبضنا عليه ؟

ـ يجب أن يتيح لكم أن تقبضوا عليه •

ـ أنت منطقى • ولكن ماذا عن ضميره الأخلاقى ؟

ـ فيم يعنيكم ضميره الأخلاقى ؟

ـ مسألة انسانية .

ـ من كان له ضمير أخلاقى فليس له الا أن يتعذب اذا هو اعترف لنفسه بخطيئته . سيكون هذا عقاباً له ، بالاضافة الى السجن .

سأل رازوميخين وهو يقطب حاجبيه :

ـ والأشخاص الذين يملكون العبقرية حقاً ، الأشخاص الذين أُعطوا حق القتل ، هل يجب عليهم أن لا يتألموا البتة ولو سفحوا دماً ؟

ـ لماذا تستعمل تعبير « يجب عليهم » ؟ ليس ههنا لا اذن ولا منع . ألا فليتألم من تأخذه بضحية شفقة ! لا بد أن يتألم من كان واسع الوجدان عميق الشعور .

ثم أضاف راسكولنيكوف يقول فجأة وقد شرد فكره واختلفت هيئة عما كانت عليه أثناء الحديث :

ـ يخيل الىّ أن الرجال العظماء لا بد أن يشعروا على هذه الأرض بحزن عظيم .

ورفع راسكولنيكوف عينيه ونظر الى الجميع مفكراً ، وابتسم ، وتناول قبعته . كان هادئاً هدوءاً كبيراً بالقياس الى الحالة التى كان عليها حين دخل ؛ وكان يحس هو بذلك .

نهض الجميع .

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال :

ـ لك أن تشتمنى ولك أن تغضب ان شئت ؛ ولكننى لا أستطيع أن أغالب رغبتى فى أن ألقى عليك سؤالاً آخر صغيراً . أنا أعلم أننى أرهقتك ارهاقاً شديداً ، ولكننى أحب أن أعبّر لك عن فكرة صغيرة راودتنى وأخشى أن أنساها ...

ـ هات فكرتك الصغيرة •

كذلك قال له راسكولنيكوف جاداً ، شـديد شحوب الوجه ، وهو واقف أمامه ينتظر •

ـ اليك فكرتى ••• ولكننى لا أعرف حقاً كيف أعبِّر عنها تعبيراً مناسباً ••• ان فكرتى الصغيرة تافهة قليلاً ••• هى فكرة سيكولوجية•• اسمع : انه لمن المستحيل عليك أثناء كتابتك تلك المقالة أن لا تكون ••• هئ هئ هئ ••• أن لا تكون قد عددت نفسك ••• انساناً خارقاً بعض الشيء ••• انساناً يحمل « القول الجديد » ، بالمعنى الذى قصدته ، أليس هذا صحيحاً ؟

قال راسكولنيكوف باحتقار :

ـ جائز جداً •

وتحرك رازوميخين •

وعاد بورفير بتروفتش يتكلم فقال :

ـ فـاذا كان الأمـر كذلك ، أفلا يمـكن أن تكون قد قررت أنت نفسك ، فى أعقاب اخفاق شخصى ما ، أو للخلاص من الفقر ، أو أيضاً لتعجيل سير الانسانية الى أمام ، لا يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك أن تتخطى الحاجز ••• ف ••• فتقتل مثلاً أو تسرق ؟•••

قال بورفير بتروفتش هذا وغمز بعينه اليسرى وأخذ يضحك ضحكاً خفيفاً ، كما فعل منذ قليل •

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة متكبرة متحدية :

ـ اذا كنت قد تخطيت الحاجز فلن أقول لك اننى تخطيته •

ـ ان أمراً واحداً يهمنى ، هو أن أُحسن تأويل مقالتك ، وأن أُحسن ذلك من الناحية الأدبية وحدها •

قال راسكولنيكوف لنفسه : « هوه ! يا للشرك القذر ! » •

وقال يجيب مخاطبه بخشونة :

ـ اسـمح لى أن ألفت نظرك الى أننى لا أعـد نفسى لا مثل محمد ولا مثل نابوليون ••• ولا مثل أى شخص من هذا النوع !••• واذ أننى لست واحداً من هؤلاء الأشخاص ، فاننى لا أستطيع أن أقدم اليك جواباً مرضياً ، فأقول لك ما الذى يمكن أن أفعله •

قال بورفير بتروفتش فجأة بألفة مخيفة :

ـ دعك من هذا الكلام ! أيُ واحد منا ، فى روسيا ، لا يعد نفسه اليوم مثل نابوليون ؟

وكان فى نبرة صوته نفسها ما يدل على نية واضحة جداً •

ورشق زاميوتوف من ركنه هذا السؤال :

ـ ألا يمكن أن يكون واحد ممن يعـدون أنفسـهم مثـل نابوليون فى المستقبل هو الذى قتل آليونا ايفانوفنا فى الأسبوع الماضى ؟

صمت راسكولنيكوف وحدّق الى بورفير بنظرة ثابتة قاسية• واكفهر وجه رازوميخين • كان رازوميخين قد بدأ يشـتبه منذ برهـة • ونظر حواليه غاضباً • وانقضت دقيقة فى صمت قاتم • وتحرك راسكولنيكوف يريد أن ينصرف •

قال بورفير بلهجة رقيقة عذبة :

ـ أتنصرف ؟

ومدّ اليه يده بكثير من التحبب والتودد • وتابع يقول له :

ـ سعيد جداً ، سعيد جداً بمعرفتك • أما عن مطالبتك برهنيك ، فكن مطمئناً : يكفى أن تكتب عريضـةً بالمعنى الذى أشرت به عليك •

نعم • بل ربما كان الأفضل من ذلك أيضاً أن تأتي الىَّ ، في يوم قريب ••• في الغد مثلاً ••• سأكون بمكتبي حتماً في نحو الساعة ••• الحادية عشرة • سنرتب الأمر كله ، وسنثرثر قليلاً ••• فاذ أنك واحد من أواخر من ذهبوا الى « هناك » ، فانك قد تستطيع أن تقول لنا شيئاً ما (هذا ما أضاف يقوله وهو يصطنع كل الطيبة وكل البساطة) •

سأله راسكولنيكوف بلهجة خشنة :

ـ أتريد أن تستجوبني رسمياً ، وفقاً للأصول ؟

ـ فيم أستجوبك على هذا النحو ؟ لا تدفعني الى هذا أية ضرورة حتى الآن • طبعاً ••• أنا لا أدع لأية فرصة تفلت مني ••• وقد تحدثت الى جميع الذين أودعوا رهوناً لدى العجوز • حتى لقد استطعت أن أحصل على بعض الدلائل • ولما كنت أنت آخر هؤلاء •• ولكن بالمناسبة (هتف يقول ذلك فجأة في غمرة من الفرح) بالمناسبة ••• الآن تذكرت ••• ماذا أريد أن أقول ؟••• (هنا التفت يخاطب رازوميخين) ••• نعم يا رازوميخين ••• ان الفتى نيكولاشكا ذاك الذي صدَّعت به رأسي ••• قد ثبت لي اليوم ••• على وجه اليقين (وهنا عاد يلتفت الى راسكولنيكوف) أنه بريء ••• ولكن ما حيلتي ؟ لقد كان لا بد لي أيضاً من ازعاج ميتكا ••• والآن اليك ما كنت أريد أن أسألك عنه : حين صعدتَ السلَّم ، كانت الساعة بين السابعة والثامنة ، أليس كذلك ؟

أجاب راسكولنيكوف :

ـ نعم ، كانت الساعة قد تجاوزت السابعة •

وسرعان ما أدرك راسكولنيكوف ممتعضاً أنه كان في وسعه أن لا يذكر هذا •

ـ ألم ترَ ، وأنت تصعد السلم ، بعد الساعة السابعة ، في شقة كان

بابها مفتوحاً ـ هل تتذكر ؟ ـ ألم تَرَ عمالاً كانوا يعملون في تلك الشقة ، أو عاملاً منهم على الأقل ؟ هم دهانون كانوا يدهنون الشقة ، ألم تلاحظهم ؟ هذا أمر هام جداً ، هام جداً جداً بالنسبة اليهم •

أجاب راسكولنيكوف يقول ببطء ، كأنه ينبش ذاكرته ، وهو يحاول بجهد مرهق أن يكتشف الفخ الذى ينصبه له مخاطبه ليتحاشى الوقوع فيه :

ـ دهانون ؟ لا ، لم أر دهانين • لا ، لم أرهم • ثم اننى لا أذكر أننى رأيت شقة كان بابها مفتوحاً • ولكننى فى مقابل ذلك (هو يشعر الآن بأنه تجنب الفخ وهو فرح بذلك) أذكر أن موظفاً كان ينتقل فى الطابق الثالث من الشقة التى تقع أمام شقة آليونا ايفانوفنا • اننى أذكر هذا ، بل أذكره واضحاً كل الوضوح ••• كان هناك جنود يحملون أريكة ، فاضطررت أن التصق بالحائط • ولكننى لم أر دهانين ، لا ، لا أذكر أننى رأيت دهانين• ويخيل الىّ أنه لم يكن أى باب منالأبواب مفتوحاً • لا ، لم يكن هناك باب مفتوح ••• لم يكن هناك باب مفتوح •••

صاح رازوميخين يقول فجأة كأنه ثاب الى رشده أخيراً وفهم فى هذه اللحظة نفسها ، صاح يقول مخاطباً بورفير :

ـ ولكن ما هذا الذى تقوله ؟ أنت تعلم أن الدهانين كانوا يعملون يوم مقتل العجوز ، أما هو فقد ذهب الى العجوز قبل ذلك بيومين • فما هذا السؤال الذى تلقيه عليه ؟

فهتف بورفير قائلاً وهو يلطم جبينه :

ـ آ ••• نعم ••• اختلط علىّ كل شىء • تباً لى • ان هذه القضية قد أفقدتنى صوابى •

والتفت يقول لراسكولنيكوف كأنما ليعتذر :

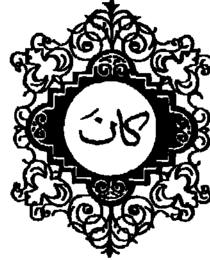
ـ انني من فرط اهتمامي بأن أعرف هل رأى أحدٌ أولئك الدهانين بعد الساعة السابعة في الشقة ، قد تخيلت أنك تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال ... نعم ، لقد اختلط عليَّ كل شيء .

قال رازوميخين غاضباً :

ـ يجب عليك أن تنتبه !

وقد قيلت هذه الكلمات الأخيرة حين وصلوا الى حجرة المدخل . لقد شيَّعهما بورفير بتروفتش الى الباب بتودد كبير ولطف بالغ . فلما صارا في الشارع كان كل منهما مظلم النفس متجهم الوجه . وسارا بضع خطوات لا ينطقان بكلمة واحدة . وتنفس راسكولنيكوف تنفساً عميقاً ...

الفصل السادس



كان رازوميخين يردد قائلاً في حيرة واضطراب وهو يحاول أن يدحض حجج راسكولنيكوف بكل ما أوتي من قوة :

ـ أنا لا أصدق هذا ! لا أستطيع أن أصدقه !

كانا قد اقتربا من عمارة باكالايف ، حيث تنتظرهما بولشيريا الكسندروفنا ودونيا منذ مدة طويلة . وفي غمرة المناقشة الحامية ، كان الفتى يتوقف في كل لحظة مضطرباً قلقاً ، على الأقل لأن هذه هي المرة الأولى التي يتحدثان فيها صراحة عن « ذلك الأمر » .

أجاب راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة باردة جافة :

ـ لا تصدق ! أنت على عادتك لم تلاحظ شيئاً ، أما أنا فقد كنت أزن كل كلمة .

ـ أنت شكاك ريّاب ، لذلك كنت تزن كل كلمة . هِمْ ... أوافقك على أن لهجة بورفير كانت غريبة بعض الغرابة ... وأن ذلك الوغد زاميوتوف خاصة ... انك على حق ... لقد كان فيه شيء من ، شيء من ... ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

ـ سيفكر أثناء الليل !

ـ ولكن لا ، بالعكس ، بالعكس ! لو كانت تدور في ذهنيهما فكرة كهذه الفكرة الغبية ، لحاولا ، على العكس ، أن يخفياها بجميع الوسائل،

لحاولا أن يكتماها ليفاجئاك بها فيما بعد ، أما ما فعلاه فقد كان ... كان وقاحة ، وقاحة ...

ـ لو كانا يملكان وقائع ، أقصد وقائع حقيقية ، أو شبهات تقوم على أى أساس من وقائع ، لحاولا أن يخفيا ما يدور فى ذهنيهما (ولقاما من جهة أخرى بتفتيش مسكنى منذ مدة طويلة) . ولكنهما لا يملكان وقائع ، لا يملكان أية واقعة . ليس هذا كله الا سراباً !... هذا كله لا رأس له ولا ذنب !.. هذا كله لا يقوم على شيء ولا يستند الى شيء ، لذلك لا يعمدان الى طريقة المباغتة . لعله هو نفسه غاضب من أنه لا يملك أية واقعة . لعل هذا هو السبب فى حنقه وغيظه . وربما كان كذلك يبيّت نيةً خفية خبيثة . هذا رجل ذكى ، كما يبدو لى أنا على الأقل ... لعله أراد تخويفى باظهار أنه يعرف أشياء ... يا صاحبى ، الأمر هنا أمر سيكولوجيا شخصية . على كل حال ... فان جميع هذه التفسيرات والتأويلات تثير اشمئزازى . هلاّ تركنا هذا الحديث كله !

ـ ثم ان فى كلامه اهانة ، اهانة ! أنا أفهمك . ولكن ما دمنا قد بدأنا التحدث بصراحة (وانه لحسن جداً أننا وصلنا الى ذلك ، وأنا مغتبط بهذا أشد الاغتباط) ، فأحب أن أعترف لك دون لف أو دوران أننى قد لاحظت منذ مدة طويلة أن هذه الفكرة تدور فى ذهنيهما . ولكن لا شك أنها لم تكن قد تجسدت بعد ، وأنها لم يكن لها الا وجود كامن . على أن وجودها فى ذهنيهما حتى فى هذه الصورة أمر لا يطاق . كيف يجرؤان ؟ أين ، فى أى جزء من نفسيهما استطاعت هذه الفكرة أن تجد لها عشاً ؟ ليتك تعلم كم أحنقنى هذا وكم أثار جنونى ! طالب فقير دمرته أنواع البؤس وصنوف الهواجس والمخاوف .. على وشك الاصابة بمرض مصحوب بهذيان ... بل لعل المرض كان قد ألمّ به منذ ذلك الحين

(لاحظ هـذا) ... شـاب مفرط في الشـك والحـذر ، شـديد الكبرياء شـاعر بقيمتـه ، ظل مدفوناً فى ركنه ستة أشـهر لا يرى فى أثنائها أحداً ... قد بليت ثيـابه حتى أصبحت خـرقاً رثة لا تستر ظهـره ، وبلى حـذاءه حتى اهتـرءا فكأنه حافى القدمين ... شـاب هذا شأنه يجد نفسه واقفاً على حين فجأة أمام رجال من الشرطة تافهين يصبو عليه وقاحاتهم ، ويطالبونه بأن يبادر الى سداد قيمة سند باطل ... ورائحة الدهان الطرى تزكم أنفه ... والحـرارة ثلاثون درجة في غرفة غاصة بالناس ، فلا يكاد يستطيع أن يتنفس ... وها هو ذا يسمع حديثاً عن مقتل امرأة كان قد رآها بالأمس ... وهو فوق ذلك خاوى المعدة ... أفعجيب أن يغمى على هذا الشـاب حينـذاك ؟ كيف يبنون كل تلك الافتراضات السخيفة على اغمائه ذاك ؟ شيطان يأخذهم !... اسمع يا روديا ! أنا أدرك أن هذا أمر يثير الغيظ . ولكننى لو كنت فى مكانك لما زدت على أن أضحك منه ... لما زدت على أن أضحك عليهم ، أمام أنوفهم ، بل وأن أبصق فى وجوههم ... أن أرمى وجوههم بسيول من البصاق ، وأن أكيل لهم صفعات يحسون بها احساساً قوياً ... ابصق عليهم ! أقول لك ابصق عليهم ! لا تخف !... اجعلهم يشعرون بالخزى والعار !

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « تكلم فأحسن الكلام على كل حال ! » .

ثم قال لرازوميخين بمرارة :

ـ أبصق عليهم ؟ ولكننى سأخضع فى غد لاستجواب جديد . هل يجب علىّ حقـاً أن أصل الى حـدّ تقـديم شروح وتعليلات ، بينما أنا سـاخط على نفسى منـذ الآن لأننى أهنت نفسى اذ ارتضـيت أن أكلم زاميوتوف بالأمس فى الكاباريه ؟

ـ شيطان يأخذهم . سأذهب الى بورفير بنفسي . ولأتصرفن معه تصرف « قريب من أقربائه » ، صدقني . لا بد أن يفرغ جعبتـه . أما زاميوتوف ...

قال راسكولنيكوف لنفسه : « أخيراً فهم » .

وصاح رازوميخين قائلاً وهو يمسكه من كتفه :

ـ انتظر ! انتظر ! لقد قلت حماقة من الحماقات . نعم ، فكّرت في الأمر ، فأيقنتُ أنك قلت حماقة من الحماقات . ما هذا الذي تذكره عن فخ نُصب لك ؟ أين الفخ في هذا ؟ أنت تزعم أن مسألة العمال هذه فخ . ولـكن فكّر قليـلاً : لو كنت قد فعلت « ذلك الأمـر » ، أفكنت تستسلم فتذكر أن الشقة كانت تُدهن ... وأنك فوق ذلك قد رأيت العمـال ؟ بالعكس . ما كنت لتذكر أنك رأيت عمـالاً ، حتى ولو كنت قد رأيتهم . من ذا الذي يشهد على نفسه ؟

أجاب راسـكولنيكوف يقـول على مضض ، مشـمئزاً اشـمئزازاً واضحاً :

ـ لو كنت قد فعلت « ذلك الأمر » ، لذكـرت حتمـاً أنني رأيت العمال والشقة .

ـ ولكن لماذا يشهد المرء على نفسه ؟

ـ لأنه ما من أحد غير الفلاحين السـذّج أو الأغرار الذين ليس لهم خبرة ينكر كل شيء على الاطلاق حين يُستجوب . أما الانسان الذي يملك ولو أقل قدر من الذكاء والخبرة ، فانه لا يفـوته أبداً ، في حدود الامكان ، أن يعترف بالوقائع الخارجية التي لا سبيل الى انكارها ، وانما هو يحاول أن يؤولها تأويلاً آخر ، أن يرتبها على النحو الذي يريد ، أن يضفي عليها دلالةً غير متوقعة ، فاذا هي تفسَّر تفسيراً جديداً وتـرى

فى ضوء جديد • ولقد كان بورفير يأمل أن أجيب قطعاً بهذه الطريقة ، أى أن أذكر له أننى رأيت العمال ، من باب اضفاء مزيد من مظهر الصدق على أقوالى ، ثم أضيف الى ذلك تفسيراً ما •

ـ ولكن لو فعلت ذلك لأجابك فوراً بأنه لم يكن هناك عمال قبل مقتل العجوز بيومين ، فلا بد اذن أنك كنت هنالك يومَ مقتل العجوز بعد الساعة السابعة ••• ولضيَّعك هذا الأمر التفصيلى !•

ـ ذلك بعينه هو ما كان يعوّل عليه ويأمل فيه • كان يأمل أن يتسع وقتى للتفكير ، فاذا أنا أسارع الى تقديم الجواب الذى يضفى على أقوالى مظهر الصدق ، ناسياً أن العمال لم يكونوا هناك قبل وقوع الجريمة بيومين •

ـ وكيف تنسى هذا ؟

ـ لا أسهل من نسيانه ! وفى مثل هذه التفاصيل التافهة انما يرتبك أمكر الناس بأكبر سهولة • فكلما كان مكر المرء أكبر كانت الأمور الأبسط هى التى توقعه فى الفخ • ليس بورفير غبياً الى الحد الذى تتصوره •

ـ هو وغد كبير على كل حال !

لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن التبسم • ولكنه فى الوقت نفسه قد استغرب هذا التعجل وهذا التلذذ اللذين سيطرا عليه وهو يقدم هذا الشرح ألم يكن قد أجرى ذلك الحديث كله مشمئزاً ، مكرهاً ، مستجيباً لدواعى الحساب وحده ؟ قال لنفسه : « لا شك أن بعض نقاط هذه القضية تجد هوىً فى نفسى ! » •

ولكنه فى تلك الدقيقة نفسها بدا عليه القلق فجأةً ، كأن فكرة غير

متوقعة ، فكرةً تبعث على الخوف قد ساورته على حين بغتـة . وازداد قلقه . وكانا قد وصلا الى باب عمارة باكالايف .

قال راسكولنيكوف فجأة :

ــ ادخل وحدك ، وسأرجع حالاً .

ــ ولكن الى أين تذهب ؟ لقد وصلنا !

ــ يجب عليَّ أن ... يجب عليَّ أن ... هنـاك عمل ينبغى أن أقوم به . سأعود بعد نصف ساعة . قل لهما هذا .

ــ لك ما تشاء ، ولكننى آتٍ معك .

فهتف راسـكولنيكوف يقـول بحنق يبلغ من المرارة والكرب أن رازوميخين شعر باضطراب وحيرة وارتباك :

ــ أأنت أيضاً تريد اذن أن تعذبنى ؟

وظل رازوميخين بعض الوقت واقفـاً على درجات المدخل ، مظلم الهيئة ، ينظر الى راسكولنيكوف الذى كان يمضى بخطى مديدة فى اتجاه الزقاق المؤدى الى بيته . وأخيراً كزَّ أسنانه ، وشنَّج قبضته ، وحلف ليعصرنَّ بورفير فى ذلك اليوم نفسـه ؛ وصعد يهدىء روع بولشـيريا الكسندروفنا التى كانت قلقةً من تأخرهما الطويل منذ ذلك الحين .

وصل راسكولنيكوف أمام بيتـه مبلَّل الصـدغين بالعرق ، لاهثـاً يتنفس تنفساً شاقاً . وصعد السلَّم مسرعاً ودخل غرفته التى لم يكن قد أُغلق بابها ، وأسرع يوصد عليه من الداخل بالكلابة . ثم هرع ، وقد جُنَّ جنونه رعباً وذعراً ، أسرع نحو الركن الذى كان فيه الثقب الذى يخفيه ورق الجدار ، والذى كان قد خبأ فيه الأشـياء المسروقة فى ذلك اليوم . دسَّ يده فى الثقب ، وظل ينبشـه بكثير من العنـاية خلال عدة دقائق ، سابراً جميع الشـقوق وجميع ثنيات الورق . فلما لم يعثر على

شيء نهض فتنفس تنفساً عميقاً . لقد تخيَّل منذ قليل ، حين وصل مع رفيقه الى عمارة باكالايف ، تخيَّل فجأةً أن من الممكن أن يكون أحد الأشياء التى أودعها فى هذا الثقب ، كسلسلة صغيرة أو زرِّ كمٍ أو حتى الورقة التى لُفَّت بها هذه الأشياء وعليها كتابة بخط العجوز ، أن يكون أحد هذه الأشياء قد اندس فى شق من الشقوق على نحو من الأنحاء ، فاذا هو يظهر بعد ذلك قرينة قاطعة أو دليلاً ثابتاً لم يكن متوقعاً ولا يمكن انكاره .

لبث راسكولنيكوف واقفاً هنالك كالمشدوه ، ثم اذا بابتسامة غريبة ذليلة تلم بشفتيه وهو لا يكاد يشعر بها . وأخيراً تناول قبعته وخرج من الغرفة صامتاً . كانت أفكاره مشوشة مضطربة . ومرَّ تحت باب المدخل الكبير شارد الفكر حالماً .

صاح صوت ضخم قائلاً :

ـ هذا هو !

فرفع راسكولنيكوف رأسه .

كان البواب واقفاً على عتبة حجرته ، يومىء الى راسكولنيكوف لرجل قصير القامة يبدو عليه أنه بائع صغير ، يرتدى فوق صديرته معطفاً أشبه بثوب من ثياب المنزل ، اذا رآه الرائى من بعيد ظنه امرأة ؛ وعلى رأسه قبعة متسخة ، ورأسه مائل على صدره ؛ ويدل وجهه الرخو المتغضن على أنه فى نحو الخمسين من عمره على أقل تقدير ، وتعبِّر عيناه الصغيرتان الغائرتان فى حجاجيهما عن قسوة وتجهم واستياء .

سأل راسكولنيكوف البواب وهو يقترب :

ـ ماذا هنالك ؟

فرشقه البائع الصغير بنظرة من تحت ، وحدَّق اليه يتفحصه

باتتباه ، ثم ابتعد عن باب المدخل وسار في الشارع دون تعجل ، ودون أن يقول كلمة واحدة .

هتف راسكولنيكوف يقول :

ـ ولكن ماذا هنالك ؟

فأجابه البواب :

ـ هو رجل سألني هل يسكن في هذه العمارة طالب . وقد ذكر اسمك ، وسأل كذلك عن الشخص الذي تقيم عنده . فلما نزلت أنت في تلك اللحظة نفسها دللته عليك ، فاذا هو ينصرف ... على النحو الذي رأيت .

كان البواب مدهوشاً هو أيضاً ، لكن دهشته لم تكن قوية كثيراً . وقد فكّر لحظة ، ثم استدار وعاد يدخل حجرته .

هرع راسكولنيكوف يجري في آثار البائع الصغير ، فسرعان ما لمحه سائراً في الجهة الأخرى من الشارع ، بخطى متساوية بطيئة ، مطرقاً الى الأرض ، شارد الفكر . ولم يلبث راسكولنيكوف أن لحق به ، ولكنه اكتفى في أول الأمر بأن يسير وراءه . ثم أدركه أخيراً ، فألقى على وجهه نظرة مواربة . فلاحظه الرجل فوراً ، فألقى عليه نظرة سريعة لكنه عاد يخفض عينيه . وسار الرجلان على هذا النحو جنباً الى جنب مدة دقيقة دون أن يقول أحد منهما شيئاً .

وأخيراً قال راسكولنيكوف بصوت أجش :

ـ سألتَ عني ... البواب ...

فلم يجبه الرجل ، حتى انه لم يرفع اليه بصره . وساد صمت جديد .

عاد راسكولنيكوف يقول بصوت مختنق ، فلا تخرج الألفاظ من صدره الا بعناء كبير :

ـ انك قد جئت تسـأل عنى ... وهأنت ذا تصمت الآن ... فما معنى هذا ؟

فرفع الرجل عينيه فى هذه المرة ، وحدّق الى راسكولنيكوف بنظرة قاتمة مشئومة ، وقال له بصوت خافت لكنه واضح متميز :

ـ قاتل !

كان راسكولنيكوف يسير الى جانبه . فلما سمع منه هذه الكلمة ، ضعفت ساقاه ضعفاً رهيباً ، وسرت فى ظهره رعدة باردة ، وتوقف قلبه عن الخفقان لحظة ، كأنه قد انهار انهياراً كاملاً على حين فجأة . وسارا على هذا النحو مسافة مائة خطوة ، جنباً الى جنب ، فى صمت مطلق . وكان الرجل لا ينظر اليه .

تمتم راسكولنيكوف يقول أخيراً بصوت لا يكاد يُسمع :

ـ ولكن ماذا تريد أن ... من ... من هو القاتل ؟

فقال الرجل بصوت فيه مزيد من الوضوح ، وفيه مزيد من الحزم أيضاً :

ـ القاتل « أنت » !

وبنوع من ابتسامة تعبّر عن كره وانتصار ، نظر الى راسكولنيكوف من جديد ، متفرساً فى وجهه الشاحب وعينيه المنطفئتين .

وكانا قد وصلا الى مفترق ، فسار الرجل يسرةً ، وابتعد دون أن يلتفت . وظل راسكولنيكوف مسمّراً فى مكانه يتابعه بنظراته مدةً طويلة . حتى اذا قطع الرجل المجهول مسافة خمسين خطوة ، رآه

راسكولنيكوف الذى ما يزال جامداً فى مكانه ، رآه يلتفت وينظر اليه ، مبتسماً ابتسامةً فيها برودة ، وانتصاز ، وكره .

فقفل راسكولنيكوف راجعاً الى بيته ، يسير بخطى مترنحة ، مصطكَّ الساقين ، فى جسمه قشعريرة . فلما وصل الى غرفته خلع قبعته فوضعها على المائدة ، ولبث واقفاً خلال عشر دقائق كاملة لا يستطيع حراكاً . ثم استلقى على سريره مهدود القوى ، ومدَّ ساقيه وذراعيه وهو يئن أنيناً شاكياً . وانطبقت أجفانه . وظل راقداً على هذه الحال قرابة نصف ساعة .

لم يكن يفكر فى شىء . لا شىء الا بضع خطرات ، أو قل بضع شزرات من خطرات كانت تتلاحق فى فكره فوضى بغير نظام ولا اتصال ولا اتساق : وجوه أفراد كان قد رآهم فى ماضيات الأيام ، أثناء طفولته ، وجوه صادفها مرةً واحدة ثم لم يتذكرها فى أحـواله العادية بعد ذلك قط ؛ ناقوس كنيسة ف ... ؛ بلياردو فى كاباريه وضابط يقف قرب هذا البلياردو ؛ رائحة فى محل لبيع التبغ فى قبو ؛ سلَّم خمارة من الخمارات، مظلم جداً ، مملوء بالقاذورات ، قد تناثرت على درجاته قشور بيض ، بينما يترامى الى المكان رنين النواقيس فى يوم الأحد ... وهذه الأشياء تتلاحق سريعةً كأنما يحملها اعصار . ومنها أشياء ممتعة يتشبث بها راسكولنيكوف ويتسلق عليها ، ولكنها تغيب وتزول ؛ ويظل فى نفسه شىء ما يثقل على قلبه ، ولكنه لا يسرف فى ايلامه ... حتى لقد يحس أحياناً بارتياح وهناءة . وثمة رعدة خفيفة لا تبارحه . وهذه أيضاً لذيذة ...

سمع راسكولنيكوف وقع أقدام متعجلة ، وسمع صوت رازوميخين، فأغمض عينيه متظاهراً بالنوم . فتح رازوميخين الباب ، ولبث على العتبة

متردداً لحظة • ثم دخـل الغـرفة بهـدوء ورفق ، واقترب من السرير محاذراً ، وسُمعت وشوشة ناستاسيا قائلة :

ــ لا تزعجه • لينم ما شاء أن ينام ! سيأكل فيما بعد •

ويجيبها رازوميخين :

ــ أنت على حق •

ويخرج رازوميخين وناستاسيا بهدوء ، ويغلقان الباب •

انقضى على هذه الحال نصف ساعة • وفتح راسكولنيكوف عينيه ، ثم تهالك على ظهره من جديد ، مصالباً يديه وراء رأسـه • « من كان ذلك الرجل ؟ ما هو ذلك الرجل الذى خرج من تحت الأرض ؟ أين كان ومـاذا رأى ؟ لا ريب فى أنه رأى كل شىء • ولـكن أين كان يتوارى ؟ من أين كان يراقب ويرصـد ؟ ولماذا لم يخـرج من تحت الأرض الا الآن ؟ كيف استطاع أن يرى ؟ هل من الممكن أن •• آه »•

كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف ، ثم تابع تساؤلاته وقد اعترته رعدة باردة سرت فى ظهره : « والعلبة التى وجدها نيقولا وراء الباب ؟ هل كان يمكن أن يتصـور المرء شـيئاً كهذا ؟••• قرائن قاطعة ؟ أدلة ثابتة ؟ أيكفى اغفال شىء صـغير كحبـة رمل حتى يظهر دليـلٌ ضخم كأهرام مصر ! ذبابة طارت ، فرأت الذبابة كل شىء ••• هل يتصـور أحد هذا ؟ » •

وباشـمئزاز عميق أدرك راسـكولنيكوف ضعفه ، أحسّ وهن جسمه •

قال يحدث نفسـه وهو يبتسم ابتسـامة مرة : « كان ينبغى لى أن أتصور هذا ! كيف تجـرأت ، وأنا أعرف نفسى ، وأنا أتنبـأ بقـدرتى وطاقتى ، كيف تجـرأت فتناولت سـاطوراً ولطخت يدىّ بالدم ؟ كان

يجب عليّ أن أعرف هذا سلفاً ••• ولقد كنت أعرفه سلفاً بالفعل ! » •
هكذا دمدم يقول وقد بلغ غاية الكرب واليأس •

وكانت تدور فى رأسه أفكار تشلُّه شللاً • قال يحدث نفسه : « لا ، لا ، ان أولئك الرجال هم من طينة أخرى غير طينتى ! ان «المسيطر» * الحقيقى ، الذى يجوز له كل شىء ، يقصف طولون بالمدافع، ويقوم بمذبحة فى باريس ، و « ينسى » جيشه بمصر ، و « ينفق » نصف مليون من الرجال فى حملة موسكو ، ثم يتملص من القضية فى فلنا بجملة تشتمل على تلاعب بالألفاظ ثم تقام له التماثيل بعد موته • كل شىء مباح اذن له ! لا ، ان أولئك الرجال هم من طينة أخرى ؟ ليسوا من لحم بل من برونز » •

وومضت فى فكر راسكولنيكوف فكرة مفاجئة فكاد يضحك • قال يحدث نفسه : « نابوليون ، أهرامات مصر ، واترلو ، ثم عجوز مرابية مهترئة هى أرملة موظف صغير ، تخفى تحت سريرها صندوقاً من جلد أحمر ••• كيف يمكن التقريب بين هذا وذاك ، كيف يمكن تشبيه هذا بذاك ، كيف يستطيع انسان أن يبلع هذا حتى ولو كان بورفير بتروفتش؟ كيف يمكنهم أن يهضموا هذا ؟ ألا ان الجمال الفنى نفسه يرفض ذلك : هل كان يمكن أن يندس نابوليون تحت سرير عجوز حقيرة ؟ يا للصغار ! » •

وكان راسكولنيكوف يحس فى بعض اللحظات بأنه يهذى ، وكان يندفع اندفاعات فيها حمى !•••

قال يحدث نفسه بحمياً مسعورة : « ليست العجوز شيئاً ذا بال • العجوز ليست الا خطأً • ولكن القضية ليست قضية العجوز • العجوز ليست الا مرضاً•• وقد أردت أن أقفز فوق الحاجز وأن أتخطاه بسرعة.

أنا لم أقتل كائناً انسـانياً ، وانما قتلت مبدأً . ولكن لئن قتلت المبدأ ، فانني لم أستطع أن أتخطاه ، بل بقيت في الجهة التي كنت فيها . كل ما استطعت أن أفعله هو أنني قتلت . حتى انني لم أعرف كيف أقتل ... هو المبدأ ، نعم هو المبـدأ ! لماذا كان هذا الغبي رازوميخين يهاجم الاشتراكيين منذ قليل ؟ هؤلاء أناس عاملون ، جادُّون ، يهتمون « بسعادة البشر العامة الشاملة » . لا ، لا ، لقد وُهبت لي الحياة مرةً واحدة الى الأبد ، ولن أعرف حياةً أخرى . أريد أن أحيا شخصياً ، والا فالأفضل أن لا أحيا البتة . أي عيب في هذا ؟ أنا لم أزد على أن رفضت أن أمرَّ بأمٍ جائعة ، قابضاً على قروشي في جيبي ، منتظراً تحقق السـعادة العامة الشاملة ! « لقد حملت حجري الى المبنى الذي يُشـاد لتحقق السـعادة العامة الشاملة ، ومن ذلك أستمد طمأنينة القلب وسكينة النفس ! » . هأ هأ ! لماذا نسيتموني ؟ أنا ليس لي الا حياة واحـدة ، واني لأريد أن أحياها ! آه ... ما أنا الا قملة محشوة بأفكار فنية . ذلك أنا . ولست شيئاً آخر . (كذلك أضاف يقول فجأة وهو ينفجر في ضحك كضحك المجانين) . نعم ، أنا قملة فعلاً (هكذا تابع يقول بفرح خبيث) : أولاً لأنني أفكر كما أفكر في هذه اللحظة مسـتدلاً على أنني قملة ؛ وثانياً لأنني لبثت شهراً بكامله أزعج العناية الالهية، وأُشهدها على أنني لم أقرر أن أفعل ما فعلت عن هوىً مني بل في سبيل غاية عظيمة وهدف كبير.. هأ هأ ، وثالثاً لأنني قررت أن أسلك الى فعلتي كل العدالة الممكنة ، فراعيت في تنفيذها الوزن والقياس والحساب : ألم أختر من بين جميع قمل الكون قملةً هي أقل القمل جدوى ؟ وحين قتلتها ، ألم أكن أنوي أن لا آخـذ منها الا ما كنت في حاجـة اليه لأخطو خطواتي الأولى (ثم يذهب الباقي الى الدير تنفيذاً لوصيتها ، هأ هأ هأ ؟) . نعم ، أنا قملة قطعاً (هذا ما أضـافه الى قوله وهو يصرف بأسـنانه) ، بل لعلني أحقر من

قملة ، وأبعث على الاشمئزاز من قملة مسحوقة ، لأنني كنت أعلم « سلفاً » ، كنت أتنبأ سلفاً بأنني بعد قتلها سأقول لنفسي هذا الكلام ! هل في العالم كله شيء يمكن أن يقارن بفظاعة كهذه الفظاعة ؟ يا للصغار ! يا للجبن ! ألا انني لأفهم أعمق الفهم ذلك النبي المتطي صهوة جواده ، المشهر سيفه ، القائل : الله يريد هذا ، فأطع واخضع ايها المخلوق «المرتعش» * ! لقد كان على حق ، كان على حق تماماً ، ذلك النبي ، الذي صفّ المدافع في عرض الشارع وأمر باطلاق القذائف على الأبرياء والجناة على السواء ، ولم يرض حتى أن يشرح سلوكه وأن يسوّغه . أطع أيها المخلوق المرتجف ، وحذار أن ترغب في أي شيء ، فليس هذا شأنك أنت !.. آه... لن أغفر لهذه العجوز في يوم من الأيام ، في يوم من الأيام ، بحال من الأحوال ! » .

كان شعره مبتلاً بالعرق ، وكانت شفتاه المختلجتان مصوّحتين ، وكان بصره يحدّق الى السّقف بنظرة ثابتة .

« أمي ، أختي ، لشد ما كنت أحبهما ! فلماذا صرت أكرههما الآن؟ ذلك انني أكرههما ، أكرههما جسمياً ، لا أطيق أن احتمل وجودهما الى جانبي !.. منذ قليل، اقتربت من أمي وقبّلتها .. انني أتذكر هذا .. عانقتها وتساءلت : تُرى لو كانت تعلم .. ينبغي لي اذن أن أقولها .. لو قلت لها لتخففت من عبء .. آه.. لا شك في أنها مثلي (كذلك أضاف يقول بجهد ، كأنه يقاوم الهذيان الذي يجتاحه). أوه ! لشدّ ما أكرهها الآن ، تلك العجوز ! أعتقد أنني مستعد لأن أقتلها مرةً أخرى لو بُعثت حية ! مسكينة اليزابت ! لماذا وُجدت هناك ؟... ومع ذلك لا تخطر ببالي الا قليلاً ، فكأنني لم أقتلها ! ما أغرب هذا ! اليزابت ، صونيا ! يا للبنتين المسكينتين ، المتواضعتين ، الوديعتين ... الزاخرة أعينهما رقةً وعذوبة ! يا هذه المخلوقات العزيزة ، لماذا لا تبكين ؟ لماذا لا تئنين ؟ انها

تعطى كل شيء ، وتنظر اليك نظرة تفيض رقة وهدوءاً وسكينة !...
صونيا ! صونيا ! يا صونيا الوادعة المسالمة ! » .

وأغمى على راسكولنيكوف .

واستغرب كيف أمكن أن لا يتذكر كيف وجد نفسه مرةً أخرى فى الشارع . الوقت متأخر . الظلمات تتكاثف . البدر يسطع بضياء ما ينفك يقوى . ولكن الجو خانق . أناس كثيرون يسيرون فى الشوارع. فبعضهم يعودون الى بيوتهم منهمكين ، وبعضهم يتنزهون . وفى الهواء رائحة كلس وغبار ومياه مستنقعة . وراسكولنيكوف يمشى حزيناً مهموماً. وهو يتذكر أنه خرج على نية معينة محددة ؟ هو يعرف أن عليه أن يتعجل القيام بأمر من الأمور ، ولكنه أصبح لا يدرى ما هو ذلك الأمر على وجه الدقة . وها هو ذا يتوقف فجأة ، فيرى فى الجهة الأخرى من الشارع ، على الرصيف ، رجلاً يومىء له بيده . أخذ يقطع الشارع ليمضى اليه ، ولكن الرجل ابتعد فجأة كأن شيئاً لم يكن ، حتى دون أن يلتفت . تساءل راسكولنيكوف وقد أخذ يلاحقه : « هل نادانى حقاً ؟ ». ولكنه حين وقف على مسافة عشر خطوات منه لم يلبث أن تعرّفه بغتةً فاستولى عليه رعب : انه ذلك البائع الصغير نفسه ، بمعطفه الذى يشبه ثوباً من أثواب المنزل ، وبوجهه المتغضّن . تبعه راسكولنيكوف من بعد ، خافقَ القلب . ودخل الاثنان فى شارع صغير . ما زال الرجل لا يلتفت . تساءل راسكولنيكوف : « هل يعرف أننى أمشى وراءه ؟ » . عبر البائع الصغير مدخل عمارة من العمارات . اقترب راسكولنيكوف من الباب بسرعة كبيرة ، ونظر : تُرى ألن ينظر اليه هذا الرجل ، ألن يناديه ؟ وها هو ذا الرجل يلتفت على حين فجأة فعلاً ، حين صار فى فناء المنزل ، فيومىء له بغتةً من جديد . ولج راسكولنيكوف مدخل العمارة ، ولكن ما ان مرّ تحت العتبة حتى اختفى الرجل من الفناء .

لا يمكن الا أن يكون الرجل قد دخل السلّم الأول الذي يقع يمنةً •
اندفع راسكولنيكوف يلاحقه • وكانت ما تزال تُسمع ، فعلاً ، بعد
طابقين ، أصواتُ وقع أقدامٍ تسير بخطى منتظمة • شيء غريب : ان
السلّم لا يبدو لراسكولنيكوف مجهولاً • هذه نافذة الطابق الأرضي •
ان ضياء القمر ، الحزين السرّى ، يتسلل من خلال الزجاج • وهذا هو
الطابق الأول • عجيب : انها الشقة التى كان يعمل فيها الدهّانون !•••
كيف لم يتعرّف ذلك فوراً ؟ سكتت أصوات خطوات الرجل الذى كان
يتقدمه : « لقد توقف اذن ، أو اختبأ فى مكانٍ ما » • وهذا هو الطابق
الثانى • هل يجب على راسكولنيكوف أن يصعد الى أعلى ؟ ان الصمت
رهيب جداً ! وظل راسكولنيكوف يصعد رغم ذلك • ان أصوات وقع
أقدامه هو نفسه تقلقه ، ترعبه • رباه ! ما أحلك هذا الظلام ! لا شك
فى أن الرجل المجهول قد اختبأ فى مكان ما ، فى ركن ما • آه ••• ان
باب الشقة مفتوح على سعته كلها ! فكّر راسكولنيكوف لحظةً ، ثم دخل.
الدهليز مظلم خال ، والأثاث يبدو أنه نُقل • نفذ راسكولنيكوف الى
الصالون سائراً على رءوس الأصابع فى رفق وهدوء : ان ضوء القمر
الساطع يغمر الغرفة • كل شيء فى الصالون ما يزال كما كان : الكراسى ،
المرآة ، الديوان الأصفر ، الصور فى أطرها • وهذا قمر ضخم ، أحمر
بلون النحاس ، مدوّر تماماً ، يُطل من النافذة رأساً • قال راسكولنيكوف
يحدث نفسه : « عن القمر انما يصدر هذا الصمت ••• لا شك فى أن
القمر يحاول الآن أن يفضح سراً من الأسرار ، أن يكشف لغزاً من
الألغاز ! » • ظل راسكولنيكوف ساكناً جامداً ينتظر ، فكلما ازدادا القمر
صمتاً ازدادا خفقان قلبه شدة وعنفاً حتى أصبح يؤلمه • وما يزال الصمت
مخيّماً ! وفجأةً تنطلق قرقعة جافة كقرقعة غصن ينكسر ، ثم يصمت
كل شيء من جديد• وهذه ذبابة تستيقظ وتطير فتصدم الزجاج ، وتدندن

بصوت كأنه شكاة وأنين • وفي تلك اللحظة نفسها يميِّز راسكولنيكوف، في الركن ، بين الخزانة الصغيرة والنافذة ، شيئاً يشبه معطف معطف امرأة، يتدلى على الحائط • تساءل راسكولنيكوف : « لماذا يوجد معطف هنا ؟ لم يكن في هذا المكان معطف من قبل ! » • واقترب سائراً بخطى بطيئة ، وحزر أن أحداً لا بد أنه يختبيء وراء هذا المعطف • وأزاح المعطف محاذراً ، فرأى كرسياً ، ورأى العجوز جالسةً على الكرسي ، متكومةً على نفسها ، خافضة رأسها بحيث لم يستطع أن يرى وجهها • لكنها هي العجوز ما في ذلك ريب • لبث واقفاً الى جانبها لحظة • قال لنفسه : « انها خائفة » ثم أخرج الساطور من الابزيم برفق وهدوء ، فهوى به على قمة جمجمة العجوز ، مرةً أولى ، فمرةً ثانية • ولكن الشيء الغريب أن العجوز لم تترنح تحت الضربات. لكأنها من خشب. خاف راسكولنيكوف، ومال على العجوز يتفحصها من كثب • كل ما هنالك أن رأسها قد انخفض مزيداً من الانخفاض • انحنى راسكولنيكوف عندئذ انحناءً كاملاً حتى الأرض ، ونظر اليها من أخمص القدمين الى قمة الرأس • نظر اليها متجمداً من الرعب • كانت العجوز تضحك وهي جالسة على كرسِيِّها ، تضحك ضحكاً كبيراً يهزُّ جسمها كلَّه ، ولكنه ضحك لا يكاد يدرَك ، فهي تخنقه حتى لا يكاد يسمعه راسكولنيكوف • وبدا له فجأة أن باب غرفة النوم يُشق ، وأن وراء الباب أيضاً أناساً يضحكون ويتهامسون • استولى عليه الغضب • فأخذ يضرب العجوز على رأسها بكل ما يملك من قوة ، ولكن الضحك والتهامس الصادرين عن غرفة النوم يزدادان وضوحاً وقوة كلما هوى على رأس العجوز بضربة جديدة • والعجوز نفسها قد أصبح جسمها يهتز الآن كله من شدة الضحك • أراد راسكولنيكوف أن يهرب • ولكن الدهليز كان قد امتلأ بالناس • وكان الباب الذي يفضي الى السلم مفتوحاً على سعته

كلها . وكان السلّم ممتلئاً بالناس كذلك من أسفله الى أعلاه . جمهور كبير . حشد هائل . رءوس ثم رءوس . والجميع ينظرون اليه ، ولكنهم في الوقت نفسه يختبئون ، وينتظرون ، ويصمتون !... انقبض قلبه ، ورفضت ساقاه أن تتحركا ، فكأنهما قد أصبحت لهما جذور في الأرض . أراد أن يصرخ . وأفاق من اغمائه .

استرد أنفاسه في جهد وعناء . ولكن الشيء الغريب أنه تراءى له أنه ما يزال يحلم . كان باب غرفته ما يزال مفتوحاً على سعته كلها . وكان يقف على عتبة الباب رجل لا يعرفه راسكولنيكوف اطلاقاً ، رجلٌ كان يتفرس فيه بالحاح .

ما كاد راسكولنيكوف يفتح عينيه تماماً حتى عاد يغمضهما فوراً . كان مستلقياً على ظهره لا يقوم بأية حركة . قال يسأل نفسه : « أهو الحلم ما يزال مستمراً أم لا ؟ » . وفتح جفنيه قليلاً ونظر : كان الرجل المجهول ما يزال واقفاً في مكانه نفسه يحدّق اليه . ثم ها هو ذا يجتاز العتبة محاذراً ، ويغلق الباب وراءه اغلاقاً محكماً ، ويقترب من المائدة ، وينتظر دقيقة دون أن يحوّل بصره عن راسكولنيكوف ، ثم يجلس على الكرسي قرب الديوان هادئاً صامتاً .

وضع الرجل المجهول قبعته على الأرض الى جانبه ، ثم أُسند يديه الى مقبض عصاه ، وألقى بذقنه على يديه . كان واضحاً أنه يتهيأ لانتظار طويل .

اذا صحّ ما استطاع راسكولنيكوف أن يلاحظه من خلال أجفانه التي كانت أشبه بالمغمضة ، فان هذا الرجل كان قد تجاوز الشباب ، وكان قوي البنية ، عريض المنكبين ، كثيف اللحية ، زاهي الشقرة حتى لتكاد تكون شقرته بياضاً ...

انقضت عشر دقائق • لم يكن الظلام قد هبط بعد ، ولكن المساء يقترب • ان صمتاً كاملاً يسود الغرفة • حتى السلّم لا تصل منه أية ضجة• ليس يُسمع شيء الا دندنة ذبابة ضخمة كانت قد صدمت الزجاج أثناء طيرانها • نفد صبر راسكولنيكوف أخيراً ، فنهض فجأة وجلس على الديوان ، وقال يخاطب الزائر المجهول :

ـ هيه ••• تكلم ••• ماذا تريد ؟

فأجابه الزائر المجهول بلهجة غريبة عجيبة ، وهو يطلق ضحكة هادئة :

ـ كنت أعلم أنك لست نائماً ، وأنك تتظاهر بالنوم تظاهراً • اسمح لي أن أعرّفك بنفسي : آركادي ايفانوفتش سفدريجايلوف •

حواش

الصفحة

٧ ★ « زقاق س ... » : هو زقاق ستوليارني بيريئـــولوك ، أى « زقاق النجارين » ، القريب من « سوق العلف » ، حيث أقام دوستويفسكى من سنة ١٨٦٤ الى سنة ١٨٦٧ .

٧ ★ فى روسيا يسمى الطابق الأرضى من العمارة بالطابق الاول ، ويسمى الطابق الأول بالطابق الثانى ، وهكذا دواليك .

٩ ★ « سوق العلف » ، هو ميدان محاط بحانات وخمارات وفنادق مشبوهة . وقد جاء دوستويفسكى على ذكره فى كتـــابه « فى قبوى » (المجلد السادس من هذه الطبعة العربية) .

١٠ ★ « تسيمرمان » : رجل ألمانى كان يملك محلا لأزياء القبعات .

١٤ ★ « راسكولنيكوف » : اشتق المؤلف اسـم راسـكولنيكوف من الكلمة الروســـية « راسكولنيك » ومعناها الانفصال ، ليشير بذلك الى انفصال بطل الرواية عن آراء المجتمع . وفى الصياغة الاولى لهــذه الرواية ، أى الصياغة التى جعــل دوستويفسكى عنوانها : « يوميات راسكولينكوف » ، أطلق المؤلف على بطله اسم «فاسيا» . ولعله لاحظ بعد ذلك أن اسم « فاسيا » ألطف وأرق من أن يطلق على هذا البطل فجعل اسمه ونسبته الى أبيه: «روديون رومانوفتش» ، وتلك تسمية غريبة توحى الى القارىء الروسى ، فيما يقال ، بمـــا يتصف به طبع راسكولينكوف من قسوة وعنف .

١٦ ★ « آليونا » تشويه شعبى لاسم ايلينا (هيلانة) .

٢٢ ★ « بوديا تشسكايا » : اى شـــارع القسس ، وهو أحد شوارع وسط مدينة سان بطرسبرج ، قرب «سوق العلف» .

الصفحة

٢٥ ★ وظيفة « المستشار » المقصودة هنا هي وظيفة موظف في الدرجة التاسعة ٠

٣٠ ★ « بطاقتها الصفراء » : هي بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالمومسات ٠

٣٠ ★ « كل خبيء مآله الى ظهور » : اشارة الى النص الوارد في انجيل متى (الاصحاح العاشر ، ٢٦) : « ليس مكتوم لن يستعلن ، ولا خفي لن يعرف » ٠

٣٢ ★ « انني أشبه الوحش كل الشبه » : اشارة الى الوحش الذي جاء ذكره في رؤيا يوحنا ٠

٣٣ ★ «رقصة الشال» : كانت ماريا كونستانت ، زوجة دوستويفسكي الاولى ، تتباهى بأنها رقصت رقصة الشال في حفلة تخرج « بمعهد استراخان » ٠

٣٣ ★ « نالت وسلما ذهبيا » : في المدارس الثانوية والمعاهد بروسيا كان نجباء التلاميذ ينالون عند حصولهم على شهادة البكالوريا وساما ذهبيا ٠

٣٧ ★ « ليويس » : ج٠ هـ٠ ليويس ، فيلسوف انجليزي كان أحد المعجبين بالفيلسوف الفرنسي أوجوست كونت ، وقد ألف كتابا بعنوان « فزيولوجية الحياة العامة » ظهر سنة ١٨٦٠ وراج رواجا كبيرا في روسيا ، ولا سيما في الاوساط الراديكالية ٠

٣٧ ★ « صونيا » ، « صونيتشكا » : تصغير اسم صونيا ، تحببا وتدليلا ٠

٣٧ ★ « مستشار الدولة » : موظف من الدرجة الخامسة ٠

٣٨ ★ « جوخ السيدات » : نسيج صوفي خفيف ٠

الصفحة

٤٠ ★ « كابرناؤموف » : نسبة الى مدينة كفر ناحوم التى ورد ذكرها فى الانجيل ٠

٤٤ ★ « زاخارتش » : تخفيف اسم زاخاروفتش ، والشعب يعمد الى هذا التخفيف مستغنيا عن «فتش» ب «تش» ٠ ولسوف نقع فى النص على راسكولنيكوف تارة باسم روديون رومانوفتش وتارة باسم روديون رومانتش ، وكذلك سنقع على بروكوفتش وبروكوفيوفتش اسما لشخص واحد ، وهكذا دواليك ٠

٤٥ ★ « كلص الليل » : يستعمل مارميلادوف هنا التعبير الوارد فى رسالة القديس بولس الاولى الى أهل تسالونيكى (الاصحاح الخامس ، ٢) ٠

٤٦ ★ « جسر مصر » : جسر مزين بزخارف مصرية على قناة فونتانكا ، غير بعيد عن « سوق العلف » ٠

٦٢ ★ « روديا » مصغر اسم روديون ٠

٦٣ ★ « دونيا » ، « دونيتشكا » : تصغير اسم آدفوتيا ، من باب المحبة والتدليل ٠

٦٤ ★ « سفيدريجايلوف » : اشتق المؤلف هذا الاسم من اسم سفيدريجايلو ، وهو دوق كبير من ليتوانيا فى القرن الخامس عشر ، اشارة الى نبالة محتد هذه الشخصية من شخصيات روايته ٠

٦٦ ★ « باخوس » : اله الخمر عند قدماء الاغريق

٧٠ ★ « مستشار قضائى » : هو موظف من الدرجة السادسة ٠

٧٣ ★ كان مجلس الشيوخ يقوم بوظائف محكمة النقض

٧٧ ★ مائة كيلومتر تقريبا ٠

الصفحة

٨٢ ★ « بورقتين صغيرتين » ، أي بورقتين نقديتين قيمة كل منهما روبل واحد .

٨٣ ★ « وسام القديسة حنة » : أرفع الأوسمة الروسية ، وله درجات ثلاث أعلاها الصليب الذي تزدان به العروة ، وهو المشار اليه هنا .

٨٤ ★ ان الحرب التي شنتها بروسيا والنمسا على الدنمارك سنة ١٨٦٤ لامتلاك دوقية شفلفسيج هولشتاين قد أشارت سخط الرأي العام الاوروبي . وقد سبق أن أورد المؤلف ذكرها في قصته « في قبوى » .

٨٤ ★ كانت الصحف الروسية تتحدث كثيرا آنذاك عن سوء معاملة الزنوج في أمريكا بسبب حرب الانفصال (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) ؛ وكان معروفا أن البارونات الألمان في مقاطعات البلطيق يسومون الليتونيين سوء العذاب فيهرب هؤلاء من أراضيهم .

١٠٢ ★ ان نهر نيفا الصغير يضم جزيرة فاسيلفسكي ، ويضم في موقع أبعد من ذلك جزر كريستوفسكي وبتروفسكي وايلاجين ، وغيرها .. التي تغطيها حدائق وتملؤها فيللات .

١٠٥ ★ « ميكولكا » تصغير ميكولا (نيقولا) .

١٥٨ ★ « ميتكا » : تصغير دمتري ، ديمتري .

٢٠٨ ★ « رادتشيف » : كاتب من القرن الثامن عشر ، نشر سنة ١٨٧٠ كتابه الشهير « رحلة من سان بطرسبرج الى موسكو » ، وهو كتاب عاطفي ثوري ، تأثر بالأب رانيال أكثر مما تأثر بجان جاك روسو . وقد صادرت الرقابة الكتاب ، ونفى المؤلف الى سيبريا حيث قضى ست سنين .

الصفحة

٢٠٩ ★ «جسر نيقولا» : هو الجسر الذى يوصل من جزيرة فاسيلفسكى الى المدينة ، قرب « قصر الشتاء » •

٢١٠ ★ هى كاتدرائية سان اسحاق الكبرى ، الواقعة فى وسط المدينة•

٢١١ ★ تقع الجامعة فى أول جزيرة فاسيلفسكى •

٢١٨ ★ « باشنكا » و « باشا » : تصغير اسم باراسكيفا ، براسكوفيا، تحببا وتدليلا ؛ وبراسكوفيا هذه هى صاحبة البيت الذى يسكن فيه راسكولنيكوف •

٢٣٧ ★ كان اللورد بالمرستون قد مات منذ مدة قصيرة سنة ١٨٦٥ ، وقد سمي باسمه معطف ذو شكل خاص ، كما يوجد معطف ذو شكل آخر سمي باسم لورد راجلان •

٢٣٧ ★ الولايات المتحدة الامريكية تعنى هنا السراويل (البنطلون) ، وهــذا قائم على لعب بالتجـانس اللفظى بين كلمة « شتاتى » الروســية ومعناها الدولة أو الولاية ، وبين كلمة « شتانى » ومعناها السروال •

٢٣٩ ★ « شارمر » خياط على الموضة ببطرسبرج « مورد صاحب الجلالة الامبراطورية » •

٢٤٣ ★ «قصر الكريستال» : حانة أطلق عليها دوستويفسكى اسم قصر الكريستال من باب التهكم ، تشبيها لها « بقصر الكريستال » الذى رآه فى لندن وتحدث عنه فى «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف» (راجع المجلد السادس من هذه الطبعة العربية) •

٢٤٤ ★ « مدرسة القــانون الامبراطورية » : هى مدرسة ذات امتيازات أنشئت سنة ١٨٣٥ وتخرج منها قانونيون متنورون مثل البارون آ• فرانجل ، صديق دوستويفسكى • وقــد تخرج من هذه المدرسة المؤلفان الموسيقيان ف• سيروف و ب• تشايكوفسكى؛

الصفحة

كما تخرج بوشكين من مدرسة ثانوية مماثلة هي مدرسة تساركويه سيلو ·

٢٥١ ★ « حى الرمال » (بسكى) : حى وضيع فى الجزء الشرقى من مدينة سان بطرسبرج ·

٢٥١ ★ « أهل كولومنا » : ان كولومنا مدينة صغيرة تقع فى الجنوب الشرقى من موسكو غير بعيد من زارايسك ، فالفلاحون الذين جاءوا يسكنون العاصمة يتجمعون فى أحياء تختلف باختلاف أقاليمهم التى وفدوا منها ·

٢٧٢ ★ المقصود هنا هو الاصلاحات الكبرى التى تمت بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٦٤ ، أى الغاء القنانة ، والاصلاح القضائى والجزائى ، وادخال نظام « الحكم الذاتى » ، الخ ·

٢٧٤ ★ ان لوجين يعرض هنا عرضا عاميا نظرية « الانانية العاقلة » ، تلك النظرية المبسوطة فى كتاب تشيرنيشفسكى : «ما العمل؟»

٢٧٨ ★ «هنا ، طالب سابق يهاجم عربة بريد٠٠» : يشير دوستويفسكى الى هذه الواقعة فى رسالة بعث بها الى كاتكوف فى شهر ايلول (سبتمبر) ١٨٦٥ ·

٢٧٨ ★ « ··· أستاذ من أساتذة التاريخ العام » : نظر القضاء فى هذه القضية وفصل فيها فى شهر أيار (مايو) ١٨٦٥ ·

٢٩٢ ★ لا شك فى أن هذه التأملات التى تمر بذهن رجل محكوم عليه بالاعدام انما احتفظ بها دوستويفسكى من الدقائق التى عاشها قرب المقصلة فى ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٩ ·

٢٩٤ ★ كان رجل اسمه ايتسلر ، ولعله ألماني الأصل ، قد افتتح فى ضواحى بطرسبرج حانة على الطراز الريفى فكان ينشر اعلانات كثيرة عنها فى الجرائد · أما الاعلانات التى يقرأ راسكولينكوف

الصفحة

عناوينها « ماسيمو ـ بارتولا ـ الأزتيكيان » فهي عن رجل أمريكي اسمه موريس كان يعرض في صيف ١٨٦٥ بمدينة سان بطرسبرج « آخر شخصين من آزتيكيي المكسيك » ، أحدهما بنت اسمها بارتولا ، والثاني صبي اسمه ماسيمو . وكان الرجل الأمريكي ينشر اعلانات في الصحف كل يوم عن هذا العرض لاجتذاب المشاهدين .

وأما « حريق في ... وحريق في ... وحريق آخر في ... » ، فهي أنباء حرائق كثيرة شبت بمدينة سان بطرسبرج في ذلك الصيف نفسه من عام ١٨٦٥ ؛ لذلك كتبت جريدة «الصوت» في عددها ١٦٦ تقول : « جميع الصحف ملأى بوصف حرائق خطيرة كثيرا أو قليلا » .

٣٠٦ ★ « ـ أرأيت ؟ أوراق حمراء وأوراق زرقاء ! » : الاوراق المالية الحمراء هي أوراق العشرة روبلات ، أما الزرقاء فهي أوراق الخمسة روبلات .

٣٠٦ ★ « كفى حديثا » : وردت بالفرنسية في الأصل ، وهي الجملة التي قالها فوتران في رواية بالزاك « الأب جوريو » .

٣١١ ★ « جسر س ... » : هو جسر « الصعود » على قناة كاترين .

٣١٦ ★ « بيتر » : اختصار شعبي لاسم مدينة بطرسبرج .

٣٣٠ ★ « بوليا » و « بولينكا » : تصغير اسم آبوليناريا .

٣٣٤ ★ « ليدا » و « ليدوتشكا » : تصغير اسم ليديا .

٣٧٨ ★ كان عازف الكمان روبنشتاين (١٨٢٩ ـ ١٨٩٤) عندئذ في قمة مجده .

٣٩٧ ★ « ان تلك الملكة ... » : يفكر الكاتب هنا في ماري انطوانيت وهي في الهيكل .

الصفحة

٤٢٧ ★ « مقبرة سان متروفان » : مقبرة فقيرة تقع فى جنوب العاصمة، بعد محطات القطار .

٤٦١ ★ الاشارة هنا الى اشتراكية شارل فورييه الخيالية .

٤٦٢ ★ ان ناقوس كنيسة القديس يوحنا الكبير جزء من الكرملين بموسكو ، وهو أعلى ناقوس فى روسيا .

٤٩١ ★ المقصود طبعا هو نابوليون بونابرت الذى قصف طولون بالمدافع فعلا سنة ١٧٩٣ ، ورمى الملكيين بالرصاص بباريز فى شهر تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٧٩٥ ، وترك جيشه بمصر سنة ١٧٩٩ ، ويقال انه بعد فقده « الجيش الكبير » قال فى فلنا سنة ١٨١٢ : « ليس بين الرائع والمضحك الا خطوة واحدة . فلتفصل الاجيال القادمة فى هذا » .

٤٩٢ ★ تعبير للاشتراكى فكتور كونسيدران نجده فى كتابه الذى عنوانه « قدر الاشتراكية » (١٨٣٨) .

٤٩٣ ★ اشارة الى بيت من الشعر فيقصيدة بوشكين «محاكاة القرآن».

فهرس

الصفحة

الجزء الثالث

الأعمال الأدبية الكاملة

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التى يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكى إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكى كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسى التى أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، فى كل نفس..."

الكسندر ف سولوفييف